



المركز القومى للترجمة

بول أوستر

قصر القمر

ترجمة

عبد المقصود عبد الكريم

2340

سلسلة الإبداع القصصي

قصــر القمـر

(روايـة)

تـأليـف : بـول أوســـــتـــــر

ترجـمـة : عبد المقصود عبد الكريم



2015

قصر القمر

(روايـــة)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2340
- قصر القمر
- بول أوستر
- عبد المقصود عبد الكريم
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:
MOON PALACE
By: Paul Auster

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أوستر ، بول ، ١٩٧٤
.
قصر القمر / تأليف : بول أوستر ؛ ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم
القاهرة : المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٥
٣٠٨ ص ؛ ٢٤ سم
١ - القصص الأمريكية ٨٢٣
(أ)عبد الكريم ، عبد المقصود ، ١٩٥٦
(ب) العنوان

رقم الإيداع ٢٢٥٤٣ / ٢٠١٤
الترقيم الدولي 978-977-718-967-5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

قصر القمر

كنت صغيرا جدا، فى الصيف الذي سار فيه الرجال أول مرة على القمر. ولم أكن أؤمن بالمستقبل. كنت أريد أن أخاطر بحياتى، وأندفع إلى أقصى ما أستطيع، وأرى ما يحدث لي. وكما تبين، لم أفعل ذلك تقريبا. خطوةً خطوة، رأيت نقودى تنفد تماما؛ فقدْتُ شقتى. انتهى بى الأمر إلى العيش في الشوارع. وربما مت جوعًا لولا فتاة اسمها "كيتى وو". قابلْتُها صدفةً قبل ذلك بوقت قصير، لكننى في النهاية رأيت هذه الصدفة شكلا من الاستعداد، طريقة للحفاظ على نفسى من خلال عقول الآخرين. هذا هو الجزء الأول. ومنذ ذلك الوقت، حدثت لى أشياء غريبة. عملْتُ عند رجل عجوز على مقعد متحرك. اكتشفت حقيقة أبى. سرْتُ عبر الصحراء من يوتا[1] حتى كاليفورنيا. كان ذلك منذ زمن بعيد بالطبع، لكننى أتذكر تلك الأيام جيدا، أتذكر بداية حياتى.

أتيْتُ إلى نيويورك فى خريف ١٩٦٥، وأنا فى الثامنة عشرة، وعشْتُ الشهور التسعة الأولى فى المدينة الجامعية. كان على كل الغرباء الجدد فى كولومبيا أن يسكنوا في مبانى الجامعة، لكن بمجرد انتهاء الفصل الدراسى، انتقلْتُ إلى شقة فى الشارع ١١٢ غربا، حيث عشْتُ السنوات الثلاث التالية، حتى اللحظة التى وصلْتُ فيها إلى الحضيض فى النهاية. ونظرا للغرائب التى واجهتنى، كان بقائى على قيد الحياة معجزة.

عشْتُ فى الشقة مع أكثر من ألف كتاب. كانت فى الأصل كتب خالى فكتور، وقد جمعها ببطء فى أكثر من ثلاثين سنة. قبل أن ألتحق بالكلية مباشرة، عرضها علىّ بإلحاح هدية السفر. رفضت بشدة، لكن الخال فكتور كان رجلا عاطفيًا وكريمًا، ولم يسمح لى بأن أخذله. قال: "ليس معى نقود أعطيها لك، ولا كلمة أنصحك بها. خذ الكتب لتسعدنى". أخذْتُ الكتب، لكننى لم أفتح أى كرتونة من الكراتين التى تضمها لعام ونصف. خططت لإقناع خالى باسترداد الكتب، وكنت لا أريد أن يحدث لها شىء.

١- يوتا Utah: ولاية فى غرب أمريكا (كل الهوامش للمترجم).

وتبين أن الصناديق مفيدة تماماً لى فى تلك الحالة. كانت الشقة فى الشارع ١١٢ غير مؤثثة، وبدلا من أن أبدد نقودى على أشياء لا أريدها ولا أتحمل سعرها، حولت الصناديق إلى قطع من "الأثاث الخيالى". يشبه الأمر إلى حد ما حل لغز: أجمع الكراتين فى وحدات متنوعة، وأرصها فى صفوف، أكدسها فوق بعضها، أرتبها وأعيد ترتيبها حتى بدت فى النهاية مثل الأثاث المنزلى. كانت مجموعة من ست عشرة كرتونة دعامة لمرتبتى، ومجموعة أخرى من اثنتى عشرة كرتونة طاولة، ومجموعات أخرى من سبع كراتين مقاعد، وأخرى من كرتونتين صارت طاولة بجوار السرير، وهلم جرا. وكان التأثير العام أحادى اللون، ساد اللون البنى الداكن، لكن لم يكن لى إلا أن أزهو بسعة حيلتى. رأى أصدقائى الأمر غريباً بعض الشىء، لكنهم اعتادوا توقع صدور بعض الأفعال الغريبة عنى. قد أقول لهم مفسرا، فكروا فى الرضا وأنتم تقبعون فى السرير وتعرفون أنكم تحلمون على قمة الأدب الأمريكى فى القرن التاسع عشر. تخيلوا لذة الجلوس لتناول وجبة وعصر النهضة كله تحت طعامك. لم تكن لدى فكرة عن طبيعة الكتب الموجودة فى كل كرتونة، لكن كنت بارعًا فى اختلاق القصص فى ذلك الوقت، وكنت أحب صوت تلك الجملة، حتى لو كانت زائفة.

بقى أثاثى الخيالى سليما سنةً تقريباً. وفى ربيع ١٩٦٧ مات الخال فكتور. وجاء موته صفعة رهيبة لى؛ أسوأ صفعة تلقيتها على الإطلاق. لم يكن الخال فكتور أكثر شخص أحببْتُه فى العالم فقط، لكنه كان قريبى الوحيد، رابطتى بشىء أكبر من نفسى. من دونه شعرْتُ بالحرمان، لدغنى القدر بكل معنى الكلمة. وربما كان من الأسهل أن أتعامل مع موته بطريقة ما لو كنت مستعدا له. لكن كيف يستعد المرء لموت رجل فى الثانية والخمسين يتمتع بصحة جيدة دائماً؟ مات خالى ببساطة فى عصر يوم معتدل فى منتصف أبريل، وهنا بدأت حياتى تتغير، بدأتُ أتلاشى فى عالم آخر.

ليس هناك كثير يمكن أن أقوله عن أسرتى. كانت صغيرة العدد، ولم يمكث معظمهم طويلا. عشْتُ مع أمى حتى الحادية عشرة، وماتت فى حادث مرورى، صدمتها حافلة فقد سائقها السيطرة عليها فى جليد بوسطن. لم يكن فى الصورة أب قط؛ لم

يكن هناك سوانا نحن الاثنين، أمي وأنا. كانت حقيقة أنها تستخدم اسم عائلتها برهانًا على أنها لم تتزوج قط، لكنني لم أعرف أنني طفل غير شرعي إلا بعد موتها. وأنا صبي صغير، لم يحدث أن طرحْتُ أسئلة عن مثل تلك الأمور. كنت "ماركو فُجّ"، وأمي "إميلي فُجّ"، وخالي في شيكاغو "فكتور فُجّ". "فُجّ" لقبنا جميعًا، ومن الطبيعي أن يحمل الناس من العائلة نفسها الاسم نفسه. فيما بعد، أخبرني الخال فكتور أن اسم أبيه "فُجِلْمان" في الأصل، لكن شخصا ما في مكتب الهجرة في جزيرة إليس اختصره ليصبح "فُجْ"، بجيم غير مشددة، وهكذا بدا اسم عائلة أمريكية حتى أضيف له التشديد في ١٩٠٧ "فُجِلْ" طائر، كما أخبرني خالي، وأعجبتني فكرة أن يكون هذا الكائن جزءا لا يتجزأ مني. تخيلْتُ أن أحد أسلافي الشجعان كان قادرا على الطيران ذات يوم، طائرًا يطير عبر الضباب،[١] كما فكرْتُ، طائرًا هائلا حلق عبر المحيط، ولم يتوقف حتى وصل إلى أمريكا.

ليس لدى صورة لأمي، ومن الصعب أن أتذكر شكلها. حين أتخيلها في ذهني، أرى امرأة قصيرة بشعر داكن، ورسغين نحيلين كرسغي طفل وأصابع بيضاء رقيقة، وفجأة، كما يحدث غالبا، أتذكر كم كان رائعا أن أشعر بتلك الأصابع تلمسني. أراها دائمًا شابة جميلة، وربما يكون هذا صحيحا، فقد ماتت ولم تتجاوز التاسعة والعشرين. عشنا في عدة شقق صغيرة في بوسطن وكمبريدج، وأعتقد أنها كانت تعمل في شركة للكتب المدرسية، لكنني كنت أصغر من أن أدرك طبيعة عملها هناك. ما يتجلى لي أكثر وضوحا المرات التي ذهبنا فيها إلى السينما معا (أفلام الغرب لراندولف سكوت،[٢] و"حرب العوالم"، و"بينوكيو")، وكيف كنا نجلس في ظلمة المسرح، شاقين طريقنا عبر صندوق الفشار والأيدي المتشابكة. كانت قادرة على حكي نكت بطريقة تجعلني أدخل في نوبات قهقهة شديدة، لكن ذلك لم يحدث إلا نادرا، حين تكون الأمور على ما يرام.

---

(١) الضباب Fog : يلعب الكاتب هذا على اسم "فج".

(٢) راندولف سكوت Randolph Scorr (١٨٩٩٨ - ١٩٨٧) : مثل أمريكي.

كانت حالمة غالبا، تعبس عبوسا بسيطا، لكننى شعرت فى بعض الأحيان بحزن حقيقى ينبثق منها، وكانت تقاومه بفوضى داخلية هائلة. وحين كبرت، كانت تتركنى في البيت مع جليسة أطفال وقتا أطول، لكننى لم أفهم ما تعنيه أسفارها الغامضة إلا فيما بعد، بعد موتها بوقت طويل. وكان كل ما يتعلق بأبى مجهولا قبل موتها وبعده. وهو موضوع رفضت أمى مناقشته معى، وكلما طرحْتُ السؤال لم تتزحزح، كانت تقول: "مات منذ وقت طويل، قبل ولادتك". لم يكن فى أى مكان فى المنزل دليل عليه. لا صورة، ولا اسم. رغبة فى التعلق بشىء ما، تخيلته نسخة بشعر داكن من "باك روجرز"[(١)]، رجل الفضاء الذى عبر إلى البعد الرابع ولم يعد.

دفنت أمى بجوار والديها فى مقبرة "ويستلون"، وذهبْتُ للإقامة مع خالى فى شمال شيكاغو. نسيت الآن الكثير مما [illegible] بهذه الفترة المبكرة، لكننى على ما يبدو همْتُ كثيرا، وكنت أشهق وأنتحب كثيرا [illegible] م فى الليل مثل بطل يتيم حزين فى رواية من القرن التاسع عشر. فى وقت ما، اندفعتْ إلينا فى الشارع امرأة حمقاء من معارف فكتور وبدأت الصراخ حين قدَّمها إلىَّ، وهى تمس عينيها بمنديل وتتحدث منتحبة قائلة لابد أننى الطفل المحبوب لإيمى المسكينة. لم أسمع هذا التعبير من قبل، لكننى أستطيع القول إنه يلمح إلى أشياء شنيعة وتعيسة. حين طلبت من الخال فكتور أن يفسر لى الأمر، ابتكر إجابة أتذكرها دائما. قال: "كل الأطفال أطفال محبوبون، لكن أفضل الأطفال هم الذين يكتسبون هذه الصفة".

كان الأخ الأكبر لأمى أعزب نحيفًا، معقوف الأنف، فى الثالثة والأربعين، عازف كلارينت. مثل كل أفراد عائلة فُجّ، كان ولعًا بالحيرة وأحلام اليقظة، بالصواعق المفاجئة والسبات الطويل. بعد بداية واعدة عضوا فى أوركسترا كليفلاند، تغلبت هذه السمات فى النهاية على أفضل ما فيه. كان يطيل النوم فى البروفات، ويظهر أثناء العزف دون

---

(١) باك روجرز Buck Rogers شخصية ظهرت فى رواية من روايات الخيال العلمى سنة ١٩٢٨ .

ربطة العنق، وذات مرة كان وقحًا حتى إنه يحكى نكتة بذيئة على مسمع من قائد الفرقة البلغارية. بعد إقالته، أخذ يتنقل مع عدد من الأوركسترات الأصغر، كل واحدة منها أسوأ مما قبلها، وحين عاد إلى شيكاغو فى ١٩٥٣، كان قد ألف ضآلة وضعه المهنى. وحين انتقلْتُ للإقامة معه فى فبراير ١٩٥٨ كان يعطى دروسا للطلاب المبتدئين فى الكلارينت ويعزف لفرقة "مونلايت مودز لهواى دان"، فرقة صغيرة تدور عادة فى الأفراح وحفلات التعميد والتخرج. كان فكتور يعرف أنه فقد الطموح، ويعرف أيضًا أن فى العالم أشياء أخرى بجانب الموسيقى. أشياء كثيرة جدا فى الحقيقة، تغمره غالبا. ولأنه كان من النوع الذى يحلم دائما بفعل شىء آخر وهو مشغول، لم يكن يستطيع الجلوس لعمل شىء دون التوقف لحل مشكلة تتعلق بالشطرنج فى رأسه، ولا يستطيع لعب الشطرنج دون التفكير فى الفشل فى نوادى شيكاغو، ولا يستطيع الذهاب إلى إستاد البيسبول دون التفكير فى بعض الشخصيات الثانوية فى أعمال شكسبير، وحين يعود فى النهاية إلى البيت، لا يستطيع الجلوس مع كتابه أكثر من عشرين دقيقة دون أن يشعر برغبة شديدة فى العزف على الكلارينت. أينما كان، وأينما ذهب، كان يترك خلفه أثرا مشوشا لنقلات سيئة فى الشطرنج، وجداول غير مكتملة لنتائج البيسبول، وكتب قرأ نصفها.

ومع ذلك، لم يكن من الصعب أن تحب الخال فكتور. كان الطعام أسوأ من طعام أمى، والشقة التى نقيم فيها أردأ وأضيق، لكنها أمور تافهة على المدى البعيد. لم يكن فكتور يتظاهر بغير حقيقته. كان يعلم أن الأبوة تتخطى قدراته ومن ثم عاملنى كصديق وليس كطفل، تدليل وصداقة أكثر وقارا. كان نظاما يناسبنا. فى شهر من وصولى، أنشأنا معا لعبة ابتكار البلاد، وعوالم خيالية تقلب قوانين الطبيعة. استغرق أفضلها أسابيع ليكتمل، وعُلِّقت الخرائط التى رسمْتُها لها فى مكان شرفى فوق طاولة المطبخ. "أرض الضوء المتفرق"، على سبيل المثال، و"مملكة الرجال العور". نظرا للصعوبات التى تسبب فيها العالم الحقيقى لكلينا، ربما كان هناك معنى لرغبتنا فى مغادرته بقدر المستطاع.

بعد وقت قصير من وصولى إلى شيكاغو، أخذنى الخال فكتور لمشاهدة فيلم "حول العالم فى ثمانين يومًا". اسم بطل تلك القصة "فُجّ"، بالطبع، ومنذ ذلك اليوم دللنى الخال فكتور باسم "فيليس"[١]- فى إشارة سرية، بتعبيره، إلى تلك اللحظة الغريبة التى "واجهنا فيها أنفسنا على الشاشة". كان الخال فكتور يحب تلفيق نظريات مفصلة لا معنى لها عن الأشياء، ولم يتعب قط من شرح الأمجاد الكامنة فى اسمى، "ماركو ستانلى فُجّ". طبقا له، ثبت أن تلك الرحلة كانت فى دمى، أن تلك الحياة ستأخذنى إلى أمكنة لم يسبقنى إليها إنسان. كان ماركو، كافٍ بالطبع، تيمنا بماركو بولو، أول أوروبى يزور الصين؛ وستانلى، تيمنا بالصحفى الأمريكى الذى تتبع دكتور ليفنجستون "فى قلب أفريقيا السوداء"؛ وفُجّ تيمنا بفيليس، الرجل الذى طاف حول الكرة الأرضية فى أقل من ثلاثة أشهر. لم يكن مهمًا أن أمى اختارت ماركو ببساطة لأنها أحبت الاسم، أو أن ستانلى كان اسم جدى، أو أن فُجّ كان اسما خطأ، نزوة موظف أمريكى نصف متعلم. كان الخال فكتور يجد معانى حيث لا يجدها أحد، ويحولها، برشاقة شديدة، إلى شكل من الدعم السرى. وكنت أستمتع حقا حين يصب كل هذا الاهتمام علىّ، ورغم أننى أعرف أن كلامه ليس إلا تبجحًا شديداً بلا معنى، كان هناك جزء منى يصدق كل كلمة يقولها. على المدى القصير، ساعدتنى "اسمية"[٢] فكتور على احتمال الأسابيع الأولى الصعبة فى مدرستى الجديدة. الأسماء أسهل ما يمكن أن تهاجمه، وسلم "فُجّ" نفسه إلى مجموعة من التشويه العفوى: على سبيل المثال فَجْ وفرُجْ،[٣] على سبيل المثال، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الإشارات المتعلقة بالأرصاد: رأس كرة الثلج، رجل شبه ذائب، رذاذ الفم. بمجرد استنفاد اسم العائلة، حولوا انتباههم إلى اسمى الأول. الواو فى نهاية ماركو واضحة جدا، وتقدم ألقابًا مثل دامبو، وجيركو،

١- فيليس فج Phileas Fogg : اسم الشخصية الرئيسية فى "حول العالم فى ٨٠ يوما"

٢- اسمية nominalism مذهب فلسفى يؤمن بأن المفاهيم المجردة أو المصطلحات العامة أو المسلمات ليس لها مرجعية موضوعية وأنها لا توجد إلا فى الاسماء.

٣- فَجْ: كادح Fag؛ فرُج: ضفدعة Frog.

ومامبو جامبو، لكن ما فعلوه بطرق أخرى تحدى كل التوقعات. ماركو صار ماركو بولو؛ وماركو بولو صار ماركو شيرت؛ وماركو شيرت صار شيرت فيس؛ وشيرت فيس صار شيت فيس(١)- وحشية فظة صعقتنى حين سمعْتُها أول مرة. فى النهاية، تعايشت مع بدايتى فى المدرسة، لكنها تركتنى بشعور بالهشاشة المطلقة لاسمى. ارتبط هذا الاسم بإحساسى بحقيقتى حتى وددت أن أحميه من مزيد من الأذى. وأنا فى الخامسة عشرة، بدأْتُ أوقع كل أوراقى م. س. فُجّ، متظاهرا بترديد أصداء آلهة الأدب الحديث، لكن فى الوقت ذاته مبتهجًا بحقيقة أن هذين الحرفين الأولين اختصار كلمة "مخطوطة"(٢) برهن الخال فكتور بإخلاص على تقلبه. قال: "كل إنسان مؤلف لحياته. الكتاب الذى تكتبه لم ينتهِ بعد. ومن ثم فهو مخطوطة. هل هناك شىء ملائم أكثر من هذا؟" خطوة خطوة، شحب ماركو من التداول العام. كنت فيليس بالنسبة لخالى، وحين التحقْتُ بالكلية، كنت م. س. بالنسبة للآخرين جميعًا. وقد أشار بعض الظرفاء إلى أن هذين الحرفين اختصار لمرض(٣) أيضًا، لكننى فى ذلك الوقت رحبت بأى تداعيات أو تهكمات أخرى يمكن أن ألصقها بنفسى. حين التقيت "كيتى وو"، نادتنى بعدة أسماء أخرى، لكنها كانت ممتلكات شخصية لها، إذا جاز التعبير، وكنت سعيدا بها أيضًا: فوجى، على سبيل المثال، وكان لا يستخدم إلا فى مناسبات خاصة، وسيرانو، واخترع لأسباب تتضح فيما بعد. إننى على يقين من أنه لو عاش الخال فكتور حتى يقابلها لقدر حقيقة أن ماركو، بطريقته الصغيرة الخاصة، وضع على الأقل قدمًا فى الصين.

لم تسر دروس الكلارينت بشكل جيد (نفسى لا يتقبلها، وشفتاى نفد صبرهما)، وبسرعة تملصْتُ منها. وثبت أن البيسبول أكثر سيطرة، وحين بلغت الحادية عشرة كنت واحداً من الصبية الأمريكيين النحيفين الذين يذهبون إلى أى مكان بالقفاز، دافعًا

---

(١) شيت فيس Shit Face: أى وجه خراء.

(٢) مخطوطة manuscripr.

(٣) المرض المشار إليه هو التصلب المتناثر Mulriple Sclerosis

قبضتي اليمنى في جيبي ألف مرة في اليوم. وساعدني البيسبول دون شك في التغلب على بعض العقبات في المدرسة، وحين انضممْتُ إلى اتحاد محلي للصغار في ذلك الربيع الأول، حضر الخال فكتور كل المباريات تقريبا ليشجعني. لكننا انتقلنا، فجأة، في يوليو ١٩٥٨ إلى سانت بول في ولاية مينيسوتا (قال فكتور: "فرصة نادرة"، مشيرا إلى وظيفة عرضت عليه لتعليم الموسيقى)، لكن بحلول العام التالي عدنا إلى شيكاغو. في أكتوبر، اشترى فكتور جهاز تليفزيون وسمح لي بالبقاء في البيت وعدم الذهاب للمدرسة لمشاهدة خسارة نادي "وايت سوكس" بطول العالم في ست مباريات. كانت تلك سنة إيرلي واين[١] وجو جو سكوكس[٢] وسنة والي مون[٣] وأهدافه الرائعة. كنا نشجع شيكاغو، بالطبع، لكننا سعدنا حين مد الرجل كث الحاجبين شخصا بكل ما يحتاج إليه في المباراة الأخيرة. مع بداية الموسم التالي، عدنا لدعم فريق الكابز[٤]- كابز المتعثر، الفاشل، الفريق الذي استحوذ على نفوسنا. كان فكتور مدافعا قويا عن لعب البيسبول نهاراً، وكان يرى أنها جيدة روحيا حتى إن ملك اللبان[٥] لم يستسلم لإساءة استعمال الأنوار الاصطناعية. كان يقول: "حين أذهب إلى مباراة لا أريد نجوما إلا نجوم الملعب. إنها رياضة شروق الشمس وعرق الصوف. عربة أبوللو تحوم في القمة! الكرة العظيمة تحترق في سماء أمريكا!" كانت لنا مناقشات طويلة في تلك الأيام حول رجال مثل إرني بانكز وجورج ألتمان وجلن هوبي[٦] كان يفضل هوبي بشكل

---

(١) إيرلي واين Early Wynn (١٩٢٠ - ١٩٩٩): لاعب بيسبول سابق، اشتهر باسم "جوس Gus».

(٢) جو جو سكوكس The go - go Sox: أغنية لنادي وايت سوكس شيكاغو في الاتحاد الأمريكي.

(٣) والي مون Wally Moon (١٩٣٠-): لاعب بيسبول أمريكي سابق.

(٤) كابز Cubs: فريق بيسبول للمحترفين في مدينة شيكاغو، ولاية إلينوس.

(٥) الإشارة إلى فيليب ريجلي Philip Wrigley (١٨٩٤-١٩٧٧) صاحب نادي كابز.

(٦) إرني بانكز Banks (١٩٣١-) جورج ألتمان Altman (١٩٣٣-)؛ جلن هوبي Hobbie (١٩٣٦-): لاعبو بيسبول سابقون.

خاص، لكن بما ينسجم مع رؤيته للعالم، أعلن خالى أنه لم يفضله قط راميا للكرة، حيث إن اسمه يتضمن عدم الاحتراف. كانت الملاحظات المجنونة من هذا النوع ضرورية لروح الدعابة عند فكتور. ولأننى كنت مغرما بنكته حقا حينذاك، فهمت السبب فى أنه كان يطلقها وهو يوارى مشاعره الحقيقية.

بعد بلوغى الرابعة عشرة بقليل، زاد عدد سكان البيت إلى ثلاثة. كانت "دورا شامسكى"، واسمها الأصلى "كاتز"، أرملة بدينة فى منتصف الأربعينيات متهورة، بشعر أشقر يميل للبياض وردف مشدود بإحكام. منذ موت مستر شامسكى قبل ذلك بست سنوات، وهى تعمل سكرتيرة فى قسم التأمين فى شركة "ميد أميركان لايف". وقد جرى لقاؤها بالخال فكتور فى صالة للرقص، فى فندق فيزرستون، حين كانت فرقة "مونلايت مودز" مستعدة لتقديم الموسيقى فى الاحتفال السنوى للشركة برأس السنة. بعد تودد شديد، تزوج الاثنان فى مارس. ولم أر خطأ فى هذا، وكان رجلا رائعا فى العرس. لكن بمجرد بداية استقرار الأمور، آلمنى أن ألحظ أن خالتى الجديدة لم تكن تضحك بسهولة على نكات فكتور، وتساءلت إن كان ذلك قد يدل على بلادة حس من جانبها، افتقار إلى المرونة الذهنية التى بدا أنها ستكون ذات آثار سلبية على مستقبل الزواج. عرفتُ بسرعة أن هناك صورتين لدورا. كانت الأولى نشطة وحماسية تماما، شخصية خشنة تتسم بالرجولة تعصف فى المنزل بكفاءة تشبه كفاءة رقيب، حصن من المرح الطيب سريع الزوال، ملمة بكل شىء، رائعة. وكانت دورا الثانية سكيرة عابثة، باكية، شهوانية حزينة تترنح فى روب حمام قرنفلى وتتقيأ ما فى جوفها على أرضية غرفة المعيشة. من الاثنتين، كنت أفضل الثانية كثيرا، حتى لو كان ذلك بسبب العطف الذى يبدو أنها تظهره لى حينذاك. لكن دورا بكئوسها تمثل معضلة تجعلنى فى حيرة تماما لحلها، لأن انهياراتها تجعل فكتور كئيبا وتعيسًا، وكان أكثر ما أكره فى الدنيا أن أرى خالى يعانى. كان فكتور يستطيع التعامل مع دورا المشاكسة غير الثملة، لكن سكرها كان يجعله فى شدة ويستنفد صبره مما يصدمنى لأنه غير طبيعى، انحراف عن ذاته الحقيقية. ومن ثم كان الخير والشر باستمرار فى حرب معا. حين تكون فى

حالة جيدة يكون فكتور فى حالة سيئة؛ وحين تكون دورا فى حالة سيئة يكون فكتور فى حالة طيبة. مع دورا الجيدة يظهر فكتور السيئ، ولا يعود فكتور الجيد إلا حين تكون دورا سيئة. بقيْتُ سجين هذه الآلة الجهنمية لأكثر من سنة.

لحسن الحظ، قامت شركة الحافلات فى بوسطن بتسوية كريمة. بحسابات فكتور، ستكون هناك نقود تكفى لدفع مصروفات الكلية أربع سنوات، ومصاريف حياة متواضعة، وأشياء إضافية أعيش بها حياة حقيقية. فى السنوات القليلة الأولى لم يمد يده إلى هذه النقود. كان يطعمنى من جيبه وكان سعيدا بذلك، مزهوا بمسئوليته ولا يظهر أى ميل للتذمر من مسئوليته أو من أى جزء منها. لكن بظهور "دورا" فى المشهد، غير فكتور خطته. سحب الفوائد التى تراكمت على المبلغ، مع بعض المبالغ الإضافية، وألحقنى بمدرسة داخلية خاصة فى نيو همبشاير(١) معتقدا بهذه الطريقة أنه يعكس تأثيرات خطأ حساباته. لأنه إذا تبين أن "دورا" لن تكون أمًا فإنه يأمل فى أن يكون قد دعمنى، ولم ير سببًا لعدم البحث عن حل آخر. كان الأمر سيئا جدا بالنسبة للمبلغ الإضافى، بالطبع، لكن لم يكن من الممكن تفادى ذلك. حين واجه فكتور الاختيار بين الآن والمستقبل، كان يختار الآن دائما، ونظرا لأن حياته كلها كانت مرتبطة بمنطق هذا الدافع، كان من الطبيعى فقط أن يفضل الآن مرة أخرى.

قضيْتُ ثلاث سنوات فى "أكاديمية أنسلم" للفتيان. حين عدْتُ إلى البيت بعد السنة الثانية،كان فكتور ودورا قد تفرقت بهما السبل بالفعل، لكن لم يبد أى مؤشر على تبديل المدرسة مرة أخرى، وهكذا عدْتُ إلى نيو همبشاير مع انتهاء إجازة الصيف. اختلط تماما حساب فكتور بشأن الطلاق، ولم أتأكد قط مما حدث حقا. كان هناك حديث عن حسابات بنكية مفقودة وأطباق مكسورة، وذُكِر رجلٌ اسمه جورج، وتساءلْتُ عما إذا كان متورطا فى الأمر أيضًا. لكننى لم أضغط على خالى لمعرفة التفاصيل، لأنه حين انتهى الأمر، بدا ارتياحه بكونه وحيدا مرة أخرى أكثر من صدمته. تحمل فكتور معارك

---

١ – نيو همبشاير (New Hampshire) ولاية فى شمال شرق الولايات المتحدة.

الزواج، لكن هذا لا يعنى أنه كان خاليا من الجروح. كان مظهره رثًا بشكل مزعج (أزرار مفقودة، ياقات متسخة، ثنيتا بنطلونه متهرئتان)، وحتى نكاته بدأت تأخذ سمة حزينة، لاذعة غالبًا. كانت هذه العلامات سيئة جدا، لكن ما أزعجنى أكثر الزلات الجسدية. كانت يتعثر أحيانًا وهو يمشى (التواء غامض فى الركبتين)، ويصطدم بالأثاث، ويبدو أنه نسى موضعه. أعرف أن الحياة مع دورا سببت خسائر فادحة، لكن لابد أن هناك ما هو أكثر. أقنعت نفسى، لعدم رغبتى فى زيادة انزعاجى، بأن مشاكله لا تؤثر على جسمه بقدر ما تؤثر على حالته الذهنية. ربما كنت محقا، لكن بالنظر إلى ذلك الآن، من الصعب أن أتخيل أن الأعراض التى رأيْتُها أول مرة فى ذلك الصيف لا ترتبط بالنوبة القلبية التى تسببت فى موته بعد ثلاث سنوات. لم يقل فكتور نفسُه شيئا، لكن جسده كان يتحدث إلىّ بالشفرة، ولم يكن لدىّ وسيلة كافية أو قدرة على استيعابه.

حين عدْتُ إلى شيكاغو فى إجازة الكريسماس، بدا أن الأزمة انتهت. استعاد فكتور قدرًا كبيرًا من نشاطه، ووقعت أحداث عظيمة فجأة. فى سبتمبر، حل هو و"هواى دن" فرقة "مونلايت مودز" وشكلا مجموعة جديدة، وضمًّا ثلاثة موسيقيين أصغر تولوا مهمة الطبول والبيانو والساكسفون. وصار اسم الفرقة "رجال القمر"، وكانت معظم أغانيهم أصلية. كان فكتور يكتب الأغانى، و"هواى" يؤلف الموسيقى، ويغنى الخمسة جميعا، بعد الإعداد. أعلن فكتور عند وصولى: "لم تعد هناك مختارات قديمة. لم تعد هناك ألحان راقصة. لم تعد هناك أفراح للسكارى. تخلينا عن الأعمال المملة من أجل عمل كبير". لاشك فى أنهم ألَّفوا عملا أصيلا، وحين ذهبْتُ لأراهم يؤدون فى الليلة التالية، أذهلتنى الأغانى ومستوى الإلهام- كانت مفعمة بحس الدعابة والروح، شكل عاصف من التشويه الذى يسخر من كل شىء من السياسة إلى الحب. كان لكلمات فكتور بالنسبة لهم نكهة طروب تشبه القصيدة الغنائية، لكن النبرة الأساسية كان تأثيرها سويفتيًا[١] غالبا. سبايك جونز[٢] يقابل شوبنهور، إذا كان ذلك ممكنا. تعاقد

---

(١) سويفتى Swiftian: نسبة إلى الكاتب الأيرلندى الإنجليزى جوناتان سويفت Jonathan Swift (١٦٦٧-١٧٤٥).

(٢) سبايك جونز Spike Jones (1911- 1969) : موسيقار أمريكى.

"هواى" لفرقة "رجال القمر" مع أحد النوادى وسط شيكاغو، وانتهى بهم المطاف إلى الأداء هناك كل نهاية أسبوع من "عيد الشكر" إلى "عيد الحب". وحين عدْتُ إلى شيكاغو بعد التخرج فى المدرسة الثانوية، كانت هناك جولة قيد الإعداد وكان هناك بعض الكلام عن تسجيل مع شركة فى لوس أنجلوس. هكذا دخلت كتب الخال فكتور القصة. كان يسير على الطريق فى منتصف سبتمبر، ولا يعرف متى يعود.

فى وقت متأخر من الليل، قبل أقل من أسبوع من الموعد الذى كان يفترض أن أرحل فيه إلى نيويورك. كان فكتور يجلس فى مقعده بالقرب من النافذة، يتصفح مجموعة من قصائد رالى ويشرب سشنابز من كأس من محل رخيص. كنت ممددا على الأريكة، محلِّقًا فى سعادة فى سبات البوربون والدخان[1] لم نتحدث عن شىء معين لثلاث ساعات أو أربع، ثم توقفت المحادثة وغرق كل منا فى صمت أفكاره. سحب الخال فكتور آخر نفَس فى سيجارته، محدقا والدخان يحوم حول وجنته، ثم أطفأ عقب السيجارة فى طفايته المفضلة، تذكار من معرض عالمى سنة ١٩٣٩، متفحصًا إياى بعاطفة غامضة، أخذ رشفة أخرى من كأسه، ولعق شفتيه، وتنهد بعمق، وقال: "الآن نأتى إلى الجزء الصعب، النهايات، الوداع، الكلمات الأخيرة المشهورة. أظن أنهم يسمونها فى أفلام الغرب مغادرة المكان الذى تعيش فيه. إذا لم أكلمك كثيراً يا فيليس، تذكرْ أنك فى فكرى. أتمنى أن أقول إننى أعرف أين سأكون، لكن العوالم الجديدة تومئ إلينا نحن الاثنين فجأة، وأشك فى أن تسنح فرص كثيرة لكتابة رسائل". توقف الخال فكتور ليشعل سيجارة أخرى، ورأيْتُ يده ترتجف وهو يمسك بالكبريت. واصل الحديث: "لا أحد يعلم كم يستمر الأمر، لكن "هواى" متفاءل جدا. الحجوزات على نطاق واسع حتى الآن، ولاشك فى أنه ستتبعها حجوزات أخرى. كولورادو، أريزونا، نيفادا،

(١) رالى Raleigh: أظن أن الإشارة هنا إلى سير والتر رالى (١٥٥٢-١٦١٨): كاتب وشاعر إنجليزى. سشنابز schnapps: نوع من الخمور الهولندية الثقيلة. البوربون bourbon: نوع من الويسكى.

كاليفورنيا. سوف نسلك مسارا غريبا، مندفعين إلى البرية. أعتقد أن ذلك ينبغى أن يكون ممتعًا، بصرف النظر عما ينجم عنه. مجموعة من سكان المدن فى أرض رعاة البقر والهنود. لكننى أستمتع بفكرة عزف الموسيقى فى تلك المساحات المفتوحة، تحت سماء الصحراء. من يعرف أن حقيقة جديدة لن تتكشف لى هناك؟"

ضحك الخال فكتور، وكأنه يقطع خطورة هذا التفكير. بدأ مرة أخرى: "المسألة أنه مع هذه المسافة الهائلة جدا التى علىَّ أن أقطعها، لابد أن أسافر خفيفًا. علىَّ أن أنبذ الأشياء، أتخلى عنها، أتخلص منها. وحيث إنه يؤلمنى أن أفكر فيها وهى تتلاشى إلى الأبد، قررْتُ أن أعطيها لك. على الرغم من كل شىء، فيمن سواك أثق؟ من غيرك يمكن أن يحمل هذا الإرث؟ أبدأ بالكتب. نعم، نعم، الكتب كلها. لم أعرف لحظة أفضل. حين عددْتُها عصر هذا اليوم، كانت ١٤٩٢ مجلدا. إنه عدد يبشر بالخير، على ما أظن، فهو يستدعى ذكرى اكتشاف أمريكا على يدى كولومبس، والكلية التى ستذهب إليها تحمل اسم كولومبس. بعض هذه الكتب كبير، وبعضها صغير، بعضها سميك، وبعضها نحيل- لكنها كلها تحتوى على كلمات. إذا قرأتَ تلك الكلمات، ربما تساعدك فى الدراسة. لا، لا، لا أريد أن أسمع أى اعتراض. بمجرد أن تستقر فى نيويورك، أشحنها إليك. أحتفظ بنسخة إضافية من دانتى، وباستثناء هذه النسخة خذها كلها. بعد ذلك، هناك الشطرنج الخشبى. أحتفظ بالشطرنج المغناطيسى، ويجب أن يذهب الخشبى إليك. ثم يأتى صندوق السيجار وصور البيسبول. لدينا تقريبًا صور كل الأندية فى العقدين الأخيرين، وبضعة نجوم، وأضواء كثيرة من الاتحاد أقل شأنا. 'مات باتس'، 'ميمو لونا'، 'ريب ريبولسكى'، 'بوتسى كاباليرو'، 'دِكْ دروت'. غموض تلك الأسماء وحده ينبغى أن يجعلها خالدة. بعد ذلك، آتى إلى أشياء ضئيلة متنوعة، تلك الأشياء والبقايا. طفاياتى التذكارية من نيويورك وألامو، وتسجيلات هايدن وموتسارت التى عزفتها مع أوركسترا كليفلند، وألبوم صور العائلة، واللوحة التذكارية التى فزْتُ بها وأنا صبى لحصولى على المركز الأول فى مسابقة الموسيقى على مستوى الولاية. كان ذلك فى سنة ١٩٢٤، صدقنى- منذ زمن بعيد جدا. أخيرا، أود أن أعطيك البدلة

التويد التى اشتريتها من اللوب[1] منذ بضع سنوات. لن أحتاج إليها فى الأماكن التى سأذهب إليها، وهى من أرقى أنواع الصوف الأسكتلندى. لبستها مرتين فقط، وإذا أعطيتها لجيش الخلاص، لن ينتهى بها الأمر إلا على ظهر مخبول من المناطق القذرة. الأفضل بكثير أن تأخذها. سوف تمنحك تميزًا خاصًا، ولا جريمة فى أن تبدو فى أبهى صورة، أليس كذلك؟ سنذهب إلى الترزى فى صباح الغد ليضبطها عليك.

"سوف تكون فى الحفظ، على ما أعتقد. الكتب، الشطرنج، والصور، وتلك الأشياء، والبدلة. الآن تخلصت من مملكتى، وأشعر بالرضا. لا حاجة بك إلى تنظر إلىَّ على هذا النحو. أعرف ما أفعل، وأنا سعيد به. أنت ولد رائع يا فيليس، وستكون معى دائمًا، حيثما كنْتُ. فى هذا الوقت نسير فى اتجاهين متضادين. لكن عاجلا أو آجلا سنلتقى مرة أخرى، أنا متأكد من هذا. كل شىء يكون على ما يرام فى النهاية، تتقاطع كل الأشياء. الدوائر التسع. الكواكب التسعة. الجولات التسع. حيواتنا التسع. فكر فى الأمر فقط. الأمثلة بلا نهاية. لكن يكفى هذا اللغو هذه الليلة. الساعة متأخرة، والنوم ينادينا. تعالَ، أعطنى يدك. نعم، حسنًا، قبضة قوية رائعة. هكذا. والآن صافحنى. حسنا، مصافحة الوداع. مصافحة تبقى معنا إلى نهاية الزمن".

كل أسبوع أو اثنين، كان الخال فكتور يرسل إلىَّ بطاقة بريدية. كانت عمومًا مواد سياحية مزخرفة وملونة: صور لغروب الشمس على جبال روكى، لقطات عامة لنُزُل على جانب الطرق، نباتات الصبار ومسابقات رعاة البقر، ومزارع أنيقة للمواشى، ومدن الأشباح، وبانوراما الصحراء. ظهرت عبارات الترحيب أحيانا داخل حواف ورق ملون، وذات مرة تكلم بغل وعلى رأسه فقاعة من الكرتون: مع تحيات "سيلفر جلش". كانت الرسائل على ظهرها موجزة، خربشة صعبة القراءة، لكننى لم أكن متلهفًا لمعرفة أخبار خالى بقدر ما كنت متلهفًا لإشارة وقتية على أنه حى. كانت المتعة الحقيقية تكمن فى

١- اللوب Loop : الحى التجارى الرئيسى فى شيكاغو.

البطاقات نفسها، وكلما كانت أكثر تفاهة وسوقية، كنت أكثر سعادة بالحصول عليها. كنت أشعر كلما وجدت بطاقة في صندوقي البريدى أننا نتشارك فى نكات خاصة، وكان الأمر يصل بى إلى أن أعلق أفضلها (صورة لمطعم خال فى رينو، امرأة بدينة على ظهر حصان فى شايان)[١] على الحائط فوق سريرى. استوعب زميلى فى الغرفة صورة المطعم الخالى، لكن صورة المرأة على ظهر الحصان حيرته. شرحت له أنها تشبه دورا، الزوجة السابقة لخالى، بشكل غريب. وقلت: نظرا لسير الأمور فى العالم، هناك فرصة كبيرة لأن تكون هذه المرأة دورا نفسها.

ولأن فكتور لم يكن يمكث فى أى مكان وقتا طويلا، كان من الصعب أن أرد عليه. فى أواخر أكتوبر كتبت رسالة من تسع صفحات عن انقطاع النور عن مدينة نيويورك (حُبِسْتُ فى مصعد مع صديقين)، لكننى لم أرسلها إلا فى يناير، حين بدأت فرقة "رجال القمر" العمل لمدة ثلاثة أسابيع فى تاهوى[٢] وعلى الرغم من أننى لم أستطع الكتابة غالبا، فإننى كنت أحاول أن أبقى على اتصال روحى به بارتداء البدلة. لم تكن البدل تلائم طلاب الجامعة حينذاك، لكننى كنت أشعر بألفة وأنا أرتديها، وحيث إنه لم يكن هناك عمليا ما أشعر بألفة معه، واصلْتُ ارتداءها يوميا، من بداية السنة إلى نهايتها. فى لحظات التوتر والتعاسة، كنت أشعر بارتياح خاص وأنا متدثر فى دفء ملابس خالى، وأتخيل أحيانا أن البدلة تجعلنى متماسكًا بالفعل، وأن جسمى سيتناثر إذا لم ألبسها. كانت بمثابة غشاء واقٍ، جلد ثان يقينى من عواصف الحياة. ناظرا إلى الأمر الآن، أدرك مدى غرابتى: شاب هزيل، أشعث، حاد، لا ينسجم بوضوح مع بقية العالم. لكن لم يكن لدى فى الحقيقة رغبة فى الانسجام معه. إن كان زملائى الطلبة وصمونى

---

(١) رينو Reno : مدينة غرب ولاية نافادا على الحدود مع كاليفورنيا. شايان Chey enne: عاصمة وايمونج (ولاية غرب أمريكا).

(٢) تاهوى Tahoe: منتجع على بحيرة تاهوى (بحيرة على الحدود بين ولايتى كاليفورنيا ونافادا).

بأننى غريب الأطوار، فهى ليست مشكلتى. كنت المثقف الرفيع، المشاكس والعبقرى المستقبلى العنيد، "مَلْفُل" المتسلل الذى يقف بعيدا عن القطيع. وأخجل حين أتذكر الأوضاع الغريبة التى كنت أتخذها حينذاك. كنت مزيجا خياليا من الجبن والعجرفة، متحولا بين الصمت الطويل البشع ونوبات ملتهبة من المشاغبة. وحين يسوء مزاجى، كنت أقضى ليالى فى البارات، أدخن وكأننى أسعى لقتل نفسى، مقتبسا أشعارا لشعراء ثانويين من القرن السادس عشر، مشيرا بشكل ملتبس باللاتينية إلى فلاسفة العصور الوسطى، وأفعل كل ما أستطيع لأثير إعجاب أصدقائى. الثامنة عشرة سن رهيبة، وأنا أتأمل قناعتى بأننى بشكل ما أكبر من زملائى، كانت الحقيقة أننى أجد فقط طريقة مختلفة لمعنى أن أكون شابا. أكثر من أى شيء آخر، كانت البدلة شارة هويتى، شعارا للشكل الذى أرغب فى أن يرانى عليه الآخرون. من المنظور الموضوعى، لم يكن هناك عيب فى البدلة. كانت من التويد المخضر الغامق بمربعات صغيرة وطيات ضيقة- قطعة من الثياب قوية ورائعة- لكن بعد عدة أشهر من ارتدائها باستمرار، بدأت تعطى انطباعا عشوائيا، معلقة على هيكلى النحيل مثل بعض التجاعيد بعد تفكير طويل، قطعة من الصوف تتدلى بشكل مزعج. ما لم يعرفه أصدقائى، بالطبع، أننى أرتديها لأسباب عاطفية. تحت وضعى الاعتزالى، كنت أشبع أيضا الرغبة فى أن يكون خالى قريبا منى، ولم يكن لشكل الملابس علاقة بذلك تقريبا. لو أعطانى فكتور بدلة زوت[1] أرجوانية، لارتديتها دون شك بالروح نفسها التى أرتدى بها التويد.

حين انتهت الفصول الدراسية فى الربيع، رفضْتُ اقتراح زميلى فى الغرفة بأن نتشارك فى شقة فى السنة التالية. كنت أحب 'زيمر' جدا (كان فى الحقيقة أفضل أصدقائى)، لكن بعد أربع سنوات من الاشتراك فى غرفة فى المدينة الجامعية، لم أستطع مقاومة إغراء أن أعيش وحدى. وجدت مكانا فى شارع ١١٢ غربا، وانتقلت إليه

---

(١) زوت zoot: طراز من الملابس كان شائعا فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى.

فى الخامس عشر من يونيو، وصلْتُ إليه بحقائبى بعد لحظات فقط من توصيل رجلين ضخمين سبعا وستين كرتونة بها كتب الخال فكتور التى كانت فى مخزن فى الشهور التسعة السابقة. كانت شقة أستوديو فى الدور الخامس من مبنى كبير به مصعد: غرفة متوسطة المساحة مع مطبخ صغير فى الركن الجنوبى الشرقى، وحجرة صغيرة، وحمَّام، ونافذتين تطلان على زقاق. كان الحمَام يرفرف بأجنحته ويهدل على الإفريز، وست صفائح قمامة منبعجة على الأرضية. كان الهواء قليلا فى الداخل، وكان اللون الرمادى الخفيف يسود فى جميع الأرجاء، وفى أسطع الأيام لم يكن ينتشر إلا إشعاع ضئيل. شعرْتُ ببعض الوخز فى البداية، بعض الخوف بشأن العيش بمفردى، لكننى اكتشفْتُ اكتشافًا فريدًا ساعدنى على حب المكان والاستقرار فيه. كانت ليلتى الثانية أو الثالثة هناك، وبالصدفة تمامًا وقفْتُ بين النافذتين، بميل إلى النافذة اليسرى. حولت عينيَّ قليلا فى ذلك الاتجاه، واستطعْتُ أن أرى فجأة منفذًا للتهوية بين المبنيين الخلفيين. كنْتُ أتطلع إلى "برودواى"، الجزء الأصغر والأقصر من برودواى، وكان اللافت أن كل المنطقة التى أستطيع رؤيتها مليئة بيافطة نيون، كشاف قوى من حروف قرنفلية وزرقاء، حروف كلمتى "قصر القمر". عرفْتُ أنها يافطة من المطعم الصينى أسفل المبنى، لكن القوة التى هاجمتنى بها هاتان الكلمتان تدفقت بكل الإشارات والتداعيات العملية. كانت حروفًا سحرية، معلقة فى الظلام وكأنها رسالة من السماء نفسها. "قصر القمر". فكرْتُ فورا فى الخال فكتور وفرقته، وفى تلك اللحظة الأولى غير المنطقية، فقدتْ مخاوفى السيطرة عليَّ. لم أجرب قط شيئًا فجائيًا ومطلقًا بهذه الصورة. غرفة خاوية وحقيرة تحولت فجأة إلى جوهر، نقطة تقاطع للبشائر والأحداث السرية العشوائية. واصلت التحديق فى يافطة "قصر القمر"، وبالتدريج فهمْتُ أننى أتيت إلى المكان المناسب، هذه الشقة الصغيرة ما أسعى للعيش فيه حقا.

قضيت الصيف فى العمل نصف دوام فى مكتبة، والذهاب إلى السينما، وعلاقة حب متذبذبة مع فتاة اسمها "سينثيا"، تلاشى وجهها من ذاكرتى منذ وقت طويل. شعرْتُ بالألفة أكثر وأكثر فى شقتى الجديدة، وحين بدأت الدراسة مرة أخرى فى

الخريف، انهمكت مع زيمر وأصدقائى فى جولات محمومة فى أوقات متأخرة من الليل فى الشرب، وفى مطاردات غرامية، وانهماك طويل صامت تماما من القراءة والدراسة. وبعد ذلك بكثير، وأنا أتطلع إلى تلك الأشياء بعد سنوات، فهمْتُ كم كان هذا الوقت خصبا بالنسبة لى.

وبعد بلوغى العشرين بأسابيع قليلة تسلمت رسالة طويلة غير مفهومة تقريبا من الخال فكتور مكتوبة بالقلم الرصاص على ظهور فراغات طلبات صفراء لدائرة معارف "همبولدت". فهمت منها أن فرقة "رجال القمر" مرت بظروف صعبة، وبعد جولة طويلة من الحظ السيئ (التزامات لم يتم الوفاء بها، إطارات مثقوبة، سكران يحطم أنف عازف الساكسفون)، تفرقت الجماعة فى النهاية. منذ نوفمبر كان الخال فكتور يعيش فى "بويز" بولاية "إداهو"، حيث وجد عملا مؤقتا بائعا يوصل موسوعات من الباب للباب. لكن الأمور لم تنجح، وللمرة الأولى على الإطلاق سمعْتُ نبرة هزيمة فى كلمات فكتور. قالت الرسالة: "الكلارينت الخاص بى مرهون. حسابى فى البنك صفر، والناس فى بويز لا يهتمون بالموسوعات".

أرسلْتُ نقوداً إلى خالى، وتبعت ذلك بتلغراف ألح عليه بالمجيء إلى نيويورك. رد فكتور بعد بضعة أيام يشكرنى على الدعوة. قال إنه سينهى أموره بنهاية الأسبوع، ويلحق بأول حافلة. حسبت أنه سيصل الثلاثاء أو الأربعاء على أقصى حد. لكن الأربعاء جاء وانقضى ولم يظهر فكتور. أرسلْتُ تلغرافا آخر، ولم يصلنى رد. بدت لى احتمالات الكارثة لا نهائية. تخيلت كل ما يمكن أن يحدث لرجل بين بويز ونيويورك، وفجأة تحولت القارة الأمريكية إلى منطقة هائلة خطرة، إلى كابوس رهيب من الفخاخ والمتاهات حاولت أن أتتبع مالك المسكن الذى يستأجره فكتور، دون طائل، ثم، كملجأ أخير، طلبْتُ شرطة بويز. شرحْتُ مشكلتى بدقة للرقيب فى الطرف الآخر، رجل اسمه نيل أرمسترنج. فى اليوم التالى، اتصل بى الرقيب أرمسترنج ليبلغنى بالأخبار. وُجِد الخال فكتور ميتا فى مسكنه فى الشارع الثانى عشر شمالا- مترهلا فى مقعد وعليه معطفه، وكلارينت شبه متماسكة يقبض عليها بأصابع يده اليمنى. وحقيبتا سفر ممتلئان بجوار

الباب. فتشت السلطات الغرفة، ولم تكتشف شيئا يوحي بجريمة. طبقا للتقرير الطبي الأولى، السبب المحتمل للوفاة أزمة قلبية. وأضاف الرقيب: "حظ سيئ يا بني، آسف حقا".

طرت إلى الغرب صباح اليوم التالى للقيام بالترتيبات. تعرفت جسد فكتور فى المشرحة، وسددْتُ الديون، ووقَّعْتُ على أوراق ونماذج، وقمت بإجراءات نقل الجثة إلى شيكاغو. كان حانوتى بويز فى يأس من حالة الجثة. بعد البقاء فى الشقة لأسبوع تقريبا، كانت هناك الكثير مما يجب عمله لها. قال لى: "لو كنت مكانك ما كنت أتوقع أى معجزات".

أعددت للجنازة بالتليفون، اتصلت بعدد من أصدقاء فكتور (هوى دن، عازف الساكسفون محطم الأنف، وعدد من الدارسين السابقين)، وقمت بمحاولة فاترة للوصول إلى دورا (لا يمكن العثور عليها)، ورافقت التابوت عائداً إلى شيكاغو. دفن فكتور بجوار أمى، ورشقتْنا السماء بالمطر ونحن نقف نشاهد صديقنا يوارى الثرى. وبعد ذلك انطلقنا بالسيارة إلى منزل عائلة 'دُنْ' فى الجانب الشمالى، حيث أعدت السيدة 'دن' قدرا متواضعا من اللحوم الباردة والحساء الساخن. لم أتوقف عن البكاء طوال الساعات الأربع السابقة، وفى المنزل تجرعت بسرعة خمس كئوس مزدوجة أو ست كئوس من "البوربون" مع طعامى. تحسنت روحى المعنوية بشكل معقول، وبعد ساعة تقريبا بدأت أغنى بصوت مرتفع. صاحبنى 'هوى' على البيانو، ولبعض الوقت صار الجمع صاخبا تماما. ثم تقيأت على الأرض، وانتهى الأمر. فى السادسة صباحا، ودعت الحضور وانطلقت فى المطر. همْتُ على وجهى ساعتين أو ثلاث ساعات، وتقيأت مرة أخرى على درج باب، ثم وجدت عاهرة نحيلة بعينين رماديتين اسمها 'أنجيس' تقف تحت مظلة فى شارع مضاء بالنيون. اصطحبتها إلى غرفة فى فندق 'إلدورادو'، وأعطيتها محاضرة قصيرة فى قصائد "سير والتر رالى"، ثم غنيت لها تهويدات وهى تخلع ملابسها وتمدد ساقيها. وصفتنى بالجنون، لكننى أعطيتها مائة دولار، ووافقت أن تقضى الليلة معى. لكننى نمت نوما سيئا، وفى الرابعة صباحا،

تسللت من السرير، وارتديت ملابسى المبللة وأخذت تاكسى إلى المطار. عدت إلى نيويورك فى الساعة العاشرة.

فى النهاية، لم يكن الأسى هو المشكلة. ربما كان الأسى السبب الأول، لكنه أفسح المجال بسرعة لشىء آخر- شىء ملموس أكثر، يمكن حساب تأثيراته بشكل أكبر، أكثر عنفا فيما ينجم عنه من دمار. بدأت تتحرك سلسلة كاملة من القوى، وعند نقطة معينة بدأتُ أترنح، أحلق فى دوائر أكبر وأكبر حول نفسى، حتى خرجْتُ من المدار فى النهاية.

كان وضعى المالى يتدهور. أدركْتُ ذلك لبعض الوقت، لكن كان التهديد يلوح بعيدا جدا، ولم أفكر فيه بجدية. لكن فى أعقاب موت الخال فكتور، وقد أنفقْتُ آلاف الدولارات فى تلك الأيام المرعبة، لم يبق من المبلغ الذى يفترض أن يكفينى خلال الدراسة فى الكلية إلا النذر اليسير. وإذا لم أفعل شيئا لأعوض النقود، لن أواصل إلى النهاية. حسبت أننى إذا واصلت الإنفاق بالمعدل الحالى، ستنفد نقودى فى نوفمبر فى السنة النهائية. وأعنى بذلك كل شىء: كل سنت، كل دايم،[1] كل بنس حتى الفلس التام.

كانت أول فكرة تخطر ببالى أن أترك الكلية، لكن بعد تدبر الفكرة يوما أو يومين، فكرت فى فكرة أفضل. وعدْتُ خالى بالتخرج فى الكلية، وحيث إنه لم يعد موجوداً ليقبل أى تغير فى الخطط، لم أشعر بأننى حر فى عدم الوفاء بكلمتى. وعلى قمة ذلك، كانت هناك مسألة الخطة التمهيدية. إذا تركت الكلية الآن، فإن تأجيلى للدراسة سيلغى، ولم أرحب بفكرة الزحف إلى موت مبكر فى أدغال آسيا. سأبقى فى نيويورك إذن، وأواصل دراستى فى جامعة كولومبيا. كان ذلك قرارا معقولا، الشىء الصائب الذى يجب عمله. بعد تلك البداية الواعدة، لم تكن هناك صعوبة فى أن أواصل العمل بشكل معقول. كل

١- سنت: فى الأصل nickel، وهى عملة أمريكية تساوى ٥ سنتات. دايم dime: عشر سنتات.

أنواع الخيارات متاحة لمن هم فى مثل وضعى- المنح الدراسية، القروض، برامج العمل فى الدراسة- لكن بمجرد أن بدأت التفكير فيها، شعرت باشمئزاز شديد. كانت استجابة فجائية لا إرادية، نوبة شديدة من الغثيان. أدركت أننى لا أريد تلك الأشياء، فرفضتها جميعا، بعناد، بازدراء، أعرف تمامًا أننى دمرْتُ أملى الوحيد لتحمل الأزمة. من تلك اللحظة لم أفعل شيئا لأساعد نفسى، ورفضت القيام بأى شىء. يعلم الرب لماذا تصرفْتُ على ذلك النحو. ابتكرت أسبابا لا تحصى فى ذلك الوقت، لكن ربما تحول الأمر فى النهاية إلى اليأس. يئسْتُ، وفى وجه الفوران الشديد، شعرْتُ بضرورة القيام بتصرف متطرف بشكل ما. أريد أن أبصق على العالم، أن أفعل أغرب ما يمكن. بكل حماسة شاب فكر كثيرا جدا وقرأ كتبا كثيرة جدا وبكل مثاليته، قررْتُ أنه ينبغى ألا أفعل شيئا، أن أتصرف مثل محارب يرفض أى تصرف على الإطلاق. كانت عدمية ارتفعت إلى مستوى فرضية جمالية. سأحول حياتى ، فى تضحية بالنفس، إلى عمل فنى، إلى مفارقة رائعة حيث كل نفَس آخذه يعلمنى كيف أستمتع بقدَرى. كانت المؤشرات تشير إلى كسوف تام، وتتلمس طريقها كما أتلمسه لقراءة أخرى، أغوتنى صورة تلك الظلمة تدريجيا، أغرتنى ببساطة تصميمها. لم أفعل شيئًا لأقاوم الحتمى، لكننى أيضا لم أندفع لملاقاته. إذا كان للحياة أن تستمر كما كانت دائما، يكون الأمر أفضل بكثير. يمكن أن أصبر، يمكن أن أسرع. كان الأمر ببساطة أننى أعرف ما المقدَّر لى، وإذا كان سيحدث اليوم، أو غدا، فإنه سيحدث على الرغم من كل شىء. كسوف تام. ذُبِح الوحش، وحلَّتْ شفرة أحشائه. سيحجب القمرُ الشمسَ، وعند تلك النقطة أتلاشى. سأتحطم تمامًا، حطامًا من لحم وعظام دون أدنى شىء ينتمى لاسمى.

حينذاك بدأتُ قراءة كتب الخال فكتور. بعد الجنازة بأسبوعين، التقطت كرتونة بشكل عشوائى، وبعناية شققت الشريط بسكين، وقرأتُ كل ما فيها. تبين أنه مزيج غريب، معبأ دون نظام أو هدف واضح. فيها روايات ومسرحيات وكتب تاريخ وكتب رحلات، وإرشادات فى لعبة الشطرنج وقصص بوليسية، وقصص خيال علمى وأعمال فلسفية- فوضى مطلقة. لم يختلف الأمر بالنسبة لى. قرأتُ كل كتاب حتى النهاية ورفضْتُ إصدار حكم عليه. كان كل كتاب، فى نظرى، يساوى أى كتاب آخر، وكل جملة

تتكون بالضبط من عدد مناسب من الكلمات، وكل كلمة فى مكانها الصحيح. بهذه الطريقة اخترْتُ أن أندب بها خالى فكتور. فتحت كل الكراتين، كرتونة كرتونة، وقرأْتُ كل الكتب، كتابًا كتابا. كان هذا هو الهدف الذى وضعْتُه لنفسى، وتمسكت به حتى النهاية.

كانت كل كرتونة تحتوى على خليط عشوائى مماثل للكرتونة الأولى، مزيج من الغث والثمين، أكوام من الأعمال العابرة مبعثرة بين الأعمال الكلاسيكية، كتب مهلهلة بغلاف ورقى محشورة بين طبعات بغلاف سميك، أعمال رديئة توضع مباشرة مع أعمال "دُن"(١) وتولستوى. لم يرتب الخال فكتور مكتبته قط طبقا لأى تصنيف. كلما اشترى كتابًا وضعه على الرف بجوار الكتاب الذى اشتراه قبله، وبالتدريج تمددت الصفوف، مالئة مساحة تتزايد بمرور السنين. هكذا بالضبط دخلت الكتب الكراتين. باستثناء ذلك، كان الترتيب الزمنى سليما، كان التسلسل محفوظًا بشكل افتراضى. واعتبرْتُه ترتيبًا نموذجيا. كلما فتحْتُ كرتونة، دخلْتُ قسمًا آخر من حياة خالى، فترة ثابتة من الأيام أو الأسابيع أو الشهور، وكان عزائى أن أشعر بأننى أحتل الفضاء الذهنى نفسه الذى احتله فكتور ذات يوم- أقرأ الكلمات نفسها، أعيش القصص نفسها، وربما أفكر الأفكار نفسها. كان الأمر يشبه تقريبا تتبع طريق مستكشف من زمن بعيد، مقتفيا خطواته وهو يندفع إلى مقاطعة بكر، متنقلا باتجاه الغرب مع الشمس، مطارداً الضوء حتى يخمد فى النهاية. ولأن الكراتين لم تكن تحمل أرقاماً أو ملصقًا، لم تكن هناك وسيلة أعرف بها مقدما الفترة أوشك على دخولها. وهكذا كانت الرحلة نزهات متميزة ومتقطعة. من بوسطن إلى "لينوكس"، على سبيل المثال، من "مينابولس" إلى "سيوكس فولز". من "كينوشا" إلى مدينة "سولت ليك". لم أبال بأن أُرغَم على القفز حول الخريطة. فى النهاية، امتلأت كل المساحات الخالية، وتمت تغطية كل المسافات.

---

(١) جون دن Donne (١٥٧٢-١٦٣١) شاعر إنجليزى.

قرأتُ كتبا كثيرة قبل ذلك، ويبقى أن فكتور نفسه قرأ لى كتبًا أخرى بصوت عال: "رينسون كروز"، "دكتور جيكل ومستر هايد"، "الرجل الخفى". لكننى لم أترك ذلك يقف فى طريقى. انجرفت خلال كل شىء بالشغف نفسه، ملتهما الأعمال القديمة بالشهية نفسها التى ألتهم بها الأعمال الجديدة. ارتفعت أكوام الكتب التى انتهيت منها فى أركان غرفتى، وكلما بدا أن أحد هذه الأبراج على وشك السقوط، أملأ حقيبتين من حقائب التسوق بالمجلدات المهددة بالسقوط وآخذها معى فى زيارتى التالية لكولومبيا. مباشرة فى الناحية الأخرى من الحرم الجامعى فى برودواى كانت مكتبة "شاندلر"، جحر فأرَ مكدس ومغبر يتاجر بنشاط فى الكتب المستعملة. بين صيف ١٩٦٧ وصيف ١٩٦٩ ظهرْتُ هناك عشرات المرات، وتخلصت من إرثى تدريجيا. كان ذلك هو التصرف الوحيد الذى سمحت لنفسى به- الاستفادة مما أمتلكه بالفعل. كان التخلص من الممتلكات السابقة للخال فكتور مؤلمًا، لكننى كنت أعرف فى الوقت نفسه أنه ما كان ليغضب منى بسبب ذلك. برأتُ من دَيْنى له بشكل ما بقراءة الكتب، وكنت أعانى بشدة من نقص المال، بدا من المنطقى أن علىَّ أن أخطو الخطوة التالية وأحول الكتب إلى نقود.

كانت المشكلة أننى لا أستطيع كسب ما يكفى. ساومنى "شاندلر" بشدة، وكان فهمه للكتب مختلفًا عن فهمى فلم أعرف ماذا أقول له. بالنسبة لى، لم تكن الكتب حاويات كلام طالما تتحدد الكلمات نفسها وقيمة كتاب معين بقيمته الروحية لا بحالته المادية. تساوى نسخة مهلهلة من هوميروس أكثر مما تساوى نسخة جيدة من فرجيل، على سبيل المثال؛ تساوى ثلاثة مجلدات من ديكارت أقل مما يساوى مجلد لباسكال. اختلافات جوهرية بالنسبة لى، لكنها لم تكن موجودة بالنسبة لشاندلر. لم يكن الكتاب بالنسبة له إلا موضوعًا، شيئا ينتمى إلى عالم الأشياء، وبهذا الشكل لم يكن يختلف اختلافا جذريا عن صندوق الحذاء أو غاطس التواليت أو إبريق القهوة. كلما أحضرت جزءا آخر من مكتبة الخال فكتور، يسترسل الرجل العجوز فى روتينه. لامسًا الكتب بأصابعه بازدراء، متمعنا ظهورها، متصيداً العلامات والتشوهات، لم يفشل قط فى

إعطاء انطباع بشخص يمسك كوما من القانورات. هكذا كانت تجرى اللعبة. بالتقليل من شأن البضاعة، كان شندلر يستطيع عرض أدنى سعر. بعد ثلاثين عاما من الممارسة، كان يأخذ وضع الخبير، ذخيرة من الغمغمة والهمهمة، من الإجفال وطقطقة اللسان، وهزات سيئة للرأس. كان التصرف مصمما ليجعلنى أشعر بتفاهة حكمى، ليجعلنى أخجل من معرفة وقاحة عرض هذه الكتب عليه فى المقام الأول. هل قلت لى إنك تريد نقوداً مقابل هذه الأشياء؟ هل تتوقع أن تحصل على نقود من الزبال حين يحمل زبالتك فى عربته؟

كنت أعرف أننى أُخدَع، لكننى لم أعترض إلا نادراً. ماذا يمكن أن أفعل على الرغم من كل شىء؟ كان شاندلر يتعامل من موقع القوة، ولم يكن لأى شىء أن يغير ذلك- كنت دائمًا مضطرا للبيع وكان دائما لا يبالى بالشراء. ولم يكن هناك معنى لادعاء عدم الاهتمام بالبيع. لم يكن البيع ليتم ببساطة، وليس هناك فى النهاية بيع أسوأ من أن تُخدَع. اكتشفت أننى أميل إلى التصرف بشكل أفضل حين أحضر كميات صغيرة من الكتب، لا تزيد عن اثنى عشر أو خمسة عشر فى المرة. بدا أن مستوى سعر المجلد يرتفع ولو بقدر ضئيل. لكن كلما كان التبادل أصغر، زاد عدد مرات عودتى إليه، وكنت أعرف أن علىَّ أن أجعل زياراتى فى حدها الأدنى- لأنه كلما تعاملت أكثر مع شاندلر، زاد ضعف موقفى. لكن بصرف النظر عما كنت أفعل، كان شاندلر يكسب حتمًا. بمرور الشهور، لم يكن العجوز يبذل جهداً فى التحدث إلىَّ. لم يرحب بى قط، لم يبتسم قط، وحتى لم يصافح يدى قط. كان أسلوبه غامضاً حتى إننى تساءلْتُ أحياناً إن كان يتذكرنى من زيارة إلى أخرى. ربما كنت، من منظور شاندلر، زبونًا جديدا كلما أتيت إليه، مجموعة من الغرباء المتباينين، حشد عشوائى.

وأنا أبيع الكتب، تعرضت شقتى لتغيرات كثيرة جدا. كان ذلك حتميا، لأننى كلما فتحت كرتونة، أدمر فى الوقت نفسه قطعة من الأثاث. تفكك سريرى، تضاءلت مقاعدى واختفتْ، تحول مكتبى إلى مكان خال. صار مجموع حياتى صفراً، وكنتُ أرى ذلك بالفعل: أرى خواء محسوسا ومزدهرا. كلما غامرت بماضى خالى، كانْت هناك نتيجة

مادية، تأثير فى العالم الواقعى. وكانت النتائج أمام عينى دائما، ولا مفر منها. وهكذا تُركتْ كراتين كثيرة، وذهبت كراتين كثيرة. لم يكن علىَّ إلا أن أنظر إلى غرفتى لأعرف ما يحدث. كانت الغرفة آلة تقيس حالتى: كم تبقى منى، كم منى لم يعد هنا. كنت مقترف الجريمة والشاهد عليها، الممثل والجمهور فى مسرح من شخص واحد. كنت أتتبع تقطيع الأوصال. أرى اختفائى جزءًا جزءا.

كانت أياما صعبة على الجميع، بالطبع. أتذكرها باعتبارها نوبة اضطراب فى السياسة وبين الجماهير، نوبة من الغضب والضجيج والعنف. بحلول ربيع ١٩٦٨، بدا أن كل يوم يأتى بطوفان جديد. فى برلين إن لم يكن فى براغ؛ فى نيويورك إن لم يكن فى باريس. كان هناك نصف مليون جندى فى فيتنام. وأعلن الرئيس أنه لن يرشح نفسه مرة أخرى. وقعت اغتيالات. بعد سنوات من القتال، صارت الحرب كبيرة جدا حتى تلوثت بها أصغر الأفكار، وكنت أعرف أننى، بصرف النظر عما أفعل أو لا أفعل، جزء منها بقدر ما كان أى شخص آخر جزءا منها. ذات مساء، وأنا أجلس على دكة فى "ريفرسايد بارك" أتطلع إلى المياه، رأيت خزان بترول ينفجر على الشاطئ الآخر. فجأة ملأ اللهب السماء، وأنا أشاهد قطع الحطام المحترق تطفو عبر نهر "هدسون" وتستقر تحت قدمىَّ. خطر لى أن الداخل والخارج لا يمكن أن ينفصلا إلا بتدمير هائل للحقيقة. بعد ذلك فى الشهر نفسه، تحول حرم جامعة كولومبيا إلى ساحة معركة، وقُبِض على مئات الطلبة، ومنهم حالمون مثلى أنا وزيمر. لا أنوى مناقشة شىء من هذا هنا. يعرف الجميع قصة تلك الفترة، ولا معنى لتكرارها مرة أخرى. ولا يعنى هذا أننى أتمنى أن تُنسَى. تقف قصتى على ركام تلك الأيام، وإذا لم تُفهَم هذه الحقيقة، فلن يكون لها معنى.

حين بدأتُ الدراسة فى السنة الثالثة (سبتمبر ١٩٦٧)، كانت بدلتى قد اختفت منذ وقت طويل. بليت بما تشربته من مياه فى شيكاغو، بليت مقعدة البنطلون، وتمزق الجاكيت بطول الجيوب والفتحة، وتخليت عنها فى النهاية واعتبرتها مفقودة. علقتها فى خزانتى تذكاراً لأيام سعيدة، واشتريت أرخص ما وجدت من ثياب وأكثرها تحملا:

حذاء عمل، جينز أزرق، قمصان من نسيج ناعم، وجاكيت جلدى مستعمل من محل لمخلفات الجيش. أذهل هذا التغير أصدقائى، لكننى لم أتحدث فى الأمر، لأننى فى النهاية لا يعنينى ما يعتقدونه. حدث الأمر نفسه بالنسبة للتليفون. لم أفصله لأنعزل عن العالم، لكن ببساطة لأننى لم أعد أحتمل تكلفته. حين احتد زيمر علىَّ بسبب ذلك ذات يوم أمام المكتبة، متذمرا من صعوبة الوصول إلىَّ، تهربت من مسألة مشاكلى المالية بحديث طويل عن الأسلاك والأصوات وموت الاتصال الإنسانى. قلت: "الصوت المنقول كهربيًا ليس صوتًا حقيقيًا. كبرنا جميعا معتادين على هذه الصورة الزائفة لأنفسنا، لكن حين تتوقف وتفكر فيها ستجد أن التليفون آلة للتشويه والتخيل. اتصال بين أشباح، إفراز لفظى لعقول بلا أجساد. أريد رؤية من أتحدث إليه. وإذا لم أستطع فمن الأفضل ألا أتحدث على الإطلاق". اعتدْتُ على هذا الأداء أكثر وأكثر- مبررات، كلام ملتبس، نظريات غريبة أقدمها ردًا على أسئلة معقولة تمامًا. لأننى لا أريد أن يعرف أحد صعوبة ما أمر به، لم يكن أمامى سوى الكذب للخروج من هذه الورطات. كلما ازدادت حالتى سوءا صارت ابتكاراتى أكثر غرابة والتواءً. لماذا توقفْتُ عن التدخين، لماذا توقفت عن الأكل فى المطاعم- لم أعجز قط عن اختراع تفسير منطقى غريب. انتهى بى الأمر إلى أن أبدو مثل ناسك فوضوى، وبهذه الطريقة نجحت فى حماية سرى. ولاشك فى أن الزهو لعب دوراً فى هذه الخدع، لكن كان الأساس أننى لا أريد أن يعيق أحد المسار الذى وضعته لنفسى. لن يؤدى الحديث عنه إلا إلى الشفقة، وربما عروض للمساعدة، مما يفسد المسألة كلها. بدلا من ذلك، انهمكت فى هذيان مشروعى، متشبثا بكل الفرص المحتملة ومنتظراً مرور الوقت.

كانت السنة الأخيرة الأكثر صعوبة. توقفت عن دفع فواتير الكهرباء فى نوفمبر، وبحلول يناير جاء رجل من "كون أديسون" لفصل العداد. لعدة أسابيع بعد ذلك، جربت أنواعًا من الشموع، باحثًا عن أرخص الأنواع، وأكثرها سطوعًا، وأطولها عمراً. ومما أثار دهشتى أن أكتشف أن شموع اليهود التذكارية تمثل الاختيار الأفضل. وجدت الأضواء المرتجفة والظلال جميلة إلى أقصى حد، وصمتت الثلاجة (برجفتها المتقطعة غير المتوقعة)، ربما شعرت بأننى أفضل دون كهرباء على أى حال. بصرف النظر عما

قد يقال عنى، كنت مرنًا. بحثت عن المزايا الخبيئة التى تنجم عن كل حرمان، وبمجرد أن أعرف كيف أعيش دون شيء معين، أبعده عن ذهنى إلى الأبد. كنت أعرف أن هذه العملية لا يمكن أن تستمر إلى الأبد، وأن هناك أشياء لا يمكن إبعادها، لكن فى ذلك الوقت تعجبت من ضآلة أساى على ما راح. ببطء وبشكل مؤكد، اكتشفْتُ قدرتى على المضى بعيدا جدا، أبعد بكثير مما ظننْتُ.

بعد أن دفعت رسوم الفصل الدراسى الأخير، كان معى أقل من ستمائة دولار. بقيت دستة كراتين، ومجموعة الأوتوجرافات والكلارينت. لأشعر أننى فى صحبة، كنت أتناول الآلة وأنفخ فيها، مالئا الشقة بأصوات غريبة، هرج ومرج من الصرير والأنين، من الضحك والزمجرة الحزينة. فى مارس، بعت الأتوجرافات لهاوٍ اسمه "ميلو فلاكس"، رجل ضئيل وغريب بهالة من الشعر الأشقر المجعد يعلن فى الصفحات الخلفية من "سبورتنج نيوز". حين رأى فلاكس مجموعة من توقيعات فريق "كوب" فى الإطار ارتعب. متفحصا الأوراق بتبجيل، نظر إلىَّ والدموع فى عينيه وتنبأ بجرأة أن ١٩٦٩ سيكون عام "كوب". كان محقا تقريبا، بالطبع، ولولا ركود آخر الموسم، والاندفاع الخاطف لفريق "ميتس" المتداعى، فمن المؤكد أن ذلك كان سيحدث. جلبت الأتوجرافات مائة وخمسين دولارا، غطت أكثر من إيجار شهر. وفرتُ الطعام من بيع الكتب، وحاولْتُ أن أزحف خلال أبريل ومايو ورأسى فوق الماء، منهيا دراستى مع اضطراب ضوء الشموع وأنا أحشو رأسى بالمعلومات وأكتب. فى ذلك الوقت بعت آلتى الكاتبة بستة وعشرين دولارا، مكنتنى من تأجير كاب وروب وحضور حفل التخرج المضاد الذى نظمه الطلبة للاعتراض على الاحتفالات الرسمية للجامعة.

فعلْتُ ما شرعْتُ فيه، لكن لم تكن هناك فرصة لتذوق الانتصار. وصلت إلى آخر مائة دولار، وتضاءلت الكتب إلى ثلاث كراتين. كان دفع الإيجار مستبعدا، وعلى الرغم من أن مبلغ التأمين يضمن لى البقاء شهرا آخر، كان الطرد حتميا بعد ذلك. إذا بدأت الإنذارات فى يوليو، فسوف تأتى اللحظة الحاسمة فى أغسطس، لأكون فى الشارع بحلول سبتمبر. لكن بالنظر من يونيو كانت نهاية الصيف بعيدة جداً. لم تكن المشكلة

إلى حد بعيد ماذا تفعل بعد ذلك، لكن أن تصل إلى هناك أولا. ستجلب الكتب خمسين دولارا تقريبا. بإضافتها إلى ستة وتسعين دولارا معى بالفعل، كان هذا يعنى أنه سيكون معى مائة وستة وأربعين دولارا أعيش بها الشهور الثلاثة القادمة. بدت كافية بصعوبة، لكن بالاقتصار على وجبة واحدة يوميا، وتجاهل الصحف والحافلات وأى شيء من الإنفاق الطائش، تصورت أننى يمكن أن أفعل ذلك. هكذا بدأ صيف ١٩٦٩. بدا من المؤكد أنه آخر صيف تقريباً يمكن أن أقضيه على الأرض.

خلال الشتاء وبداية الربيع، خزنْتُ الطعام على إفريز النافذة خارج الشقة. تجمدت عدة أشياء أثناء الشهور الأكثر برودة (أعواد الزبد، حاويات الجبن الأبيض)، لكن لم يكن شيء منها غير صالح للأكل بعد ذوبانها. كانت المشكلة الرئيسية حمايتها من الهباب وذبل الحمام، لكننى تعلمت بسرعة كيف أغلف مؤنى بحقيبة تسوق من البلاستيك قبل أن أتركها فى الخارج. بعد سقوط إحدى هذه الحقائب من فوق الإفريز فى عاصفة، بدأْتُ أربطها بخيط فى أنبوبة فى الغرفة. برعْتُ تماما فى هذا النظام، ولأن الغاز كان متضمنا بشكل رحيم فى الإيجار (مما كان يعنى ألا أقلق بشأن فقدان موقدى)، بدا وضع الطعام تحت السيطرة بشكل جيد. لكن كان ذلك فى الطقس البارد. تغير الموسم، ومع بقاء الشمس فى السماء ثلاث عشرة ساعة أو أربع عشرة ساعة، كان الإفريز مؤذيا أكثر مما هو مفيد. تخثر اللبن، وفسد العصير؛ وذاب الزبد وتحول إلى بركة متلألئة من اللزوجة الصفراء. عانيت من عدد من هذه الكوارث، ثم بدأت أفحص غذائى بعناية، مدركًا ضرورة إبعاد كل البضائع التى تفسد عن الحرارة. فى الثانى عشر من يونيو، جلسْتُ ورسمْتُ خريطةً لنظامى الغذائى الجديد. لبن جاف، قهوة سريعة التحضير، عبوات صغيرة من الخبز– سلعى الرئيسية– وكنت آكل الشيء نفسه يوميا: البيض، أرخص الأطعمة المعروفة للإنسان وأكثرها تغذية. من وقت لآخر أبر نفسى بتفاحة أو برتقالة، وإذا كانت الرغبة قويا جدا، أعالج نفسى بهامبورجر أو علبة حساء. لم يفسد الطعام ولم أمت (نظريا) من الجوع. بيضتان يوميا تسلقان سلقا خفيفا بشكل متقن فى دقيقتين ونصف، شريحتان من الخبز، ثلاثة أكواب من القهوة، ومياه بقدر ما أستطيع أن أشرب. إذا لم تكن الخطة ملهمة فقد كان لها على الأقل

أناقة هندسية معينة. ونظراً لندرة الاختيارات المتاحة لى، حاولت أن أتحمس لهذا الاختيار.

لم أمت جوعًا، لكن نادراً ما تمر لحظة لا أشعر فيها بالجوع. كثيرا ما حلمت بالطعام، وكانت ليالى ذلك الصيف مليئة برؤى الولائم والنهم: أطباق من شرائح اللحم والضأن، خنازير بدينة طافية على صوانى، كيك يشبه القلعة وحلوى، أوانٍ هائلة من الفاكهة. أثناء النهار، كانت معدتى تصرخ باستمرار، تقرقر باندفاع عصارات غاضبة، تتعقبنى بخوائها، وبكفاح مميت كنت أتجاهلها. لم يكن الجسد ممتلئًا فى البداية بحال من الأحوال، واصلت فقدان الوزن والصيف يمضى. من وقت لآخر، كنت أسقط بنسا فى ميزان "إكساكتو" فى صيدلية لأعرف ما يحدث لى. من ١٥٤ رطلا فى يونيو، نزلْتُ إلى ١٣٩ فى يوليو، ثم إلى ١٢٣ فى أغسطس. بالنسبة لشخص طوله أكثر من ست أقدام بقليل، بدأ ذلك يمثل بعض الخطورة. يمكن للجلد والعظم أن يستمرا كذلك إلى حد بعيد، رغم كل شىء، ثم تصل إلى نقطة يمكن أن تحدث فيها أضرار خطيرة.

كنت أحاول فصل نفسى عن جسدى، آخذا الطريق الطويل حول ورطتى بالتظاهر بأنها غير موجودة. سافر آخرون فى هذا الطريق قبلى، واكتشفوا جميعا فى النهاية ما اكتشفْتُه لنفسى: لا يستطيع العقل التغلب على القضية، لأنه بمجرد أن يُطلَب من العقل بذل الكثير جدا، يبدو بسرعة أنه نفسه قضية أيضًا. لأسمو فوق ظروفى، كان علىَّ أن أقنع نفسى بأننى لم أعد واقعا، وكانت النتيجة أن الواقع كله بدأ يهتز بالنسبة لى. تظهر أشياء غير موجودة أمام عينىَّ فجأة، ثم تتلاشى. على سبيل المثال، كوب من عصير الليمون البارد. صحيفة بها اسمى فى عنوان رئيسى. البدلة القديمة على سريرى، سليمة تمامًا. حتى إننى رأيت ذات مرة نسخة قديمة من نفسى تترنح فى الغرفة، تبحث مخمورة عن شىء فى الأركان ولا تجده. لم تستمر هذه الهلاوس إلا لحظة، لكن صداها كان يستمر فى أعماقى لساعات. وكانت هناك فترات أفقد فيها ببساطة مسارى. قد تنبثق فكرة فى ذهنى، وحين أتتبعها إلى نهايتها، أنظر فأجد الليل قد حل. ليست هناك وسيلة لحساب الساعات التى فقدتها. فى أحيان أخرى، وجدْتُ

نفسى أمضغ طعامًا خياليا، أدخن سجائر خيالية، نافثًا دوائر خيالية من الدخان فى الهواء من حولى. ربما كانت أسوأ اللحظات على الإطلاق، لأننى أدركْتُ حينها أننى لم أعد أثق فى نفسى. بدأ ذهنى ينحرف، وبمجرد حدوث ذلك كنت أعجز عن إيقافه.

لم تظهر معظم الأعراض حتى منتصف يوليو. قبل ذلك، كنت أقرأ بإخلاص آخر كتب الخال فكتور، ثم أبيعها لشاندلر فى الشارع. كلما اقتربْتُ من النهاية كانت الكتب تربكنى أكثر. كنت أشعر بعينى تلامسان الكلمات على الصفحة، لكن لم يعد هناك معنى يصل إلىَّ، أو أصوات يتردد صداها فى رأسى. بدت العلامات السوداء مذهلة تمامًا، مجموعة عشوائية من الخطوط والمنحنيات لا تفصح إلا عن خرسها. فى النهاية، لم أتظاهر حتى بفهم ما أقرؤه. أسحب كتابا من الكرتونة، وأفتحه على أول صفحة، ثم أحرك إصبعى بطول السطر الأول. حين أصل إلى النهاية، أبدأ فى السطر الثانى، ثم السطر الثالث وهكذا حتى نهاية الصفحة. بتلك الطريقة أنهى المهمة: مثل كفيف يقرأ بطريقة برايل. إذا لم أر الكلمات، أود لمسها على الأقل. ساءت الأمور جدا بالنسبة لى، وبدا أن لذلك معنى حقا. لمست كل الكلمات فى تلك الكتب، ولذلك كان لى حق بيعها.

وشاءت الصدفة أن آخذ آخر الكتب إلى شاندلر فى اليوم الذى هبط فيه رواد الفضاء على القمر. حصلت على أكثر من تسعة دولارات بقليل من بيعها، وأنا عائد إلى برودواى بعد ذلك، قررت التوقف عند بار ومطعم "كوين"، استراحة محلية صغيرة فى الركن الجنوبى الشرقى من شارع ١٠٨، كان الجو حارا جدا فى ذلك اليوم، وبدا أنه ليس هناك أى ضرر فى إنفاق عشرين سنتا على البيرة. جلسْتُ على مقعد بجوار ثلاثة أو أربعة من أشخاص عاديين، مستمتعًا بالأضواء الشاحبة وبرودة مكيف الهواء. كان جهاز التليفزيون الملون الكبير مفتوحًا، يتلألأ بشكل غريب على زجاجات "الراى" و"البوربون"، هكذا شاهدت الحدث. رأيت شخصين مبطنين يخطوان أولى خطواتهما فى ذلك العالم الخالى من الهواء، مندفعين مثل دميتين فى مشهد طبيعى، يقودان عربة جولف خلال الغبار، غارسين علمًا فى عين ما كان يعتبر ذات يوم ربة الحب والجنون. فكرْتُ: ديانا المشعة، صورة كل ما هو معتم فى أعماقنا. ثم تكلم الرئيس. بصوت رزين

جامد، أعلن أن هذا أعظم حدث منذ خلق الإنسان. ضحك المقيمون فى البار حين سمعوا هذا، وأعتقد أننى ابتسمت مرة أو اثنتين. لكن بكل عبثية تلك الإشارة، كان هناك شىء واحد لا يستطيع أحد أن يتحداه: منذ اليوم الذى طرد فيه آدم من الجنة، لم يبتعد قط كل هذا البعد عن موطنه.

لوقت قصير بعد ذلك، عشْتُ فى هدوء تام تقريبا. كانت شقتى خالية، لكن بدلا من أن يحبطنى هذا كما اعتقدْتُ، بدا أن هذا الخواء منحنى شعوراً بالراحة. أحتار تماما فى تفسير هذا، لكن صارت أعصابى فجأة أكثر ثباتًا، وفى الأيام الثلاثة أو الأربعة التالية بدأْتُ تقريبا أتعرف على نفسى مرة أخرى. إنه أمر مثير للفضول أن أستخدم مثل هذه الكلمة فى هذا السياق، لكن فى تلك الفترة القصيرة التى تلت بيع آخر كتب الخال فكتور، ذهبْتُ إلى درجة أن أصف نفسى بأننى "سعيد". مثل شخص مصاب بالصرع على حافة نوبة، دخلت ما يشبه عالمًا غريباً بدأ كل شىء يسطع فيه، يبعث نقاء جديدا مدهشاً. لم أفعل الكثير فى تلك الأيام. تجولت فى غرفتى، تمددت على مرتبتى، سجلت أفكارى فى كراسة. لم أبالِ حتى عدم فعل أى شىء بدا مهمًا بالنسبة لى، ولم أشعر بوخز لترك الساعات تمر فى كسل. من وقت لآخر، أنغرس بين النافذتين وأشاهد يافطة قصر القمر. حتى ذلك كان ممتعًا، وبدا دائما أنه يولد سلسلة من الأفكار المهمة. تلك الأفكار مبهمة إلى حد ما بالنسبة لى الآن- مجموعات من التداعيات الوحشية، دائرة متعرجة من أحلام اليقظة- لكن فى ذلك الوقت شعرْتُ أنها بالغة الأهمية. ربما تغيرت كلمة "القمر" بالنسبة لى بعد أن رأيت الرجلين يتجولان على سطحه. ربما أذهلتنى صدفة أننى قابلت رجلا اسمه نيل أرمسترُنج فى بويز بولاية إداهو، ثم أشاهد رجلا بالاسم نفسه يحلق إلى الفضاء الخارجى. ربما ببساطة كنْتُ أهذى من الجوع، وقد شلَّتْنى أضواء اليافطة. لا أستطيع أن أتأكد من هذا، لكن الحقيقة أن كلمتى "قصر القمر" بدأتا تسيطران على ذهنى بكل سر كاهن وفتنته. اختلط فى ذهنى كل شىء على الفور: الخال فكتور والصين، سفن الصخور والموسيقى، ماركو بولو والغرب الأمريكى. نظرت إلى اليافطة وبدأْتُ أفكر فى الكهرباء. وقادنى ذلك إلى انقطاع الكهرباء فى السنة الأولى فى الجامعة، وقادنى بدوره إلى مباريات البيسبول التى جرت فى "ريجلى

فيلد"، التى أعادتنى إلى الخال فكتور والشموع التذكارية التى احترقت على حافة نافذتى. كل فكرة تؤدى إلى أخرى، ملتفة بشكل لولبى فى كتل أكبر من الترابط. فكرة السفر إلى المجهول، على سبيل المثال، والتماثل بين كولومبس ورواد الفضاء. اكتشاف أمريكا، فشلى فى الوصول إلى الصين؛ الطعام الصينى ومعدتى الخاوية؛ تفكير فى الطعام من أجل التفكير، وفى الرأس باعتباره قصرا للأحلام. أفكر: مشروع أبوللو؛ أبوللو إله الموسيقى؛ الخال فكتور وفرقة "رجال القمر" يسافرون إلى الغرب. أفكر: الغرب؛ الحرب ضد الهنود؛ الحرب فى فيتنام، وكانت تسمى ذات يوم الهند الصينية. أفكر: الأسلحة، القنابل، التفجيرات؛ السحب النووية فى صحراء "يوتا" و"نيفادا"؛ ثم أتساءل: لماذا يبدو الغرب الأمريكى شبيها جدا بمشهد طبيعى على القمر؟ استمر الأمر كثيراً على هذا النحو، وكلما تأملت هذه التطابقات السرية أكثر، شعرت أننى أقرب إلى فهم حقيقة جوهرية عن العالم. ربما كنت مجنونًا، لكننى مع ذلك شعرت بقوة هائلة تتدفق داخلى، بهجة غنوصية تخترق بعمق قلب الأشياء. ثم، فجأة، فجأة كما اكتسبت هذه القوة، فقدْتُها. عشْتُ فى أفكارى ثلاثة أيام أو أربعة، وذات صباح استيقظْتُ لأجد أننى فى مكان آخر: عدت إلى عالم الشظايا والجدران البيضاء العارية. كافحْتُ لاستعادة توازن الأيام السابقة، ولم أستطع. العالم يضغط علىَّ مرة أخرى، وكنت ألتقط أنفاسى بالكاد.

دخلْتُ فترة جديدة من الدمار. جعلنى الإصرار أستمر إلى ذلك الوقت، لكننى شعرْتُ بعزيمتى تضعف تدريجيا، وبحلول أول أغسطس كنْتُ على وشك الانهيار. بذلْتُ أقصى ما عندى للاتصال بعدد من الأصدقاء، مستعدا تماما لطلب قرض، لكن لم يثمر هذا عن شيء. التمشية المنهكة بضع مرات فى الحر، ملء جيب من الدايمات المهدرة. كنا فى الصيف، وبدا أن الجميع غادروا المدينة. حتى زيمر، الذى أعرف أننى أستطيع الاعتماد عليه، تلاشى بشكل غريب. سرْتُ إلى شقته فى شارع أمستردام وشارع ١٢٠ عدة مرات، لكن لم يرد أحد على الجرس. وضعت رسائل فى صندوق البريد وتحت الباب، ولم يأت رد. بعد ذلك بكثير، عرفْتُ أن زيمر انتقل إلى شقة أخرى. حين سألته عن السبب فى أنه لم يخبرنى بالعنوان الجديد، قال إننى أخبرته بأننى سأقضى

الصيف فى شيكاغو. نسيت هذه الكذبة، بالطبع، لكننى حينذاك كنت قد اخترعت الكثير من الكذب، ولم أعد أستطيع تتبعها.

ولما كنت لا أعرف أن زيمر رحل، واصلت الذهاب إلى الشقة القديمة وترك الرسائل تحت الباب. فى صباح يوم أحد فى أوائل أغسطس، حدثت النهاية الحتمية. رننْتُ الجرس، متوقعًا تمامًا ألا يكون هناك أحد، حتى إننى استدرْتُ لأغادر بمجرد ضغط الزر، لكننى سمعت حركة من داخل الشقة: حك كرسى، وقع خطوات، كحة. غمرنى شعور بالارتياح، لكنه تلاشى تمامًا بعد لحظة حين فتح الباب. الشخص الذى ينبغى أن يكون زيمر لم يكن زيمر. كان شخصا آخر تمامًا: شابا بلحية قاتمة مجعدة وشعر يتدلى على كتفيه. عرفت أنه استيقظ للتو، حيث إنه لم يكن يرتدى سوى سروال داخلى. "ماذا يمكن أن أفعل لك؟" سأل وهو يتفحصنى بود وإن يكن بتعبير مرتبك بعض الشىء، وفى تلك اللحظة سمعْتُ ضحكًا من المطبخ (خليطًا من أصوات ذكور وإناث) وأدركْتُ أننى ذهبت إلى حفلة من نوع ما.

قلت: "أعتقد أننى أخطأْتُ المكان. أبحث عن ديفيد زيمر".

قال الغريب، دون تردد: "أوه، لابد أنك فُجّ. كنت أتساءل متى تعود مرة أخرى".

كان يوما قاسيا فى الخارج- يوما حارا محرقا- وقد أنهكنى المشى تقريبا. وأنا أقف أمام الباب، والعرق يتساقط فى عينىَّ وأشعر بعضلاتى مرتخية ومخدرة، تساءلت إن كنت قد سمعْتُ الغريب بشكل صحيح. شعرت بدافع للاستدارة والهرب، لكننى شعرْتُ فجأة بأننى ضعيف جدا لدرجة أننى خفت من أن أفقد الوعى. وضعت يدى على إطار الباب لأسند نفسى وقلت: "آسف، هل يمكن أن تكرر ما قلت؟ أظن أننى لم أسمعه أول مرة".

كرر الغريب: "قلت لابد أنك فُجّ. الأمر بسيط تماما حقا. إذا كنت تبحث عن زيمر، فلابد أن تكون فُجّ. فُجّ هو الشخص الذى ترك كل الرسائل تحت الباب".

قلْتُ: متنهدا تنهيدة صغيرة مرتجفة: "يا لك من ذكى جدا. لا أفترض أنك تعرف مكان زيمر الآن".

"آسف. ليست لدى أدنى فكرة".

مرة أخرى، بدأت أحشد شجاعتى لأنصرف، لكن وأنا على وشك أن أستدير، رأيْتُ الغريب يحدق فيَّ. كانت نظرة غريبة ثاقبة، موجهة إلى وجهى مباشرة. سألْتُه: "فيه حاجة غلط؟"

"أتساءل فقط إن كنت من أصدقاء كيتى".

قلْتُ: "كيتى؟ لا أعرف أحدًا اسمه كيتى. لم أقابل قط فى حياتى أحدًا اسمه كيتى".

"إنك ترتدى قميصًا مثل قميصها، مما جعلنى أظن أنك ترتبط بها بشكل ما".

نظرْتُ إلى صدرى ورأيت أننى أرتدى تى شيرت فريق "ميتس". اشتريته من سوق للنثريات فى وقت مبكر من السنة بعشرة سنتات. قلت: "إننى حتى لا أحب ميتس. إننى أشجع كوبز".

واصل الغريب، متجاهلا ما قلْتُ: "صدفة غريبة. ستحب كيتى هذا. إنها تحب مثل هذه الأشياء".

قبل أن يترك لى فرصة للاعتراض، قادنى من ذراعى إلى المطبخ. وهناك وجدت مجموعة من خمسة أشخاص أو ستة يجلسون حول المائدة يتناولون فطور الأحد. كانت المائدة مكتظة بالطعام: لحم خنزير مملح وبيض، براد ممتلئ بالقهوة، خبز وجبن بالكريم، طبق من السمك المدخن. لم أر شيئًا مثل هذا من شهور، ولم أعرف كيف أتصرف. بدا الأمر وكأننى صرت فجأة فى حكاية من حكايات الجنيات. كنت طفلا جائعًا تائهًا فى الغابة، وعثرت على منزل سحرى، كوخ مشيد من الطعام.

أعلن مضيفى عارى الصدر مبتسما: "انظروا جميعا. إنه توأم كيتى".

فى تلك اللحظة كنت حول المائدة. ابتسم لى الجميع وحيونى وبذلت قصارى جهدى لأرد لهم الابتسامة. وتبين لى أن معظمهم طلاب فى "جويليارد" – موسيقيون

وراقصون ومغنون. اسم المضيف جيم أو جون، وقد انتقل إلى شقة زيمر القديمة فى اليوم السابق. وكان الآخرون فى حفل فى تلك الليلة، كما قال أحدهم، وبدلا من أن يعودوا إلى بيوتهم بعد ذلك، قرروا النزول عند جيم أو جون بفطور مرتجل بمناسبة انتقاله إلى شقة جديدة. وهذا يفسر أنه كان بلا ملابس (كان نائمًا حين رنوا الجرس) وكميات الطعام التى أراها أمامى. أومأت بأدب حين أخبرونى بهذا كله، لكننى تظاهرت فقط بأننى أسمع. والحقيقة أننى ما كنت أستطيع أن أكون أقل اهتماما، والقصة على وشك الانتهاء، كنت قد نسيت أسماءهم جميعا. رغبة فى القيام بشىء أفضل، تفحصت أختى التوأم، فتاة صينية ضئيلة الجسم فى التاسعة عشرة أو العشرين بأساور فضية فى رسغيها وشريط نافاهو(١) به خرز حول رأسها. ردت على نظرتى بابتسامة- شعرت أنها ابتسامة دافئة بشكل استثنائى، ممتلئة بروح الدعابة والتواطؤ- ثم التفت مرة أخرى إلى المائدة، عاجزا عن إبعاد عينى عنها وقتا طويلا. أدركْتُ أننى على حافة الارتباك. بدأت رائحة الطعام تعذبنى، وأنا أقف هناك فى انتظار أن يدعونى للجلوس، كان كل ما أستطيعه ألا آخذ قبضة من شىء وأدفعها فى فمى.

كسرتْ كيتى الجليد فى النهاية. قالت: "الآن هذا أخى هنا"، وكان من الواضح أنها تدخل فى روح اللحظة، "أقل ما يمكن أن نفعله أن ندعوه إلى الانضمام معنا على الفطور". وددت أن أقبلها لأنها قرأتْ ما يدور فى ذهنى على هذا النحو. لكن تبع ذلك لحظة بشعة حين لم يعثر على كرسى إضافى، لكن كيتى أنقذت الموقف مرة أخرى، مشيرة إلىَّ بالجلوس بينها وبين الشخص الذى على يمينها. حشرت نفسى فورا فى البقعة، غارسا ردفًا على كل كرسى. كان أمامى طبق مع الأدوات الضرورية: سكين وشوكة وكأس وكوب، وفوطة مائدة وملعقة. بعد ذلك دخلت مستنقع تناول الطعام والنسيان. كانت استجابة طفولية، لكن بمجرد دخول الطعام فمى، لم أسيطر على نفسى. ابتلعت طبقا بعد آخر، ملتهمًا كل ما يوضع أمامى، وفى النهاية بدا وكأننى

---

(٢) نافاهو Navaho: من الشعوب الأمريكية الأصلية.

فقدْتُ عقلى. حيث بدا كرم الآخرين لا نهائيا، واصلت تناول الطعام حتى اختفى كل ما كان على المائـدة. هكذا أتـذكر الأمر، على أى حـال. أكلت بنهم لخمس عشرة دقيقة أو عشرين، وحين انتهيت لم يبقَ سوى كوم من عظام السمك الأبيض. لا شىء أكثر من هذا. أفتش فى ذاكرتى عن شىء آخر، ولا أستطيع أبداً أن أجد شيئا. لم يكن هناك شىء. لم تكن هناك كسرة خبز.

وقتها فقط لاحظت كيف يحدق الآخرون فىَّ بشكل متعمد. هل كان الأمر سيئا بهذا الشكل؟ تساءلت. هل سال لعابى وجعلت من نفسى فرجة؟ تحولت إلى كيتى وابتسمت لها ابتسامة واهية. لم تبد مشمئزة بقدر ما كانت مذهولة. وقد طمأننى هذا بعض الشىء، لكنى أود أن أقدم ترضية عن أى إزعاج قد أكون سببته للآخرين. كان هذا أقل ما يمكن أن أفعله، على ما أظن: أبرر موقفى، أجعلهم ينسون كيف لعقْتُ أطباقهم. وأنا أنتظر فرصة لأدخل فى المحادثة، أدركت باطراد كم كان طيبا أن أجلس بجوار توأمى المفقودة من وقت طويل. من اندفاع الكلام حولى، عرفْتُ أنها راقصة، ولاشك فى أنها فعلت لتيشيرت ميتس الذى ترتديه أكثر بكثير مما فعلت للتيشيرت الخاص بى. كان من الصعب ألا تثير الإعجاب. وهى تواصل الحديث والضحك مع الآخرين، ظللت ألقى نظرات خاطفة لها. لم تكن تضع مكياجا ولم تكن ترتدى حمالة صدر، لكن كان هناك رنين مستمر للأساور والحلق وهى تتحرك. كان ثدياها رائعين، وكانت تعرضهما بلامبالاة جديرة بالإعجاب، لا تتباهى بهما ولا تتظاهر بأنهما غير موجودين. رأيتُ أنها جميلة، لكن الأكثر من ذلك أننى أحببت الطريقة التى ترى بها نفسها، لا تبدو مفتونة بجمالها كما تفعل الكثير من الفتيات الجميلات. ربما كانت حرية إيماءاتها، السمة الواقعية الصريحة التى أسمعها فى صوتها. لم تكن طفلة مدللة من الطبقة الوسطى مثل الأخريات، كانت تعرف طريقها، وتمكنت من معرفة بعض الأشياء. حقيقة أن رحبت باقتراب جسدى، ولم تبتعد عن كتفى أو ساقى، وتركت حتى ذراعها العارى بجوار ذراعى- أشياء دفعتنى إلى حد الحماقة.

وجدْتُ مدخلا للمناقشة بعد بضع لحظات. بدأ شخص الحديث عن الهبوط على القمر، ثم أعلن شخص آخر أن ذلك لم يحدث قط حقا. قال إن المسألة كلها خدعة، عرض تليفزيونى رائع رتبته الحكومة لتبعد أذهاننا عن الحرب. وأضاف ذلك الشخص: "سوف يصدق الناس أى شىء يُطلَب منهم تصديقه، حتى لو كان هراء تافها تم تصويره فى أستوديو فى هوليوود". كان ذلك كل ما أحتاج إليه لأجد مدخلى. قافزا بأغرب ملاحظة يمكن أن أفكر فيها، أكدت بهدوء أن الهبوط على القمر فى الشهر الأخير لم يكن حقيقيا، لكنها ليست أول مرة بحال من الأحوال. قلت إن الرجال كانوا يذهبون إلى القمر لمئات السنين وربما لآلاف السنين. ضحك الجميع حين قلْتُ ذلك، لكننى انطلقْتُ حينها إلى أفضل أساليبى الكوميدية المتحذلقة، وفى الدقائق العشر التالية أمطرتهم بتاريخ معرفة القمر، متخما بإشارات إلى "لوسيان" و"جودوين" وآخرين. أردْتُ أن أثير إعجابهم بما أعرف، وأردْتُ أيضا أن أضحكهم. ثملا بالوجبة التى انتهيت منها للتو، عازما على أن أبرهن لكيتى على أننى لست مثل أى شخص آخر التقته به، عملت على أن أبدو فى أحسن شكل، وقد شدهم جميعا أدائى الحاد المتقطع. ثم بدأت أصف رحلة "سيرانو" إلى القمر، وقاطعنى شخص. قال الشخص إن "سيرانو دى بيرجيرك" ليس حقيقيا، إنه شخصية فى مسرحية، رجل متخيل. لم أستطع أن أترك هذا الخطأ دون تصويب، ومن ثم استطردت استطرادا قصيرا لأحكى لهم قصة حياة سيرانو. رسمت صورة لأيامه الأولى كجندى، مناقشا مساره فيلسوفا وشاعرا، ثم أسهبت بعض الشىء فى الشدائد المتنوعة التى واجهته عبر السنين: مشاكل مالية، فترة عذاب مع الزهرى، معاركه مع السلطات بشأن آرائه الراديكالية. حكيت لهم كيف وجد فى النهاية فى دوق "أربايو" حاميا، وبعد ثلاث سنوات فقط، كيف قُتِل فى شارع فى باريس حين سقط حجر من بناية من السقف على رأسه. توقفْتُ بشكل درامى لتستقر غرابة هذه التراجيديا وروح الدعابة فيها تستقر. قلت: "كان فى السادسة والثلاثين فقط، وحتى اليوم لا أحد يعرف إن كان ذلك حادثا أم لا. هل قتله أحد أعدائه، أم أنها مجرد صدفة، مصير أعمى يصب دمارا من السماء؟ واحسرتاه، سيرانو المسكين. لم يكن هذا ملفَّقًا، يا أصدقائى. كان كائنا من لحم ودم، رجلا حقيقيا عاش فى العالم الحقيقى، وفى ١٦٤٩ كتب كتابا عن رحلته إلى القمر. حيث قدم وصفا

مباشرا، ولا أرى سببا للشك فيما يقول. طبقا لسيرانو، القمر عالم مثل هذا العالم. حين تُرَى أرضنا من ذلك العالم تبدو بالضبط كما نرى القمر من هنا. تقع جنة عدن على القمر، وحين أكل آدم وحواء من شجرة المعرفة، طردهم الرب إلى الأرض. المحاولات الأولى لسيرانو للسفر إلى القمر بربط زجاجات من ندى أخف من الهواء حول جسمه، لكن ما أن وصل إلى منتصف المسافة حتى سبح عائداً إلى الأرض وهبط وسط قبيلة من الهنود العراة فى نيو فرانس(١) وهناك صنع آلة أخذته فى النهاية إلى غايته، مما يوضح أن أمريكا كانت دائما المكان المثالى للانطلاق إلى القمر. وكان الناس الذين التقاهم على القمر يبلغ طولهم ثمانية عشر قدمًا ويمشون على أربع. ويتحدثون بلغتين مختلفتين، لكن لا تحتوى أى منهما على أى كلمة. الأولى يستخدمها عامة الشعب، شفرة معقدة من إيماءات البانتوميم تتطلب حركة مستمرة من كل أجزاء الجسم. واللغة الثانية تتحدث بها الطبقات العليا، وتتكون من صوت نقى، همهمة معقدة ومبهمة تشبه الموسيقى إلى حد بعيد. لا يأكل أهل القمر بابتلاع الطعام لكن بشمه. نقودهم الشِّعْر، قصائد حقيقية، مكتوبة على قطع من الورق تتحدد قيمتها بقيمة القصيدة نفسها. العذرية أسوأ جريمة، ويتوقع من الشباب أن يظهروا عدم الاحترام لآبائهم. كلما كان أنف المرء أطول، اعتبر أكثر نبلا. يُخصَى الرجال ذوو الأنوف القصيرة، لأن شعب القمر يفضل الموت كله ولا يعيش بهذه البشاعة. هناك كتبٌ ناطقةٌ ومدنٌ جوالةٌ. حين يموت فيلسوف عظيم يشرب أصدقاؤه دمه ويأكلون لحمه. تتدلى قضبان برونزية من خصور الرجال- بالطريقة التى كان يحمل بها الفرنسيون السيوف فى القرن السابع عشر. كما يشرح رجل من القمر لسيرانو المرتبك: أليس من الأفضل أن تفتخر بأدوات الحياة من أن تفتخر بأدوات الموت؟ يقضى سيرانو جزءًا كبيراً من الكتاب فى قفص. لأنه صغير الجسم جدا، يعتقد أهل القمر أنه لابد أن يكون ببغاء دون ريش. فى النهاية، ألقاه رجل أسود ضخم إلى الأرض مع المسيح الدجال".

---

(١) نيو فرانس New France: ممتلكات فرنسا فى أمريكا الشمالية من القرن السادس عشر حتى معاهدة باريس سنة ١٧٦٣.

ثرثرت على هذا النحو عدة دقائق أخرى، لكن الحديث أنهكنى، وشعرت بنفَسى يضعف. فى منتصف كلمتى الأخيرة (عن جول فيرن ونادى "بلتيمور جن")، خذلنى تمامًا. انكمش رأسى ثم كبر بشكل هائل؛ رأيْتُ أضواء خاصة ومذنبات تندفع خلف عينىَّ؛ بدأتْ معدتى تقعقع، تنتفخ بألم يشبه طعنات خنجر، وشعرْتُ فجأة بالمرض. دون كلمة تنبيه، توقفت عن محاضرتى، وابتعدْتُ عن المائدة، وأعلنت عن رغبتى فى الانصراف. قلْتُ: "أشكركم على عطفكم، لكن ورائى عمل عاجل. أنتم أناس أعزاء طيبون. وأعد بأن أتذكركم جميعا مستقبلا". كان أداء مشوَّشًا، رقصة مجنون. وأنا أخرج من المطبخ، أسقطت فنجان قهوة، وتلمست طريقى إلى الباب. وحين وصلت إلى هناك كانت كيتى تقف بجوارى. حتى اليوم، لا أعرف كيف نجحت فى الوصول إلى هناك قبلى.

قالت: "أنت أخ غريب جدا، تبدو مثل رجل، لكنك تتحول إلى ذئب. ثم يصبح الذئب آلة ناطقة. لك كل الأفواه، أليس كذلك؟ الطعام أولا، ثم الكلمات- إلى الفم ومنه. لكن نسيت أفضل ما خلقت من أجله الأفواه. أنا أختك، على الرغم من كل شىء، ولن أتركك تمضى دون أن تقبلنى قبلة الوداع".

بدأْتُ أعتذر، لكن كيتى، قبل أن تسنح لى الفرصة لأقول أى شىء، وقفت على أصابع قدميها، ووضعت يدها خلف عنقى وقبلتنى، شعرت أنها برقة شديدة، تكاد تكون شفقة. لم أعرف كيف أتصرف. هل يفترض أن أعتبرها قبلة حقيقية، أم مجرد جزء من اللعبة؟ قبل أن أقرر، ملْتُ صدفة بظهرى إلى الباب، وفتح الباب. شعرْتُ وكأنها رسالة إلى، إشارة سرية إلى أن الأمور انتهت، وهكذا، دون كلمة أخرى، خرجْتُ من الباب بظهرى، واستدرت وقدماى تعبران العتبة، وانصرفت.

بعد ذلك، لم تكن هناك وجبات مجانية أخرى. حين وصل الإنذار الثانى للطرد فى الثالث عشر من أغسطس، كان معى آخر سبعة وثلاثين دولارا. وكان ذلك هو اليوم الذى جاء فيه رواد الفضاء إلى نيويورك لعرض شرائط التلغراف. سجل قسم البلدية فيما بعد أن ثلاثمائة طن من القمامة ألقيت فى الشوارع أثناء الاحتفالات. قالوا إنه

رقم قياسى، أكبر عرض فى تاريخ العالم. ظللت بعيدا عن هذه الأمور. لا أعرف إلى أين أتجه بعد ذلك، تركْتُ شقتى بأقل ما يمكن، محاولا أن أحتفظ بما تبقى لى من قوة مهما تكن. رحلة قصيرة إلى الركن للإمدادات والعودة مرة أخرى، لا شيء أكثر من ذلك. تسلخت مؤخرتى من تجفيف نفسى بالحقائب الورق البنية التى حملتها إلى البيت من السوق، لكن كانت الحرارة أكثر ما أعانى منه. كان الهواء فى الشقة لا يحتمل، سكون خانق يهددنى ليل نهار، ومهما فتحْتُ النافذتين، لم تكن نسمة تدخل الغرفة. تدفق العرق من مسامى باستمرار، حتى إذا جلسْتُ فى مكان واحد، وحين أتحرك فى أى مكان عموما، يحدث طوفان. شربت ماء بقدر ما يمكن. أخذت حمامات باردة، ووضعت رأسى تحت الحنفية، وضغطت فوطا مبللة على وجهى وعنقى ورسغى. قدم هذا ارتياحا ضئيلا، لكننى على الأقل كنت أحافظ على نظافتى. لم يتبق من الصابون فى الحمام إلا قطعة بيضاء صغيرة، احتفظْتُ بها للحلاقة. ولأن مخزونى من الشفرات انخفض أيضا، اكتفيْتُ بالحلاقة مرتين أسبوعيًا، ونظمتهما بعناية ليكونا فى اليومين اللذين أخرج فيهما للتسوق. على الرغم من أن الأمر لم يكن مهمًا، لكننى كنْتُ أجد عزاء فى الحفاظ على مظهرى.

وكان التخطيط للحركة التالية أساسيا. لكن ما كان يجعلنى، بدقة، أكثر اضطرابا، أننى لم أعد أستطيع القيام بهذا التخطيط. فقدْتُ القدرة على التفكير فيما سيأتى، بصرف النظر عما أبذله من محاولات لتخيل المستقبل، لم أستطع أن أراه، لم أستطع رؤية أى شىء. كان المستقبل الوحيد الذى ينتمى لى هو الحاضر الذى أعيش فيه، وقد غمر الكفاح للبقاء فى الحاضر الباقى تدريجيا. لم يعد لدى أفكار. تتجلى اللحظات لحظة بعد أخرى، وفى كل لحظة يقف المستقبل أمامى خاويا، صفحة بيضاء من الشك. إذا كانت الحياة قصة، كما قال الخال فكتور لى كثيرا، وكان كل إنسان مؤلفا لقصته، لكنت ألفتها كما اتفق. كنت أعمل دون حبكة، أكتب كل جملة حين تأتينى وأرفض التفكير فى الجملة التالية. ربما كل شىء على ما يرام، لكن لم يعد السؤال إن كنت أستطيع كتابة القصة من رأسى. كان السؤال عما يفترض أن أفعله حين ينتهى الحبر من القلم.

كانت الكلارينت لا تزال هناك، قابعة فى جرابها بجوار سريرى. أشعر الآن بالعار من الاعتراف بذلك، لكننى كدت أنهار وأبيعها. والأسوأ من ذلك، أننى ذهبت ذات يوم إلى درجة أن آخذها إلى محل للموسيقى لأعرف ثمنها. وحين رأيت أنها لن تجلب ما يكفى لتغطية إيجار شهر، تخليت عن الفكرة. كان هذا هو الشىء الوحيد الذى جعلنى القيام به أشعر بالإهانة. والوقت يمر، أدركت أننى على وشك اقتراف الإثم الذى لا يغتفر. كانت الكلارينت آخر ما يربطنى بالخال فكتور، ولأنها الأخيرة، لأنه لا توجد آثار أخرى منه، كانت تحمل القوة الكاملة لروحه بداخلها. كلما نظرْتُ إليها، كنت أشعر بالقوة فى نفسى. كانت شيئًا ينبغى الارتباط به، قطعة من الحطام أتمسك بها لأبقى طافيًا.

بعد زيارتى لمحل الموسيقى بعدة أيام، كدت أغرق فى كارثة صغيرة. من بين أصابعى انزلقت البيضتان اللتان كنت على وشك أن أضعهما فى إناء به ماء لأسلقهما لوجبتى اليومية، وانكسرتا على الأرضية. كانتا آخر بيضتين من مئونتى حينها، ولم أستطع مقاومة الشعور بأن هذا أفظع ما حدث لى وأكثره بشاعة. سقطت البيضتان على الأرض بارتطام بشع. أتذكر وقوفى فى هلع وهما تنزان على الأرضية. غطست الأجزاء الداخلية الشفافة المغمورة بأشعة الشمس فى الشقوق، وفجأة انتشرت القذارة فى كل مكان، قذارة متناثرة من اللزوجة والقشر. نجا صفار بيضة بمعجزة من الوقوع، لكن حين انحنيْتُ لألتقطه، انزلق من تحت الملعقة وتفكك. شعرْتُ وكأن نجمًا انفجر، وكأن شمسًا هائلة ماتتْ. تمدد الصفار على البياض ثم بدأ يدوِّمان، وتحولا إلى سديم هائل، بقايا غازات ما بين النجوم. كان كل ذلك كثيرا جدا بالنسبة لى، القشة التى قضمت ظهر البعير. حين حدث هذا، جلستْ فعلا وبكيْتُ.

محاولا السيطرة على انفعالاتى، خرجْتُ وتناولْتُ وجبة فى "قصر القمر". لم تكن لى حيلة. الشفقة على النفس دفعت إلى التبذير، واحتقرت نفسى للاستسلام لهذا الاندفاع. وليصل اشمئزازى إلى أبعد من ذلك، بدأْتُ بحساء البيض[١] عاجزا عن

---

(١) حساء البيض egg drop soup: حساء صينى من بيض مضروب فى شربة دجاج مسلوق.

مقاومة فساد التورية. وتبعت ذلك بفطائر محمرة، وطبق من الجمبرى بالتوابل، وزجاجة من البيرة الصينية. لكن سموم أفكارى أبطلت جودة هذه التغذية التى ربما ساعدتنى. ازدردت الأرز تقريبًا. لم يكن عشاء، كما قلت لنفسى، كانت الوجبة الأخيرة، ما يقدمونه للمحكوم عليه قبل أن يجروه إلى المشنقة. مرغما نفسى على مضغه، وتمريره فى حلقى، تذكرت تعبيرا من آخر رسالة من "رالى" إلى زوجته، كتبها ليلة إعدامه: أفكارى تتحطم. لا يمكن أن يكون هناك شىء مناسب أكثر من هذه الكلمات. فكرت فى رأس رالى مقطوعًا، وقد احتفظت به زوجته فى صندوق زجاجى. فكرت فى رأس سيرانو، وقد هشمه الحجر الذى سقط عليه. ثم تخيلت رأسى يتشقق، ويتناثر مثل البيضتين اللتين سقطتا على أرضية غرفتى. شعرت بأفكارى تتساقط منى. رأيت نفسى ممزقًا.

تركْتُ بقشيشًا كبيرًا للنادل، وعدْتُ إلى منزلى. حين دخلْتُ البهو، توقفت بشكل روتينى عند صندوق بريدى واكتشفْتُ أن به شيئا ما. باستثناء إنذارات الطرد، كان أول بريد يصلنى فى ذلك الشهر. للحظة وجيزة تخيلت أن فاعل خير مجهولا أرسل شيئًا إلىَّ، لكننى فحصت الرسالة لأجد أنها مجرد إنذار من نوع آخر. كان على أن أقدم تقريرا للجيش عن اللياقة البدنية فى السادس عشر من سبتمبر. نظرًا لحالتى فى تلك اللحظة، استقبلت الخبر بهدوء. بدا صعبًا أن أبالى بمكان سقوط الحجر. قلت لنفسى، فى نيويورك أو الهند الصينية، يؤدى الأمر فى النهاية إلى النتيجة نفسها. إذا كان كولومبس قد خلط بين أمريكا والصين، فمن أنا لأعترض على الجغرافيا؟ دخلْتُ شقتى ووضعت الرسالة فى جراب كلارينت الخال فكتور. فى دقائق نسيْتُ كل ما يتعلق بها.

سمعت طرقًا على الباب، لكننى قررت أن معرفة الطارق لا تستحق العناء. كنت أفكر ولا أريد لأحد أن يشغلنى عن تفكيرى. بعد ساعات، سمعْتُ الطرق مرة أخرى. كان الطرق هذه المرة مختلفا عن الطرق فى المرة الأولى، ولا أعتقد أن الطارق كان الشخص نفسه. كان ضربا فظا ووحشيا، قبضة غاضبة ترج الباب من مفاصله، وكان

فى المرة الأولى نقرا بإصبع واحد برسالة هادئة وودودة على الخشب. قلبت هذه الاختلافات فى ذهنى لساعات، متأملا ثروة معلومات الإنسان المدفونة فى مثل هذه الأصوات البسيطة. إذا كان الطرق فى المرتين بفعل شخص واحد، أظن إذن أن التباين دليل على إحباط رهيب، واضطررت بشدة للتفكير فى من يكون هذا الشخص الذى يستميت لرؤيتى. وهذا يعنى أن تفسيرى الأول كان صحيحًا. كانا شخصين. واحد جاء بصداقة، والآخر دون صداقة. ربما كان أحدهما امرأة، والآخر ليس امرأة. ظللت أفكر فى الأمر حتى هبط الليل. بمجرد ما أدركت الظلام، أشعلْتُ شمعة، ثم واصلت التفكير فى الأمر حتى نمْتُ. لكننى فى كل ذلك الوقت لم أتساءل عمن قد يكون هذان الشخصان. والأهم أننى لم أبذل جهدا لأفهم لماذا لا أريد أن أعرف.

بدأ الطرق مرة أخرى فى صباح اليوم التالى. وحين استيقظت بشكل يكفى لأن أعرف أننى لا أحلم، سمعْتُ صليل مفاتيح فى الردهة- طرق عال كالرعد انفجر فى رأسى. فتحْتُ عينىَّ، وفى تلك اللحظة دخل مفتاح فى القفل. دار المزلاج، وفتح الباب، ودخل الغرفة "سيمون فيرناندز"، مراقب المبنى. يلعب بلحيته المعتادة التى لم تحلق من يومين، يرتدى البنطلون الكاكى نفسه والتيشيرت الأبيض اللذين يرتديهما من بداية الصيف- وقد صار زيا حقيرا، ملطخا بهباب رمادى وبقع عشرات الوجبات. نظر مباشرة فى عينىَّ وتظاهر بأنه لا يرانى. منذ الكريسماس، حين لم أستطع أن أعطيه بقشيشه السنوى (نفقة أخرى من الكتب)، تحول إلى شخص عدوانى. لم تعد هناك تحيات، لم يعد هناك حديث عن الطقس، لم يعد هناك قصص عن ابن عمه من "بونس" الذى يجعلها تقريبا نقطة التقاء مع هنود كليفلاند[١] ثأر فيرناندز بالتصرف وكأننى غير موجود، ولم نكن قد تبادلنا كلمة منذ شهور. لكن فى صباح ذاك اليوم المشهود، كان هناك قلب غير متوقع فى الاستراتيجية. تمشى حول الغرفة لحظات، ينقر

---

(١) بونس Ponce : مدينة جنوب بورتوريكو. كليفلاند Cleveland: مدينة شمال شرق أوهايو.

الجدران كأنه يفتش فيها عن تلف، ثم يمر بجوار السرير للمرة الثانية أو الثالثة، ويتوقف، ويستدير، واندهش ببطء مبالغ فيه وهو يلاحظني أخيرا. قال: "يا يسوع المسيح، ألا تزال هنا؟"

قلتُ: "لا أزال هنا. بطريقة ما".

قال فيرناندز: "ستكون في الخارج اليوم. الشقة مؤجرة لأول الشهر، وسيأتي ويلي بعمال الطلاء صباح الغد. لا تريد أن يجرك رجال الشرطة ليخرجوك من هنا، أليس كذلك؟"

"لا تقلق. سأكون في الخارج في متسع من الوقت".

نظر فيرناندز حول الغرفة بعجرفة مالك، وهز رأسه اشمئزازاً. "هنا مكان يا صديقي. إذا لم تمانع في أن أقول ذلك، يذكرني بالتابوت. بواحد من تلك الصناديق، المصنوعة من خشب الصنوبر، التي يطمرون المتسولين فيها".

قلتُ: "كان النقَّاش في إجازة. صممنا لدهن الجدران ببيض أبي الحناء[1] الأزرق. لكننا لم نتأكد من أنه يناسب طوب المطبخ. واتفقنا على أن نفكر في الأمر بعض الشيء قبل أن نندفع بتهور".

"ولد جامعي أنيق مثلك، تعاني من مشكلة من نوع ما أو ماذا؟"

"لا توجد مشكلة. بعض العقبات المالية، هذا كل ما في الأمر. ركد السوق مؤخرا".

"إذا كانت في حاجة إلى نقود، فعليك أن تعمل للحصول عليها. هكذا أرى الأمر، إنك تجلس فقط على مؤخرتك طوال اليوم. مثل شمبانزي في حديقة الحيوان، تعرف ماذا أعني؟ ما كنت تعجز عن دفع الإيجار إن لم تكن بلا عمل".

---

(١) أبو الحناء robin : طائر صغير صدره أحمر ضارب إلى الصفرة.

"لكن لدى عمل. أستيقظ فى الصباح مثل الآخرين جميعًا، ثم أرى إن كنت أستطيع أن أعيش يوما آخر. إنه عمل دوام كامل. لا راحة لتناول القهوة، لا إجازة فى آخر الأسبوع، لا إعانات أو إجازات. لا أشكو، تذكَّرْ، لكن الراتب منخفض تماماً".

"تبدو لى مثل مشكلة كبيرة. مشكلة ولد جامعى أنيق".

"لا تغالِ فى تقدير الجامعة. لا تغال إطلاقا، ليست كما يزعم الناس".

قال فيرناندز، مبديا بعض التعاطف فجأة: "لو كنت مكانك لعرضت نفسى على طبيب. أعنى، يلقى عليك نظرة فقط. إنك حزين تماما يا رجل. لقد ضمرت تماما. لم يتبق إلا بعض العظام".

"إننى على نظام غذائى. من الصعب أن تبدو جيدا وأنت تعيش على بيضتين مسلوقتين يوميا".

قال فيرناندز مستغرقًا فى أفكاره: "لا أعرف. يبدو الأمر أحيانًا وكأن الجميع فى طريقهم إلى الجنون. إذا كنت تريد أن تعرف ما أفكر فيه، أفكر فى تلك الأشياء التى تنطلق فى الفضاء. كل هذا الهراء الغريب، تلك الأقمار الصناعية والصواريخ. ترسل أناسا إلى القمر، يجب أن يحدث شيء ما. لا يمكن أن تمزح مع السماء ولا تتوقع حدوث شىء".

فتح نسخة صحيفة "ديلى نيوز" التى يحملها فى يده اليسرى وأرانى الصفحة الرئيسية. هذا هو البرهان، آخر جزء من الدليل. فى البداية لم أتبين الأمر، لكننى رأيت بعد ذلك صورة من الجو لحشد. فى الصورة عشرات الآلاف من البشر، كتلة هائلة من البشر، أشخاص أكثر مما رأيْتُ فى أى مكان من قبل وودستوك[1] لم يكن لذلك علاقة بما يحدث داخلى حينذاك، لم أعرف فيما أفكر. كان هؤلاء الناس فى عمرى، لكننى شعرْتُ بأنهم ربما يقفون على كوكب آخر.

---

(١) وودستوك Woodstock: أظن أن الإشارة هنا إلى مهرجان للموسيقى والفنون أقيم فى أمريكا من ١٥ إلى ١٨ أغسطس ١٩٦٩.

انصرف فيرناندز. بقيْتُ حيث كنت عدة دقائق، ثم نزلت من السرير وارتديت ملابسي. لم يستغرق الأمر وقتا طويلا لأستعد. ملأت حقيبة ظهر ببعض النثريات، ودسست جراب الكلارينت تحت ذراعي، وخرجْتُ من الباب. كنا في أواخر أغسطس ١٩٦٩على ما أتذكر، كانت الشمس ساطعة بشدة في ذلك الصباح، ونسمة ضعيفة تهب من النهر. اتجهْتُ إلى الجنوب، توقفْتُ لحظة، ثم خطوْتُ خطوة. ثم خطوْتُ خطوة أخرى، وبهذه الطريقة بدأْتُ أسير في الشارع. لم أنظر إلى الخلف مرة.

من تلك اللحظة، تصبح القصة أكثر تعقيدا. يمكننى أن أدوِّن هنا ما حدث لى، لكن بصرف النظر عن الدقة والكمال اللذين أفعل بهما ذلك، فإن تلك الأشياء لا تمثل أكثر من جزء من القصة التى أحاول أن أرويها. تورط أناس آخرون، وفى النهاية كانت علاقتهم بما يحدث لى تساوى علاقتى به. أفكر فى "كيتى وو"، فى زيمر، فى أناس لم يكونوا معروفين لى فى ذلك الوقت. بعد ذلك بكثير، على سبيل المثال، عرفت أن كيتى هى التى جاءت إلى شقتى وطرقت بابى. تنبهت ببعض تصرفاتى الغريبة فى فطور الأحد، وبدلاً من تستمر قلقة بشأنى، قررت البحث عنى لترى إن كنْتُ على ما يرام. كان العثور على عنوانى مشكلة. بحثت عنه فى دليل التليفونات فى اليوم التالى، لكن حيث إننى لم يكن لدى تليفون، لم تكن هناك بيانات تتعلق بى. زاد قلقها. تذكرتْ أننى كنت أبحث عن زيمر، وبدأت البحث عنه بنفسها؛ لاعتقادها بأنه ربما يكون الشخص الوحيد فى نيويورك الذى يمكن أن يخبرها بمكانى. لسوء الحظ، لم ينتقل زيمر إلى شقته الجديدة إلا فى النصف الثانى من أغسطس، بعد ذلك بعشرة أيام أو اثنى عشر يوما. فى لحظة سقوط البيضتين على أرضية غرفتى تقريبا، عرفت رقمه من الاستعلامات. (حدث ذلك تقريبا فى الدقيقة نفسها، عرفنا ذلك ونحن نستعيد التتابع الزمنى لفسر الأمر). اتصلت بزيمر على الفور، لكن كان خطه مشغولا. استغرق الأمر عدة دقائق لتصل إليه، لكن حينذاك كنت أجلس بالفعل فى قصر القمر، مشتتا أمام طعامى. بعد ذلك، أخذت النفق إلى "أبر ويست سايد". استمرت الرحلة أكثر من ساعة، وحين وصلت إلى شقتى، كان الوقت متأخرا جدا. استغرقْتُ فى التفكير، ولم أرد على طَرْقها. أخبرتْنى بأنها وقفت أمام الباب خمس دقائق أو عشر دقائق. سمعتنى أكلم نفسى فى الداخل (كانت الكلمات مكتومة ولم تتبين معناها)، وبشكل مفاجئ تماما، بدا أننى بدأْتُ أغنى- غناء نشازا مجنونا، كما قالت- لكننى لا أتذكر ذلك إطلاقًا. طرقت مرة أخرى، لكننى مرة أخرى بقيت حيث كنت. غير راغبة فى إزعاجى، استسلمت فى النهاية وانصرفتْ.

هكذا شرحت كيتى الأمر لى. بدت القصة مقبولة جدا فى البداية، لكن بمجرد التفكير فيها، بدت أقل إقناعًا. قلتُ: "مازلت لا أفهم لماذا أتيتِ. لم نلتق إلا مرة واحدة، ولم أكن أعنى لك شيئًا حينذاك. لماذا تعرضت لكل هذه المشاكل من أجل شخص لا تعرفينه؟"

نأت كيتى بعينيها بعيدا عنى ونظرت إلى الأرض، وقالت بهدوء تام: "لأنك أخى".

"كانت مجرد نكتة. لا يعرض الناس أنفسهم لمثل هذا من أجل نكتة".

"لا، أظن لا"، قالت، ببعض اللامبالاة. ظننت أنها ستواصل، لكن انقضت عدة ثوانٍ، ولم تنطق بكلمة أخرى.

قلْتُ: "حسنا. لماذا فعلْتِ ذلك؟"

نظرت إلىَّ لحظة وجيزة، ثم ثبتت عينيها على الأرض مرة أخرى، وقالت: "لأننى اعتقدْتُ أنك فى خطر. اعتقدْتُ أنك فى خطر، ولم أشعر قط بمثل هذا الأسف من أجل أى شخص فى حياتى".

عادت إلى شقتى فى اليوم التالى، لكننى كنت قد رحلْتُ بالفعل. كان الباب مواربا، وحين فتحته وعبرت العتبة، وجدت فيرناندز يلف فى الغرفة، يعبئ أشيائى بغضب فى أكياس زبالة من البلاستيك ويلعن بصوت منخفض جدا. كما وصفت كيتى الأمر، بدا مثل شخص يحاول أن ينظف الغرفة من رجل مات بالطاعون: يتحرك باندفاع فى هلع واشمئزاز، وكان تقريبا لا يلمس أشيائى خوفا من العدوى. سألت فيرناندز إن كان يعرف أين ذهبت، لكن لم يكن هناك ما يخبرها به. قال إننى ولد مجنون ملعون ابن عاهرة، وإذا كان لابد أن يقول أى شىء، فربما زحفْتُ إلى مكان ما بحثا عن حفرة أموت فيها. انصرفت كيتى عند هذه النقطة، وعادت إلى الشارع، واتصلت بزيمر من أول كابينة تليفون وجدتْها. كانت شقته الجديدة فى شارع "بنك" فى "ويست فيلج"، لكن حين سمع ما أخبرته به، ترك ما يفعله واندفع إلى شمال المدينة

ليقابلها. هكذا أُنقِذْتُ فى النهاية: لأن الاثنين خرجا وبحثا عنى. لم أعرف ذلك حينها، بالطبع، لكن بمعرفة ما أعرف الآن، من المستحيل أن أتطلع إلى تلك الأيام دون الشعور بموجة من الحنين إلى الصديقين. قفزت من حافة الهاوية، وأنا على وشك الارتطام بالقاع، حدثَ شىء استثنائى: عرفْتُ أن هناك من يحبنى. الحب على هذا النحو يغيِّر الأمور تمامًا. لا يخفف هلع السقوط، لكنه يقدم منظورا جديدا لمعنى الهلع. قفزْتُ من الحافة، وفى اللحظة الأخيرة بالضبط، امتد شىء والتقطنى وسط الهواء. شىء أسميه الحب. إنه الشىء الذى يمنع الإنسان من السقوط، الشىء الذى تبطل قوته قوانين الجاذبية.

لم تكن لدى فكرة واضحة عما سأفعله. حين تركْتُ شقتى فى أول صباح، بدأْتُ السير ببساطة، ماضيا إلى حيث تقرر قدماى أن تأخذانى. إذا كانت لدى أى فكرة، فقد كانت أن أترك الفرصة تحدد ما يحدث، أن أتتبع مسار الدافع والأحداث العشوائية. سارت خطواتى الأولى جنوبا، وهكذا واصلْتُ السير جنوبا، مدركا بعد بناية أو اثنتين أنه ربما يكون من الأفضل أن أغادر حيى على أى حال. لاحظْتُ كم أضعف الزهو عزيمتى فلم أستطع الانفصال عن بؤسى، الزهو وإحساس بالعار. كنْتُ مروَّعًا مما سمحت بأن يحدث لى، ومن عدم رغبتى فى التعرض لخطر رؤية أى شخص أعرفه. السير شمالا يعنى "مورننجسايد هايتس"، والشوارع هناك مليئة بالوجوه الأليفة. إن لم أصطدم أصدقاء، فمن المؤكد أننى سأصطدم بأناس يعرفوننى بالشكل: الحشدِ القديم من بار "ويست إند"، زملاءِ دراسة، أساتذةٍ سابقين. لم تكن لدى الشجاعة لتحمل نظراتهم إلى، تحديقهم، تأملاتهم الحائرة. والأسوأ من هذا، أصابنى الهلع من فكرة التحدث إلى أى منهم.

اتجهت جنوبًا، وفى بقية إقامتى فى الشوارع، لم أضع قدما فى شمال برودواى مرة أخرى. كان فى جيبى ستة عشر دولارا أو عشرون، وسكين وقلم جاف؛ وفى حقيبة الظهر سويتر، وجاكيت جلد، وفرشاة أسنان، وماكينة حلاقة وثلاث شفرات، وجورب إضافى، وغيار داخلى، وكراسة خضراء صغيرة وقلم رصاص محشور فى السلك اللولبى. شمال "دائرة كولومبس" بالضبط، بعد أقل من ساعة من انطلاقى فى رحلتى، وقع حدث لا يحتمل. وأنا أقف أمام محل لتصليح الساعات، أتفحص آلية ساعة قديمة

فى الفاترينة، نظرت فجأة لأجد تحت قدمى ورقة بعشرة دولارات. ارتجفت بدرجة جعلتنى لا أعرف كيف أتصرف. كان ذهنى مشوَّشًا بالفعل، وبدل أن أعتبرها ضربة حظ، أقنعت نفسى بأن شيئا بالغ الأهمية حدث للتو: حدث دينى، معجزة بمعنى الكلمة. وأنا أنحنى لألتقط النقود وأرى أنها حقيقية، ارتجفْتُ طربًا. كل شىء يتحسن، كما قلت لنفسى، كل شىء يصبح على ما يرام فى النهاية. دون التوقف لتأمل الأمر أكثر، دخلت كوفى شوب يونانى وتناولت فطور فلاح: عصير جريب فروت، كورنفلكس، وفخذ خنزير وبيض، قهوة، وأشياء إضافية. اشتريت حتى علبة سجائر بعد تناول الوجبة وبقيت على الطاولة لأشرب كوبا آخر من القهوة. سيطر علىَّ إحساس طاغ بالسعادة والرفاهية، حب جديد للعالم. بدا لى كل ما فى المطعم مدهشا: الآنية البخارية للقهوة، المقاعد التى تدور على محور، والتوسترات ذات الأقسام الأربعة، والآلات الفضية لصناعة منتجات الألبان، والفطائر الرقيقة الطازجة معبأة فى آنيتها الزجاجية. شعرْتُ وكأننى أولد من جديد، وكأننى على حافة اكتشاف قارة جديدة. شاهدت نادل الطاولة يمارس عمله وأنا أدخن سيجارة أخرى ماركة "الجمل"، ثم التفتُّ إلى النادلة كريهة الرائحة بشعرها الأحمر المستعار. كان فى الاثنين شىء مؤثر لا يمكن التعبير عنه. أردت أن أخبرهما كم يعنيان بالنسبة لى، لكن الكلمات لم تخرج من فمى. فى الدقائق القليلة التالية، جلست فى غبطتى، أستمع إلى أفكارى. كان ذهنى يتدفق هذيانا، جلبة من الأفكار الحماسية جدا. ثم احترقت سيجارتى حتى العقب، واستجمعْتُ قوتى وتحركْتُ.

فى العصر صار الجو خانقًا. ولما كنت لا أعرف ماذا أفعل بنفسى، دخلْتُ إحدى قاعات السينما التى تعرض ثلاثة أفلام فى الشارع الثانى والأربعين بالقرب من ميدان "تايمز". أغوانى مكيف الهواء، ودخلت المكان دون وعى، دون حتى أن ألقى نظرة على الإعلان فى المدخل لأعرف ما يُعرَض. بتسعة وتسعين سنتا، أريد أن أجلس لأرى أى شىء. أخذت مقعدا فى قسم المدخنين فى الدور العلوى، ودخنْتُ ببطء عشر سجائر أو اثنتى عشرة سيجارة ماركة الجمل، وأنا أشاهد أول فيلمين، نسيت اسميهما الآن. كانت السينما من تلك الأماكن الرائعة المبهرجة التى شيدت فى فترة الركود: ثريات

معلقة فى البهو، سلالم من الرخام، زخارف ركوكية[1] على الجدران. لم تكن سينما بقدر ما كانت ضريحًا مقدَّسًا، معبدًا أقيم لتمجيد الوهم. ونظرا لارتفاع الحرارة فى الخارج بدا أن جزءا كبيرا من مشردى نيويورك كانوا هناك فى ذلك اليوم. كان هناك سكارى ومدمنون، رجال على وجوههم جرب، رجال يهمهمون مع أنفسهم ويردون على الممثلين على الشاشة، رجال يشخرون ويضرطون، رجال يتبولون فى بنطلوناتهم. طاقم من المرشدين يعسون بين الأجنحة بالكشافات، ليروا إن كان هناك أحد نائم. كان الصخب محتملا، لكن كان يبدو أن فقدان الوعى ضد القانون فى هذه السينما. كلما وجد مرشد رجلا نائمًا يسلط كشافه فى وجهه مباشرة ويطلب منه أن يفتح عينيه. إذا لم يستجب الرجل، كان المرشد يذهب إلى مقعده ويهزه حتى يستجيب. وكان المتمردون يطردون من السينما، غالبا مع اعتراضات مريرة بصوت مرتفع. حدث ذلك ست مرات أثناء العصر. ولم يحدث لى هذا إلا بعد ذلك بكثير ربما والمرشدون يبحثون عن أجساد ميتة.

لم أدع شيئًا من هذا يزعجنى. كنت باردا وهادئا وقانعًا. نظرا للشكوك التى تنتظرنى بمجرد الخروج من هناك، قبضْتُ على الأمور بقوة كبيرة. ثم بدأ الفيلم الثالث، وفجأة شعرْتُ بالأرض تميل بداخلى. تبين أنه "حول العالم فى ٨٠ يوما"، الفيلم الذى شاهدْتُه مع الخال فكتور فى شيكاغو قبل أحد عشر عامًا. ظننت أننى سأستمتع برؤيته مرة أخرى، ولوقت قصير اعتبرت نفسى محظوظا بجلوسى فى السينما فى اليوم المضبوط حين بدأ عرض هذا الفيلم، هذا الفيلم، من بين كل الأفلام فى العالم. بدا وكأن القدر يرعانى، وكأن حياتى فى حماية أرواح خيِّرة. لكن، بعد وقت قصير، اكتشفت دموعا غريبة لا تفسير لها تتكون خلف عينىَّ. فى اللحظة التى تدافع فيها "فيليس فُجّ" و"باسبرتوت" إلى بالون الهواء الساخن (فى موضع ما فى النصف ساعة

---

(١) ركوكية rococo: أسلوب فى فن العمارة يتميز بالتعقيد الشديد ظهر فى فرنسا فى القرن الثامن عشر.

الأولى من الفيلم)، انفتحت القنوات أخيرا، وشعرت بفيض حار ومالح من الدموع تحرق الوجنتين. عادت ألف مأساة طفولية عاصفة إليَّ، وعجزت عن صدها. أظن أن الخال فكتور لو رآني لانهار، لأصيب بأزمة قلبية. تحولت إلى عدم، رجل ميت اندفع دون تفكير إلى الجحيم. كان "ديفيد نيفين" و"كانتنفلاس" يحدقان خارج عربة بالونهما، طافيين على الريف الفرنسي المورق، وكنت في الظلام مع مجموعة من السكارى، أنتحب على حياتي البائسة حتى فقدْتُ القدرة على التنفس. وقفت من مقعدي وشققت طريقي إلى منفذ الخروج في الدور الأرضي. في الخارج، انقض على الأصيل بالضوء، وأحاطني بدفء مفاجئ. قلت لنفسي إنني أستحق هذا. صنعْتُ عدمي، وعليَّ أن أعيش فيه.

هكذا سارت الأمور لعدة أيام تالية. تغيرت حالاتي المزاجية بتهور من القمة إلى الحضيض، متنقلا بكثرة بين البهجة واليأس حتى تحطم عقلي من الرحلة. كان يمكن لأي شيء تقريبا أن يتبدل: مواجهة مفاجئة مع الماضي، ابتسامة عابرة من غريب، طريقة سقوط الضوء على الرصيف في ساعة معينة. كافحْتُ لأحقق بعض التوازن في نفسي، لكن دون جدوى: لم يكن هناك سوى عدم الاستقرار، والاضطراب، ونزوات شنيعة. في لحظة أنهمك في بحث فلسفي، واثقًا تمامًا من قرب الانضمام إلى صفوف المستنيرين؛ وفي اللحظة التالية أبكي وأنهار تحت وطأة الألم. كان استغراقي في ذاتي قويا، ولم أعد أرى الأمور على حقيقتها: صارت الأشياء أفكارًا، وكل فكرة جزءًا من دراما تمثل في أعماقي.

كان الجلوس في غرفتي وانتظار سقوط السماء فوقي شيئا، وكان الاندفاع إلى الخارج شيئا آخر تماما. في خلال عشر دقائق من خروجي من السينما، فهمْتُ في النهاية ما أواجهه. كان الليل يقترب، وقبل أن تمر ساعات كثيرة جدا، عليَّ أن أجد مكانًا للنوم. بشكل لافت كما يبدو لي الآن، لم أفكر قط بجدية في هذه المشكلة. افترضتُ أنها ستحل نفسها بشكل ما، وأن الثقة في الحظ الأعمى الأبكم كافية. لكن بمجرد أن بدأْتُ مسح المواقع من حولي، رأيْتُ كم كانت موحشة حقا. قلت لنفسي لن أتمدد على الرصيف مثل متشرد، مستلقيا طوال الليل ملفوفا في جرائد. سأكون

عرضة لكل مجنون فى المدينة إذا فعلْتُ ذلك؛ وكأنها دعوة لشخص ما ليقطع رقبتى. وحتى لو لم أتعرض لهجوم، كنت متأكدا من القبض على للتشرد. ومن الناحية الأخرى، ماذا كانت احتمالات العثور على ملاذ؟ رفضت فكرة قضاء الليل فى فندق رخيص. لا أتخيل نفسى مستلقيا فى غرفة بها مئات المفلسين والمشردين، علىَّ أن أتنفس روائحهم، وأستمع إلى نخير المسنين يلعن أحدهم الآخر. لا أريد جزءا فى مكان بهذا الشكل، حتى لو مجانا. كانت هناك أنفاق، بالطبع، لكننى أعرف مقدما أننى لن أستطيع إطلاقا أن أغلق عينىَّ هناك- لن أستطيع مع الترنح والضجيج وأضواء الفلوريسنت، لن أستطيع حين أفكر فى أنه قد يأتى شرطى مرور فى أى لحظة ويحطم عصاه فى أخمص قدمى. تجولت عدة ساعات فى رعب، محاولا التوصل على قرار. اخترْتُ فى النهاية "السنترال بارك"، لأننى منهك بدرجة تجعلنى لا أستطيع التفكير فى شىء آخر. فى حوالى الساعة الحادية عشرة وجدت نفسى أسير فى الشارع الخامس، أمرر يدى دون وعى على الجدار الحجرى الذى يفصل المتنزه عن الشارع. تطلعت عبر الحائط، وجدت المتنزه الضخم غير المأهول، وأدركْتُ أنه لا يوجد أمامى أفضل من ذلك فى تلك الساعة. فى أسوأ الظروف، ستكون الأرض ناعمة هناك، ورحبتُ بفكرة الاستلقاء على العشب، والقدرة على النوم فى مكان لا يرانى أحد فيه. دخلْتُ المتنزه فى مكان ما قرب متحف "متروبوليتان"، مرتحلا باتجاه الداخل لعدة دقائق، ثم زحفت تحت أجمة. لم أكن فى وضع يسمح لى بالتطلع إلى أفضل من ذلك. سمعت قصصا مرعبة عن المنتزه، لكن فى تلك اللحظة تغلب التعب على الخوف. إذا لم توارنى الأجمة عن الأنظار، على ما أظن، هناك دائما سكينى أدافع بها عن نفسى. كومت الجاكيت الجلدى لأستخدمه وسادة، ثم ارتبكت برهة وأنا أحاول أن أشعر بالراحة. بمجرد توقفى عن الحركة، سمعت صوت؛ الليل فى شجيرة مجاورة. بعد لحظات، بدأت نسمة خفيفة تحرك الأغصان والفروع الرفيعة حول رأسى. لم أعد أعرف فيما أفكر. لم يكن فى السماء قمر فى تلك الليلة، ولا نجم. نمت فورا قبل أن أتذكر إخراج السكين من جيبى.

استيقظت وأنا أشعر كأننى نمت فى صندوق سيارة. كان الوقت بعد الفجر بالضبط، وكل جسمى يؤلمنى، وتقلصت عضلاتى. خلصت نفسى بحذر شديد من

الأجمة، لاعنا ومتأوها وأنا أتحرك، ثم تفحصت ما حولى. قضيت الليل على حافة ملعب سوفت بول(١) ممددا فى أرض مشجرة خلف دائرة وسط الملعب(٢) كان الملعب فى منخفض ضحل من الأرض، وفى تلك الساعة المبكرة كانت هناك بقعة، من ضباب رمادى رقيق، معلقة على العشب. لم يكن هناك أحد على مرمى البصر. حلقت بعض العصافير وغردت حول القاعدة الثانية فى الملعب، ونعب أبو زريق أزرق على الشجرة فوق رأسى. كانت نيويورك، لكنها نيويورك لا علاقة بتلك التى عرفْتُها دائماً. كانت خالية من التداعيات، موضعاً يمكن أن يوجد فى أى مكان. وأنا أقلب هذه الفكرة فى ذهنى، خطر لى فجأة أننى فعلت ذلك فى الليلة الأولى. لا أقول إننى ابتهجت بالإنجاز- تضرر جسدى كثيرا جدا بالنسبة لهذا- لكننى كنت أعرف أننى أنجزت عملا مهماً. فعلته فى الليلة الأولى، وإذا فعلْتُه مرة، فلا يوجد سبب يجعلنى أظن أننى لا أستطيع أن أفعله مرة أخرى.

نمت فى المتنزه كل ليلة بعد ذلك. صار ملاذا لى، ملجأ داخلى مقابل المتطلبات الطاحنة للشوارع. هناك ثمانمائة وأربعون فدانا أطوف فيها، وعلى عكس الشبكات الهائلة من المنازل والأبراج التى تتبدى خارج المحيط، قدم لى المنتزه فرصة العزلة، الانفصال عن بقية العالم. فى الشوارع، كل شىء أجساد وفوضى، ولا يمكنك، شئت أم أبيت، دخولها دون أن تلتزم ببروتوكول سلوكى صارم. السير بين الحشود يعنى ألا تسير قط أسرع من أى شخص آخر، ألا تتخلف قط عن جارك، ألا تفعل شيئاً يعيق تدفق حركة الإنسان. إذا لعبْتَ بقواعد هذه اللعبة، فسوف يتجاهلك الناس. هناك بريق خاص يؤثر على عيون سكان نيويورك وهم يسيرون فى الشوارع، شكل طبيعى وربما ضرورى من اللامبالاة بالآخرين. لا يهم كيف تبدو، على سبيل المثال. ملابس شنيعة، تسريحات غريبة، تى شيرتات عليها شعارات بذيئة- لا أحد يلتفت إلى هذه الأشياء.

---

(١) سوفت بول softball: نوع من البيسبول يلعب على ملاعب أصغر بكرة أكبر وأنعم.

(٢) دائرة وسط الملعب home plate: فى البيسبول، مكان يقف اللاعب بجواره لرمى الكرة، وآخر مكان يمكن أن يتلامس فيه اللاعبون لإحراز هدف.

ومن الناحية الأخرى، الطريقة التى تتصرف بها داخل ملابسك بالغة الأهمية. أى إيماءات غريبة من أى نوع تعتبر بشكل تلقائى تهديداً. التحدث مع النفس بصوت مرتفع، الهرش، النظر إلى شخص فى عينه مباشرة: هذه انحرافات يمكن أن تثير عداء وأحيانا ردود فعل عنيفة ممن حولك. ينبغى ألا تترنح أو تنتشى، ينبغى ألا تتشبث بالجدران، ينبغى ألا تغنى. ومن المؤكد أن كل أشكال السلوك العفوى أو اللاإرادى تستدعى التحديق، والملاحظات اللاذعة، أو حتى دفعة عابرة أو ركلة فى قصبة الساق. لم أتماد إلى الحد الذى يجعلنى أتلقى معاملة من هذا النوع، لكننى رأيت ذلك يحدث للآخرين، وكنت أعرف أنه قد يأتى فى النهاية وقت لا أسيطر فيه على نفسى. فى المقابل، سمحت لى الحياة فى "السنترال بارك" بمجال أوسع بكثير من المتغيرات. لا أحد يبالى إذا تمددْتَ على العشب ونمت فى منتصف النهار. لا أحد يرمش إذا جلسْتَ تحت شجرة ولم تفعل شيئا. إذا عزفْتَ على الكلارينت، إذا نبحْتَ بأعلى صوت. وباستثناء عمال المكتب الذين ينسلون حول حواف المتنزه فى ساعة الغداء، معظم من يأتون إلى هنا يتصرفون وكأنهم فى إجازة. الأشياء نفسها التى تثيرهم فى الشوارع يتغاضون عنها هنا وتعتبر تسلية عادية. يتبادل الناس الابتسامات، وتتشابك أيديهم، ويحنون أجسادهم بأشكال غير معتادة، ويتبادلون القبل. كانت القاعدة "عش ودع الآخرين يعيشون"، وطالما لا تتدخل بفاعلية فيما يفعله الآخرون، فأنت حر فى أن تفعل ما تحب.

لاشك فى أن المتنزه وفَّر لى عالمًا طيباً. منحنى خصوصية، لكن الأكثر من ذلك أنه سمح لى بالتظاهر بأننى لست بالسوء الذى أنا عليه بالفعل. الأشجار والأعشاب ديمقراطية، وأنا أتسكع فى الشمس الساطعة بعد العصر، أو أتسلق بين الصخور فى أول المساء لأبحث عن مكان للنوم، أشعر بأننى أمتزج بالبيئة، حتى بالنسبة للعين المدربة يمكن أن أبدو أحد المتنزهين أو الممثلين المتجولين حولى. لا تسمح الشوارع بهذه الأوهام. وأنا أسير بين الحشود، أشعر سريعًا بالعار حين أدرك حقيقتى. بدوْتُ مثل بقعة، متشرد، زهرى من الفشل على جلد الجنس البشرى. أصبح كل يوم أقذر من اليوم السابق، أكثر رثاثة وتشوشا، أكثر اختلافًا من أى شخص آخر. فى المتنزه لم

يكن علىَّ أن أحمل هذه الأعباء المحيرة. منحنى عتبة، حدًا، طريقة للتمييز بين الداخل والخارج. إذا أرغمتنى الشوارع على أن أرى نفسى كما يرانى الآخرون، فقد منحنى المتنزه فرصة للعودة إلى حياتى الداخلية، للتمسك بنفسى بنقاء فيما يحدث داخلى. يمكن البقاء على قيد الحياة دون سقف فوق رأسك، كما اكتشفْتُ، لكن لا يمكنك العيش دون تحقيق توازن بين الداخل والخارج. حقق المتنزه ذلك لى. لم يكن بيتا بمعنى الكلمة، لكن لأى ملاذ آخر، كان قريبًا جدًا من أن يكون بيتًا.

ظلت أمور غير متوقعة تحدث لى هناك، أمور تبدو مستحيلة تقريبا بالنسبة لى وأنا أتذكرها الآن. ذات مرة، على سبيل المثال، سارت امرأة شابة بشعر أحمر ساطع ووضعت ورقة بخمسة دولارات فى يدى، هكذا بالضبط، دون أى تفسير. مرة أخرى، دعتنى مجموعة للانضمام إليهم لتناول الغداء على العشب. وبعد بضعة أيام، قضيت العصر كله ألعب مباراة سوفت بول. ونظرًا لحالتى الجسدية حينها، أديت أداء مشرفا (رميتان أو ثلاث رميات، مساك فى يسار الملعب)، وكلما جاء دور فريقى فى ضرب الكرة، كان اللاعبون الآخرون يعرضون علىَّ أشياء لآكلها وأشربها وأدخنها: سندوتشات وبسكويت، وعلب بيرة، وسيجار وسجائر. كانت لحظات سعيدة بالنسبة لى، ساعدتنى فى بعض الامتدادات المظلمة التى يبدو فيها أن حظى يتخلى عنى. ربما كان هذا كل ما عرضْتُ لأبرهن فى المقام الأول على أنك بمجرد أن تلقى بحياتك فى الرياح، سوف تكتشف أمورا لم تعرفها قط من قبل، أمورًا لا يمكن تعلمها فى ظل أى ظروف أخرى. كنت شبه ميت من الجوع، لكن كلما حدث لى أمر سعيد، لم أكن أنسبه للصدفة بقدر ما أنسبه لحالة ذهنية معينة. إذا استطعْتُ الحفاظ على توازن حقيقى بين الرغبة واللامبالاة، شعرْتُ بأننى أستطيع بشكل ما أن أجعل الكون يستجيب لى. بأي طريقة أخرى يمكن أن أحكم على التصرفات الاستثنائية الكريمة التى جربتها فى السنترال بارك"؟ لم أطلب قط شيئا من أحد، لم أتزحزح قط من بقعتى، لكن الغرباء كانوا يجيئون إلىَّ باستمرار ويمنحوننى المساعدة. لابد أن هناك قوة ما تنبعث منى إلى العالم، كما اعتقدْتُ، شيئًا يتعذر تحديده جعل الناس يودون القيام بذلك. بمرور الوقت، بدأْتُ ألاحظ أن الأمور الطيبة لا تحدث لى إلا حين أتوقف عن تمنيها. وإذا صح ذلك

فسيكون العكس صحيحًا أيضًا: تمنى الأمر بشدة يمنع حدوثه. هذه هى النتيجة المنطقية لنظريتى، لأننى إذا برهنْتُ لنفسى على أننى أستطيع جذب العالم، يتبع ذلك أيضا أننى أستطيع طرده. بتعبير آخر، لا تحصلُ على ما تريد إلا بأن بألا تريده. لا معنى لهذا، لكن التباس البرهان كان مغريا بالنسبة لى. لو أن متطلباتى لا يمكن الاستجابة لها إلا بعدم التفكير فيها، فإن كل أفكارى بالضرورة ذات نتائج عكسية. حين بدأت اعتناق هذه الفكرة، وجدْتُ نفسى مذهولا على حبل سيرك مستحيل من الوعى. لكن كيف لا تفكر فى جوعك وأنت جائعٌ دائمًا؟ كيف تسكت معدتك وهى تناديك باستمرار، تتوسل أن تمتلئ؟ المستحيل تجاهل هذه التوسلات أمر يتجاوز الاستطاعة. مرة ومرة، أستسلم لها، وبمجرد أن أفعل ذلك، أعرف تلقائيا أننى أدمر فرصى فى المساعدة. نتيجة لا مفر منها، صارمة ودقيقة مثل معادلة رياضية. وأنا قلق بشأن مشاكلى يدير العالم لى ظهره. لم يترك هذا فرصة لى سوى أن أعيل نفسى، أن أستجدى، أن أفعل أقصى ما أستطيع بنفسى. مضى الوقت، يوم أو يومان، وربما حتى ثلاثة أو أربعة، وتدريجيا تخلصت من أفكار الإنقاذ من ذهنى، استسلمْتُ للضياع. حينذاك فقط كانت المعجزات تحدث. كانت دائما تأتى فجأة مثل صاعقة من السماء. لا أستطيع توقعها، وبمجرد حدوثها، لم تكن هناك طريقة أعول بها على رؤية حدث آخر. وهكذا كانت كل معجزة المعجزة الأخيرة دائمًا. ولأنها الأخيرة، أُلقَى باستمرار إلى البداية، علىَّ باستمرار أن أبدأ المعركة مرة أخرى.

كنت أقضى جزءا من كل بحثًا عن الطعام فى المتنزه. ساعد هذا فى بقاء النفقات منخفضة، وسمح لى أيضا بتأجيل اللحظة التى يكون علىَّ فيها أن أغامر بالذهاب إلى الشوارع. بمرور الوقت كانت الشوارع أشد ما أخشاه، وسعيْتُ غالبًا لعمل أى شىء لأتجنبها. كانت الإجازات الأسبوعية تساعدنى غالبا. حين يكون الطقس جيدا، تأتى أعداد هائلة إلى المتنزه، وبسرعة عرفْتُ أن مع معظمهم ما يأكلونه هناك: كل أنواع الغداء والوجبات الخفيفة، مزودين أنفسهم بما يطمئن قلوبهم. ويؤدى هذا لا محالة إلى قمامة، كميات هائلة من أطعمة مرمية، لكنها صالحة للأكل. استغرق الأمر وقتا لأتكيف، لكن بمجرد أن قبلْتُ وضع هذه الأشياء فى فمى وقد لمست أفواه الآخرين بالفعل،

وجدْتُ غذاء من حولى لا ينتهى. بقايا بيتزا، أجزاء من الهوت دوج، أطراف سندوتشات ضخمة، علب مشروبات غازية ممتلئة جزئيا- تتناثر على المروج والصخور، تكتظ سلال المهملات بالكثير منها. لأقلل حساسيتى المفرطة، بدأتُ أطلق أسماء مضحكة على علب القمامة: سميتها المطاعم الأسطوانية، عشاء حظ الوعاء، صرر رعاية البلدية- أى شىء يبعدنى عن النطق بأسمائها الحقيقية. ذات مرة، وأنا أفتش فى إحداها، جاءنى شرطى وسألنى عما أفعل. تلعثمت بضع دقائق، وبشكل مفاجئ تماماً باغته بأننى طالب. قلت إننى أعمل فى مشروع للدراسات المدنية، وقد قضيت الصيف كله فى القيام ببحث إحصائى واجتماعى على محتويات علب القمامة فى المدن. لأدعم قصتى، مددت يدى فى جيبى وأخرجت بطاقة جامعة كولومبيا، على أمل ألا يلاحظ أن صلاحيتها انتهت فى يونيو. تفحص الشرطى الصورة مرة أخرى للمقارنة، ثم هز كتفيه. وقال تأكد فقط أنك لا توغل برأسك فيها. قد تصطدم فى إحداها إذا لم تحترس.

لا أقصد أن أوحى بأننى وجدت هذا لطيفًا. ليست هناك رومانسية فى الانحناء من أجل الفتات، وبصرف النظر عن الجدة فى البداية فإنها تبلى بسرعة. تذكرت مشهداً من كتاب قرأتُه ذات يوم، "لازاريلو دى تورميس"(١) يمشى فيه نبيل إسبانى جائع وفى فمه عود خلة ليعطى انطباعًا بأنه انتهى للتو من تناول وجبة كبيرة. بدأْتُ التمويه بأعواد الخلة أنا نفسى، أسعى دائما للحصول على حفنة منها حين أذهب إلى عربة طعام لتناول كوب من القهوة. تقدم لى شيئا أمضغه فى فترات الفراغ بين الوجبات، لكنها تضيف أيضا خاصية معينة لطيفة على مظهرى، على ما أظن، حالة من الاكتفاء الذاتى والهدوء. لم يكن ذلك كثيرا، لكننى كنت أحتاج إلى كل الدعائم التى يمكن أن أجدها. من الصعب بشكل خاص أن أصل إلى صفيحة قمامة وأنا أشعر أن الآخرين يراقبوننى، وكنت دائما أجتهد للحذر قدر المستطاع. إذا تفوق جوعى عموما

---

(١) لازاريلو دى تورميس Lazarillo de Tormes: رواية إسبانية قصيرة، تعود إلى القرن السادس عشر.

على محاذيرى، فذلك يرجع ببساطة إلى شدة جوعى. فى عدة مناسبات، سمعْتُ بالفعل أناسا يسخرون منى، ومرة أو اثنتين رأيْتُ أطفالا صغاراً يشيرون باتجاهى، يطلبون من أمهاتهم النظر إلى الرجل السخيف الذى يأكل القمامة. أشياء لا تُنسَى أبداً، مهما مر من زمن. كافحت للسيطرة على غضبى، لكننى يمكن أن أتذكر على الأقل حادثة زمجرت فيها بشدة فى ولد صغير فانفجر باكيا. لكننى، عموما، تمكنت من قبول هذه الإهانات باعتبارها جزءاً طبيعيا من الحياة التى أعيشها. فى أقوى حالاتى المزاجية، استطعت تفسيرها باعتبارها بدايات روحية، معوقات ألقيت فى مسارى لاختبار إيمانى بنفسى. إذا تعلمْتُ التغلب عليها، أصل فى النهاية إلى مرحلة أعلى من الوعى. فى حالاتى المزاجية الأقل بهجة، كنت أميل للنظر إلى نفسى من منظور سياسى، على أمل أن أبرر حالتى باعتبارها تحديا للطريقة الأمريكية. قلْتُ لنفسى إننى أداة للتخريب، جزء هش فى الآلة القومية، غير متوائم وظيفته إعاقة العمل. ما كان أحد يستطيع النظر إلى دون أن يشعر بالعار أو الغضب أو الشفقة. كنت برهانا حيا على فشل النظام، على أن أرض الوفرة الأنيقة المتخمة تتصدع فى النهاية.

كانت مثل هذه الأفكار تستغرق وقتا طويلا من ساعات يقظتى. كنت أعى دائما بحدة ما يحدث لى، لكن على الفور حدث شىء بأسرع مما يمكن أن يستجيب له ذهنى، مشتعلا بعاطفة متأججة. احترق رأسى من نظريات الكتب، والأصوات المتعاركة، والأحاديث الداخلية المفصلة. بعد ذلك، بعد إنقاذى، ظل زيمر وكيتى يسألاننى كيف لم أتمكن من عمل أى شىء طوال كل تلك الأيام. تساءلا: ألم أضجر؟ ألم أجد الأمر مملا؟ كانا سؤالين منطقيين، لكن الحقيقة أننى لم أضجر قط. كنت عرضة لكل أنواع الأمزجة والانفعالات فى المتنزه، لكن لم يكن الضجر من بينها. حين لا أكون مشغولا باهتمامات عملية (أبحث عن مكان للنوم فى الليل، أهتم بمعدتى)، كان يبدو أن لدى مجموعة من الأنشطة الأخرى علىَّ أن أواصلها. فى الضحى كنت أستطيع عموما العثور على جريدة فى سلة مهملات، وفى الساعة التالية أو نحو ذلك كنت أتصفحها بدأب، محاولا أن أبقى متماشياً مع ما يحدث فى العالم. استمرت الحرب، بالطبع، لكن كانت هناك

أخبار أتتبعها أيضا: تشاباكويديك(١) ثمانية شيكاغو(٢) محاكمة بلاك بانتر(٣) هبوط آخر على القمر، فريق "ميتس". تتبعْتُ السقوط المذهل لفريق "كوبز" باهتمام خاص، متعجبا من تفكك الفريق تماما. كان من الصعب بالنسبة لى ألا أرى التطابق بين سقوطه من القمة ووضعى الخاص، لكننى لم أتناول أى شىء من ذلك بشكل شخص. فيما يتعلق بذلك مباشرة، رضيْتُ إلى حد ما بالحظ الجيد لفريق "ميتس". كان تاريخه حتى أسوأ من تاريخ "كوبز"، وبدا أن مشاهدة صعودهم المفاجئ وغير المحتمل تماما من الأعماق دليل على أن أى شىء فى العالم ممكن. كان هناك عزاء فى تلك الفكرة. لم تعد العلية القوة الخلاقة التى تحكم العالم: من كان فى القاع صار فى القمة، والأخير صار الأول، وصارت النهاية البداية. بعث هرقليطس من كوم الروث وعليه أن يوضح لنا أبسط الحقائق: الواقع يويو، التغير هو الثابت الوحيد.

بمجرد تأمُّل أخبار اليوم، أتمشى عادة بعض الوقت فى المنتزه، أستكشف أماكن لم أزرْها من قبل. استمتعْتُ بمفارقة العيش فى عالم طبيعى من صنع الإنسان. كانت طبيعة مزينة، إذا جاز التعبير، تقدم تنوعا فى المواضع والتضاريس من النادر أن تقدمها الطبيعة فى مثل هذه المنطقة الكثيفة. هناك رواب وحقول، نتوءات حجرية وأدغال مورقة، أعشاب ملساء وشبكات متراصة من الكهوف. أحببت التجول ذهابا وإيابا بين

١- تشاباكويديك: حادث وقع فى ١٨ يوليو ١٩٦٩، حيث انحرفت سيارة إدوارد كيندى خارج جسر ضيق فى بحيرة بجزيرة تشاباكويديك، وعثر يوم ١٩ يوليو على جثة مارى كوبيتشن التى تعمل فى الحملة الانتخابية لشقيقه روبرت كيندى فى السيارة الغارقة.

٢- ثمانية شيكاغو Chicago Eight: فى إشارة إلى اتهام ثمانية من المنحرفين بالتآمر على مؤتمر الحزب الديمقراطى فى ١٩٦٨.

٣- محاكمة بلاك بانتر Black Panther trial: سلسلة من القضايا الإجرامية ضد عدد من أعضاء حزب بلاك بانتر فى ١٩٧٠.

هذه القطاعات المختلفة، لأنه جعلنى أشعر وكأننى مسافر عبر مسافات هائلة، حتى وأنا فى حدود عالمى الصغير. هناك حديقة حيوانات، بالطبع، فى أعماق المتنزه، وبركة حيث يستأجر الناس قوارب صغيرة ممتعة، والخزان، وملاعب الأطفال. قضيت وقتا طويلا أراقب الناس: أتفحص إيماءاتهم وطرق مشيهم، مبتكرا قصص حياة لهم، محاولا الانغماس تمامًا فيما أرى. غالبا، حين يكون ذهنى خاليا جدا، أنزلق إلى ألعاب غبية تستحوذ على ذهنى. أعد من يمرون ببقعة معينة، على سبيل المثال، أو أصنف الوجوه طبقا للحيوانات التى تشبهها: خنازير أو أحصنة، قوارض أو طيور، قواقع، جرابيات[1] أو قطط. أحيانا، أدون بسرعة بعض هذه الملاحظات فى كراستى، لكن لم أجد فى نفسى ميلا للكتابة غالبًا، لم أرغب فى الانصراف بجدية عما حولى. فهمْتُ أننى قضيت بالفعل وقتا طويلا جدا من حياتى أعيش فى الكلمات، وإذا كان لهذا الوقت أن يكون له معنى بالنسبة لى، فعلىَّ أن أعيش فيه بشكل تام قدر المستطاع، مبعِداً كل شىء إلا هنا والآن، إلا الملموس؛ كان مركز الإحساس الهائل يضغط على جلدى.

واجهْتُ أخطارا هناك أيضا، لكن لم يكن من بينها ما هو مفجع حقا، لم يكن من بينها ما لم أتمكن من التخلص منه فى النهاية. ذات صباح، جلس رجل عجوز بجوارى على دكة ، مد يده، وقدَّم نفسه باسم فرانك. قال: "يمكنك أن تدعونى بوب إذا أحببت. لست متكلفا. بالضبط طالما لا تدعونى "بل"، ستكون الأمور بيننا طيبة". ثم انطلق، دون توقف تقريبا، فى قصة معقدة عن القمار، وأسهب كثيرا فى رهان على ألف دولار فى ١٩٣٦ يتضمن حصانا اسمه "سيجريلو"، وقاطع طريق اسمه "دوك"، وسائس اسمه "تكس". لم أتابع بعد الجملة الثالثة، لكن كان هناك شىء ممتع فى حكايته المبعثرة شبه الملفقة، وحيث إنه بدا غير مؤذٍ تماما، لم أبالِ بالابتعاد عنه. لكن بعد عشر دقائق تقريبا

---

(١) جرابيات marsupials: ثدييات دون مشيمة مثل الكنجارو، توجد أساسا فى أستراليا وأمريكا.

فى المونولوج قفز فجأة من على الدكة وشد جراب الكلارينت، وكان فى حجرى. جرى إلى ممر الحصباء مثل عدَّاء معتل، يتحرك بخطوات قصيرة مرتبكة مثيرة للشفقة، وذراعاه وساقاه تندفع فى كل الاتجاهات بجنون. لم يكن اللحاق به صعباً. بمجرد أن لحقت به أمسكت بذراعه بقوة من الخلف، وأدرته، وانتزعت جراب الكلارينت من يديه. بدا مندهشًا من اهتمامى بمطاردته. قال: "ليست طريقة مناسبة للتعامل مع عجوز"، دون أن يبدى أى ندم على ما فعل. شعرْتُ برغبة شديدة فى لكمه على وجهه، لكنه كان يرتجف بالفعل بشدة وخوف مما جعلنى أتراجع. وأنا ألتفت مبتعداً، نظر لى نظرة رعب وازدراء، ثم أرسل كتلة كبيرة من البصاق تطايرت فى اتجاهى. تساقط نصفها تقريبا على ذقنه، لكن بقيتها استقرت على صدر قميصى. حولت عينىَّ عنه لحظة لأرى الضرر، وفى هذا الجزء من الثانية اندفع مبتعداً مرة أخرى ونظر وراءه بحذر ليعرف إذا كنت أسير وراءه. اعتقدت أن الأمر انتهى على هذا النحو، لكن بمجرد أن صار على مسافة آمنة منى، توقف عن السير، والتفت، وبدأ يهز قبضته باتجاهى، لاطما الهواء بسخط. صاح "شيوعى لعين! محرض شيوعى لعين! عليك أن تعود إلى روسيا إلى حيث تنتمى!" وبخنى للذهاب خلفه، على ما يبدو ليبقى مغامرتنا حية، لكننى لم أقع فى الفخ. دون أن أنطق بكلمة أخرى، استدرت وتركته حيث كان.

كان حادثًا تافهًا، بالطبع، لكن كانت هناك أحداث أخرى تحمل أخطاراً أكثر. ذات ليلة، تبعتنى عصابة من الصبية عبر "مرج الغنم"، ولم ينقذنى سوى وقوع أحدهم والتواء كاحله. فى مرة أخرى، هددنى مشاكس سكران بزجاجة بيرة مكسورة. كانت تهديدات جادة، لكن جاءت اللحظة الأكثر إثارة للهلع فى ليلة غائمة قرب نهايتها، وأنا أتعثر فى شجيرة حيث كان ثلاثة أشخاص يمارسون الحب: رجلان وامرأة. كان من الصعب أن أرى أكثر، لكن كان انطباعى أنهم عراة تماماً، ومن نبرة أصواتهم بعد أن اكتشفوا وجودى، فهمْتُ أنهم سكارى أيضا. طقطق غصن تحت قدمى اليسرى، ثم سمعْتُ صوت المرأة، يتبعه حركة مفاجئة فى الأوراق والأغصان. قالت: "جاك، هناك شخص يزحف". رد صوتان بدلا من صوت، يزأران كلاهما بعداء مشحون بعنف لم أسمعه من قبل. ثم نهض شخص غير واضح الملامح وصوب فى اتجاهى ما بدا أنه

بندقية، وقال: "كلمة واحدة يا غبى وسوف أردها لك ست مرات". وافترضْتُ أنه كان يتحدث عن ست طلقات فى البندقية. أعتقد أنه إذا لم يكن الرعب قد شوه ما حدث، سمعت طقطقة فى تلك اللحظة، دوًى صوت مطرقة فى المكان. قبل أن أدرك مدى هلعى ابتعدت. انطلقْتُ مسرعًا. إذا لم تخذلنى رئتاى ربما واصلت الجرى إلى الصباح.

كان من المستحيل أن أعرف كم من الوقت يمكننى أن أبقى على هذا الحال. مفترضا أن أحدا لم يقتلنى، اعتقدْتُ أننى يمكن أن أبقى حتى يبرد الطقس. بعيدا عن بعض الحوادث غير المتوقعة، بدت الأمور تحت السيطرة بشكل جيد تماما. كنت أنفق نقودى بعناية فائقة، لم أنفق قط أكثر من دولار أو دولار ونصف يوميًا، وكان هذا وحده كفيل بتأجيل لحظة الإفلاس بعض الوقت. حتى ونقودى تهبط قرب القاع بشكل خطير، بدا دائما أن شيئًا ما يظهر فى الدقيقة الأخيرة: أجد نقودا على الأرض أو يتقدم غريب ويقوم بإحدى تلك المعجزات التى شرحتها من قبل. لم أكن آكل بشكل جيد، لكننى لا أظن أننى قضيت يوما كاملا دون أن أضع على الأقل كسرة أو اثنتين فى معدتى. صحيح أننى كنت فى النهاية نحيفا بشكل يدعو للقلق، صرت ١١٢ رطلا فقط، لكن معظم نقص الوزن حدث فى الأيام الأخيرة التى قضيتها فى المتنزه. وذلك لأننى أصيبت بشىء ما- نزلة برد، فيروس، لا يعلم إلا الرب- ومن وقتها لم آكل شيئًا قط. كنْت ضعيفا جدا، وكلما حاولت وضع شيئا فى فمى، رجع ثانية. لو لم يعثر الصديقان علىًّ حينها، أظن أننى كنت سأموت دون شك. استنفدت مخزونى، ولم يكن لدى ما أقاوم به.

كان الطقس معى منذ البداية، حتى توقفت عن اعتباره مشكلة. كان كل يوم تقريبا تكرارا لليوم الذى قبله: سماوات جميلة فى نهاية الصيف، شمس دافئة تجفف الأرض، ثم التحول إلى برودة الليل الممتلئ بصرار الليل. فى أول أسبوعين، لم تمطر تقريبًا، وإذا كان أمطرت فقد كان مجرد قطرات. بدأتُ أتشبث بحظى، أنام فى العراء إلى حد ما، واعتقدْتُ أننى سأكون آمنا حيثما كنت. ذات ليلة، وأنا أستلقى حالمًا على بقعة من العشب، معرَّضًا تماما للسماوات، فاجأنى وابل من المطر. كان وابلا من الأمطار

المدمرة: تنشق السماء نصفين فجأة، وتهطل دلاء من المياه، مع ضراوة صوت هائل. حين استيقظت كنت منقوعا فى المياه، جسمى كله مضروب، تضربنى القطرات مثل طلقات الرصاص. بدأت أجرى فى الظلام، أبحث فى رعب عن مكان أختبئ فيه، لكن الأمر استغرق عدة دقائق قبل العثور على ملاذ تحت سلسلة من صخور الجرانيت، وحينذاك لم يكن من المهم أين أنا. كنت مبللا مثل شخص سبح عبر المحيط.

استمرت الأمطار حتى الفجر، تضعف أحيانا إلى رذاذ وأحيانا تنفجر بغزارة هائلة- كتيبة صارخة من القطط والكلاب، غيظ محض يتساقط من السماء. لا يمكن التنبؤ بهذا الطفح، ولا أريد التعرض لخطره. تشبثْتُ ببقعتى الضئيلة، أقف هناك صامتا فى حذائى المشبع بالمياه، ببنطلونى الجينز الأزرق الرطب، والجاكيت الجلدى اللامع. وتشبعت حقيبة الظهر بالمياه التى أصابت كل شىء آخر، مما تركنى دون شىء جاف لأغير ملابسى. لم يكن من اختيار سوى انتظار توقف المطر، مرتجفًا فى الظلام مثل مغفل ضال. فى أول ساعة أو ساعتين بذلت أقصى ما فى وسعى حتى لا آسف على نفسى، لكننى بعد ذلك استسلمْتُ وانغمست فى الصياح واللعن، واضعا كل طاقاتى فى أحقر لعنات يمكن أن أفكر فيها، سيل فاسد من الشتائم وعبارات البغض والإهانات المواربة، ومواعظ متحذلقة ضد الرب والبلاد. بعد برهة، كنت أنشج وأنا أتكلم، أضج وأشهق بمعنى الكلمة فى الوقت ذاته، ومع ذلك تمكنْتُ من حشد تعبيرات بارعة لا تنضب، يمكن أن تؤثر فى سفاح تركى. استمر هذا ربما لنصف ساعة. وبعد ذلك، كنت منهكا جدا حتى إن النوم غلبنى على الفور حيث كنت، وأنا لا أزال واقفًا. نمْتُ عدة دقائق، ثم أيقظنى انقضاض المطر مرة أخرى. أردْتُ أن أعاود هجومى، لكننى كنت متعبا جدا ومبحوحا بدرجة تجعلنى لا أستطيع الصراخ. قضيت بقية الليل واقفا هناك فى ذهول الشفقة على الذات، منتظرا قدوم الصباح.

فى السادسة صباحا دخلت مطعمًا رخيصا فى الشارع الثامن والأربعين غربا وطلبت إناء من الحساء. حساء خضراوات، على ما أعتقد، به قطع دسمة من الكرفس والجزر تتمايل فى سائل مصفر. أشعرنى بالدفء إلى حد معين، لكن مع ملابس مبتلة

لا تزال تغطى جلدى، تغلغلت الرطوبة بعمق بدرجة تحول دون أن يكون للحساء أى تأثير دائم. ذهبت إلى غرفة الرجال فى الدور الأرضى وجففت رأسى تحت فوهة "بلور ساني" كهربائى. ومما أصابنى بالهلع أن هبات الهواء الساخن جعلت شعرى متشابكا بشكل سخيف، وانتهى بى الأمر إلى أن أبدو مثل تمثال بشع، تمثال جنونى ناتئ من برج الأجراس فى كاتدرائية غوطية. راغبًا بشدة فى إصلاح ما فسد، زودت باندفاع ماكينة الحلاقة بشفرة جديدة، آخر شفرة فى حقيبة الظهر، وبدأتُ تقطيع جدائلى الثعبانية الغريبة. وبانتهاء هذه المهمة، صار شعرى قصيرا جدا حتى لم أعد أتعرف على نفسى. أبرز نحافتى بدرجة مرعبة تقريبا. برزت أذناى، وانتفخت تفاحة آدم، وبدا أن رأسى ليس أكبر من رأس طفل. قلت لنفسى إننى بدأتُ أنكمش، وفجأة سمعْتُ نفسى أتحدث بصوت عال لوجه فى المرآة. قال صوتى: "لا تخف. لا أحد يموت أكثر من مرة. سوف تنتهى المهزلة سريعا، ولن يحدث لك ذلك مرة أخرى أبداً".

ثم قضيت فى ذلك الصباح، ساعتين فى غرفة القراءة فى مكتبة عامة، معوِّلا على دفء المكان للمساعدة فى تجفيف ملابسى. ولسوء الحظ، بمجرد أن بدأت الملابس تجف حقا، بدأت تفوح منها رائحة أيضاً. بدا الأمر وكأن كل ثنايا الملابس وفتحاتها قررت فجأة أن تحكى أسرارها للعالم. لم يحدث هذا من قبل قط، وصعقْتُ حين أدركْتُ أن مثل هذه الرائحة الكريهة يمكن أن تصدر عنى. لابد أن خليط العرق القديم وماء المطر أحدث تفاعلا كيميائيا غريبًا، وكلما جفت ملابسى، صارت الرائحة أكثر بشاعة واستبداداً. فى النهاية، ساء الأمر حتى شممْتُ رائحة قدمى، نتانة مروعة تأتى مباشرة من خلال جلد حذائى، وتغزو منخارى مثل سحابة من الغاز السام. لم يبد ممكنا أن هذا يحدث لى. واصلْتُ تصفح صفحات "الموسوعة البريطانية"، على أمل ألا يلحظ أحد الرائحة، لكن هذه التوسلات باءت بالفشل سريعا. رفع عجوز، يجلس أمامى على الناحية الأخرى من الطاولة، عينيه عن الجريدة وبدأ يشم، ثم نظر باشمئزاز فى اتجاهى. للحظة رغبت فى الإسراع وتوبيخه على وقاحته، لكننى أدركت أننى ليس لدى من الطاقة ما يجعلنى أفعل ذلك. قبل أن تسنح له الفرصة لينطق بكلمة، قمت من كرسى وانصرفْتُ.

فى الخارج كان الجو مظلمًا: يوم قاس وكئيب، ضباب ويأس تام. شعرْتُ بفقد القدرة على التفكير تدريجيا. زحف ضعف غريب إلى عظامى، وكان كل ما أستطيع القيام به ألا أتعثر. اشتريت سندوتشا من محل لبيع المعلبات قرب "الكوليسوم[1] لكننى وجدت مشكلة فى مواصلة الاهتمام به. بعد عدة قضمات، لففته مرة أخرى ووضعته فى حقيبة الظهر لأتناوله بعد ذلك. كان حلقى يؤلمنى وقد تصببت عرقًا. عبرت الشارع عند "دائرة كولومبوس"، وعدت إلى المتنزه وبدأْتُ البحث عن مكان أستلقى فيه. لم أنم قبل ذلك أثناء النهار قط، وبدت كل أماكنى الخفية القديمة خطرة ومكشوفة وبلا فائدة دون حماية الليل. واصلْتُ السير شمالا، على أمل العثور على شىء قبل أن أنهار. كانت الحمى تتفاقم بداخلى، وبدا أن الإنهاك الشديد يأكل أجزاء من دماغى. لم يكن فى المتنزه أحد تقريبًا. وأنا على وشك أن أتساءل عن السبب. بدأ الرذاذ يتساقط. لو لم يكن حلقى يؤلمنى بشدة، ربما ضحكْتُ. ثم بشكل مفاجئ تماما وبعنف، بدأْتُ أتقيأ. اندفعت قطع من شربة الخضروات والسندوتش من فمى متناثرة على الأرض أمامى. قبضت على ركبتىَّ وحدقْتُ فى العشب، فى انتظار انتهاء المغص. قلتُ لنفسى هذا توحد الإنسان. هذا ما يعنيه ألا يكون معك أحد. لكن الغضب تلاشى، وكنت أفكر فى هذه الكلمات بنوع من الصدق الوحشى، بموضوعية مطلقة. فى دقيقتين أو ثلاث دقائق، بدت النوبة كلها وكأنها شىء حدث قبل شهور. واصلْتُ المشى، عازمًا على ألا أتخلى عن بحثى. لو ظهر شخص حينذاك، ربما طلبْتُ منه أن يصطحبنى إلى مستشفى. لكن لم يظهر أحد. لا أعرف كم استغرق الأمر لأصل إلى هناك، لكن فى لحظة معينة وجدْتُ مجموعة صخور كبيرة محاطة بأوراق كبيرة وأشجار. كانت الصخور تشكل كهفًا طبيعيا، ودون التوقف لتأمل المسألة أكثر من ذلك، زحفْتُ إلى هذه الفجوة الضحلة، ساحبًا بعض الأغصان الرخوة معى لأسد بها الفتحة، ونمت فورًا.

---

(١) الكوليسوم: مدرج كبير للحفلات العامة.

لا أعرف كم مكثْتُ هناك. أظن يومين أو ثلاثة، لكن الأمر لا يهم الآن. حين سألنى زيمر وكيتى، قلْتُ ثلاثة أيام، لكننى قلت ذلك لأن ثلاثة رقم أدبى، عدد الأيام التى قضاها يونس فى بطن الحوت. لم أكن فى وعيى معظم الوقت وحتى حين بدا أننى مستيقظ، كنت ملتصقًا بمحن جسدى حتى فقدْتُ أى إحساس بموقعى. أتذكر نوبات التقيؤ، لحظات رهيبة لم يكف جسدى فيها عن الارتجاف، فترات لم أسمع فيها سوى صوت اصطكاك أسنانى. لابد أن الحمى كانت شديدة جدا، وقد جلبتْ معها أحلامًا ضارية، رؤى صماء لا نهائية يبدو أنها تنمو من جلدى المحترق مباشرة. لا شىء يمكن أن يحتفظ بشكله فى داخلى. أتذكر أننى رأيت ذات مرة يافطة قصر القمر أمامى، أكثر حيوية مما رأيتها فى الواقع. كانت حروف النيون القرنفلية والزرقاء كبيرة جدا حتى أنارت السماء كلها. اختفت الحروف فجأة، ولم يتبق إلا حرفا "o" من كلمة القمر بالإنجليزية. رأيْتُ نفسى أتدلى من أحدهما، أكافح أتشبث به مثل بهلوان يمارس بحماقة عملا خطيرا. ثم أنزلق حوله مثل دودة صغيرة، ثم أختفى. تحول حرفا "o" إلى عينين، عينين بشريتين هائلتين تتطلعان إلىَّ باحتقار ونفاد صبر. ظلا يحدقان فىَّ، وبعد برهة اقتنعْتُ بأنهما عينا الرب.

ظهرت الشمس آخر اليوم. لا أتذكر ما حدث، لكن لابد أننى زحفت أحيانا من الكهف وتمددت على العشب. كان ذهنى مشوَّشًا جدا حتى إننى تخيلت أن دفء الشمس يمكن أن يبخر الحمى، يمتص العلة من عظامى بمعنى الكلمة. أتذكر نطق كلمتى "صيف هندى" مرات ومرات، أقولهما لنفسى مرات كثيرة جدا حتى فقدتا المعنى فى النهاية. كانت السماء فوقى هائلة، وضوح مذهل بلا نهاية. شعرت أننى لو واصلت التحديق فيها، فقد أذوب فى النور. ثم دون أى إحساس بالنوم، بدأت أحلم فجأة بالهنود. كان ذلك منذ ٣٥٠ سنة مضت، وجدت نفسى أتتبع مجموعة من الرجال شبه العراة فى غابات مانهاتن. كان حلما مدويا بشكل غريب، قاسيا ودقيقا، مليئا بأشخاص يندفعون بين الأوراق المنقطة بالضوء وبين الأغصان. اندفعت ريح خفيفة خلال الأوراق، كاتمة وقع خطوات الرجال، وواصلت تتبعهم فى صمت، متحركًا برشاقة

مثلهم، شاعراً مع كل خطوة أننى أقترب أكثر من فهم روح الغابة. أتذكر هذه الصور أيضا، ربما، لأن زيمر وكيتى عثرا علىَّ فى تلك اللحظة بالضبط: مستلقياً على العشب وذلك الحلم الغريب الرائع يدور فى رأسى. رأيت كيتى أولا، لكننى لم أتعرف عليها، حتى على الرغم من إحساسى بأنها مألوفة لى. كانت تضع على رأسها شريط "نافاهو"، وكانت استجابتى الأولية أن أعتبرها صورة تالية[1] خيال امرأة موجودة فى ظلمة حلمى. أخبرتنى فيما بعد أننى ابتسمْتُ لها، وحين انحنت لتنظر إلىَّ بدقة أكثر، سميتها بوكاهونتاس[2] أتذكر أننى وجدت مشكلة فى رؤيتها بسبب ضوء الشمس، لكننى أتذكر بوضوح أنه كان بعينيها دموع حين انحنت، على الرغم من أنها لم تعترف بذلك قط. بعد لحظة، دخل زيمر الصورة أيضا، ثم سمعْتُ صوته يقول: "يا لك من نذل غبى". وكان هناك توقف قصير، ثم راغبا فى ألا يجعلنى أرتبك بحديث طويل، كرر الجملة نفسها مرة أخرى: "يا لك من نذل غبى. يا لك من نذل غبى مسكين".

---

(١) صورة تالية afterimage: صورة بصرية تستمر بعد انتهاء المحفز البصرى.

(٢) بوكاهونتاس Pocahontas: (١٥٩٥-١٦١٧) أميرة صادقت المستعمرين الإنجليز فى جيمس تاون.

٣

أقمت فى شقة زيمر لأكثر من شهر. انكسرت الحمى فى اليوم الثانى أو الثالث، لكن بقيت مهدودا لفترة طويلة بعد ذلك، لم أكن أستطيع الوقوف دون أن أفقد التوازن. فى البداية كانت كيتى تأتى لزيارتى مرتين أسبوعيا، لكنها لم تتكلم كثيرا قط، وكثيرا ما تغادر بعد عشرين دقيقة أو ثلاثين. لو كنت أكثر يقظة بما يدور حولى ربما تساءلت عن ذلك، خاصة بعد أن حكى لى زيمر قصة إنقاذى. كانت غريبة بشكل ما، تلك الفتاة التى قضت ثلاثة أسابيع تقلب العالم رأسا على عقب لتعثر علىَّ ينبغى أن تتصرف فجأة بمثل ذلك التحفظ فى اللحظة التى وُجِدْتُ فيها. لكن هكذا جرت الأمور، ولم أسأل عن ذلك. كنت أضعف من أن أسأل عن أى شىء، وتقبلت مجيئها وانصرافها كما هما. كانت أحداثًا طبيعية، تحمل من القوة والحتمية بقدر ما يحمل الطقس، أو حركات النبات، أو الضوء الذى ينفذ من النافذة فى الثالثة عصراً.

رعانى زيمر فى فترة النقاهة. كانت شقته الجديدة فى الدور الثانى من بناية قديمة معدة للإيجار فى "ويست فيلج"، هوجان[١] حقير مزدحم بالكتب والأسطوانات: غرفتان صغيرتان دون باب بينهما، ومطبخ بدائى، وحمام دون نافذة. فهمت التضحية التى بذلها زيمر بإقامتى معه، لكن كلما حاولْتُ أن أشكره على ذلك، يشير إلىَّ بالصمت، متظاهرا بأن الأمر لا يهم. كان يطعمنى على حسابه، ويتركنى أنام فى سريره، ولا يطلب شيئًا فى المقابل. فى الوقت نفسه، كان غاضبا منى، ولم يحاول إخفاء اشمئزازه. لم أتصرف فقط بشكل سيئ مثل معتوه، لكننى كدْتُ أقتل نفسى. قال إنه لا يمكن تبرير تصرف شخص فى مثل ذكائى على هذا النحو. كان تصرفا غريبا، تصرفًا غبيًا، تصرفًا مجنونًا. إذا كنت أعانى من مشكلة، لماذا لم ألجأ إليه للمساعدة؟ ألا أعرف أنه على استعداد ليفعل أى شىء من أجلى؟ قلت القليل جدا ردا على هذه الهجمات. كنت أفهم أن مشاعر زيمر تعرضت للأذى، وأشعر بالعار لأننى تسببت له

---

(١) هوجان Hogan: بناية تغطى بالطين تشيد عادة بمدخل فى اتجاه الشرق.

فى ذلك. والوقت يمر، كانت تزداد صعوبة فهم الكارثة التى تسببت فيها. اعتقدْتُ أنى كنت أتصرف بشجاعة، لكن تبين أننى أكشف فقط عن أردأ أشكال الجبن: أبتهج باحتقارى للعالم، أرفض النظر إلى الأمور من الوجه مباشرة. لا أشعر الآن إلا بالندم، إحساس طاغ بغبائى. مرت الأيام فى شقة زيمر، وأنا ألم شتات نفسى ببطء، أدركت أن علىَّ أن أبدأ حياتى مرة أخرى. كنت أريد التكفير عن أخطائى، تقديم تعويضات لمن لا يزالون يرعوننى. كنت مرهقا من نفسى، مرهقا من أفكارى، مرهقا من التفكير فى مصيرى. أكثر من أى شىء آخر، شعرْتُ بالحاجة إلى تطهير نفسى، والحسرة على الإفراط فى الانغماس فى الذات. من الأنانية التامة، صممت على تحقيق حالة من الإيثار التام. أفكر فى الآخرين قبل أن أفكر فى نفسى، أكافح بوعى لأصلح الضرر الذى تسببت فيه، وبتلك الطريقة ربما أبدأ إنجاز شىء فى العالم. كان برنامجا مستحيلا، بالطبع، لكننى التزمت به بتعصب دينى تقريبًا. كنت أريد أن أتحول إلى قديس، قديس ملحد يتجول عبر العالم للقيام بأعمال خيرية. بصرف النظر عن العبثية التى يبدو عليها الأمر الآن، أعتقد أن ذلك ما كنت أريده بدقة. كنت متلهفا بشدة لليقين، ومستعداً لعمل أى شىء للعثور عليه.

كانت هناك عقبة أخرى فى طريقى. أنقذنى منها الحظ فى النهاية، لكن بسمك شعرة. بعد يوم أو اثنين مع رجوع الحرارة إلى طبيعتها، تصادف أننى غادرت السرير لأذهب إلى المرحاض. كنا فى المساء، على ما أظن، وكان زيمر يعمل على مكتبه فى الغرفة الأخرى. وأنا أجر قدمى عائدا إلى الغرفة بعد أن خرجت من المرحاض، لاحظت جراب كلارينت الخال فكتور ملقى على الأرض. لم أفكر فيها منذ إنقاذى، وفزعت فجأة حين رأيت سوء حالتها. كان الغطاء الجلدى الأسود شبه ضائع، ومعظم ما تبقى ممزق وبه فقاعات. كانت العاصفة فى "السنترال بارك" جدا بالنسبة له، وتساءلت إن كانت المياه تسربت خلاله وألحقت ضررا بالآلة أيضًا. التقطت الجراب وحملته معى إلى السرير، مستعداً تماما للأسوأ. فككت القفل وفتحت الجراب، لكن قبل أن تسنح لى الفرصة لفحص الكلارينت، سقط مظروف أبيض على الأرض، وأدركت أن مشاكلى تبدأ للتو. كان خطابا من إدارة التجنيد. لم أنسَ موعد الكشف الطبى فقط، لكننى

نسيت أن الخطاب أُرسِل إليَّ. فى تلك اللحظة أطبق كل شىء علىَّ مرة أخرى. اعتقدت أننى قد أكون هاربًا من العدالة. لو تغيبت عن الكشف الطبى فقد أصدرت الحكومة مذكرة توقيف بحقى، وهذا يعنى أن هناك مصيبة كبيرة، عواقب لا أستطيع حتى أن أتخيلها. فتحت المظروف ووجدت التاريخ مكتوبا فى البياض فى الخطاب الرسمى: ١٦ سبتمبر. ولم يكن هذا يعنى شيئًا لى، حيث إننى لم أعد أعرف فى أى يوم أنا. فقدت عادة النظر إلى الساعة والتقويم، ولم أستطع حتى أن أخمن.

قلت لزيمر وكان لايزال منهمكا فى عمله: "سؤال بسيط، هل تعرف أى يوم هذا؟"

قال دون أن ينظر إلىَّ: "إنه الإثنين".

"قصدت التاريخ. الشهر واليوم. ليس عليك أن تذكر لى السنة. إننى متأكد من ذلك تماما".

"الخامس عشر من سبتمبر"، قال وظل لا يبالى بالنظر إلىَّ.

قلت: "الخامس عشر من سبتمبر. هل أنت متأكد من ذلك؟"

"متأكد بالطبع، بشكل لا ينتابه أى شك".

غطست مرة أخرى على الوسادة وأغلقت عينىَّ. همهمت: "رائع. رائع تماما".

تحول زيمر فى النهاية عن مكتبه ونظر إلى فى حيرة: "رائع لماذا بحق السماء؟"

"لأن ذلك يعنى أننى لسْتُ مجرما؟"

"ماذا؟"

"لأن ذلك يعنى أننى لسْتُ مجرما؟"

"سمعتك فى المرة الأولى. التكرار مرة أخرى لا يجعله أكثر وضوحا".

أمسكت بالخطاب ولوحت به فى الهواء، وقلت: "ستفهم ما أعنى بمجرد أن تلقى نظرة على هذا".

كان من المقرر أن أقدم تقريراً فى شارع "وايت هول" فى صباح اليوم التالى. وكان زيمر فد خضع بالفعل للكشف الطبى فى يوليو (وقد منح تأجيلا لأنه يعانى من ربو)، وقد قضينا الساعتين أو الثلاث ساعات التالية فى مناقشة ما ينتظرنى. كانت أساساً محادثة تدور بين ملايين الشبان فى أمريكا فى تلك السنوات. لكننى، على عكس غالبيتهم العظمى، لم أفعل شيئا استعدادا للحظة الحقيقة. لم أحصل على تقرير من طبيب، لم ألتهم عقارات لأشوه استجاباتى الحركية، لم أرتب سلسلة من الانهيارات الذهنية لأبرهن على تاريخ من الاضطراب النفسى. عرفْتُ دائما أننى لن ألتحق بالجيش إطلاقاً، لكن بمجرد أن توصلت إلى هذا الاستنتاج، لم أفكر فى الأمر. كما هو الحال بالنسبة لكثير من الأشياء الأخرى، قدم الكسل الأفضل بالنسبة لى، وصرفت المشكلة عن ذهنى بثبات. ارتعب زيمر، واضطر حتى للاعتراف بأن الوقت متأخر جدا للقيام بأى شىء. أن أجتاز الكشف الطبى أو أخفق فيه، وإذا اجتزْتُه، لن يكون أمامى سوى اختيارين: أن أغادر البلاد أو أذهب إلى السجن. وحكى زيمر عدة قصص عمن ذهبوا خارج البلاد، إلى كندا، إلى فرنسا، إلى السويد، لكننى لم أهتم بشدة. قلت إننى مفلس، وحالتى المزاجية لا تسمح لى بالسفر.

قال: "وهكذا تتبين أنك مجرم على أى حال".

صححت له: "سجين. سجين من سجناء الضمير. هناك فرق".

كنت لا أزال فى المراحل الأولى من الشفاء، وحين نهضت فى صباح اليوم التالى لأرتدى ملابسى- ملابس زيمر، وكان مقاسها أصغر بكثير بالنسبة لى- أدركْتُ أننى فى حالة لا تسمح لى بالذهاب. كنت مستنفداً بمعنى الكلمة، ومجرد محاولة السير فى الغرفة احتاجت كل طاقتى وتركيزى. حتى ذلك الوقت، لم أبتعد عن السرير لأكثر من دقيقة أو اثنتين فى كل مرة، ملتمساً طريقى إلى المرحاض وعائدا منه. إذا لم يكن زيمر هناك ليسندنى، أشك فى أننى كنت أستطيع الخروج من الباب. سندنى تماما، وأنزلنى السلالم ويداه حول جسمى ثم تركنى أستند عليه ونحن نترنح بطول النفق. خشيْتُ أن يكون منظرا حزينا وشنيعا. اصطحبنى زيمر إلى الباب الأمامى للبناية فى شارع

"وايت هول"، ثم أشار إلى مطعم فى الناحية الأخرى مباشرة، حيث يمكن أن أجده بعد أن أنتهى من مهمتى كما قال. ضغط على ذراعى ليشجعنى، وقال: "لا تقلق. سوف تجعل من جندى شيئا كبيراً، يا فُجّ. مكتوب عليك". رددْتُ: "أنت مصيب حقا. أفضل جندى حقا فى الجيش الملعون كله. يمكن لأى أحمق أن يرى ذلك". حييت زيمر تحية ساخرة ودخلت المبنى وتشبثت بالجدران لأستند عليها.

لا أتذكر الآن معظم ما حدث بعد ذلك. تتبقى نتف، لكن لم يتبق ما يشكل ذكرى مكتملة، لم يتبق ما يمكن أن أتحدث عنه باقتناع. ويبرهن العجز عن معرفة ما حدث على مدى الضعف الشديد الذى لابد أنه أصابنى. استنفد الوقوف هناك كل قوتى، محاولا ألا أقع، ولم أنتبه إلى ما ينبغى أن أنتبه إليه. أظن فى الحقيقة أن عينىَّ كانتا مغلقتين تقريبا فى تلك الساعات، وحين أتمكن من فتحهما، أفتحهما لفترة لا تكفى لرؤية ما يحدث فى الواقع. كان هناك خمسون أو مائة منا يسيرون فى العملية معًا. أتذكر الجلوس أمام مكتب فى غرفة كبيرة والاستماع إلى رقيب يتحدث إلينا، لكننى لا أتذكر ما قال، لا أستطيع استرجاع كلمة واحدة منه. أعطونا نماذج لنملأها، ثم كان هناك اختبار تحريرى من نوع ما، وربما – جرى الاختبار أولا وجاء ملء النماذج بعد ذلك. أتذكر تأشيرات الهيئات التى أنتمى إليها وقد استغرق الأمر منى بعض الوقت: إس دى إس من الكليـة، وإس إيه إن إى وإس إن سى سى من المدرسـة الثـانوية(١) وكان علىَّ بعد ذلك أن أشرح ظروف توقيفى قبل ذلك بسنة. كنت آخر من أنهى مهمته فى الغرفة، وفى النهاية كان الرقيب يقف على دماغى، يهمهم بشىء ما عن "العم هو"(٢) والعلم الأمريكى.

---

(١) إس دى إس SDS اختصار طلاب من أجل مجتمع ديمقراطى وإس إيه إن إى SANE وإس إن سى سى SNCC : اختصار Student Nonviolent Coordinating Committee (لجنة تنسيق الطلاب السلميين).

(٢) العم هو Uncle Ho: الإشارة إلى هوشى منه (١٨٩٠-١٩٦٩)، قائد الثورة الشيوعية فى فيتنام.

بعد ذلك، كانت هناك راحة لعدة دقائق، ربما نصف ساعة. رأيت ردهات، وأضواء فلوريسنت، ومجموعات من الشباب يقفون فى كل مكان بسراويلهم الداخلية. أتذكر الهشاشة الشديدة التى شعرْتُ بها حينذاك، لكن تلاشى قدر كبير جدا من التفاصيل الأخرى. أين غيرنا ملابسنا، على سبيل المثال، وماذا قلنا لبعضنا بعضًا ونحن ننتظر فى الصف. وبشكل أكثر تحديدا، أعجز عن استدعاء أي صورة تتعلق بأقدامنا. فوق الركبة لم نكن نرتدى إلا شورتات "جوكى"، لكن يبقى كل ما تحتها لغزًا بالنسبة لى. هل سمحوا لنا بانتعال أحذيتنا أو ارتداء جواربنا، أم جعلونا نسير فى تلك القاعات حفاة؟ لا شىء فى ذهنى عن هذا الموضوع، لا يمكننى أن أحدد حتى أى شىء يتعلق به.

فى النهاية، طُلِب منى أن أدخل غرفة. فحص طبيب صدرى وظهرى، ونظر فى أذنى، وأمسك خصيتي وطلب منى أن أكح. تطلبت هذه الأمور مجهودا بسيطًا، لكن بعد ذلك كان عليه أن يأخذ عينة دم، وفجأة أصبح الفحص أكثر صعوبة. كنت مصابا بأنيميا وهزيلا جدا حتى إنه لم يعثر على وريد فى ذراعى. غرس الإبرة مرتين أو ثلاثا، وخز جلدى وجرحه، لكن لم ينزل دم فى الأنبوبة. لابد أننى بدوْتُ بشعا- شاحبا تماما وشعرْتُ بالغثيان، مثل شخص على وشك فقدان الوعى- وبعد برهة استسلم وطلب منى أن أجلس على دكة. أعتقد أنه كان عطوفا معى، أو على الأقل غير مبالٍ. قال: "إذا شعرت بدوخة مرة أخرى، اجلسْ فقط على الأرض وانتظر حتى تمر. لا نريد أن تقع وتصيب رأسك، أليس كذلك؟"

أذكر بوضوح الجلوس على الدكة، لكن بعد ذلك أرى نفسى راقدًا على طاولة فى غرفة أخرى. من المستحيل أن أعرف الوقت الذى انقضى بين الحدثين. لا أظن أننى غبت عن الوعى، لكن حين حاولوا أن يأخذوا منى دما مرة أخرى، ربما كانوا يريدون التأكد. وضع حبل من المطاط حول العضلة ثنائية الرأس ليبرز الوريد، وحين أدخل الطبيب إبرة فى النهاية- لا أتذكر إن كان الطبيب نفسه أم طبيبا آخر- قال شيئا ما عن نحولى وسأل إن كنت تناولت إفطارى فى ذلك الصباح. فى اللحظة التى أنا على

يقين من أنها اللحظة الأكثر جلاء فى ذلك اليوم، التفتُّ إليه وقدمت له أبسط إجابة وأكثرها إخلاصا. قلت: "دكتور، هل أبدو مثل شخص يمكن أن يمضى دون أن يتناول إفطاره؟"

كان هناك المزيد، لابد أنه كان هناك الكثير جدا، لكننى لا أتذكر الكثير منه. قدموا لنا غداء فى مكان ما (فى المبنى؟ فى مطعم خارج المبنى؟)، لكن الشىء الوحيد الذى أتذكره عن الوجبة أنه لا أحد أراد الجلوس بجانبى. بعد الظهر، عائدين إلى الردهات فى الدور العلوى، قاموا بقياسنا ووزننا. وصل الميزان معى إلى رقم منخفض بشكل غريب- ١١٢ رطلا، على ما أظن، وربما ١١٥ . من تلك اللحظة انفصلت عن بقية المجموعة. أرسلونى للعرض على طبيب نفسى، رجل بدين وقصير بأصابع قصيرة مبتورة، وأتذكر أننى اعتقدْتُ أنه يبدو مثل مصارع أكثر مما يبدو طبيبا. من المؤكد أننى لم أكذب عليه. كنت قد دخلْتُ بالفعل فترتى الجديدة من القداسة المحتملة، وكنت أريد ألا أفعل شيئا أندم عليه فيما بعد. تنهد الطبيب النفسى مرة أو اثنتين أثناء المحادثة، لكن دون ذلك بدا أنه رابط الجأش بشأن ملاحظاتى أو مظهرى. تخيلْتُ أنه خبيرا فى هذه المقابلات، ولم يعد هناك ما يمكن أن يزعجه. من جانبى، كنت مندهشًا إلى حد ما من التباس أسئلته. سألنى إن كنت أتعاطى عقاقير، وحين قلت له لا، رفع حاجبيه وسألنى مرة أخرى، لكننى أعطيته الإجابة نفسها فى المرة الثانية ولم يتتبعها. جاءت بعد ذلك أسئلة معيارية: ماذا عن حالة أمعائى، إن كان هناك قذف ليلى أم لا، كم مرة فكرت فى الانتحار. أجبت ببساطة بقدر ما يمكننى، دون زخرفة أو تعليق. وأنا أتكلم، كان يعلم على مربعات صغيرة فى ورقة ولا ينظر إلىَّ. كان هناك شىء أراحنى فى مناقشة مثل هذه الأمور الحميمة بهذه الطريقة، كما لو كنت أتحدث إلى محاسب أو ميكانيكى فى جراج. لكن حين وصل الطبيب إلى نهاية الصفحة رفع عينيه مرة أخرى وثبتهما علىَّ لأربع ثوانٍ أو خمس.

قال أخيرا: "أنت فى هيئة سيئة جدا يا بنى".

قلْتُ: "أعرف ذلك. لم أكن بحالة جيدة. لكننى أتحسن الآن".

"هل تريد أن تتحدث عن ذلك؟"

"إذا أحببْتَ".

"يمكنك أن تبدأ معى بالحديث عن وزنك".

"تعرضت لنزلة برد. أصبْتُ بأحد تلك الأمراض التى تصيب المعدة منذ أسبوعين ولم أكن أستطيع تناول الطعام".

"كم فقدت من وزنك؟"

"لا أعرف. أربعين رطلا أو خمسين، على ما أظن".

"فى أسبوعين؟"

"لا، استغرق الأمر عامين تقريبا. لكن معظمه حدث فى هذا الصيف".

"لماذا؟"

"النقود، أحد الأسباب. لم يكن معى من النقود ما يكفى لشراء الطعام".

"ألا تعمل؟"

"لا".

"هل بحثْتَ عن وظيفة؟"

"لا".

"هل يمكن أن تفسر لى ذلك يا بنى".

"أمر معقد تماما. لا أعرف إن كنتَ تستطيع أن تفهمنى".

"اتركنى أحكم على هذا. قل لى فقط ما حدث، ولا تقلق بشأنه. لسنا فى عجلة من أمرنا".

لسبب ما شعرت برغبة طاغية فى أن أصب قصتى على هذا الغريب. لا شىء يمكن أن يكون غير مناسب أكثر من هذا، لكن قبل أن تسنح لى فرصة للتوقف، كانت

الكلمات تتدفق من فمي. كنت أشعر بشفتي تتحركان، لكن في الوقت ذاته بدا وكأنني أستمع إلى شخص آخر. سمعْتُ صوتي يثرثر عن أمي، وعن الخال فكتور، وعن "السنترال بارك"، وعن كيتي وو. أومأ الطبيب بأدب، لكن كان من الواضح أنه لم يفهم ما أتحدث عنه. وأنا أواصل شرح حياتي كما قضيتها في آخر عامين، رأيْتُه متضايقًا حقًا. شعرْتُ بالإحباط، وكلما بدا عدم فهمه، حاولت بشدة أن أوضح الأمور له. شعرْتُ بأن إنسانيتي في خطر بشكل ما. لم يكن من المهم أنه طبيب في الجيش، إنه إنسان أيضًا، وليس هناك شيء أكثر أهمية من أن أصل إليه. قلْتُ، محاولا أن أكون واضحا وموجزا بقدر الممكن: "تتحدد حياتنا بطوارئ متنوعة، ونكافح يوميا ضد هذه الصدمات والحوادث. لم يكن هذا لأنني أردْتُ أن أقتل نفسي- لا ينبغي أن تعتقد هذا- لكن لأنني اعتقدْتُ أنني بتسليم نفسي لفوضى العالم، ربما يكشف العالم في النهاية لي عن انسجام سري، شكل أو نمط يساعدني على اختراق نفسي. كانت القضية أن أقبل الأمور على ما هي عليه، أن أنجرف مع تيار العالم. لا أقول إنني تمكنت من القيام بذلك بشكل جيد. فشلت فشلا ذريعًا، في الحقيقة. لكن الفشل لا يفسد صدق المحاولة. إذا كنت قد اقتربْتُ من الموت، لا أؤمن مع ذلك بأنني شخص يستحقه".

كان عملا أخرق بشكل رهيب. صارت لغتي بشعة وتجريدية باطراد، وفي النهاية كنت أرى أن الطبيب لم يعد يسمع. كان يحدق في نقطة غير مرئية فوق رأسي، وعيناه غائمتان بمزيج من الحيرة والشفقة. لا أعرف كم دقيقة استمر مونولوجي، لكنه استمر ما يكفي لأن يحدد أنني حالة ميئوس منها، حالة ميئوس منها حقا، وليست حالة من حالات المجانين المزيفين، التي تدرب على تحديدها. قال في النهاية يقاطعني في منتصف الجملة: "يكفي يا بني. أظن أنني بدأت أفهم الصورة". جلسْتُ بعد ذلك في مقعدي صامتًا دقيقة أو اثنتين، أرتجف وأعرق وهو يدون تقريرًا على ورقة من دفتر رسمي. طواها نصفين وأعطاها لي عبر المكتب، وقال: "خذ هذه للقائد في القاعة، واطلبْ من الشخص التالي أن يدخل وأنت خارج".

أتذكر السير إلى القاعة والتقرير فى يدى، مقاوماً الإغراء بإلقاء نظرة على ما فيه. كان من المستحيل ألا أشعر بأننى مراقب، وأن هناك أناسًا فى المبنى يمكنهم قراءة أفكارى. كان القائد رجلا ضخما بزيه الكامل مع لغز معقد من الميداليات والأوسمة على صدره. رفع عينيه عن كوم من الأوراق على مكتبه وأشار لى بشكل عارض بالدخول. أعطيته تقرير الطبيب النفسى. بمجرد أن لمحه، انفجر مبتسماً ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه، وقال: "شكرا للرب. أنقذتنى من يومى عمل". ودون أى تفسير آخر، بدأ يمزق الأوراق التى على مكتبه ويلقيها فى سلة المهملات. بدا راضياً تمامًا: "كان علينا أن نقوم بتحقيق كامل عنك، لكنك الآن غير لائق، لم يعد علينا أن ننزعج".

قلت: "تحقيق؟"

قال، بسعادة تقريبًا: "كل هذه الهيئات التى انتميت إليها. لا يمكن أن يكون لدينا فى الجيش راديكاليون مخربون ومحرضون، أليس كذلك؟ ليس أمرا طيبا للروح المعنوية".

لا أتذكر التتابع الدقيق للأحداث بعد ذلك، لكن بعد وقت قصير وجدْتُ نفسى أجلس فى غرفة مع غير اللائقين والمرفوضين. لابد أننا كنا دستة، أظن أننى لم أر قط مجموعة أكبر من مثيرى الشفقة مجتمعين معًا فى مكان واحد. يجلس ولد، على وجهه وظهره حب شباب بشع، يرتجف فى ركن ويكلم نفسه. آخر بذراع ضامر. وآخر لا يقل وزنه على ثلاثمائة رطل، يقف بجوار الحائط يصدر صخبًا قبيحًا بشفتيه، ويضحك بعد كل انفجار مثل ولد مزعج فى السابعة من عمره. كان هؤلاء السذج، الغرباء، الشباب الذين لا ينتمون لأى مكان. كنت بلا وعى تقريبا من التعب ولم أتحدث إلى أى منهم. استقر بى المقام فى مقعد بجوار الباب وأغمضْتُ عينىَّ. حين فتحتهما فى المرة التالية، كان ضابط يهز ذراعى ويطلب منى أن أستيقظ. وقال: يمكنك أن تعود إلى بيتك الآن، انتهى كل شىء.

سرت عبر الشارع فى شمس الأصيل. كان زيمر ينتظرنى فى المطعم، كما وعدنى.

زاد وزنى بعد ذلك بسرعة. فى الأيام العشرة التالية أو نحو ذلك، أعتقد أننى زدت ثمانية عشر رطلا أو عشرين، وبنهاية الشهر بدأتُ أشبه ما كنت عليه من قبل. كان زيمر يطعمنى بضمير، يملأ الثلاجة بكل أنواع الطعام، وحين بدا أننى مستقر بما يكفى للمغامرة بالخروج من الشقة مرة أخرى، بدأ يصطحبنى إلى بار محلى كل ليلة، مكان مظلم وهادئ دون حركة كثيرة، حيث نشرب البيرة ونشاهد مباريات البيسبول فى التليفزيون. كان العشب أزرق دائما فى ذلك التليفزيون، والمضارب برتقالية مشوشة، واللاعبون مثل البهلوانات، لكن كان من الممتع أن نجتمع هناك فى كشكنا الصغير، نتحدث لساعات باستمرار عن شىء يجرى أمامنا. كانت فترة هادئة بشكل رائع فى حياة كل منا: لحظة قصيرة من السكون قبل أن نتحرك مرة أخرى.

أثناء هذه الأحاديث بدأتُ أعرف المزيد عن كيتى وو. كان زيمر يرى أنها رائعة، وكان من الصعب ألا تسمع نبرات الإعجاب فى صوته وهو يتحدث عنها. ذات مرة، وصل إلى حد القول إنه لو لم يكن بالفعل يحب واحدة أخرى، لوقع فى حبها بشدة. قال إنها أقرب إلى الكمال من أى فتاة قابلها، وحين وصل الأمر إلى ذلك، كان الشىء الوحيد الذى حيره بشأنها كيف تنجذب لعيِّنة كئيبة مثلى.

قلت: "لا أعتقد أنها منجذبة لى. إنها طيبة القلب فقط، هذا كل ما فى الأمر. أخذتْها الشفقة علىَّ وفعلت شيئا من أجل ذل، كما يشفق الناس على الكلاب الجريحة".

"كنت أراها يوميًا، يا 'م. س.' يوميا لمدة ثلاثة أسابيع تقريبا. لم تتوقف عن الحديث عنك".

"عبث".

"صدقنى، أعرف ما أتحدث عنه. الفتاة تحبك بجنون".

"لماذا لا تأتى إذن لترانى؟"

"إنها مشغولة. بدأت دراستها فى جويليارد، وتعمل أيضا فى وظيفة نصف دوام".

"لا أعرف ذلك".

"لا تعرف بالطبع. هذا لأنك لا تعرف أى شىء. ترقد فى السرير طوال اليوم، تزور الثلاجة، تقرأ كتبى. من حين لآخر، تحاول أن تجهز الأطباق. كيف يمكن أن تعرف أى شىء؟".

"أكتسب قوة. فى بضعة أيام أخرى سأعود إلى حالتى الطبيعية".

"جسديا. لكن لا يزال أمام ذهنك وقت طويل ليعمل".

"ماذا يعنى ذلك؟"

"يعنى أنه ينبغى عليك أن تنظر تحت السطح، يا م. س. عليك أن تعتاد على استخدام المخيلة".

"ظننت دائما أننى فعلت الكثير جدا من ذلك. أحاول الآن أن أكون أكثر واقعية، أقرب إلى الأرض".

"مع نفسك، نعم، لكنك لا تفعل ذلك مع الآخرين. لماذا تعتقد أن كيتى تراجعت؟ لماذا تظن أنها لم تعد تأتى لتراك؟"

"لأنها مشغولة. أخبرتنى بذلك للتو".

"هذا ليس إلا جزءا من الحقيقة".

"إنك تلف فى دوائر يا ديفيد".

"أحاول فقط أن أوضح لك أن هناك أكثر مما تعتقد".

"حسنا، إذن، ما الجزء الآخر؟"

"التعقل".

"تلك آخر كلمة يمكن استخدامها لوصف كيتى. ربما تكون أكثر من قابلت فى حياتى تفتحًا وتلقائية".

"هذا حقيقى. لكن تحت هذا كله، يوجد تحفظ هائل، كياسة حقيقية فى المشاعر".

"قبلتنى حين رأيتها أول مرة، هل تعرف ذلك؟ بالضبط وأنا أن أنصرف، استوقفتنى عند الباب، وأحاطتنى بذراعيها، وطبعت قبلة كبيرة على شفتى. من الصعب أن أسمى هذا كياسة أو تحفظاً".

"هل كانت قبلة لذيذة؟"

"حقا، كانت قبلة رائعة. إنها واحدة من أفضل القبلات التى استمتعت بها".

"ترى؟ ذلك يبرهن على قضيتى بالضبط".

"لا يبرهن على شىء. لم تكن إلا شيئاً من تلك الأشياء التى تحدث وليدة اللحظة".

"لا، كانت كيتى تعرف ما تفعله. إنها تتبع اندفاعاتها، لكن هذه الاندفاعات أيضا جزء من المعرفة".

"يبدو أنك واثق من نفسك بشدة".

"ضع نفسك مكانها. تقع فى حبك، تقبلك فى شفتيك، تترك كل شىء لتخرج وتعثر عليك. لكن ماذا فعلت من أجلها؟ لا شىء. ولا حتى ظل شىء. ترغب فى قبول ما يفصل كيتى عن الآخرين. تخيلْ الأمر فقط يا فُجّ. تنقذ حياتك، ومع ذلك لا تدين لها بأى شىء. لا تتوقع منكَ عرفانا بالجميل. لا تتوقع حتى صداقة. قد تتمنى تلك الأشياء، لكنها لن تطلبها أبداً. إنها تحترم الآخرين بدرجة تجعلها لا تفرض عليهم أن يفعلوا أشياء ضد إرادتهم. إنها متفتحة وتلقائية، لكنها فى الوقت ذاته تفضل الموت عن الشعور بأنها ترمى نفسها عليك. هنا يأتى التحفظ. ذهبتْ إلى أبعد حد، وعند هذه النقطة لم يعد أمامها إلا أن تتمسك بموقعها وتنتظر".

"ماذا تحاول أن تقول؟"

"الأمر يرجع إليك يا فج. عليك القيام بالنقلة التالية".

طبقا لما قالت كيتى لزيمر، كان والدها جنرال كومينتانج[١] فى الصين قبل الثورة. فى فترة تعود إلى الثلاثينيات تولى منصب المحافظ أو الحاكم العسكرى لبكين. وعلى الرغم من أنه كان عضوا فى الدائرة الداخلية لشيانج كاي-شيك فإنه أنقذ ذات يوم حياة شوين لاي بتقديم مسار آمن إلى خارج المدينة بعد أن حاصره شيانج هناك بذريعة ترتيب لقاء بين الكومينتانج والشيوعيين. ويبقى أن الجنرال ظل مخلصاً للقضية القومية، وبعد الثورة انتقل إلى تايوان مع بقية أتباع شيانج. كانت عائلة "وو" كبيرة، تتكون من زوجة رسمية، وخليلتين، وستة أبناء، وطاقم كامل من الخدم. ولدت كيتى للخليلة الثانية فى فبراير ١٩٥٠، وبعد ستة عشر شهرا، حين عين الجنرال "وو" سفيرا فى اليابان، انتقلت الأسرة إلى طوكيو. وكانت هذه دون شك نقلة ماهرة من جانب شيانج: لتكريم الجنرال المشاكس الصريح بهذه الوظيفة المهمة، وفى الوقت ذاته إبعاده عن مركز القوة فى "تايبى". كان الجنرال "وو" فى أواخر الستينيات فى ذلك الوقت، ومن الواضح أن أيامه كرجل ذى نفوذ ولت.

قضت كيتى طفولتها فى طوكيو، والتحقت بالمدارس الأمريكية، مما يفسر لغتها الإنجليزية السليمة، وحصلت على كل المزايا التى يمكن أن تقدمها لها ظروفها المميزة: دروس فى الباليه، الكريسماس الأمريكى، سيارات بسائقين. ونتيجة لهذا كله، كانت طفولة منعزلة. كانت أصغر بعشر سنوات من أقرب أخت غير شقيقة، وكان أحد إخوتها، مصرفيا فى سويسرا، أكبر منها بثلاثين عاماً. والأسوأ من ذلك أن وضع أمها كخليلة ثانية جعل قوتها فى التدرج العائلى لا تزيد عن قوة الخدم. كانت الزوجة فى الرابعة والستين والخليلة الأولى فى الثانية والخمسين غيورتين من أم كيتى، وكانت أصغر وأكثر جاذبية وكانتا تفعلان كل ما تستطيعان ليضعفا وضعها فى الأسرة. كما شرحت كيتى لزيمر كان الأمر يشبه العيش فى بلاط إمبراطورى صينى، بكل منافسات

---

(١) كومينتانج Kuomintang: حزب سياسى صينى تأسس سنة ١٩١١ وسيطر على الصين من سنة ١٩٢٨ إلى ١٩٤٩.

الخدم والعصبيات، والمكائد السرية، والمؤامرات الصامتة والابتسامات الزائفة. كان من النادر رؤية الجنرال نفسه. حين لا يكون مشغولا بمهامه الرسمية، يقضي معظم وقته يغذى مشاعر شابات متنوعات لا يلقن بشخص محترم. كانت طوكيو مدينة غنية بالإغواء، والفرص بالنسبة لمثل هذه المداعبات لا تنتهى. أخيراً، اتخذ عشيقة، ووفر لها إقامة فى شقة أنيقة، وانفق بسخاء ليسعدها: مبالغ كبيرة للملابس، للمجوهرات، وأخيرا سيارة رياضية. وكانت هذه الأشياء، مع ذلك، غير كافية على المدى البعيد، ولم يكن حتى العلاج المؤلم والمكلف للقدرة الجنسية يستطيع أن يعكس التيار. بدأ نظر العشيقة يزوغ، وذات ليلة، طب عليها الجنرال فجأة، ليجدها بين ذراعي شاب. كانت المعركة التى نشبت رهيبة، أصوات زاعقة وأظافر حادة، وقميص ممزق وملطخ بالدماء. كان الوهم الأخير للعجوز الأحمق. عاد الجنرال إلى البيت، وعلق قميصه الممزق وسط غرفته ولصق به ورقة فيها تاريخ الحادث: ١٤ أكتوبر ,١٩٥٩ وأبقاه هناك بقية حياته، متلذذا بها تذكارا لغروره المحطم.

فى وقت ما ماتت أم كيتى، على الرغم من أن زيمر لم يكن متأكدا من الأسباب أو الظروف. وكان الجنرال وقد تجاوز الثمانين حينذاك معتل الصحة، لكن فى آخر لمحة من الاهتمام بصغرى بناته، رتب لإرسالها إلى مدرسة داخلية فى أمريكا. وصلت كيتى إلى ماساشوسيتس فى الرابعة عشرة لتدخل صف المبتدئين فى أكاديمية "فيلدنج". نظرا لوضعها، لم تستغرق وقتا طويلا لتتكيف وتجد مكانا لنفسها. كانت تمثل وترقص، وتصادق، وقد ذاكرت بجدية لتحصل على تقديرات ممتازة. بانتهاء سنواتها الأربع هناك، كانت تعرف أنها لن تعود إلى اليابان. ولن تعود إلى تايوان، أو أى مكان آخر. صارت أمريكا بلادها، وبتدبير إرثها الصغير الذى حصلت عليه بعد موت والدها، غطت تكاليف التعليم فى جويليارد وانتقلت إلى نيويورك. وكان قد مضى على إقامتها فى المدينة أكثر من عام وبدأت للتو عامها الدراسى الثانى.

تساءل زيمر: "تبدو مألوفة، أليس كذلك؟"

قلْتُ: "مألوفة؟ إنها واحدة من أغرب القصص التى سمعْتُها".

"من على السطح فقط. اخْدش بعض اللون الموضعى، وستكون تقريبًا قصة شخص آخر أعرفه. بالطبع ببعض الاختلاف فى التفاصيل".

"أوه، نعم، أفهم ما ترمى إليه. أيتام فى مهب الريح، شىء من هذا القبيل".

"بالضبط".

توقفت لحظة لأتأمل ما قال زيمر، وأضفْتُ فى النهاية: "أفترضُ أن هناك بعض أوجه التشابه، لكن هل تعتقد أنها صادقة؟"

"ليست لدى وسيلة لأعرف ذلك بشكل مؤكد. لكن على أساس ما أعرفه عنها حتى الآن، ستكون صدمة شديدة لى إن لم تكن صادقة".

أخذت رشفة أخرى من البيرة وأومأْتُ برأسى. وبعد ذلك بكثير، حين عرفت كيتى بشكل أفضل، عرفت أنها لا تكذب أبداً.

بدأت بمرور الوقت أشعر بعدم الراحة لبقائى مع زيمر. تحمل فاتورة شفائى، ومع أنه لم يشكُ من هذا إطلاقا، كنت أعرف أن ظروفه المادية ليست جيدة بما يمكنه من تحمل ذلك لفترة أطول. تلقى زيمر مساعدة صغيرة من أسرته فى نيو جيرسى، لكن كان عليه أساسا أن يعيل نفسه. فى العشرين من الشهر تقريبا بدأ دراسات عليا فى كولومبيا فى الأدب المقارن. حولته الجامعة إلى برنامج الزمالة، تعليم مجانى بالإضافة إلى منحة ألفي دولار، وحتى لو كان هذا مبلغا جيدا فى تلك الأيام، كان من الصعب أن يعيش به عامًا. ويبقى أنه واصل الاهتمام بى، ينفق من مدخراته الضئيلة دون ندم. بكرم مثل كرم زيمر لابد أنه كان هناك أكثر من الإيثار الصرف. بالعودة إلى عامنا الأول معا رفيقين فى غرفة، شعرْتُ دائما بأنه يخشانى إلى حد ما، وأنه مغمور، إذا جاز التعبير، بكثرة حماقاتى. حينذاك وأنا أمر بأوقات صعبة، ربما رآها فرصة ليكون صاحب اليد العليا، ليعدل التوازن الداخلى لصداقتنا. أشك فى أن زيمر نفسه كان يدرك ذلك، لكن زحفت إلى صوته نبرة تفوق مزعج وهو يتكلم إلىَّ، ولم يكن من الصعب أن أشعر بالمتعة التى يشعر بها من مضايقتى. وكان تقديرى لنفسى قد هوى إلى

الحضيض حتى إننى كنت أرحب سرا بإلحاحه باعتباره شكلا من أشكال العدل، باعتباره عقابا مستحقا بشدة للتكفير عن آثامى.

كان زيمر شخصاً نحيلا ضئيل الجسم بشعر أسود مجعد، ووقفة منتصبة واثقة. يستخدم نظارة بإطار معدنى، كانت شائعة بين الطلاب فى ذلك الوقت وكان فى المراحل الأولى من تربية اللحية، مما كان يجعله يبدو إلى حد ما مثل حاخام شاب. من بين كل طلاب الجامعة الذين عرفتهم فى كولومبيا، كان الأكثر نبوغا وضميرا، ولم يكن هناك شك فى أنه إذا تمسك بذلك فسوف يصبح عالما رائعا. كنا نتبادل المشاعر نفسها بالنسبة للكتب الغامضة والمنسية "كاسندرا" لاكوفرون، ديالوجات فلسفية لجيوردانو برونو، مذكرات جوزيف جوبرت[1]، مكتفيا بذكر بعض ما اكتشفناه معا، وبينما كنت أميل للحماس متحمسا والتشتت بجنون بشأن هذه الأعمال، كان زيمر مدقِّقًا ومنظَّمًا، وثاقب النظر بدرجة أذهلتنى غالبا. لذلك كله، لم يعتد اعتدادا خاصا بمواهبه الخطيرة، صارفا النظر عنها وكأنها ذات أهمية ثانوية. كان اهتمامه الأساسى فى الحياة كتابة الشعر، وكان يقضى ساعات طويلة وصعبة فى كتابته، متأملا كل كلمة وكأن مصير العالم معلق فى الميزان، ومن المؤكد أنها الطريقة الوحيدة المفهومة لرؤية الأمر. من أوجه كثيرة، كان شعر زيمر يشبه جسده: موجزا، ومحكما، ودقيقا. كانت أفكاره متضافرة معا بكثافة بحيث يصعب فهمها غالبا. ويبقى أننى أعجبت بغرابة القصائد ولغتها التى تشبه الصوان. كان زيمر يثق فى آرائى، وكنت دائما صادقا بقدر المستطاع حين يطلب رأيى، وأشجعه بأقصى ما أستطيع، لكن فى الوقت نفسه رافضا تلطيف الكلمات حين أشعر بخطأ. لم يكن لدى طموح أدبى خاص بى، وربما سهَّل ذلك الأمر. إذا انتقدْتُ أعماله، فقد كان يعرف أن ذلك لا يرجع إلى تنافس غير معلن بيننا.

١- لاكوفلاون Lycophron شاعر إغريقى من كتاب التراجيديا. جيوردانو برونو Giordano Bruno (١٥٤٨ - ١٦٠٠): فيلسوف وعالم إيطالى. جوزيف جوبرت Joseph Joubert (١٧٥٤- ١٨٢٤) : كاتب فرنسى.

كان يحب فتاة منذ سنتين أو ثلاث، اسمها "أنَّا بلوم" أو "بلُم"، لم أتأكد من الهجاء قط. نشأت في الناحية المقابلة لمنزل زيمر في ضواحي نيو جيرسي وكانت في صف أخته، مما يعني أنها كانت أصغر منه بعامين. لم أقابلها سوى مرة أو اثنتين، فتاة قصيرة بشعر قاتم ووجه جميل وشخصية حيوية تعتد بنفسها، وتوقعْتُ أنها ربما لا تتوافق مع الطبيعة المجتهدة التي يتسم بها زيمر. في وقت مبكر من الصيف، سافرت فجأة لتلتحق بأخيها الأكبر، وليم، الذي يعمل صحفيا في بلد أجنبي، ومنذ ذلك الوقت لم يتلقَّ زيمر كلمة منها- لا رسالة، لا بطاقة بريدية، لا شيء. وبمرور الأسابيع، ازداد يأسه بشأن هذا الصمت. كان يوميا يبدأ بالطقس نفسه، ينزل إلى الدور الأرضي ليلقي نظرة على صندوق البريد، وكلما دخل المبنى أو خرج منه يكون هناك فتح آخر وغلق بطريقة ملحة للصندوق الفارغ. يمكن أن يحدث هذا في أي ساعة، حتى في وقت متأخر، في الساعة الثانية أو الثالثة صباحًا، حين لا تكون هناك أي فرصة لإمكان وصول أي شيء جديد. لكن زيمر كان عاجزًا عن مقاومة الإغراء. مرات كثيرة، ونحن عائدان من حانة الحصان الأبيض شبه ثملين من البيرة، كان عليَّ أن أشاهد المشهد المؤلم لصديقي وهو يتحسس مفتاح صندوق البريد ويمد يده دون وعي بحثا عن شيء لا يوجد وربما لن يوجد أبدًا. ربما لهذا احتمل زيمر وجودي في شقته كل هذه الفترة. لو لم يكن هناك سبب آخر، فقد كنت الشخص الذي يتحدث إليه ويصرف ذهنه عن مشاكله، شكل غريب لا يمكن التنبؤ به من الارتياح الكوميدي.

ويبقى أنني كنت مستنزفًا لأمواله، وما دام لم ينطق بكلمة عن ذلك يزداد شعوري سوءًا. كانت خطتي أن أخرج للبحث عن وظيفة بمجرد أن أستعيد قوتي (أي وظيفة، لا يهم)، وأبدأ رد النقود التي أنفقها عليَّ. لكن هذا لا يحل مشكلة العثور على مكان آخر أقيم فيه، لكنني أقنعت زيمر على الأقل بأن يتركني أقضي الليالي على الأرض بحيث يعود للنوم في سريره. بعد يومين من تبديل الغرفتين، بدأ دراسته في كولومبيا. ذات ليلة في الأسبوع الأول، عاد إلى البيت بحزمة كبيرة من الأوراق وأعلن بابتسامة عريضة أن صديقة له في قسم الفرنسية استخدمت للقيام بترجمة عاجلة وأدركت أنها ليس لديها وقت للقيام بذلك. سألها زيمر إن كانت ترغب في أن تحيلها عليه، فوافقت.

هكذا دخلت المخطوطة المنزل، وثيقة مملة من نحو مائة صفحة تتعلق بإعادة تنظيم بناء القنصلية الفرنسية فى نيويورك. فى اللحظة التى بدأ زيمر فيها يحكى لى عنها، فهمت أننى وجدت الفرصة لأكون مفيداً. كانت معرفتى بالفرنسية جيدة مثل معرفته بها، كما شرحت له، وحيث إننى لم تكن ورائى مسئوليات فى ذلك الوقت، لماذا لا يتخلى عن الترجمة لى ويتركنى أقوم بها؟ اعترض زيمر، لكننى كنت أتوقع ذلك، وتدريجيا تغلبت على مقاومته. قلت إننى أريد أن أسوى حسابنا، وكان القيام بهذه المهمة أسرع وسيلة وأكثر عملية لتحقيق ذلك. أعطيه النقود، مائتى دولار أو ثلاثمائة، وعند هذه النقطة نصل إلى التعادل مرة أخرى. أخيراً اقتنع بذلك. استمتع زيمر بلعب دور الشهيد، لكنه حين فهم أن رفاهيتى فى خطر، رق.

قال: "حسنا، افترض أن علينا أن نقتسم النقود إذا كان الأمر بهذه الأهمية".

قلْتُ: "لا، لم تفهم بعد. النقود كلها تذهب إليك. لا معنى لأى شىء آخر. يذهب إليك كل بنس".

حققت ما أردْتُ، وللمرة الأولى فى شهور بدأت أشعر مرة أخرى بهدف لحياتى. كان زيمر يستيقظ مبكراً ليتجه شمالا إلى كولومبيا، ويتركنى بقية اليوم مع أدواتى، حرا فى الجلوس على مكتبه والعمل دون انقطاع. كان النص بغيضا، مليئا بكل أنواع الهراء البيقراطى، لكن كلما زادت مشاكله، انهمكت فى المهمة بتحد أكبر، رافضاً التخلى عنها حتى بدأ أثر من المعنى يسطع فى الجمل السيئة المشوشة. شجعتنى صعوبة المهمة. لو كانت الترجمة أسهل، لما شعرْتُ بأننى أقوم بتكفير مناسب عن أخطائى السابقة. بمعنى ما، إذن، تفاهة المشروع منحته قيمته. شعرْتُ وكأننى شخص محكوم عليه بالأشغال الشاقة فى مجموعة مقيدة معًا. وظيفتى أن آخذ المطرقة وأكسر الحجارة إلى أجزاء أصغر، وبمجرد تحطيم هذه الحجارة، أحطمها إلى أجزاء أصغر. لا هدف من هذا العمل. لكن الحقيقة أننى لست مهتما بالنتائج. العمل غاية فى ذاته، وقد ألقيت بنفسى فيه بكل تصميم سجين نموذجى.

وحين يكون الطقس جيدا، كنت أخرج أحيانا لتمشية قصيرة حول الحى ليصفو ذهنى. كنا فى أكتوبر، أفضل الشهور فى نيويورك، وكنت أجد متعة فى فحص ضوء بداية الخريف، مراقبا كيف تبدو رؤية شروق جديد والشمس تميل على المبانى المشيدة من الطوب. انتهى الصيف، وما زال الشتاء بعيدا، وقد استمتعْتُ بهذا التوازن بين الحر والبرد. أينما سرت فى تلك الأيام، كانت الشوارع مليئة بالحديث عن فريق ميتس. كانت لحظة نادرة من الإجماع، حيث يفكر الجميع فى الشىء نفسه. كان الناس يسيرون ومعهم الراديو الترانزستور مفتوح على المباراة، وحشود كبيرة مجتمعة أمام واجهات محلات الأجهزة الكهربية يشاهدون الإثارة فى تليفزيونات صامتة، وقد تنفجر هتافات مفاجئة من بارات جانبية، من نوافذ الشقق، من أسطح غير مرئية. فى البداية كان فريق "أطلانطا" فى مباريات فاصلة، ثم كان بلتيمور فى البطولة. من ثمانى مباريات فى أكتوبر لم يخسر ميتس إلا مرة واحدة، وحين انتهت المغامرة، شهدت نيويورك عرضا آخر لشرائط التلغراف، وقد فاق هذا العرض روعة ذلك العرض الذى أقيم لرواد الفضاء قبل ذلك بشهرين. سقط أكثر من خمسمائة طن من الورق فى الشوارع فى ذلك اليوم، وهو رقم لم يتم الوصول إليه من حينها.

اعتدت تناول الغداء فى ميدان "أبينجدون"، متنزه صغير على بعد بناية ونصف تقريبا من شقة زيمر. كان فيه ملعب صغير للأطفال، وكنت أستمتع بالمقابلة بين اللغة الميتة للتقرير الذى أترجمه والطاقة المتأججة المتهورة لصغار يندفعون ويصرخون من حولى. وجدْتُ أن ذلك يساعدنى فى التركيز، وفى عدة مواقف أخذت عملى معى هناك وترجمت وأنا أجلس وسط تلك الضوضاء. وأخيرا رأيت كيتى وو مرة أخرى فى عصر يوم من هذه الأيام فى منتصف أكتوبر. كنت أكافح بطريقتى فى ممر مزعج، ولم ألاحظها حتى جلست بالفعل على الدكة بجانبى. أول مرة أراها بعد محاضرة زيمر فى البار، ولم أكن مستعدا لمفاجئة المواجهة. قضيت آخر بضعة أسابيع وأنا أتخيل كل الأشياء الرائعة التى يمكن أن أقولها حين أراها مرة أخرى، لكنها جاءت بلحمها وشحمها، وكان الكلام يخرج بالكاد من فمى.

قالت: "أهلا بك مستر 'كاتب'. جميل أن أراك بحالة جيدة مرة أخرى".

كانت تلبس نظارة شمس فى هذه المرة، وعلى شفتيها ظل ساطع من اللون الأحمر. ولأن عينيها لم تكونا مرئيتين خلف العدستين الداكنتين، لم أستطع إلا أن أتجنب التحديق فى فمها مباشرة.

قلت: "لا أكتب حقا. إنها ترجمة. شىء أقوم به لأكسب قليلا من النقود".

"أعرف. ذهبت إلى ديفيد أمس، وحكى لى عن الأمر".

تدريجيا، وجدت نفسى مسترخيا فى المحادثة. تتمتع كيتى بموهبة طبيعية فى أخذ الناس من أنفسهم، وكان من السهل أن تنسجم معها، وتشعر بالراحة فى وجودها. كما قال لى الخال فكتور منذ فترة طويلة إن المحادثة تشبه أن تتلقى لكرة من شخص ما. الرفيق الجيد يقذف الكرة فى قفازك مباشرة، ليكون من المستحيل تقريبا أن تفقدها؛ وحين يكون فى طرف الاستقبال، يمسك بكل ما يرسل إليه، حتى أكثر الرميات شرودا وافتقارا للمهارة. هذا ما تفعله كيتى. تظل تقذف الكرة مباشرة فى تجويف قفازى، وحين أقذف الكرة، تجذب كل شىء حتى لو كان بعيدا فى منطقتها: تقفز عاليا لتلتقط الكرات التى تحلق فوق رأسها، مندفعة بذكاء إلى يسارها أو يمينها، مشحونة لالتقاط كرات مفاجئة قريبة من الأرض. والأكثر من ذلك، كانت مهارتها تجعلنى أشعر دائما بأننى صنعت هذه الرميات السيئة متعمدا، كما لو كان هدفى الوحيد أن أجعل المباراة مسلية أكثر. جعلتنى أبدو أفضل من حقيقتى، ومما عزز ثقتى أن التقاطها لرمياتى كان أقل صعوبة. بتعبير آخر، بدأتُ أتحدث إليها بدل أن أتحدث إلى نفسى، وكانت المتعة أعظم من أى متعة شعرت بها منذ وقت طويل.

ونحن نواصل الحديث هناك فى نور شمس أكتوبر، بدأتُ أفكر فى طرق لإطالة المحادثة. كنت مستثارا وسعيداً بدرجة تجعلنى لا أرغب فى انتهائها، وحقيقة أن كيتى كانت تحمل حقيبة كبيرة فى كتفها مع أجزاء من أدوات الرقص تبرز فى قمتها- كم ثياب بهلوان، طوق بلوزة، طرف فوطة- جعلتنى أقلق من أن تنهض وتنصرف لمهمة

أخرى. كانت هناك لمسة برد فى الهواء، وبعد عشرين دقيقة من الحديث على الدكة، لاحظت رجفتها حتى وإن كانت ضئيلة جدا. مستجمعا شجاعتى، أبديت ملاحظة عن مدى ما وصلت إليه برودة الجو، وربما علينا أن نعود إلى شقة زيمر حيث يمكن أن أعد قهوة دافئة. بمعجزة، أومأت كيتى وقالت إنها تعتقد أنها فكرة طيبة.

بدأت إعداد القهوة. كانت غرفة النوم تفصل المطبخ عن غرفة المعيشة، وبدل أن تنتظر كيتى فى غرفة المعيشة، جلست على السرير بحيث يمكن أن نواصل الحديث. فى الداخل تغيرت نبرة المحادثة، وصرنا أكثر هدوءا وترددا، وكأننا نبحث عن طريقة لتفسير خطوطنا الجديدة. كان فى الهواء إحساس غريب بالتوقع، وكنت سعيدا بمهمة إعداد القهوة لأوارى الحيرة التى سيطرت علىَّ فجأة. كان هناك شىء على وشك الحدوث، لكننى كنت خائفا بدرجة تجعلنى لا أعتمد عليه، شعور إذا سمحت لنفسى بأن أتمناه يمكن أن يتحطم الأمر قبل أن يتشكل. ثم صمتتْ كيتى تماما، ولم تنطق بكلمة لمدة عشرين ثانية أو ثلاثين. واصلْتُ التوانى فى المطبخ، أفتح الثلاجة وأغلقها، آخذ أكوابا وملاعق، أصب اللبن فى الإبريق، ... إلخ. للحظة وجيزة، تحول ظهرى إلى كيتى، وقبل أن أدرك الأمر، تركت مكانها على السرير ودخلت المطبخ. قبل أن تنطق بكلمة، تسللت خلفى، ووضعت ذراعيها حول خصرى، ومالت برأسها على ظهرى.

قلت متظاهرا بأننى لا أعرف: "مَنْ؟"

قالت كيتى: "إنها سيدة التنين. تأتى لتأخذك".

أمسكت بيديها، محاولا ألا أرتجف وأنا أشعر بنعومة بشرتها. قلْتُ: "أظن أنها أخذتنى بالفعل".

كان هناك توقف وجيز، ثم شددت كيتى من قبضتها على خصرى. "تحبنى قليلا، أليس كذلك؟"

"أكثر من قليل. تعرفين ذلك. أكثر بكثير من قليل".

"لا أعرف شيئًا. انتظرْتُ كثيرا جدا ولم أعد أعرف شيئًا".

كان المشهد كله خيالى بالنسبة لى. كنت أعرف أنه واقع، لكنه فى الوقت ذاته أفضل من الواقع، إسقاط تقريبا لما أريد من الواقع أكثر من أى شىء عرفته من قبل. كانت رغباتى قوية جدا، طاغية فى الحقيقة، لكن فقط بسبب كيتى كانت هناك فرصة للتعبير عن هذه الرغبات. كان كل شىء معلقا على استجابتها، الدفعات الرقيقة ومعرفة إيماءاتها، وعدم ترددها. لم تكن كيتى تخشى من نفسها، وكانت تعيش داخل جسدها دون ارتباك أو تفكير متأنٍ. ربما هناك شىء يتوافق مع كونها راقصة، لكن ربما كان العكس أكثر احتمالا. لأنها تستمتع بجسدها، كانت ترقص.

مارسنا الحب لعدة ساعات فى الضوء الشاحب عصرا فى شقة زيمر. إنها دون شك واحدة من أجمل ذكرياتى، وأعتقد أنها غيرتنى تغييرا جوهريا فى النهاية. لا أتحدث عن الجنس أو الرغبة، لكن عن انهيار درامى لجدران داخلية، زلزال فى قلب وحدتى. اعتدْتُ أن أكون وحيدا ولم أكن أظن أن هذا يمكن أن يحدث. استسلمْتُ لنوع معين من الحياة، ومن ثم، لأسباب غامضة تماما، هبطت هذه الفتاة الصينية الجميلة، نزلت مثل ملاك من عالم آخر. وكان من المستحيل ألا أقع فى حبها، من المستحيل ألا أنجرف بالحقيقة البسيطة بأنها هناك.

بعد ذلك، صارت أيامى أكثر ازدحامًا. أعمل فى الترجمة صباحا وعصرا، ومساء أخرج لمقابلة كيتى، عادة فى حى كولومبيا-جويليارد فى شمال المدينة. إذا كانت هناك صعوبة، فقد كانت عدم وجود فرص كثيرة نكون فيها وحدنا. كانت كيتى تقيم فى غرفة فى مساكن الطلبة مع طالبة أخرى، ولم يكن هناك باب فى شقة زيمر لغلق غرفة النوم عن غرفة المعيشة. حتى لو كان هناك باب، كان من المستبعد أن أصطحب كيتى معى إلى هناك. نظرا لظروف حب زيمر حينذاك، لم أكن أسمح لنفسى بذلك: أبتليه بأصوات ممارستنا الحب، أرغمه على سماع تأوهاتنا وتنهدنا وهو يجلس فى الغرفة المجاورة. مرة أو اثنتين، خرجت زميلة الدراسة فى المساء، وانتهزنا فرصة غيابها لنستغل السرير الضيق الخاص بكيتى. فى عدة مناسبات أخرى، التقينا فى شقق خالية. كانت كيتى تعد تفاصيل هذه المقابلات، متفقة مع أصدقاء وأصدقاء أصدقاء لتطلب منهم استخدام

غرفة النوم لعدة ساعات. كان هناك شيء محبط في هذا كله، لكنه مثير في الوقت ذاته، مصدر للإثارة يضيف عنصرا من الخطورة والشك إلى عاطفتنا. استغللنا الفرص معا بشكل يبدو لي مستحيلا الآن، أخطار شنيعة كان من السهل أن تؤدى إلى أكثر أنواع المشاكل إرباكا. ذات مرة، على سبيل المثال، أنزلت البنطلون الجينز والملابس الداخلية لكيتي وأوصلتها إلى الأورجازم بلساني. في مرة أخرى، فعلناها على أرضية حمام في حفلة، وقد أغلقنا الباب خلفنا ولم ننتبه للناس الذين اصطفوا في القاعة، في انتظار دورهم لاستخدام الحمام. كان تصوفا شهوانيا، دينا سريا يقتصر على عضوين فقط. طوال الفترة الأولى من علاقتنا، كان علينا فقط أن ننظر إلى بعضنا لنستثار. حين تقترب كيتي مني، أبدأ التفكير في الجنس. كان من المستحيل أن أبعد يديَّ عنها، وكلما صار جسدها أكثر ألفة لي أود لمسه. ذات مرة، وصل بنا الأمر إلى ممارسة الحب بعد بروفات الرقص، في غرفة الملابس بعد انصراف الآخرين. كان من المنتظر أن تقدم العرض في الشهر التالي، وكنت أذهب إلى البروفات المسائية كلما استطعتُ. كانت مشاهدة رقص كيتي ثاني أفضل ما فيها، وكنت أتابع جسدها حول خشبة المسرح بتركيز خرافي. أحببت رقصها، وفي الوقت نفسه لم أفهمه. كان رقصا غريبا عليَّ تماما، شيئا لا يمكن التعبير عنه بالكلمات، ولم يكن أمامي سوى أن أجلس صامتا، منغمسا في مشاهدة الحركة الصرفة.

انتهيت من الترجمة في نهاية أكتوبر. حصل زيمر على النقود من صديقته بعد بضعة أيام، وفي تلك الليلة انضممت إليه أنا وكيتي لتناول وجبة في "قصر القمر". اخترْتُ المطعم، لقيمته الرمزية أكثر مما لنوعية الطعام، لكننا أكلنا بشكل جيد، حيث تحدثت كيتي بالمندرينية[1] مع النُّدُل وكانت قادرة على طلب أطباق لا توجد في القائمة. كان زيمر في صورة جيدة تلك الليلة، يتحدث عن تروتسكي وماو، ونظرية الثورة الدائمة، وأتذكر كيف وضعت كيتي رأسها على كتفي في لحظة، مبتسمة ابتسامة واهية

١- المندرينية Mandarin: اللغة القومية الرسمية في الصين.

وجميلة، وكيف ملنا على وسائد الكابينة وتركنا زيمر يواصل مونولوجه، هازين رأسينا موافقين وهو يحل معضلات الوجود الإنساني. كانت لحظة فاتنة، لحظة متعة مذهلة وتوازن، كما لو أن أصدقائي اجتمعوا ليحتفلوا بعودتي إلى أرض الواقع. بمجرد انتهاء الأطباق، فتحنا بسكويت الحظ(١) وحللناها برزانة ساخرة. بشكل غريب جدا، أتذكر أنني كنت لا أزال أمسك بكعكة الحظ. وكان فيها: "الشمس هي الماضي، الأرض هي الحاضر، القمر هو المستقبل". كما تبين، كان عليَّ أن أواجه هذه العبارة المبهمة مرة أخرى، جعلت الأمر يبدو بأثر رجعي وكأن اكتشافي لفرصتي في قصر القمر كانت مشحونة بحقيقة غريبة وأولية. لأسباب لم أفحصها في ذلك الوقت، وضعت الورقة الصغيرة في محفظتي وحملتها معي الشهور التسعة التالية، احتفظْتُ بها فترة طويلة بعد أن نسيت أنها موجودة.

في الصباح، بدأْتُ أبحث عن وظيفة. لم يثمر البحث في ذلك اليوم عن شيء، وكذلك في اليوم التالي. مدركا أن الصحف لم تكن لتوصلني إلى أي مكان، قررت أن أذهب إلى شمال المدينة إلى كولومبيا وأجرب حظي في مكتب توظيف الدارسين. كخريج جامعي، كنت مؤهلا للحصول على هذه الخدمة، وحيث إنه لم تكن هناك نفقات تدفع إذا حصلوا لك على وظيفة، بدا مكانا معقولا للبدء منه. في خلال عشر دقائق من دخول قاعة "دودج"، رأيت ردا على مشاكلي مطبوعة على بطاقة إرشادات معلقة على الزاوية اليسرى من لوحة الإعلانات. كان المكتوب في وصف الوظيفة على النحو التالي: "سيد مسن يحتاج إلى شاب ليرافقه في البيت. تمشية يومية، مهام سكرتارية خفيفة. ٥٠ دولارا أسبوعيا بالإضافة إلى غرفة والطعام". شدتني هذه التفاصيل الأخيرة. لن أستطيع فقط البدء في كسب بعض النقود لنفسي، لكنني سأكون قادرا أيضا على مغادرة شقة زيمر أخيراً. وربما الأفضل من ذلك أن أنتقل إلى شارع "ويست إند"

١- بسكويت الحظ fortune cookies: بسكويت به رسالة عن المستقبل عادة، يؤكل خاصة بعد الوجبات الصينية.

والشارع الرابع والثمانين، مما يعنى أن أكون أقرب بكثير إلى كيتى. بدت متكاملة. الوظيفة نفسها لم تكن تستحق الكتابة، لكن الحقيقة أننى لم يكن لدى من أكتب إليه على أي حال.

طلبت مقابلة على الفور، خوفًا من أن يأخذها أحد منى. فى خلال ساعتين، كنت أجلس مع مستخدِمى المنتظر فى غرفة معيشته، وفى الثامنة ليلا اتصل بى فى شقة زيمر ليبلغنى بقبولى فى الوظيفة. جعل الأمر يبدو وكأن اختيارى من بين عدة مرشحين آخرين يستحقون الوظيفة قرار صعب. على المدى الطويل، أشك أن أى شىء تغير، لكن عرفت أنه كان يكذب، وربما كانت لدى فكرة أفضل عما كنت مقدِّمًا عليه. الحقيقة أنه لم يكن هناك مرشحون آخرون. أنا الشخص الوحيد الذى طلب الوظيفة.

٤

حين وقعت عيناى أول مرة على "توماس إفنج"، ذهلت باعتباره أضعف شخص رأيته. عظام ولحم يرتجف، يجلس فى مقعده المتحرك مغطى ببطانيات منقوشة، جسده ساقط فى ناحية مثل طائر صغير مكسور. كان فى السادسة والثمانين، لكنه يبدو أكبر، مائة أو أكثر، إذا كان ذلك ممكنًا، عمر لا يحصى. كان كل ما يتعلق به مسيًّجًا، وبعيدا، ويشبه أبا الهول فى استحالة اختراقه. تقبض يداه كثيرتا العقد والبقع على مسندى الكرسى وتتحركان أحيانا مرتعشتين، لكن حركتهما العلامة الوحيدة على الوعى. لا يمكن التواصل معه حتى بالعين، لأنه كان كفيفا، أو على الأقل يتظاهر بأنه كفيف، ويوم ذهبت إلى منزله لإجراء المقابلة كان يضع شريطين داكنين على عينيه. وأنا أتطلع إلى هذه البداية الآن، يبدو أنها حدثت أول نوفمبر. أول نوفمبر: يوم الموتى، اليوم الذى يحتفل فيه بذكرى القديسين والشهداء المجهولين.

ردت امرأة على باب الشقة. امرأة بدينة غير مهندمة فى منتصف العمر، ترتدى عباءة منزلية واسعة مزينة أزهار قرنفلية وخضراء. بمجرد تأكدها من أننى مستر "فُجُ" الذى طلب التعيين فى الساعة الواحدة، مدت يدها إلىَّ وأعلنت أنها "ريتا هوم"، ممرضة مستر إفنج ومديرة المنزل فى السنوات التسع الماضية. وأثناء ذلك تطلعت إلىَّ بدقة تتفحصنى بفضول يخلو من الحياء، فضول امرأة تقابل لأول مرة زوجها المطلوب بالبريد. ومع ذلك كان فى تلك النظرات شيء صريح ولطيف جعلنى لا أعتبرها مهينة. من الصعب أن تكره مسز هوم، بوجهها العريض اللين، وكتفيها القويين، وثدييها الهائلين، ثديين كبيرين يبدوان وكأنهما من الإسمنت. كانت تنقل هذه الحمولة بخطوات واسعة متهادية. وهى تقودنى إلى المدخل باتجاه غرفة المعيشة، سمعْتُ صفير نفَسِها وهو يدخل ويخرج من منخاريها.

كانت واحدة من تلك الشقق الكبيرة فى "ويست سايد" بدهاليز طويلة، وفواصل منزلقة من البلوط بين الغرف، وحلى منمقة على الجدران. وكان هناك ركام فيكتورى

كثيف حول المكان، وقد وجدت صعوبة فى استيعاب الوفرة المفاجئة فى الأشياء من حولى: الكتب والصور والطاولات الصغيرة، لخبطة السجاجيد، خليط معتم من الخشب. فى منتصف المدخل، أخذتنى مسز هوم من ذراعى وهمست فى أذنى: "يستثار غالبا لأتفه الأسباب، لكن ذلك لا يعنى شيئًا فى الحقيقة. مر بوقت صعب فى الأسابيع القليلة الماضية. مات الرجل الذى كان يرعاه لأكثر من ثلاثين عامًا فى سبتمبر الماضى، ومن الصعب عليه أن يتكيف مع الأمر".

شعرْتُ بأننى وجدت حليفًا فى هذه المرأة، حليفا يمثل نوعًا من الحماية من أى شيء غريب قد يحدث. كانت غرفة المعيشة واسعة بشكل غير عادى، بنوافذ تطل على منحدرات هدسون ونيو جيرسى[١] وكان إفينج يجلس فى مقعده المتحرك وسط الغرفة، بينه وبين الأريكة طاولة منخفضة. ربما تكوَّن انطباعى الأول عنه بعدم استجابته لنا حين دخلنا الغرفة. أعلنت مسز هوم أننى وصلت، أن "مستر م. س. فُجْ هنا للمقابلة"، لكنه لم ينطق، لم يحرك حتى عضلة. كان خاملا بشكل غير معقول ، وكان أول رد فعل لى أننى اعتقدت أنه ميت. ابتسمت مسز هوم لى، وأشارت لى بالجلوس على الأريكة. ثم انصرفت، ووجدت نفسى وحيدا مع إفينج، منتظرًا أن يكسر الصمت!

استغرق الأمر وقتا طويلا، لكنه حين نطق أخيرا، ملأ صوته الغرفة بقوة مدهشة. لم يبد ممكنا أن يصدر هذا الجسم تلك الأصوات. خرجت الكلمات من حنجرته بطاقة قوية ومثيرة، وفجأة وكأن راديو فتح، وأدير على إحدى تلك المحطات البعيدة التى تلتقطها فى منتصف الليل. كان أمرا غير متوقع تمامًا . فرصة لتشابك الإلكترونات تحمل إلىَّ هذا الصوت من على بعد ألف ميل، وكان وضوحه يصعق أذنى. للحظة أو اثنتين، تساءلْتُ بالفعل إن لم يكن يختبئ فى الغرفة مصدر آخر للصوت.

"إيمث فُجّ"، قال العجوز، باصقا الكلمات بازدراء. "أى اسم مخنث هذا؟"

١- منحدرات هدسون ونيو جيرسى: منحدرات صخرية فى شمال شرق نيو جيرسى بطول الضفة الغربية لنهر هدسون.

ردت: "م. س. فج. م اختصار ماركو، س اختصار ستانلى".

"لا يجعل هذا الأمر أفضل. إذا كان لابد فهو أسوأ. ماذا ستفعل بشأنه يا فتى؟"

"لن أفعل شيئًا. اسمى، وقد قضينا معا الكثير، وقد نشأتُ معجبا به على مر الأعوام".

أصدر إفينج عند ذلك ضحكة سيئة بدا أنها تستبعد الموضوع تماما. بعد ذلك مباشرة فرد نفسه فى مقعده. لم يعد شبه جثة فاقدة الوعى ضائعة فى أحلام خيالية؛ صار كله قوة وانتباها، كتلة صغيرة مضطربة من قوة بُعِثَتْ. وكما علمت فى النهاية، كان هذا إفينج الحقيقى، إذا كان يمكن استخدام كلمة حقيقى بشأنه. وحيث إن قدرا كبيرا من شخصيته مبنى على الزيف والخداع، كان من المستحيل تقريبا أن تعرف متى يقول الحقيقة. كان يحب خداع العالم بتجارب وإلهامات مفاجئة، ومن بين كل الأعمال التى مارسها، كان يفضل لعب دور الميت.

مال فى مقعده إلى الأمام، كأنه يريد أن يقول لى إن المقابلة على وشك أن تبدأ جديا. على الرغم من الأربطة السوداء على عينيه، كانت نظرته موجهة إلىَّ مباشرة. قال: "أجبْنى يا مستر فج، هل أنت صاحب رؤية؟"

"اعتقدت عادة أننى كذلك، لكننى لم أعد متأكدا من ذلك".

"حين ترى شيئا أمام عينيك، هل تستطيع تحديده؟"

"نعم، غالبا. لكن الأمر يكون صعبا إلى حد ما أحيانا".

"على سبيل المثال".

"على سبيل المثال، تكون لدى مشكلة أحيانا فى التمييز بين الرجال والنساء فى الشارع. وحيث إن الكثير من الرجال شعرهم طويل الآن، فإن نظرة سريعة لا تخبرك بما يكفى دائما. خاصة حين تنظر إلى رجل يحمل سمات الأنوثة أو امرأة تحمل سمات الذكورة. تختلط الإشارات تماما".

"وحين تنظر إلىّ، ما الكلمات التى تخطر ببالك؟"

"أقول إننى أرى رجلا فى مقعد متحرك".

"رجلا عجوزا".

"نعم، رجلا عجوزا".

"رجلا عجوزا جدا".

"نعم، رجلا عجوزا جدا".

"هل لاحظت أى شىء مميز لى يا فتى؟"

"الأربطة التى على عينيك، على ما أظن. وحقيقة أن ساقيك تبدوان مشلولتين".

"نعم، نعم، نقائصى. قفزتْ إليك، أليس كذلك؟"

"بشكل آخر، نعم".

"هل استنتجت أى شىء من الأربطة؟"

"لا شىء بالتحديد. أول ما خطر ببالى أنك كفيف، لكن الدليل أثبت أن ذلك ليس حقيقيا. إذا كان شخص لا يرى، لماذا يبالى بأن يتأكد من أنه لا يرى؟ لا معنى لهذا. ومن ثم خطرت بذهنى احتمالات جديدة. ربما تغطى الأربطة ما هو أسوأ من العمى. تغطى تشوها بشعا، على سبيل المثال. أو ربما تكون قد أجريت عملية جراحية وعليك أن تضع هذه الأربطة لأسباب طبية. ومن الناحية الأخرى، ربما تكون كفيفا بشكل جزئى وهذا الضوء الشديد يؤذى عينيك. وربما تستمتع بوضع الأربطة لأمر يتعلق بها، لأنك تعتقد أنها جذابة. هناك عدد من الإجابات المحتملة على سؤالك. والآن، ليس لدى معلومات تكفى لمعرفة الإجابة. ما يخطر ببالى حاليا أن المؤكد أنك تضع هذه الأربطة السوداء على عينيك. يمكننى أن أقول إنها هناك، لكننى لا أعرف السبب".

"بتعبير آخر، أنت لا تسلم بشىء".

"يمكن أن يكون هذا خطيرا. يحدث كثيرا أن تكون حقيقة الأشياء غير ما تبدو عليه، ويمكن أن تتعرض لمشاكل بالقفز إلى الاستنتاجات".

"وساقاى؟"

"يفاجئنى هذا السؤال ببساطته. من النظر إليهما تحت البطانية، يبدو أنهما هزيلتان وضامرتان، مما يشير إلى أنهما لم تستخدما منذ سنوات طويلة. إذا كان الوضع كذلك، من المعقول أن أفترض أنك لا تستطيع المشى. ربما لم تستطع المشى قط".

"رجل عجوز لا يرى ولا يمشي. ماذا تعتقد فى ذلك يا فتى؟"

"أعتقد أن مثل هذا الرجل أكثر اعتمادا على الآخرين مما يبدو".

نخر إفينج، ومال إلى الخلف فى مقعده، ثم مال برأسه باتجاه السقف. فى الثوانى العشر أو الخمس عشرة التالية لم ينطق أحد منا بكلمة.

قال أخيرا: "أى نوع من الأصوات صوتك يا فتى؟"

"لا أعرف. لا أستطيع أن أسمعه حقا وأنا أتكلم. وفى المرات القليلة التى سمعته فيها على شريط تسجيل، أعتقد أنه قد يبدو بشعا. لكن الجميع يعتقدون ذلك على ما يبدو".

"هل يستطيع أن يمضى بعيدا؟"

"بعيد؟"

"هل يستطيع أن يعمل لمسافة طويلة. هل يمكن أن تتحدث ساعتين أو ثلاثًا دون أن يصبح أجش. هل يمكن أن تجلس وتقرأ لى طوال العصر وتظل الكلمات تخرج من فمك. هذا ما أعنيه بأن يمضى بعيدا".

"نعم، أظن أننى أستطيع ذلك".

"كما لاحظت بنفسك فقدْتُ القدرة على الإبصار. سوف تتشكل العلاقة معك من الكلمات، وإذا لم يستطع صوتك أن يمضى بعيدا، فلن تكون جديرا بشخصى الملعون".

"أفهم".

مال إفينج إلى الأمام مرة أخرى، ثم توقف برهة لتأثير درامى: "هل تخاف منى يا فتى؟"

"لا، لا أظن ذلك".

"لا ينبغى أن تخاف منى. إذا رأيتُ أن أستخدمك، فسوف تعرف الخوف، أضمن لك ذلك. قد أكون عاجزا عن الرؤية أو المشى، لكننى أتمتع بقدرات أخرى، قدرات لم يمتلكها إلا عدد ضئيل من الرجال".

"أى نوع من القدرات؟"

"قدرات ذهنية. قوة إرادة يمكنها أن تثنى العالم الفيزيائى إلى أى شكل أريده".

"التحريك الذهنى(١)".

"نعم، إذا أحببْتَ. التحريك الذهنى. هل تذكر الإظلام الذى حدث منذ سنوات قليلة؟"

"فى خريف ١٩٦٥"

"بالضبط. أنا المتسبب فيه. كنت قد فقدت بصرى حديثا، وذات يوم وجدْتُ نفسى أجلس وحيدا فى هذه الغرفة، لاعنا مصيرى. فى الساعة الخامسة تقريبا، قلْتُ لنفسى: أتمنى أن يعيش العالم كله فى هذا الظلام الذى أعيش فيه. فى أقل من ساعة، انطفأت كل أنوار المدينة".

١- التحريك الذهنى Telekinesis: تحريك الأشياء بوسائل لا يمكن تفسيرها علميا، بتأثير قوة غامضة.

"قد تكون صدفة".

"ليست هناك صدف. لا يستخدم الكلمة إلا الجهلة. كل ما فى العالم مكون من كهرباء، الحي والجماد. حتى الأفكار تبعث شحنة كهربية. إذا كانت أفكار رجل قوية بما يكفى يمكنها أن تغير العالم من حوله. لا تنسَ ذلك يا فتى".

"لن أنسى ذلك".

"وأنت، يا ماركو ستانلى فج، ما القدرات التى تتمتع بها؟"

"لا شيء يمكن أن أدركه. لدى القدرات الإنسانية العادية، على ما أظن، لكن ليس لدى ما يتجاوزها. أستطيع أن آكل وأنام، أستطيع أن أمشى من مكان إلى آخر. أستطيع أن أشعر بالألم. أحيانا أستطيع حتى أن أفكر".

"محرض رعاع. هل هذا هو أنت يا فتى؟"

"لا. أشك فى قدرتى على إقناع أى شخص بعمل أى شيء".

"ضحية إذن. هذا أو ذاك. تفعل أو يُفعَل بك".

"نحن جميعا ضحايا شيء ما، يا مستر إفينج. ولو حتى ضحية حقيقة أننا أحياء".

"هل أنت متأكد من أننا أحياء يا فتى؟ ربما تتخيل فقط أننا أحياء".

"أى شيء ممكن. يمكن أن أكون أنا وأنت من وحى الخيال، وأننا لسنا هنا حقا. نعم، أريد أن أقبل هذا باعتباره احتمالا".

"هل تعرف كيف تمسك لسانك؟"

"إذا كان ذلك مطلوبا، على ما أظن أننى أستطيع أن أكون صامتا مثل الرجل التالى".

"وأى رجل هذا يا فتى؟"

"أى رجل. إنه شكل من أشكال التعبير. يمكننى أن أتحدث وأن أكون صامتا، حسب الموقف".

"إذا عينتك، ربما تكرهنى. تذكرْ فقط أن هذا كله لمصلحتك. هناك هدف خفى لكل ما أفعله، وليس عليك أن تحكم عليه".

"سأحاول أن أضع هذا فى الاعتبار".

"حسنًا. الآن تعال هنا لألمس عضلاتك. لا أستطيع أن أعين شخصا ضعيفًا ليدفعنى فى الشوارع، أليس كذلك؟ إذا كانت عضلاتك لا تستطيع القيام بالوظيفة، فلن تكون جديرا بشخصى الملعون".

ودعت زيمر فى تلك الليلة، وفى صباح اليوم التالى وضعت أشيائى القليلة فى حقيبة الظهر وانتقلت إلى شمال المدينة حيث شقة إفينج. وشاءت الصدفة ألا أرى زيمر ثانية لمدة ثلاثة عشر عاما. فرقت بيننا الظروف، وحين قابلته صدفة فى النهاية فى ربيع ١٩٨٢ فى تقاطع شارع "فاريك" وبرودواى غربا جنوب مانهاتن، كان قد تغير بدرجة جعلتنى لا أعرفه للوهلة الأولى. ازداد وزنه عشرين رطلا أو ثلاثين، وحيث إنه كان يسير مع زوجته وولديه الصغيرين، لاحظت فى الحقيقة مظهره التقليدى تماما: الكرش والشعر النحيل لشخص فى بداية منتصف العمر، المظهر الرزين المرتبك لرب عائلة محنك. كنا نسير فى اتجاهين متضادين ومر كل من بالآخر. وبشكل مفاجئ تماما، سمعته ينادى علىَّ. إنه حدث شائع، على ما أظن، أن تصطدم بشخص من ماضيك، لكن رؤية زيمر على هذا النحو حركت عالما كاملا من الأشياء المنسية. لا يهم تقريبا ما حدث له، وأنه يدرِّس فى جامعة فى مكان ما فى كاليفورنيا، ونشر دراسة فى أربعمائة صفحة عن السينما الفرنسية، ولم يكتب قصيدة منذ أكثر من عشر سنوات. المهم، ببساطة شديدة، أننى رأيْتُه. وقفنا فى الركن نتحدث عن الماضى لخمس عشرة دقيقة أو عشرين، ثم أسرع مبتعدا هو وأسرته فى طريقهم. لم أره أو أتلق كلمة منه من وقتها، لكننى أعتقد أن فكرة كتابة هذا الكتاب خطرت ببالى بعد ذلك اللقاء، وقد مضى عليه أربعة أعوام، فى اللحظة التى تلاشى فيها زيمر فى الشارع ولم أره مرة أخرى.

بعد وصولي إلى شقة إفينج، أجلستني مسز هوم في المطبخ لتناول كوب من القهوة. قالت إن مستر إفينج يغفو غفوة الصباح، ولن يستيقظ قبل العاشرة. أثناء ذلك، أخبرتني بطبيعة مهمتي في المنزل، وموعد تناول الوجبات، والساعات التي سأقضيها مع إفينج يوميا... الخ. كانت هي التي ترعى "عمل الجسم"، بتعبيرها، تغيير الملابس وتنظيفه، أخذه إلى السرير وإنزاله منه، الحلاقة، الذهاب به إلى المرحاض وإخراجه منه، وكانت وظيفتي أكثر تعقيدا وغير محددة بوضوح. لم أستخدم بالضبط لأكون صديقه، لكن لأكون قريب جدا من ذلك: رفيقا متعاطفا، شخصا يكسر رتابة وحدته. قالت: "يعلم الرب أن الرجل لم يتبق من عمره الكثير. وأقل ما يمكن أن نفعله أن نريه أن أيامه الأخيرة ليست بائسة جدا". قلتُ إنني أفهم ذلك.

واصلتْ: "يحسن من روحه المعنوية أن يرى شابا بجواره. ناهيك عن روحي المعنوية".

قلْتُ: "إنني سعيد بالوظيفة".

"استمتع بالحديث معك أمس. قال إنك قدمت له إجابات جيدة".

"لم أعرف ماذا أقول في الحقيقة. يمكن أن تكون متابعة صعبة أحيانا".

"لا أعرف. لكن هناك دائما شيء ما يختمر في دماغه. به قليل من العته، لكنني لا أصفه بالخرف".

"لا، إنه زبون حاد. أظن أنه سيجعلني أقف دائمًا على أطراف أصابعي".

"أخبرني بأن صوتك لطيف. وهذه بداية مبشرة على أي حال".

"لا يمكن أن أتخيل أنه استخدم كلمة لطيف".

"ربما لم تكن الكلمة بالضبط، لكنه كان يعنيها. قال إن صوتك يذكره بصوت شخص كان يعرفه".

"أتمنى أن يكون شخصًا كان يحبه".

"لم يخبرني. وهذا أمر سوف تعرفه عن مستر توماس. لا يخبرك أبدًا عما لا يريد أن يخبرك به".

كانت غرفتي في نهاية ردهة طويلة، مكانا إضافيا صغيرا به نافذة واحدة ويطل على ممر خلفي، بناء صغير لا يزيد عن صومعة راهب. كانت ركنا أليفًا بالنسبة لي، ولم يستغرق الأمر مني وقتا طويلا لأشعر بأني في بيتي بين الأثاث الضئيل: سرير حديدي من طراز قديم بقضبان عمودية في كل ناحية، خزانة بأدراج، ومكتبة بطول أحد الحوائط، مليئة في معظمها بكتب فرنسية وروسية. ولم يكن في الغرفة إلا صورة واحدة، نقش كبير في إطار مطلي بالأسود يصور مشهدًا أسطوريًا مزدحمًا ببشر ووفرة من التفاصيل المعمارية. عرفت، فيما بعد، أنها نسخة بالأبيض والأسود لواحدة من مجموعة من سلسلة لوحات لتوماس كول بعنوان "مسار الإمبراطورية[1] ملحمة بصرية عن ازدهار العالم الجديد وانهياره. أخرجت ملابسي ووجدت أن كل ما أملك يمكن أن يوضع في الدرج العلوي من الخزانة. لم يكن معي إلا كتاب واحد، نسخة بغلاف عادي من "أفكار" باسكال، قدمه لي زيمر هدية وداع. وضعته على قمة الوسادة مؤقتا وعدت أتفحص غرفتي الجديدة. لم تكن كبيرة لكنها كانت غرفتي. بعد شهور كثيرة من الشك، شعرت بالارتياح لمجرد أنني أستطيع الوقوف بين هذه الجدران، وأعرف أن في العالم مكانًا يمكن أن أصفه بأنه مكاني.

لم يتوقف المطر في أول يومين لي هناك. دون فرصة للخروج لتمشية بعد الظهيرة، قضينا الوقت كله في غرفة المعيشة. كان إفينج أقل تحفزا مما كان في المقابلة، وفي معظم الوقت يجلس صامتًا، يستمع إلى الكتب التي أقرأها له. كان من الصعب أن

١- توماس كول Cole (١٨٠١-١٨٤٨): رسام أمريكي من أصول إنجليزية. مسار الإمبراطورية The Course of Empire: سلسلة من خمس لوحات رسمها بين ١٨٣٣-١٨٣٦.

أحكم على طبيعة هذا الصمت، إن كان يستخدمه اختبارا لى بطريقة لا أفهمها، أم أنه ببساطة انعكاس لحالته المزاجية. وكما هو الحال بالنسبة للكثير من تصرفات إفينج فى الوقت الذى قضيته معه، كنت موزعا بين القراءة وهدف غامض لتصرفاته ورفضها باعتبارها نتاجا لاندفاع عشوائى. الأشياء التى قالها لى، الكتب التى يختارها لأقرأها، المهام الغريبة التى يبعثنى فيها، هل كانت جزءا من خطة متعمدة ومبهمة، أم أنها تبدو كذلك عند النظر إليها الآن؟ شعرْتُ أحيانا أنه يحاول أن يمرر لى معرفة سرية وغامضة، متصرفًا مثل معلم نصب نفسه من أجل تطورى الداخلى، لكن دون أن يتركنى أعرف هذا، ضاغطا على لألعب مباراة لم يخبرنى بقواعدها. كان هذا إفينج مرشداً روحيا غريب الأطوار، أستاذاً شاذاً يكافح ليدخلنى إلى أسرار العالم. لكنه، فى أوقات أخرى، حين تخرج ذاتيته وعجرفته عن السيطرة، يذهلنى بوصفه عجوزاً سيئًا ومهووس متأجج يعيش على الحافة بين الجنون والموت. عموما، أهال علىَّ قدرا كبيرا من الإساءة، وبعد وقت قصير صرت حذرا منه حتى وافتتانى به يزيد. عدة مرات، وأنا على حافة الاستسلام، طلبت كيتى منى البقاء، لكن على المدى الطويل أعتقد أننى كنت أرغب فى البقاء، حتى حين بدا من المستحيل أن أبقى دقيقة واحدة. مضت أسابيع كنت أستطيع فيها بالكاد أن أقف لأحول عينىَّ فى اتجاهه، وكان علىَّ أن أقيد نفسى لأبقى فى الغرفة نفسها معه. لكننى واصلْتُ، واصلْتُ حتى النهاية المريرة.

كان إفينج، حتى فى أكثر حالاته المزاجية هدوءا، يستمتع بتقديم مفاجآت صغيرة. فى صباح أول يوم، على سبيل المثال، تحرك بمقعده إلى الغرفة واضعا نظارة داكنة من نظارات المكفوفين. لم أر الشرائط السوداء التى أثارت مناقشة طويلة أثناء المقابلة. ولم يعلق إفينج على هذا التحول. طبقا لتوجيهاته، اعتبرت أنها من المواقف التى يفترض أن أمسك لسانى فيها، ومن ثم لم أنطق أنا أيضًا بكلمة عنها. فى صباح اليوم التالى، كان يلبس نظارة طبية عادية بإطار معدنى وعدستين سميكتين بشكل غير معقول. كانتا تكبران عينيه وتشوهان شكليهما، وجعلتهما تبدوان كبيرتين مثل بيضتى طائر، كرتين زرقاوين جاحظتين بدتا وكأنهما على وشك أن تثبا من رأسه. كان من الصعب أن

أعرف إن كانت تلكما العينين تريان أم لا. في لحظات كنت أقتنع أن الأمر مجرد خداع وأنه يرى بالحدة التي أرى بها؛ وفي لحظات أخرى، أقتنع بأنه أعمى تماما. هذا، بالطبع، ما كان يريده إفينج. كان يأتي متعمدا بإشارات ملتبسة ثم يجد متعة في الشك الذي تحدثه، رافضًا بعناد أن يفشي الحقائق. في بعض الأيام، كان يترك عينيه مكشوفتين، لا يضع شرائط ولا يلبس نظارة. وفي أيام أخرى، يدخل بعصابة سوداء مربوطة حول رأسه، جعلته يبدو مثل سجين مع فرقة إعدامه. كان من المستحيل أن أعرف ما تعنيه هذه الملابس المتنوعة. لم ينطق قط بكلمة عنها، ولم تواتني قط الشجاعة لأسأل. قررت أن المهم ألا أترك تصرفاته الغريبة تزعجني. يمكنه أن يفعل ما يسره، لكن طالما لم أقع في شباكه، لا شيء منها يمكن أن يؤثر علي. هذا ما قلت لنفسي على أي حال. رغم تصميمي، كان من الصعب أحيانا أن أقاومه. خاصة في الأيام التي يترك فيها عينيه مكشوفتين، كثيرا ما كنت أجد نفسي أحدق فيهما مباشرة، عاجزًا عن عدم النظر إليهما، لا حيلة لي أمام قوتهما التي تغريني. وكأنني أحاول أن أكتشف حقيقة ما فيهما، فتحة تقودني مباشرة إلى ظلام جمجمته. لكن هذا كله كان بلا جدوى. لأن في كل الساعات التي قضيتها أحدق في عيني إفينج، لم تفصحا لي عن شيء قط.

كان يختار كل الكتب مقدما، ويعرف بالضبط ما يريد أن يسمعه. لم تكن هذه القراءات شكلا من أشكال الاستجمام بقدر ما كانت سعيا، بحثا عنيدا عن أشياء معينة دقيقة ومحددة. وهذا لم يجعل دوافعه أكثر وضوحا لي، لكن كان هناك على الأقل منطق خفي للمشروع. كانت السلسلة الأولى من الكتب تتناول مسألة الرحلة، وغالبا رحلة إلى المجهول واكتشاف عوالم جديدة. بدأنا برحلات سانت بريندان وسير جون دي ماندفيل، ثم انتقلنا إلى كولومبس، وكابيزا دي فاكا، وتوماس هاريوت[1] قرأنا

١- سانت بريندان Brendan (٤٨٤-٥٧٧): رحالة أيرلندي. سير جون دي ماندفيل Mandeville: فارس ولد ونشأ في إنجلترا، صاحب "رحلات جون دي ماندفيل" وهو كتاب انتشر في القرن الرابع عشر. كابيزا دي فاكا Cabeza de Vaca (١٤٨٨-١٥٥٧): مستكشف إسباني. توماس هاريوت Harriot (١٥٦٠-١٦٢١): عالم فلك إنجليزي.

مقتطفات من كتاب دوتى "رحلات فى الصحراء العربية"، وانتقلنا إلى كل كتاب جون ويسلى بويل عن بعثته لرسم خرائط نهر كولورادو(١) وانتهى الأمر بقراءة عدد من قصص العبودية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، روايات مباشرة كتبها مستوطنون بيض اختطفهم هنود. وجدت هذه الكتب ممتعة بشكل مطرد، وبمجرد أن اعتاد صوتى على العمل لفترات طويلة فى كل مرة، أعتقد أننى طورْتُ أسلوبا مناسبا للقراءة. كان الأمر يعتمد تماما على وضوح النطق، وكان يعتمد بدوره على تغيير النبرة، ووقفات دقيقة، انتباه ثابت للكلمات على الصفحة. من النادر أن يقدم إفينج تعليقات وأنا أقرأ، لكننى كنت أعرف أنه يستمع من الصخب الطارئ الذى يخرج منه حين نصل إلى فقرة بالغة التعقيد أو الإثارة. ربما كنت أشعر أثناء جلسات القراءة هذه بأكبر انسجام معه، لكننى تعلمت بسرعة ألا أخلط بين تركيزه الصامت والنية الحسنة. بعد الكتاب الثالث أو الرابع عن الرحلات، قدمت اقتراحا عابرا بأنه قد يجد تسلية فى الاستماع إلى أجزاء من رحلة سيرانو إلى القمر. لم يجد هذا إلا نخرة منه، وقال: "احتفظ بأفكارك لنفسك يا فتى. إذا احتجت إلى رأيك فسوف أطلبه".

كان الحائط البعيد لغرفة المعيشة تشغله مكتبة تمتد من الأرض إلى السقف. لا أعرف عدد الكتب التى كانت على هذه الرفوف، لكن لابد أنها كانت على الأقل خمسمائة أو ستمائة، وربما ألفًا. بدا أن إفينج يعرف موضع كل كتاب، وعند بداية قراءة كتاب جديد، يقول لى بالضبط إلى أين أذهب. يقول: "الرف الثانى، الحيز الثانى عشر أو الخامس عشر من اليسار. لويس وكلارك. كتاب أحمر مغلف بالقماش". لم يخطئ قط، وحين يبلغ دليل قدرته على التذكر أقصاه، ما كان لى إلا أن أتعجب. سألْتُه

١- دوتى Doughty (١٨٤٣-١٩٢٦): رحالة وكاتب بريطانى. جون ويسلى بويل Powell: (١٨٣٤-١٩٠٢) عالم جيولوجيا أمريكى وعالم أعراق، قاد المسح الجغرافى فى أمريكا وصنف الكثير من اللغات الأمريكية الأصلية. نهر كولورادو: نهر فى جنوب غرب أمريكا، ينبع من جبال روكى.

ذات يوم إن كان يعرف نظم الذاكرة عند شيشرون وريموند لول[1] لكنه رفض سؤالى بإشارة من يده. قال: "لا يمكنك أن تدرس هذه الأشياء. إنها موهبة تولد بها، هبة طبيعية". توقف لحظة، ثم واصل بصوته السخيف الساخر: "لكن كيف تتأكد من أننى أعرف مكان الكتب؟ توقَّفْ وفكرْ فى الأمر. ربما أزحف إلى هنا فى الليل وأعيد ترتيبها وأنت نائم. أو ربما أنقل الكتب بقوة مبهمة حين تستدير بظهرك. أليس كذلك أيها الشاب؟" اعتبرته سؤالا بلاغيا ولم أقل أى شىء لأعارض إفينج. واصل: "تذكر فقط يا فج، لا تسلمْ قط بأى شىء، خاصة وأنت تتعامل مع شخص مثلى".

قضينا أول يومين فى غرفة المعيشة والمطر الشديد فى نوفمبر يضرب النافذة من الخارج. كان الجو ساكنًا تمامًا فى منزل إفينج، وأحيانًا حين أتوقف لالتقاط الأنفاس أثناء القراءة يكون أعلى صوت أسمعه صوت الساعة على رف الموقد. أحيانا قد تحدث مسز هوم بعض الضوضاء فى المطبخ، وكانت هناك ضوضاء مكتومة لحركة المرور فى الشارع، اندفاع الإطارات وهى تتحرك فى الشوارع المليئة بماء المطر. بدا غريبا ولذيذا أن تجلس فى الداخل والعالم يمضى فى أشغاله، وربما عززت الكتب نفسها هذا الشعور بالانفصال. كان كل ما فيها بعيدا ومبهما ومشحونا بالأعاجيب: كاهن أيرلندى أبحر عبر الأطلنطى فى سنة ٥٠٠ ووجد جزيرة اعتقد أنها الجنة؛ المملكة الأسطورية لبريستر جون[2] عالم أمريكى بذراع واحدة يدخن غليون السلام مع الهنود "الزونى" فى نيو مكسيكو. مضت الساعات، ولم يتزحزح أى منا عن موقعه. إفينج فى مقعده المتحرك، وأنا أمامه على الأريكة، وكنت أستغرق أحيانا فيما أقرؤه بدرجة تجعلنى لا أعرف أين أنا، وأشعر أننى خرجت من جلدى.

كنا نتناول الغداء والعشاء فى غرفة الطعام فى الظهيرة والساعة السادسة يوميا.

١- ريموند لول Lull (١٢٣٥-١٣١٦): فيلسوف إسبانى.

٢ - بريستر جون Prester John: قس مسيحى أسطورى من القرون الوسطى حكم مملكة مسيحية فى الشرق الأقصى أو الحبشة.

وكان إفينج دقيقا جدا فيما يتعلق بهذا الجدول، وحين تدس مسز هوم رأسها فى المدخل لتعلن أن الطعام جاهز، ينصرف فجأة عن الكتاب. لا يهم فى أين موضع من القصة نكون، حتى لو لم يكن متبقيا سوى صفحة أو اثنتين. كان إفينج يقاطعنى فى منتصف الجملة ويطلب منى التوقف، قائلا: "حان موعد الطعام، نتناول ذلك مرة أخرى فيما بعد". ولا يرجع ذلك إلى أنه شدة الجوع- كان قليل الأكل تماما- لكن إلى الدافع إلى تنظيم أيامه، بطريقة صارمة ومنطقية، أقوى من أن يتجاهله. مرة أو مرتين بدا آسفا حقا لأن علينا أن نتوقف عن القراءة، لكن لم يصل الأمر قط إلى درجة الخروج على الجدول. كان يقول: "سيئ جدا، بمجرد أن بدأنا نستمتع". حين حدث ذلك أول مرة، عرضْتُ مواصلة القراءة لحظة أخرى، فقال: "مستحيل. لا نستطيع أن نعطل العالم من أجل متع مؤقتة. هناك وقت كاف لهذا غدا".

لم يكن إفينج يأكل كثيرا، لكن القليل الذى يأكله يستهلك فى مناوشات مجنونة من النخير والدلق. كنت أشمئز من هذا المشهد، لكن لم يكن لى من اختيار إلا أن أتحمله. وحين كان إفينج يشعر بأننى أحدق فيه، يظهر على الفور مجموعة من الحيل أكثر إثارة للاشمئزاز: يترك الطعام يتساقط من فمه إلى ذقنه، يتجشأ، يتظاهر بشعور بالغثيان والإصابة بأزمات قلبية، يخلع طاقم أسنانه ويضعه على المائدة. كان مغرما جدا بالحساء، وطوال الشتاء نبدأ كل وجبة بنوع مختلف من الحساء. كانت مسز هوم تصنع الحساء بنفسها، آنية شهية من حساء الخضراوات وحساء قرة العين وحساء الكراث والبطاطس، لكننى فزعت بسرعة من اللحظة التى يكون على فيها أن أجلس وأشاهد إفينج وهو يضعه فى فمه. ولم يكن ذلك يرجع إلى أنه يحدث صوتا وهو يشربه؛ يشفطه فعليا، مخترقا الهواء بكل ضجة مكنسة "هوفر" معيبة واضطرابها. كان هذا الصخب مثيرا جدا للأعصاب، ومميزا جدا، حتى إننى بدأتُ أسمعه طوال الوقت، حتى ونحن لا نجلس إلى المائدة. حتى الآن، إذا تمكنت من التركيز بقدر كاف، يمكن أن أستعيده بأدق خصائصه: صدمة اللحظة الأولى التى تلمس فيها شفتا إفينج الملعقة، تحطيم الهدوء بنفس عميق جدا؛ وبعد ذلك مشاجرة طويلة عالية النبرة، ضجة قوية جدا يبدو أنها تحول السائل إلى مجموعة من الحصى وزجاج مكسر وهو يمر فى

حلقه؛ البلع، الوقفة القصيرة التى تلى ذلك، صوت ملعقة تضرب الإناء، ثم جيشان الزفير وارتجافه. وقد يلحس شفتيه فى تلك اللحظة، ربما حتى يكشر بتلذذ، وبعد ذلك يبدأ العملية كلها مرة أخرى، يملأ الملعقة ويرفعها إلى فمه (دائما ورأسه مائل إلى الأمام- ليختصر الرحلة بين الإناء والفم- لكن بيد مرتجفة، قد ترسل تيارات صغيرة من الحساء لتعود متناثرة إلى الإناء والملعقة تقترب من شفتيه)، وحين ذلك قد يكون هناك انفجار جديد، تمزق جديد للأذن والشفط يبدأ مرة أخرى. ومن الرحمة أنه لم يكن ينهى إناء كاملا من الحساء. كانت ثلاث ملاعق أو أربع من هذه الملاعق المتنافرة كافية عموما لإنهاكه، بعد ذلك يبعد الإناء جانبًا ويطلب بهدوء من مسز هوم ما أعدته من وجبة أساسية. لا أعرف كم مرة سمعْتُ هذا الصخب، لكننى سمعته غالبا بما يكفى لأن لا أنساه أبدا، سأحمله فى رأسى بقية حياتى.

كانت مسز هوم تبدى صبرا ملحوظا أثناء هذه العروض. لا تعبر عن انزعاج أو نفور، وتتصرف وكأن سلوك إفينج جزء من النظام الطبيعى للأشياء. تعودتْ، مثل شخص يعيش بالقرب من خط السكك الحديد أو مطار، على الانفجارات الدورية التى تصم الأذن، وحين يبدأ إفينج إحدى نوبات الأكل بصوت والتصرفات الانفعالية، كانت ببساطة تتوقف عن الكلام وتنتظر مرور العاصفة. القطار السريع إلى شيكاغو يسرع فى الليل، يهز النوافذ ويرج أساسات المنزل، وبمجرد أن يمر ينتهى كل شىء. من حين لآخر، حين يكون إفينج فى صورة بغيضة جدا، كانت مسز هوم تنظر باتجاهى وتغمز لى وكأنها تقول: لا تتركه يزعجك؛ العجوز فقد عقله، وليس هناك ما يمكن أن نفعله. حين أفكر فى هذا الآن، أدرك مدى أهميتها فى حفظ الاستقرار فى المنزل. كان شخص آخر أكثر تقلبا يُغرَى بالرد على نوبات غضب إفينج، مما يجعل الأمور أسوأ، لأنه بمجرد تحدى الرجل العجوز يصبح شرسا. كان المزاج الهادئ مناسبا لاتقاء الدراما الأولية والمشاهد الكريهة. كانت تتمتع بروح كبيرة تتلاءم مع جسمها الكبير، وكان يمكنها امتصاص قدر كبير دون تأثر ملحوظ. فى البداية، كنت أنزعج أحيانا حين أشاهدها تتعرض لإساءات كثيرة منه، لكننى فهمْتُ أنها كانت الاستراتيجية الوحيدة المعقولة للتعامل مع حالاته الشاذة. تبتسم، تهز كتفيها، تلاطفه. علمتْنى كيف أتصرف مع إفينج، ودون أن أتبعها نموذجا، أظن أننى ما كنت أمكث فى الوظيفة وقتا طويلا.

كانت تأتى دائما إلى الطاولة مسلحة بفوطة نظيفة وصدرية. كانت الصدرية تُربَط حول عنق إفينج قبل أن تبدأ الوجبة، وكانت الفوطة تستخدم لتجفيف وجهه فى الطوارئ المفاجئة. كان الأمر يبدو مثل الجلوس للتعامل مع طفل صغير. كانت مسز هوم تأخذ دور الأم الراعية بثقة كبيرة. ولما كانت قد ربت ثلاثة أبناء، كما قالت لى ذات يوم، لم يكن لها أن تتردد فى ذلك. كانت الاهتمام بهذه الالتزامات الجسدية مجرد شىء، وكانت هناك أيضًا مسئولية الحديث إلى إفينج بحيث يبقى تحت السيطرة. وهنا تتصرف بكل مهارة عاهرة محنكة تتعامل مع زبون صعب. لم يكن هناك طلب غير معقول بدرجة تجعلها ترفضه، لم يكن هناك اقتراح يصدمها، لم يكن هناك تعليق غريب بحيث لا يؤخذ بجدية. مرة أو اثنتين أسبوعيا، كان إفينج يبدأ اتهامها بالتآمر ضده، بتسميم طعامه، على سبيل المثال (وهو يبصق بازدراء قطع نصف ممضوغة من الجزر واللحم المفروم فى طبقه)، أو بالتخطيط لسرقة نقوده. بدلا من اعتبار ذلك إهانة، تقول له بهدوء إننا سنموت نحن الثلاثة بسرعة، لأننا جميعا نأكل الطعام نفسه. أو تغير التكتيك، إذا أصر، وتقر بالعمل، وتقول: "صحيح، وضعت ست ملاعق من الزرنيخ فى البطاطس المهروسة. ينبغى أن يبدأ تأثيرها بعد خمس عشرة دقيقة، وتنتهى كل مشاكلى. سأكون امرأة غنية يا مستر توماس"- كانت تناديه دائما بمستر توماس- "وسوف تتعفن فى قبرك أخيرا". ولم يفشل هذا النوع من الحديث فى تسلية إفينج قط. قد يقول فجأة: "ها! ها، ها! تسعين إلى ملايينى، أيتها العاهرة الطماعة. أعرف ذلك طوال الوقت. بعد ذلك سيكون هناك فراء وماس، أليس كذلك؟ حسنا، لن تفيدك، يا عجلة. ستبقين مثل غسالة مترهلة، مهما ارتديت من ملابس. وبعد ذلك لا يلتفت لأى معارضة، ويبدأ يتلذذ بوضع مزيد من الطعام المسموم فى فمه.

كان إفينج يختبرها، لكننى أعتقد أن مسز هوم كانت مخلصة له بعمق. على عكس معظم من يقومون برعاية المسنين جدا، لم تكن تعامله وكأنه طفل متخلف عقليا أو كتلة من الخشب. كانت تعطيه حرية أن يتبجح ويتصرف بسخافة، وكانت قادرة أيضا على التعامل معه بحزم تام إذا استدعى الأمر. ابتكرت له عددا كبيرا من الألقاب والأسماء،

ولم تتردد فى استخدامها حين تستثار: مغفل عجوز، وغد، غراب، محتال، مدد لا ينضب. لا أعرف أين عثرت مسز هوم على هذه الكلمات، لكنها كانت تنطلق من لسانها جماعات، وكانت تتمكن دائما من أن تجعلها تأتى فى نبرة إهانة وبصرامة. كان لها تسع سنوات مع إفينج، وحيث إنها لم تكن المرأة التى يبدو أنها تستمتع بالمعاناة فلابد أنها كانت تجد قدرا من الرضا فى الوظيفة بشكل ما. من وجهة نظرى، كانت حقيقة هذه السنوات التسع غامرة. حين تتوقف لتتأمل أنها كانت تأخذ إجازة يوما واحدا فى الشهر، يبدو تصور الأمر مستحيلا. على الأقل كان الليل ملكى، وبعد ساعة معينة يمكن أن أذهب وأعود كما أشاء. وكانت هناك كيتى، وكنت أجد عزاء أيضا فى معرفة أن الوظيفة عند إفينج ليست الهدف الرئيسى لحياتى، وأننى سأنتقل عاجلا أو آجلا إلى وظيفة أخرى. لم يكن لدى مسز هوم مهرب من هذا القبيل. كانت مهمتها مستمرة طوال الوقت، وفرصتها الوحيدة لمغادرة المنزل حين تخرج للتسوق ساعة أو اثنتين بعد ظهيرة كل يوم. كان من الصعب أن تعتبرها حياة حقيقية. كان لديها مجلات "ريدير دجيست" و"ريدبوك"، وتظهر معها أحيانا رواية بوليسية بغلاف ورقى. وكان لديها تليفزيون صغير أبيض وأسود يمكن أن تشاهده فى غرفتها بعد أن تضع إفينج فى السرير، صوته منخفض جدا باستمرار. توفى زوجها بالسرطان قبل ذلك بثلاثة عشر عاما، وأولادها الثلاثة الكبار يعيشون بعيدا: ابنة فى كاليفورنيا، وابنة أخرى فى كانساس، وابن يعسكر مع الجيش فى ألمانيا. تكتب خطابات لهم جميعا، وتجد متعتها الكبرى فى تسلم صور فوتوغرافية لأحفادها، تلصقها فى ركن مرآة منضدة الزينة. فى أيام العطلة، تذهب لزيارة أخيها شارلى فى مستشفى "فى إيه" فى برونكس. كان قائد قاذفة قنابل فى الحرب العالمية الثانية، ومن القليل الذى أخبرتنى به عرفْتُ أن قواه العقلية مختلة. تحرص على رؤيته كل شهر، وتتذكر دائما أن تحمل حقيبة صغيرة من الشيكولاتة ومجموعة من المجلات الرياضية، وطوال الوقت الذى عرفْتُها فيه، لم أسمعها تشكو قط من الذهاب إليه. كانت مسز هوم صخرة. وحين أفكر فى الأمر حقا، لم أتعلم من أحد بقدر ما تعلمت منها.

كان إفينج حالة صعبة، لكن من الخطأ أن نعرفه بالصعوبة فقط. لو لم يكن فيه إلا البذاءة والمزاج الكريه، كانت هناك القدرة على التنبؤ بحالاته المزاجية التى تجعل التعامل معه أبسط. كان على المرء أن يعرف ما يتوقع منه؛ كان يمكن أن يعرف المرء موضعه. لكن العجوز كان مراوغا جدا لذلك. إذا كان صعبا، ولأنه عمومًا لم يكن صعبًا طوال الوقت، كان يتمكن من إبقاء المرء فى حالة دائمة من عدم الاتزان. مضت أيام كاملة ليس فيها سوى مرارة وسخرية تتدفقان من فمه، لكن بمجرد أن أقتنع بأنه لم يتبق فيه جزء من العطف أو التعاطف الإنسانى، كان يمكن أن يأتى بملاحظة عن الشفقة المدمرة، عبارة تكشف عن فهم عميق للآخرين ومعرفة بهم، وقد اضطر إلى التسليم بأننى أسأتُ الحكم عليه، وأنه فى النهاية ليس سيئا بقدر ما أظن. تدريجيا بدأتُ إدراك جانب آخر لإفينج. لن أبالغ وأصفه بالجانب العاطفى، لكنه كان يقترب جدا من ذلك أحيانا. فى البداية، أردتُ أن أرفضه وأعتبره زائفًا، حيلة للحفاظ على توازنى، لكن ذلك يتضمن أن إفينج حسب هذه المشاعر القلبية الرقيقة مقدما، على الرغم من أنها فى الحقيقة تبدو دائما تلقائية، تنبثق من تفاصيل عشوائية فى حدث معين أو محادثة. وإذا كان هذا الجانب الطيب فى إفينج أصيلا، فلماذا لا يتجلى بمعدل أعلى؟ هل كان مجرد انحراف عن ذاته الحقيقية، أم أنه فى الحقيقة جوهر كينونته الحقيقية؟ لم أتوصل قط لاستنتاجات محددة بهذا الشأن، ربما باستثناء استحالة استبعاد أى من الاحتمالين. كان إفينج الشيئين كليهما فى الوقت ذاته. كان وحشًا، يحمل بداخله فى الوقت نفسه رجلا طيبا، رجلا يمكن حتى أن أعجب به. وقد منعنى ذلك من كراهيته بقدر ما كنت أحبه. لأننى لم أستطع استبعاده من ذهنى بقوة شعور واحد، وصلت فى النهاية إلى التفكير فيه باستمرار تقريبا. بدأتُ أراه روحا معذَّبة، رجلا أسيرا لماضيه، يكافح لإخفاء ألم سرى يلتهمه من الداخل.

جاءت لمحتى الأولى لهذا الجانب الآخر لإفينج أثناء تناول العشاء فى ليلتى الثانية فى منزله. كانت مسز هوم تسأل عن طفولتى، وتصادف أن ذكرت أن والدتى توفيت فى حادث حافلة فى بوسطن. ترك إفينج، ولم يكن قد انتبه إلى المحادثة حتى تلك اللحظة، شوكته فجأة والتفت إلىّ بوجهه. وبصوت لم أسمعه منه من قبل- مشبع تماما بالعطف والدفء- قال: "أمر رهيب يا فتى. أمر رهيب حقا". لم يكن هناك أدنى احتمال بأنه لا يعنى ذلك. قلْتُ: "نعم، آذتنى المسألة بشدة. كنت فى الحادية عشرة فقط، ظللت أفتقد أمى وقتا طويلا. وبصدق تام، مازلت أفتقدها حتى الآن". هزت مسز هوم رأسها وأنا أنطق بتلك الكلمات، ورأيْتُ عينيها تلمعان بدفعة من الأسى. بعد توقف قصير، قال إفينج: "السيارات خطر. إذا لم ننتبه، فسوف تقضى علينا جميعًا. حدث الشىء نفسه لصديقى الروسى قبل شهرين. خرج من منزله ذات صباح رائع ليشترى جريدة، نزل من على حافة الرصيف ليعبر برودواى، وصدمته سيارة فورد صفراء لعينة. واصل السائق سرعته ولم يبال حتى بالتوقف. إذا لم يكن ذلك المهووس، فربما كان بافيل يجلس فى المقعد الذى تجلس فيه الآن يا فج، يأكل الطعام الذى تضعه فى فمك. بدلا من ذلك يقبع على بعد ست أقدام تحت الأرض فى ركن منسى فى بروكلين".

أضافت مسز هوم: "بافيل شوم. بدأ العمل مع مستر توماس فى باريس فى الثلاثينيات".

"كان اسمه شومانسكى، لكنه اختصره حين أتينا إلى أمريكا سنة تسع وثلاثين".

قلت: "وهذا يفسر وجود كل هذه الكتب الروسية فى غرفتى".

قال إفينج: "الكتب الروسية، والكتب الفرنسية، والكتب الألمانية. كان بافيل يجيد ست لغات أو سبعًا بطلاقة. كان رجلا كرس نفسه للتعليم، دارسا أصيلا. حين قابلته سنة اثنتين وثلاثين، كان يعمل فى غسيل الأطباق فى مطعم ويقيم فى غرفة للخدم فى الدور السادس دون أى وقود أو تدفئة. واحد من أبناء روسيا البيضاء الذين ذهبوا إلى باريس أثناء الحرب الأهلية. فقدوا كل ما يملكون. اصطحبته معى ومنحته مكانا يعيش فيه، وساعدنى فى المقابل. استمر هذا سبعة وثلاثين عامًا يا فج، ولم أندم إلا على أننى لم أمت قبله. كان الرجلُ الصديقَ الحقيقى الوحيد الذى صادقته".

ارتعشت فجأة شفتا إفينج، كأنه على وشك البكاء. على الرغم من كل ما مضى قبل ذلك، لم أستطع إلا أن أشعر بالأسف من أجله.

ظهرت الشمس مرة أخرى فى اليوم الثالث. أخذ إفينج غفوته المعتادة فى الصباح، لكن حين أخرجته مسز هوم على مقعده المتحرك من غرفة النوم فى العاشرة، كان مهيأ تماما لتمشيتنا الأولى، ملتفا فى ملابس صوفية ثقيلة ويشير بعصا فى يده اليمنى. بصرف النظر عن أى شىء آخر يمكن أن يقال عن إفينج، لم يكن يأخذ الأمور بهدوء. تطلع إلى نزهة عبر شوارع الحى بحماس مستكشف على وشك أن يبدأ رحلة إلى القطب الشمالى. كانت هناك استعدادات لا تحصى يجب القيام بها: مراجعة درجة الحرارة وسرعة الرياح، رسم الطريق مقدما، التأكد من أنه يرتدى القدر المناسب من الملابس. فى الطقس البارد يرتدى إفينج كل أنواع الحماية الخارجية المفرطة، ملتفا فى سويترات وأوشحة، معطف طويل رائع يصل إلى كاحليه، بطانية، قفاز، وقبعة من الفراء الروسى مزودة بغطاء للأذن. فى الأيام شديدة البرودة (حين تكون الحرارة أقل من الصفر[1] كان يرتدى أيضا قناع تزلج).

كل هذه الملابس تطمره تماما تحت كتلتها، تجعله يبدو حتى أكثر ضآلة وسخافة من المعتاد، لكن إفينج لم يكن يحتمل الإزعاج الجسدى، ومن ثم لم تزعجه فكرة الاهتمام بنفسه، وكان يلعب هذه الألعاب فى الإفراط فى الملابس إلى أقصى درجة. فى أول يوم تمشية لنا، كان الطقس قارصا حقا، ونحن نقوم باستعداداتنا للخروج، سألنى إن كان معى معطف. قلت لا، ليس معى إلا الجاكيت الجلدى. قال إنه لن يفيد، لن يفيد إطلاقًا. وقال مفسرا: "لا يمكن أن أترك مؤخرتك تتجمد من البرد فى منتصف التمشية. إنك فى حاجة إلى ملابس مناسبة طوال المسافة يا فج". وطلب من مسز هوم إحضار معطف كان ذات يوم ملك بافيل شوم. وتبين أنه من التويد البالى وكان على مقاسى إلى حد ما: لونه بنى بنقط خضراء وحمراء متناثرة عليه. على الرغم من

١- فى الأصل ثلاثين، والمقصود فهرنهايت، ودرجة الصفر المئوى تساوى ٣٢ فهرنهايت.

اعتراضاتى، أصر إفينج على أن أحتفظ به، ولم يكن هناك ما يمكن أن أقوله بعد ذلك دون أن أثير جدلا. هكذا ورثْتُ معطف سلفى. وجدت من المزعج أن أمشى وأنا أرتديه، وأنا أعلم أنه لرجل ميت، لكننى واصلْتُ ارتداءه كلما خرجنا بقية الشتاء. لألطف وخز الضمير، حاولت أن أعتبره زيا يتماشى مع الوظيفة، لكن ذلك لم يجعل الأمر أفضل. كلما ارتديته، لا أستطيع التخلص من الشعور بأننى أمشى فى جسد رجل ميت، وأننى تحولْتُ إلى شبح بافيل شوم.

لم يستغرق الأمر وقتا طويلا لأتعلم تحريك الكرسى المتحرك. كان هناك بعض الارتطام فى اليوم الأول، لكن بمجرد أن تعلمت كيف أميل المقعد بالزاوية المناسبة ونحن نصعد الرصيف ونهبط منه، مضت الأمور بسلاسة تامة. كان إفينج خفيفًا جداً، ولم يكن دفعه يحتاج إلا قدرا ضئيلا من الجهد من ذراعى. من الجوانب الأخرى، كانت نزهاتنا صعبة بالنسبة لى إلى حد ما. بمجرد خروجنا، يبدأ إفينج تحريك عصاه فى الهواء، سائلا بصوت عال عما تشير إليه. بمجرد أن أخبره، كان يصر على أن أصف ما تشير إليه. صفائح قمامة، فترينات، مداخل: يريد منى أن أقدم له وصفا دقيقا لهذه الأشياء، وإذا لم أستطع صياغة العبارات برشاقة ترضيه، ينفجر غاضبا. يقول: "اللعنة يا فتى، استخدم العينين اللتين فى رأسك! لا أستطيع أن أرى هذا الشىء الملعون، وأنت هنا تنطق هراء عن 'عمود نورك العادى' و'أغطية فتحات دخول عادية تماما'. ليس هناك شيئان متشابهان، أنت أحمق، ساذج. أريد أن أرى ما تنظر إليه، اللعنة، أريد أن توضح الأشياء لى!" كان التوبيخ على هذا النحو وسط الشارع أمراً مهينا، أقف هناك والعجوز يهاجمنى، وعلىّ أن أتحمل ذلك والناس يديرون رءوسهم ليشاهدوا الصخب. مرة أو اثنتين، فكرت فى الابتعاد وتركه هناك، لكن الحقيقة أن إفينج لم يكن مخطئًا تمامًا. لم أكن أؤدى الوظيفة بشكل جيد. أدركت أننى لم أعتد قط على النظر إلى الأشياء بدقة، والآن يُطلَب منى القيام بذلك، كانت النتائج معيبة بشكل مريع. حتى ذلك الوقت، كنت مولعا بالتعميم، برؤية أوجه التشابه بين الأشياء وليس الاختلافات بينها. وحينها كنت أُدفَع إلى عالم الخصوصيات، والكفاح للتعبير عنها فى كلمات، أن أجمع

البيانات الحسية المباشرة، وكانت تمثل تحديا لم أعد له بشكل جيد. للحصول على ما يريده إفينج كان عليه أن يستخدم فولبير ليدفعه فى الشوارع- لكن حتى فلوبير كان يعمل ببطء، وكان يعمل أحيانا لساعات ليكتب جملة بشكل مناسب. لم يكن علىَّ فقط أن أصف الأشياء بدقة، كان علىَّ أن أفعل ذلك فى ثوانٍ. أكثر من أى شىء آخر، كرهت المقارنات الحتمية مع بافيل شوم. ذات مرة، وأنا أمر بوقت صعب، استمر إفينج فى الحديث عن صديقه الراحل لعدة دقائق، واصفا إياه بأنه أستاذ فى التعبير الشعرى، مبتكر لا نظير له للصور المناسبة والفاتنة، صاحب أسلوب مميز يمكن لكلماته أن تكشف بإعجاز الحقيقة الملموسة للأشياء. وقال إفينج: "وتأمل، لم تكن الإنجليزية لغته الأولى". وكانت المرة الوحيدة التى قمت بالرد عليه فى الموضوع، لكننى شعرت بأن ملحوظته جرحتنى بشكل لا يمكن السكوت عليه. قلت: "إذا أردْتَ لغة أخرى، يسعدنى أن ألبى طلبك. ما رأيك فى اللاتينية؟ سأتحدث إليك باللاتينية من الآن إذا أحببت. ومن الأفضل أن أتحدث إليك بلاتينية 'بج'. لا ينبغى أن تعانى من أية مشكلة فى فهم ذلك". كان كلاما غبيا، وبسرعة وضعنى إفينج فى مكانى الصحيح، قال: "كفى وتحدث يا فتى، أخبرنى عما تبدو عليه السحب. صف لى كل سحابة فى سماء الغرب، كل سحابة بقدر ما ترى".

لأفعل ما يطلب إفينج، كان علىَّ أن أتعلم كيف أظل منفصلا عنه. ولم يكن الأمر الجوهرى أن أشعر بعبء أوامره، ولكن أن أحولها إلى شىء أريد أن أفعله لنفسى. لم يكن خطأ متأصلا فى هذا النشاط رغم كل شىء. إذا نظرنا للأمر بالشكل الصحيح، كان الجهد المبذول لوصف الأشياء بدقة نوعا من التأديب الذى يمكن أن يعلمنى ما أود بشغف أن أتعلمه: التواضع، الصبر، الصرامة. بدلا من القيام به لتنفيذ التزام، بدأْتُ أعتبره تدريبا روحيا، عملية تمرين النفس على كيفية النظر إلى العالم وكأننى أكتشفه لأول مرة. ماذا ترى؟ وإذا كنْتَ ترى، كيف تعبر عنه بالكلمات؟ يدخلُنا العالمُ عبر عيوننا، لكننا لا يمكن أن نحس به قبل أن يهبط إلى أفواهنا. بدأْتُ أقدِّر عظمة هذا البعد، وأفهم إلى أى مدى يكون على الشىء أن يسافر لينتقل من موضع إلى آخر. بمصطلحات حقيقية، لم تكن المسافة تزيد عن بوصتين أو ثلاث بوصات، لكن نظرا لعدد

الأحداث والخسائر التى يمكن أن تحدث فى الطريق، قد تكون بالضبط مثل رحلة من الأرض إلى القمر. كانت محاولاتى الأولى مع إفينج مبهمة بشكل موحش، مجرد ظلال ترفرف على خلفية ضبابية. قلت لنفسى إننى رأيْتُ هذه الأشياء من قبل، وكيف توجد صعوبة فى وصفها؟ حنفية حريق، تاكسى أجرة، اندفاع بخار يتصاعد من الرصيف- إنها مألوفة لى بعمق، وأشعر أننى أعرفها عن ظهر قلب. لكن ذلك لم يضع فى الاعتبار إمكانية تحول هذه الأشياء، القوة التى تتغير بها طبقا لقوة الضوء وزاويته، الطريقة التى يمكن أن تتبدل بها خاصيتها بما يحدث حولها: شخص يسير بجوارها، هبة مفاجئة من الرياح، انعكاس غريب. كل شىء يتدفق باستمرار، وعلى الرغم من أن طوبتين فى جدار قد تشبه كل منهما الأخرى بقوة، فإنهما لا يمكن أن تشيدا قط باعتبارهما متماثلتين. بشكل أدق، الطوبة نفسها لا يمكن قط أن تكون نفسها حقا. إنها تتآكل، تتفتت بشكل غير محسوس بتأثير الغلاف الجوى، البرودة، الحرارة، العواصف التى تهاجمها، وأخيرا لن تكون هناك إذا راقبناها على مدار القرون. كل ما هو جماد يضمحل، وكل ما هو حى يموت. كان رأسى يخفق حين أفكر فى هذا، متخيلا الحركات النشيطة والمحمومة للجزيئات، الانفجار الذى لا يتوقف للمادة، التصادم، فوضى الغليان تحت سطح كل شىء. وكما حذرنى إفينج فى اللقاء الأول لنا: لا تسلم بشىء. من اللامبالاة العارضة، مررْتُ بمرحلة الإنذار القوى. صار وصفى دقيقا بشكل واضح، محاولا بيأس أن أقبض على أى أثر ممكن فيما أراه، خالطا التفاصيل بسرعة مجنونة حتى لا أترك شيئًا. تنطلق الكلمات من فمى مثل طلقات بندقية آلية، هجوم بطلقات سريعة متقطعة. وكان على إفينج باستمرار أن يطلب منى أن أبطئ، شاكيا من أنه لا يستطيع متابعتى. كانت المشكلة فى أدائى أقل مما فى مقاربتى العامة. كنت أكوم كلمات كثيرة جدا فوق بعضها، وبدلا من أن تكشف عن الشىء الذى أمامنا، كانت تحجبه فى الحقيقة، وتدفنه تحت سيل من التفاصيل الدقيقة والتجريد الهندسى. وكان الشىء المهم الذى علىّ أن أتذكره أن إفينج كفيف. لم تكن مهمتى أن أنهكه بكتالوجات مطولة، بل أن أساعده ليرى الأشياء بنفسه. فى النهاية، لا تهم الكلمات. كانت الغاية منها أن أجعله يستوعب الأشياء بأسرع ما يمكن، ولأفعل هذا كان علىَّ أن

أجعلها تختفى بمجرد أن تُنطَق. استغرق الأمر منى أسابيع من العمل الشاق لأبسِّط جملى، فى تعلم كيف أفصل العرَضى عن الجوهرى. اكتشفْتُ أننى كلما تركت هواء أكثر حول الشيء كانت النتائج أسعد، لأن ذلك يسمح لإفينج بالقيام بالعمل الأساسى بنفسه: بناء صورة على أساس تلميحات قليلة، ويشعر بذهنه يسافر باتجاه الشيء الذى أصفه. مشمئزا من أدائى فى البداية، بدأْتُ أتدرب حين أكون وحدى، مستلقيا على السرير فى الليل، على سبيل المثال، وأتنقل بين الأشياء فى الغرفة، وأرى إن كنت أستطيع أن أحقق ما هو أفضل. كلما عملت بشكل أكثر جدية أصبح أكثر اهتماما بما أفعله. لم أعد أراه نشاطا جماليا بل نشاطا خلقيا، وصرت أقل انزعاجا من انتقادات إفينج، متسائلا إن كان لا يمكن لنفاد الصبر وعدم الرضا أن يخدما فى النهاية غاية أسمى. كنت كاهنا يبحث عن استنارة روحية، وكان إفينج قميصى الخشن[1] السوط الذى أضرب نفسى به. ولا أظن أنه كان هناك أى شك فى أننى أتحسن، لكن هذا لا يعنى أننى كنت راضيا تماما عن جهودى. إن متطلبات الكلمات كبيرة جدا بالنسبة لذلك؛ يقابل المرء الفشل كثيرا جدا بدرجة تحول دون البهجة بنجاح عرضى. بمرور الوقت، صار إفينج أكثر احتمالا لأوصافى، لكننى لا أستطيع أن أعرف إن كان ذلك يعنى أنها صارت أقرب إلى ما يريد. ربما تخلى عن الأمل، أو ربما بدأ يفقد الاهتمام. كان من الصعب أن أعرف. فى النهاية، يمكن أن يكون قد اعتاد علىَّ ببساطة.

فى الشتاء، كانت مشينا عموما يقتصر على المناطق المجاورة مباشرة. شارع "ويست إند"، برودواى، الشوارع المتقاطعة فى "السبعينيات" و"الثمانينيات". وكان كثير من الناس الذين نمر بهم يعرفون إفينج، وعلى عكس ما اعتقدْتُ، كانوا يتصرفون وكأنهم مبتهجون برؤيته. وكان البعض يتوقف ليحييه. باعة الخضراوات، باعة الصحف، ومسنون خرجوا للتمشية. كان إفينج يعرفهم جميعا من أصواتهم ويتحدث إليهم

١- قميص خشن hair shirt، ثوب خشن من وبر الجمال أو ما يشبهه، يلبسه الزهاد ومن يفرضون على أنفسهم أعمالا تكفيرية.

بأسلوب مهذب وإن يكن عن بعد إلى حد ما: نبيل خرج من قلعته ليختلط بأهل القرية. بدا أنه ينال احترامهم، وفى الأسابيع الأولى كان الحديث أكثر عن بافيل شوم، وهو شخص كانوا جميعا على ما يبدو يعرفونه ويحبونه. كانت قصة موته معرفة عامة فى الحى (رأى بعضهم الحادثة)، وتحمل إفينج الكثير من المصافحات الجادة وعروض المواساة، مراعيا سرعته تماما. وكان من اللافت قدرته على التصرف ببراعة حين يريد، والعمق الذى بدا أنه يفهم به تقاليد السلوك العام. كان يقول مشيرا باتجاهى: "هذا رجلى الجديد، مستر م. س. فج، تخرج حديثا فى جامعة كولومبيا". كل شىء بشكل صحيح ومناسب، وكأننى شخص مميز نأى بنفسه عن التزامات أخرى عديدة لأشرفه بوجودى. وتحقق التحول نفسه فى محل الفطائر فى الشارع الثانى والسبعين حيث كنا نذهب أحيانا لنتناول كوبا من الشاى قبل أن نتجه عائدين إلى البيت. لم تسقط نقطة واحدة ولم يصدر أى صوت أثناء الشرب، ولم يصدر أى صخب من شفتيه. والغرباء يشاهدون إفينج لطيفًا بصورة مطلقة، ونموذجا رائعا للياقة.

كان من الصعب التحدث كثيرا حين نخرج فى هذه النزهات. نكون فى الاتجاه نفسه، ومع وجود رأسى أعلى بكثير من رأس إفينج كانت كلماته تضيع غالبا قبل أن تصل إلى أذنى. كان علىَّ أن أنحنى لأسمع ما يقول، ولأنه كان لا يحب أن نتوقف أو نبطئ، كان يحتفظ بتعليقاته حتى نصل إلى ركن وحين ننتظر لنعبر الشارع. حين كان إفينج لا يطلب منى أوصافًا، من النادر أن ينطق بأكثر من تصريحات أو أسئلة قصيرة. أى شارع هذا؟ كم الساعة؟ أشعر ببرد. وكانت هناك أيام لا ينطق فيها بكلمة من البداية إلى النهاية، مستسلما لحركة المقعد المتحرك وهو يتدحرج بطول الرصيف، ووجهه باتجاه الشمس، يشكو لنفسه بصوت منخفض فى نشوة متعة جسدية. كان إفينج يحب الإحساس بالهواء يصطدم ببشرته، ويندفع فى الضوء غير المرئى الذى يتدفق من حوله، وفى الأيام التى أحافظ على إيقاع ثابت لتقدمنا، موائما بين خطواتى وحركة المقعد، أشعر أنه يهدأ فى موسيقاه، ويتراخى للخلف مثل وليد فى عربته.

فى أواخـر مـارس وأوائل أبريل، بدأنا نمشى مـسـافـات أطول، تاركين الجـزء الشمالى من برودواى خلفنا متحولين إلى أحياء أخرى. على الرغم من درجات الحرارة الأكثر دفئا، استمر إفينج ملتفا فى ملابس خارجية ثقيلة، وحتى فى ألطف الأيام كان يرفض أن يستعد للنزهات دون أن يرتدى معطفا ويلف بطانية منقوشة بمربعات حول ساقيه. كانت هذه الحساسية للطقس واضحة جدا، وكأنه يخشى أن تتكشف أعماقه إذا لم يأخذ تدابير صارمة لحمايتها. ومع ذلك كان يرحب، ما دام دافئا، بالتماس مع الهواء ولم يكن هناك شىء يبهجه مثل نسمة طيبة قوية. حين تضربه الرياح، يضحك حتما ويبدأ يلعن، مثيرا جلبة هائلة وهو يهز عصاه فيما حوله. حتى فى الشتاء، كان مكانه المفضل "ريفرسايد بارك"، وكان يقضى ساعات طويلة جالسا هناك فى صمت، ولم يغلبه النوم قط كما توقعت، لكنه كان يسمع ويحاول أن يتتبع الأشياء التى تجرى حوله: تندفع الطيور والسناجب بين الأوراق والغصون، الرياح ترفُّ بين الفروع، وصوت السيارات فى الطريق السريع. بدأت أحمل دليلا للطبيعة معى فى هذه الجولات إلى المتنزه بحيث يمكن أن أنظر إلى أسماء الشجيرات والأزهار حين يسألنى عنها. تعلمت أن أحدد عشرات النباتات بهذه الطريقة، فاحصا الأوراق وتشكيلات البراعم باهتمام وفضول لم أشعر بهما تجاه هذه الأشياء من قبل. ذات مرة، وإفينج فى مزاج متقبل جدا سألته لماذا لا يعيش فى الريف. أظن أننا ما زلنا فى وقت مبكر جدا، أواخر نوفمبر أو بدايات ديسمبر، ولم أكن قد عرفْتُ الخوف من طرح أسئلة عليه. قلت إن المتنزه يمنحه تلك اللذة، وكان مما يدعو للشفقة أنه لا يستطيع أن يحاط بالطبيعة طوال الوقت. انتظر لحظة طويلة قبل أن يرد علىَّ، طويلة جدا بحيث بدأْتُ أعتقد أنه لم يسمع السؤال، وقال أخيرا: "فعلْتُ ذلك بالفعل. فعلته، والآن كل شىء فى رأسى. وحدى تماما وسط المجهول، أعيش فى البرية لشهور، لشهور وشهور... عمرا كاملا. بمجرد أن تفعل ذلك يا فتى، لا تنساه أبدًا. لا أحتاج إلى الذهاب إلى أى مكان. فى اللحظة التى أبدأ فيها التفكير فى مكان ما، أعود إليه. وأنا أقضى معظم وقتى فى هذه الأيام- أعود وسط المجهول".

فى منتصف ديسمبر، فقد إفينج فجأة الاهتمام بكتب الرحلات. قد قرأنا ما يقرب من اثنى عشر كتابا ونشق طريقنا فى "رحلة كانيون" تأليف فريدريك س. ديلينبو[1] (قصة عن البعثة الثانية لـ"بويل" فى كولورادو) حين أوقفنى فى وسط جملة وأعلن: "أظن أننى قرأنا ما يكفى، مستر فج. صار الأمر مملا، وليس لدينا وقت نضيعه. هناك شغل يجب أن يتم، عمل يجب الاهتمام به".

لم يكن لدى فكرة عن العمل الذى يشير إليه، لكننى أعدت الكتاب إلى الرف بسعادة وانتظرت التعليمات. وتبين أنه شىء مخيب للآمال. قال: "اذهب إلى الزاوية واشترِ صحيفة نيويورك تايمز. ستعطيك مسز هوم النقود".

"هل هذا كل شىء؟"

"ذلك كل شىء. بسرعة. ليس هناك وقت للتوانى".

حتى ذلك الوقت لم يبدِ إفينج اهتمامًا بالأخبار. كنْتُ ومسز هوم نتحدث عنها أحيانا أثناء تناول الطعام، لكن العجوز لم ينضم إلينا قط، لم يصل به الأمر قط إلى التعليق. لكنها صارت الشىء الوحيد الذى يريده، وعلى مدى الأسبوعين التاليين كنت أقضى كل صباح فى قراءة المقالات له بعناية من نيويورك تايمز. كانت التقارير عن حرب فيتنام مسيطرة، لكنه طلب أيضا أن أقرأ له عن عدد من الأمور: مناقشات الكونجرس، ثلاثة إنذارات حريق فى بروكلين، طعنات فى برونكس، نتائج سوق الأوراق المالية، مراجعات الكتب، نتائج البيسبول، الزلازل. لم يبد شىء من هذا متوائمًا مع نبرة العجلة التى استخدمها فى إرسالى لشراء الصحيفة أول مرة. كان من الواضح أن إفينج بصدد شىء ما، وكان من الصعب أن أتخيله. كان يسير إليه بطريق ملتوٍ، ملتفا حول أهدافه فى مباراة بطيئة بين القط والفأر. لا شك فى أنه كان يحاول أن يربكنى، لكن فى الوقت ذاته كانت هذه الاستراتيجيات شفافة جدا، كأنه يطلب منى أن يكون حارسى.

١- فريدريك س. ديلينبو Frederick S. Dellenbaugh (١٨٥٢-١٩٣٥): مستكشف أمريكى.

كنا ننهى دائما جلساتنا الإخبارية فى الصباح بفحص شامل بصفحات النعى. بدا أنها تسترعى انتباه إفينج أكثر من المقالات الأخرى، وكنت أندهش أحيانا من الدقة التى يستمع بها إلى النثر الباهت لهذه التعليقات. قادة الصناعة، سياسيون، معتصمو السوارى[1]، مبتكرون، نجوم الشاشة الصامتة: كانوا جميعا يسترعون فضوله بالقدر نفسه. مرت أيام، وتدريجيا بدأنا نكرس المزيد فى كل جلسة للنعى. جعلنى أقرأ بعض الأخبار مرتين أو ثلاث مرات، وفى الأيام التى تكون فيها الوفيات قليلة، كان يطلب منى قراءة الإعلانات المدفوعة التى تظهر بطباعة رائعة أسفل الصفحة. فلان وفلان، تسعة وستون عاما، زوج وأب حبيب، يأسى عليه أسرته وأصدقاؤه، سوف يوضع فى مثواه الأخير ظهر اليوم فى الساعة الواحدة فى "سيدة مقبرة الأحزان". لم يبد أن إفينج يتعب من كل هذه التلاوات الغبية. أخيرا، بعد أسبوعين تقريبا من الحفاظ عليها حتى النهاية، تخلى عن التظاهر بالرغبة فى سماع الأخبار تماما وبدأ يطلب منى الانتقال إلى صفحة الوفيات أولا. لم أقل شيئا عن هذا التغيير فى النظام، لكن بمجرد أن درسنا الوفيات ولم يطلب منى قراءة أى شىء آخر، أدركْتُ أننا وصلنا فى النهاية إلى نقطة تحول.

قال: "نعرف ما تبدو عليه الآن، أليس كذلك يا فتى؟"

أجبْتُ: "أفترضُ أننا نعرف. من المؤكد أننا قرأنا ما يكفى منها لننتقل إلى شىء آخر".

"أعترف بأنها كئيبة. لكننى شعرت بأن أمامنا بعض البحث قبل أن نبدأ فى مشروعنا".

"مشروعنا؟"

١- معتصمو السوارى flagpole sitter: شخص يجلس على قمة سارى العلم لوقت طويل لأسباب متنوعة.

"دورى قادم. أى غبى يستطيع أن يرى ذلك".

"لا أتوقع أن تعيش إلى الأبد سير. لكنك عشت أكثر من معظم الناس بالفعل، وليس هناك سبب يجعلك تظن أنك لن تواصل ذلك لوقت طويل".

"ربما. لكننى مخطئ، أول مرة فى حياتى أشعر فيها بأننى لست على ما يرام".

"تقول إنك تعرف".

"صحيح، أعرف. أخبرتنى مائة علامة صغيرة. أعدو خارج الزمن، وعلينا البدء قبل فوات الأوان".

"مازلت لا أفهم".

"نعيى. علينا أن نبدأ فى كتابته الآن معًا".

"لم أسمع إطلاقًا عن شخص يكتب نعيه. يفترض أن يفعل الآخرون ذلك- بعد أن تموت".

"حين تكون لديهم الحقائق، نعم. لكن ماذا يحدث حين لا يكون فى الملف شىء؟"

"أرى هدفك. تريد أن تجمع بعض المعلومات الأساسية".

"بالضبط".

"لكن ما الذى يجعلك تعتقد أنهم سيرغبون فى طبعها؟"

"طبعوها منذ اثنين وخمسين عاما. لا أعرف لماذا لا ينتهزون الفرصة ليفعلوها مرة أخرى".

"لا أفهمك".

"مت. إنهم لا يطبعون نعيا للأحياء، أليس كذلك؟ مت، أو على الأقل اعتقدوا أننى مت".

"ولم تقل شيئا عن ذلك؟"

"لم أرغب. أحببْتُ أن أكون ميتًا، وبعد نشر ذلك فى الصحف، بقيْتُ ميتا".

"لابد أنك كنت شخصا مهمًا".

"كنت بالغ الأهمية".

"لماذا لم أسمع عنك إذن؟"

"كان لى اسم آخر. تخلصت منه بعد أن مت".

"ماذا كان؟"

"اسم لفتى مخنث. جوليان باربر. كرهته دائما".

"لم أسمع قط عن جوليان باربر أيضًا".

"منذ فترة طويلة جدا تحول دون أن يتذكر أحدٌ. أتحدث عن خمسين سنة مضت يا فج. ألف وتسعمائة وستة عشر، ألف وتسعمائة وسبعة عشر. طوانى النسيان، كما يقولون، ولم أعدْ قط".

"ماذا كنت تفعل حين كنت جوليان باربر؟"

"كنت رساما. رسامًا أمريكيًا عظيمًا. لو استمر بى الحال، ربما كنت أعظم فنان فى عصرى".

"تقييم متواضع، أنا متأكد".

"أقدم لك الحقائق فقط. كانت فترة عملى قصيرة جدا، ولم أعمل الكثير".

"أين لوحاتك الآن؟"

"لا أعرف. ضاعت كلها، على ما أفترض، اختفت فجأة. لا يهمنى هذا الآن".

"لماذا إذن تريد أن تكتب النعى؟"

"لأننى سأموت سريعا، ومن ثم لا يهم أن أحتفظ بالسر أو لا أحتفظ به. جاء بشكل غير متقن فى المرة الأولى. ربما يصححون الأمر عند الضرورة".

قلت: "أفهم"، دون أن أفهم شيئا على الإطلاق.

واصل: "تتحرك ساقاى بتثاقل فى هذا. تساءلْتَ دون شك عنها. الجميع يتساءلون، مسألة طبيعية. ساقاى. ساقاى المرتجفتان عديمتا القيمة. لم أولد معوقا، كما تعرف، يمكننا أيضا أن نوضح ذلك فى البداية. كنت رجلا مفعما بالحيوية فى شبابى، متحمسا ومؤذيا، أعبث مع بقيتهم. كان ذلك فى جزيرة "لونج"، فى المنزل الكبير حيث كنا نقضى فصول الصيف. كلها منازل مكتظة ومواقف سيارات الآن، لكنها كانت فردوسًا، لم يكن هناك إلا المروج وشاطئ البحر، جنة صغيرة على الأرض. حين انتقلْتُ إلى باريس فى ١٩٢٠، لم تكن هناك حاجة لتقديم الحقائق لأى شخص. لم أكن ما يعتقدونه مهمًا على أى حال. طالما كنتُ واثقًا، من يهتم بما حدث حقا؟ اختلقت قصصا عديدة، كل منها تحسينا للقصص التى سبقتها. كنت أخرجها طبقا للظروف ولحالتى المزاجية، وأعدلها باستمرار، مجملًا حدثا هنا، مزودًا تفصيلا هناك، لاعبا بها عبر السنوات حتى جعلتها مناسبة تمامًا. وربما كانت قصص الحرب أفضلها، صرت بارعا تماما فيها. أتحدث عن الحرب العالمية، الحرب التى مزقت القلب، الحرب التى أنهت كل الحروب. لابد أنك سمعتنى أتحدث عن الخنادق والوحل. كنت فصيحا وملهما. يمكننى أن أفسر الخوف بطريقة لا يستطيعها أحد، البنادق تدوى فى الليل، جنود المشاة ذوو الوجوه البكماء يزحفون فى لفافات الساق. شظايا القذائف، يمكن أن أقول، أكثر من ستمائة شظية منها فى ساقىَّ الاثنتين- هذا ما حدث. أكلها الفرنسيون، لم يستطيعوا الحصول على ما يكفى. كانت لدى قصة أخرى عن اللافايت سكادريل(١)، الحكاية القوية المثيرة جدا عن كيف أطلق الألمان النار علىَّ. كانت حكاية جيدة، صدقنى، كانت تتركهم دائما يتوسلون طلبا للمزيد. كانت المشكلة أن أتذكر متى قلْتُ كل قصة. احتفظْتُ بكل شىء واضحا فى رأسى لسنوات، متأكدا من ألا أقدم لأناس ما قصة مختلفة حين أراهم مرة أخرى. وكان هذا يضيف لها إثارة معينة، عارفا أننى قد أكتشف فى أى لحظة، أن شخصا يمكن أن يقف دون توقع ويبدأ ينادينى بالكذاب. حين تكذب، قد تجعل الأمر خطيرا بالنسبة لك أيضا".

١- اللافايت سكادريل Lafayette Escadrille: سرب من القوات الجوية الفرنسية فى الحرب العالمية الأولى، كان يتكون معظمه من الطيارين الأمريكيين المتطوعين.

"وطوال كل هذه السنوات لم تخبر أحداً بالقصة الحقيقية؟"

"لم أخبرا أحداً".

"ولا حتى بافيل شوم؟"

"وخصوصا بافيل شوم. كان رجلا حذرا جدا. لم يسألنى قط، ولم أخبره قط".

"فى الوقت المناسب يا فتى، فى الوقت المناسب. عليك أن تتحلى بالصبر"

"لكن لماذا ستخبرنى؟ لم نتعارف إلا من شهرين".

"لأنه ليس لى من خيار. مات صديقى الروسى، ومسز هوم لا تصلح لمثل هذه الأمور. هل هناك أحد آخر، يا فج؟ رضيْتَ أم أبيْتَ، أنت المستمع الوحيد أمامى".

كنت أتوقع أن يعود إلى الموضوع مباشرة فى صباح اليوم التالى، لنلتقط الخيط مرة أخرى ونبدأ من حيث توقفنا. بالنظر لما حدث فى اليوم السابق، كان ذلك منطقيا، لكننى كنت أعرف بشكل يجعلنى لا أتوقع منطقا من إفينج. بدل أن يقول أى شىء عن محادثتنا السابقة اندفع فورا فى خطاب معقد ومشوش عن رجل كان يعرفه ذات يوم على ما يبدو، يتنقل بجنون من شىء إلى آخر، منتجا زوبعة من الذكريات المتناثرة لا معنى لها بالنسبة لى. بذلْتُ أقصى ما فى وسعى لأتتبعه، لكن بدا وكأنه بدأ بالفعل من دونى، وحين دخلْتُ إليه كان أوان اللحاق به قد ولى.

قال: "قزم. بدا اللوطى البائس مثل قزم. ثمانون رطلا أو تسعون إذا كان محظوظا، وهذه النظرة الغائرة البعيدة فى عينيه، عينى مجنون، منتشيا ومثيرا للشفقة فى الوقت ذاته. بالضبط قبل أن يحتجزوه، آخر مرة رأيته فيها. نيو جيرسى. كان الأمر يشبه الذهاب إلى نهاية هذه الأرض الملعونة. أورانج[1] أورانج الشرقية، اسم لعين. كان أديسون فى إحدى تلك البلدات، أيضا. لم يكن يعرف رالف، مع ذلك، ربما لم يسمع عنه إطلاقا. أحمق جاهل. اللعنة على أديسون. اللعنة على أديسون ومصباحه الكهربى اللعين. يخبرنى رالف بأنه مفلس. ماذا تتوقع مع ثمانية أطفال مزعجين فى

١– أورانج Orange : مدينة جنوب كاليفورنيا .

المنزل وشيء كهذا بالنسبة لزوجة؟ فعلْتُ ما استطعْتُ. كنت ثريا، لم تكن النقود مشكلة. وأقول هنا، مادا يدي في جيبي، خذ هذه، إنها لا تعني شيئا بالنسبة لي. لا أستطيع تذكر قيمة المبلغ. مائة دولار، مائتا دولار. كان رالف ممتنا حتى إنه بدأ يصرخ، بالضبط على ذلك النحو، يقف أمامي ويصيح مثل رضيع. كان أمرا مثيرا للشفقة. حين أفكر في الأمر الآن، أشعر بغثيان. أحد أعظم الرجال في هذه البلاد، وكان ممزقا تماما، على حافة الجنون. اعتاد أن يحدثني عن رحلاته في الغرب، متجولا في البراري لأسابيع في النهاية، لا يرى أحداً. خرج إلى هناك لثلاث سنوات. وايومنج، يوتا، نافادا، كاليفورنيا. كان مكانا موحشا في تلك الأيام. لم تكن هناك مصابيح كهربية أو صور متحركة، ويمكنك أن تضيف إلى ذلك، لم تكن هناك سيارات تنتقل بها. أخبرني بأنه يحب الهنود. كانوا طيبين معه وتركوه يعيش في قراهم حين يمر بها. ذلك ما حدث له حين تحطم في النهاية. كان يرتدي ملابس هندية أعطاه له أحد رؤسائهم قبل عشرين سنة وبدأ يسير في شوارع نيو جيرسي وهو يرتدي تلك الثياب. ريش ملتصق في رأسه، خرز، أحزمة، شعر طويل، خنجر في خصره، مجموعة أدوات كاملة ونقود. لوطي ضئيل مسكين. وكأن ذلك لم يكن سيئا بما فيه الكفاية، عزم على أن يحصل على نقود بنفسه. رسم بيده عملات بألف دولار ووضع صورته عليها، في المنتصف بالضبط، مثل بورتريه أحد الآباء المؤسسين. وفي أحد الأيام ذهب إلى البنك، وقدم إحدى هذه العملات للصراف، وطلب منه أن يفكَّها. لم يظن أحد أن الأمر مضحك جدا، وخاصة بعد أن بدأ يرفع صوته احتجاجاً. لا يمكنك أن تعبث بالدولار العظيم وتتوقع أن تفلت. ومن ثم سحبوه إلى الخارج بتلك الملابس الهندية المشحمة، وهو يرفس ويصيح محتجاً. ولم يمض وقت طويل حتى قرروا أن يرحلوه إلى الأبد. أظن إلى مكان ما في ولاية نيويورك. وعاش في مصحة نفسية حتى النهاية، لكنه واصل الرسم، إذا كان يمكن أن تصدق، لم يعرف ابن العاهرة كيف يتوقف. كان يرسم على كل ما تصل إليه يداه. الورق، الكرتون، علب السيجار، وحتى أغطية النوافذ. وكان التطور أن أعماله القديمة بدأت تباع. أسعار كبيرة، تذكرْ، بمبالغ مذهلة لصور لم يكن أحد حتى يلتفت إليها قبل بضع سنوات. دفع سيناتور ملعون من مونتانا أربعة عشر ألف دولار مقابل لوحة ضوء

القمر، أكبر سعر دفع على الإطلاق مقابل عمل لفنان أمريكى على قيد الحياة. ولم يجعل ذلك رالف أو أسرته أفضل. كانت زوجته تعيش على خمسين دولارا فى العام فى كوخ بالقرب من "كاتسكيل"- المنطقة نفسها التى اعتاد توماس كول[١] أن يرسمها- ولم تستطع حتى تحمل نفقات أجرة زيارة زوجها فى مستشفى المجانين. كان قزما ضئيلا عاصفا، أسلم لك بذلك، فى نوبة جنون دائما، يعزف الموسيقى على البيانو وهو يرسم صوره. رأيْتُه يفعل ذلك ذات يوم، متنقلا بين البيانو والحامل، ولن أنسى ذلك قط. يا رب، كيف يعود كل ذلك إلىَّ الآن. فرشاة، سكين لوحة الألوان، حجر الخفاف. يقلِّبها، يسويها، يفركها. مرة أخرى، ثم مرة أخرى. يقلبها، يسويها، يفركها. لم يكن هناك شىء مثل هذا قط. قط، قط، قط، قط". توقف إفينج لحظة ليلتقط أنفاسه، ثم وكأنه استيقظ من نشوة، حول وجهه باتجاهى للمرة الأولى: "ما رأيك فى ذلك يا فتى؟"

أجبْتُ بأدب: "من المفيد أن أعرف من هو رالف".

"بليكلوك"، همس إفينج، وكأنه يكافح ليبقى مشاعره تحت السيطرة. "رالف ألبرت بليكلوك".

"لا أعتقد أننى سمعت به قط".

"ألا تعرف أى شىء عن الرسم؟ اعتقدت أن من المفترض أنك متعلم. بحق الجحيم ماذا تعلمت فى كليتك الخيالية، يا مستر حمار أنيق؟"

"لم نتعلم الكثير. ولم نتعلم أى شىء عن بليكلوك على أى حال".

"لن يفيد. لا أستطيع الاستمرار فى الحديث إليك إذا كنْتَ لا تعرف أى شىء".

١- توماس كول Cole (١٨٠١-١٨٤٨) رسام أمريكى، رائد مدرسة نهر هدسون، أول حركة فنية فى الرسم الأمريكى.

بدا من الحماقة أن أحاول الدفاع عن نفسي، هكذا أمسكْتُ لساني وانتظرْتُ. مضى وقت طويل، دقيقتان أو ثلاث، مثل الأبدية حين تكون في انتظار شخص ليتكلم. ترك إفينج رأسه يسقط على صدره، وكأنه لم يعد يستطيع أن يرفعه وقرر أن يأخذ غفوة. حين رفعه مرة أخرى، كنت متوقعا تماما أن يطلق على النار. لو لم يكن يشعر بالفعل بأنه ملتصق بي، من المؤكد أنه كان سيفعل ذلك.

قال أخيرا: "اذهب إلى المطبخ، واطلب من مسز هوم أجرة مترو الأنفاق. ثم ارتدِ معطفك وقفازك واخرجْ من الباب. انزل بالمصعد، واخرج، وأذهب إلى أقرب محطة مترو. بمجرد أن تكون هناك، ادخل المحطة واشترِ تذكرتين. ضع واحدة في جيبك. ضع الأخرى في الماكينة، انزل وخذ القطار رقم واحد المتجه جنوبا إلى الشارع الثاني والسبعين، اعبر الرصيف، وانتظر قطار المدينة، القطار رقم اثنان أو ثلاثة، لا يهم. حين تفتح الأبواب، اركب وابحث لنفسك عن مقعد. انتهت الآن ساعة الذروة، ومن ثم لن تواجهك مشكلة. اعثر على مقعد ولا تنطق بكلمة مع أحد. هذا أمر بالغ الأهمية. من اللحظة التي تغادر فيها المنزل حتى*تعود، لا تصدر أي صوت. ولا حتى همسة. تظاهر بأنك أبكم وأصم إذا تحدث أحد إليك. حين تشترى التذكرتين من البائع، ضع إصبعين فقط لتشير إلى عدد التذاكر التي تريدها. بمجرد أن تستقر في مقعدك في قطار المدينة، ابق حيث أنت حتى تصل إلى جراند أرمي بلازا في بروكلين. تستغرق الرحلة ما بين ثلاث عشرة دقيقة وأربعة عشر. أثناء ذلك، أبقِ عينيك مغلقتين. لا تفكر إلا في أقل ما يمكن– لا تفكر في شيء إن أمكن– وإذا كان هذا أكثر من أن أطلبه، فكرْ إذن في عينيك والقوة الاستثنائية التي تمتلكها لترى العالم. تخيل ما يمكن أن يحدث لك إذا كنت لا تستطيع أن تراه. تخيل نفسك تتطلع إلى شيء تحت الأضواء المتنوعة التي تجعل العالم مرئيا لنا: ضوء الشمس، ضوء القمر، الضوء الكهربي، ضوء الشموع، ضوء النيون. اجعله شيئًا بسيطًا وعاديًا جداً. حجرا، على سبيل المثال، أو كتلة صغيرة من الخشب. فكر في تغير شكل الشيء حين يوضع تحت هذه الأضواء المختلفة. لا تفكر في أكثر من هذا، إذا كان عليك أن تفكر في شيء. حين يصل المترو إلى جراند أرمي بلازا، افتحْ عينيك مرة أخرى. انزل من القطار واصعد السلم. من هناك اذهبْ

إلى متحف بروكلين. إنه فى باركواى الشرقى، مسافة لا تزيد خمس دقائق سيرا على الأقدام بعد الخروج من محطة المترو. لا تسأل عن الاتجاهات. حتى لو تهْتَ، لا تتحدث إلى أحد. ستجده فى النهاية، لن يكون الأمر صعبا. المتحف بناء حجرى ضخم، صممته شركة ماك كيم وميد ووايت، الشركة نفسها التى صممت مبانى الجامعة التى تخرجت فيها للتو. ينبغى أن يكون الأسلوب مألوفا بالنسبة لك. بالمناسبة، أطلق رجل اسمه هنرى ثو النار على ستانفورد وايت وقتله على سطح حديقة ميدان ماديسون. كان ذلك سنة ألف وتسعمائة وبضع سنين، حدث ذلك لأن وايت فعل أشياء لمسز ثو ربما كان عليه ألا يفعلها. كان خبرا كبيرا فى تلك الأيام، لكن ليس عليك أن تهتم به. ركزْ فقط فى العثور على المتحف. حين تعثر عليه، اصعد السلم، وادخل الرواق، وادفع رسوم الدخول للشخص الذى يرتدى الزى ويجلس خلف المكتب. لا أعرف التكلفة، لكنها ليست أكثر من دولار أو اثنين. يمكنك أن تأخذ النقود من مسز هوم وهى تعطيك أجرة المترو. تذكرْ ألا تتكلم وأنت تدفع النقود للحارس. لابد أن يحدث كل ذلك فى صمت. شق طريقك إلى الدور الذى يحتفظون فيه بالمجموعة الدائمة من اللوحات الأمريكية وادخل المعرض. افعل أقصى ما فى وسعك لكى لا تنظر إلى شىء بدقة شديدة. فى الغرفة الثانية أو الثالثة تجد لوحة 'ضوء القمر' لبليكلوك على أحد الجدران، وعند تلك النقطة توقف، انظر إلى اللوحة. انظر إلى اللوحة ما لا يقل عن ساعة، متجاهلا أى شىء آخر فى الغرفة. ركزْ. انظر إليها من على مسافات مختلفة– من على بعد عشرة أقدام، من على بعد قدمين، من على بعد بوصة. ادرس تكوينها العام، ادرسْ تفاصيلها. لا تسجل أى ملاحظات. انظر إن كنت تستطيع أن تحفظ كل عناصر الصورة، متعرفا على الموضع الدقيق لكل الأشكال الإنسانية، والأشياء الطبيعية، والألوان فى كل بقعة فى اللوحة. أغلقْ عينيك واختبر نفسك. افتحهما ثانية. انظر إن كنت تستطيع دخول عقل الفنان الذى رسم المشهد الطبيعى الذى أمامك. تخيل أنك بليكلوك، ارسم اللوحة بنفسك. بعد ساعة على هذا النحو، خذ راحة قصيرة. تجول فى المعرض إن أحببْتَ وتفرجْ على بعض الصور الأخرى. ثم ارجعْ إلى صورة بليكلوك. اقضِ خمس عشرة دقيقة أخرى أمامها، سلم نفسك إليها وكأنه لا يوجد أى شىء آخر سوى هذه اللوحة

فى العالم كله. ثم انصرفْ. ارجع من حيث أتيت عبر المتحف، اخرجْ، وامشِ إلى مترو الأنفاق. خذ القطار السريع عائدا إلى مانهاتن، وتحول إلى القطار المحلى عند الشارع الثانى والسبعين، وعدْ إلى هنا. وأنت فى القطار، افعلْ ما فعلْتَ من قبل: أغلقْ عينيك، ولا تنطق بكلمة لأحد. فكرْ فى اللوحة. حاولْ أن تراها فى عقلك. حاولْ أن تتذكرها، حاولْ أن تقبض عليها أطول فترة بقدر ما تستطيع. مفهوم؟"

قلْتُ: "أظن ذلك. هل هناك شىء آخر".

"لا يوجد شىء آخر. لكن تذكرْ فقط: إذا لم تفعل ما قلْتُ بالضبط، لن أكلمك مرة أخرى".

أبقيْتُ عينى مغلقتين فى القطار، لكن كان من الصعب ألا أفكر فى شىء. حاولْتُ تثبيت ذهنى على حجر صغير، لكن حتى ذلك كان أكثر صعوبة مما بدا. كان هناك صخب كثير جدا من حولى، عدد كبير جدا من الناس يتحدثون ويصطدمون بجسمى. وكان ذلك قبل أن يضعوا مكبرات الصوت فى القطارات للإعلان عن المحطات وكان علىَّ أن أظل محافظًا على تتبع المكان فى رأسى، مستخدمًا أصابعى لتعليم عدد المحطات: واحدة، يتبقى سبع عشرة؛ اثنتان، يتبقى ست عشرة. بشكل حتمى، انجذبت إلى الاستماع إلى محادثات الركاب الذين يجلسون بالقرب منى. كانت أصواتهم تفرض نفسها علىّ، ولم يكن هناك ما أستطيع القيام به لأسكتهم. مع كل صوت جديد أسمعه، كنت أريد فتح عينى وأرى صاحبه. كان إغواء لا يقاوَم تقريبا. بمجرد أن تسمع شخصا يتكلم، تكوِّن صورة ذهنية للمتكلم. فى خلال ثوانٍ، تستوعب كل المعلومات البارزة: الجنس، العمر التقريبى، الطبقة الاجتماعية، مكان الميلاد، وربما حتى لون بشرة الشخص. إذا كنْتَ قادرا على أن ترى، يكون دافعك الطبيعى أن تلقى نظرة وتكتشف مدى قرب هذه الصورة الذهنية من التطابق مع الحقيقة. فى معظم الأحيان، يكون التماثل قريبا إلى حد ما، لكن أحيانا تقع فى أخطاء فاضحة بشكل مذهل: أساتذة جامعيون يتحدثون مثل سائقى الشاحنات، فتيات صغيرات يتبين أنهن نساء مسنات، سود يتبين أنهم بيض. لم أستطع التوقف عن التفكير فى هذه الأشياء

والقطار يقعقع فى الظلام. مرغما نفسى على إغلاق عينى، بدأْتُ أشتاق لإلقاء نظرة على العالم، وفى ذلك الاشتياق، فهمْتُ ما كنت أعتقده بمعنى أن يكون المرء أعمى، ومن المحتمل أن هذا ما يريده إفينج منى بدقة. طاردْتُ هذه الفكرة لعدة دقائق. ثم، فى هلع مفاجئ، أدركْتُ أننى فقدْتُ تتبع عدد المحطات التى اجتزناها. وإذا لم أسمع امرأة تسأل شخصاً ما إن كانت جراند أرمى بلازا هى المحطة التالية، ربما سافرت إلى آخر بروكلين.

كان صباح يوم عادى من أيام الأسبوع فى الشتاء، وكان المتحف مهجورا تقريبا. بعد دفع رسوم الدخول عند المكتب الأمامى، أشرت بخمسة أصابع لعامل المصعد وصعدْتُ فى صمت. كانت اللوحات الأمريكية فى الطابق الخامس، وباستثناء حارس نعسان فى الغرفة الأولى، كنت الشخص الوحيد فى الجناح كله. أبهجتنى هذه الحقيقة، وكأنها بشكل ما عززت جلال المناسبة. مررت بعدة غرف خالية قبل أن أجد بليكلوك، باذلا أقصى ما فى وسعى للالتزام بتعليمات إفينج ومتجاهلا الصور الأخرى التى على الحوائط. رأيْتُ بعض ومضات من اللون، بضعة أسماء مسجلة- تشارش، بيرستادت، رادر[1]- لكننى قاومت إغراء أن ألقى نظرة حقيقية. ثم وصلت إلى 'ضوء القمر'، موضوع رحلتى الغريبة والدقيقة، وفى تلك اللحظة الأولى المفاجئة، لم أستطع مقاومة الشعور بخيبة الأمل. لم أعرف ماذا كنت أتوقع- شيئا عظيما، ربما، عرضا صاخبا ومبهرجا لتألق سطحى- لكن من المؤكد أننى لم أتوقع الصورة الصغيرة الكئيبة التى وجدْتُها أمامى. مقاسها سبع وعشرين بوصة فى اثنتين وثلاثين بوصة فقط، ومن النظرة الأولى بدت خالية من الألوان تقريبا: بنى داكن، أخضر داكن، لمسة واهية

---

(١) - تشارش Church (١٨٢٦-١٩٠٠) فردريك إدوين، رسام أمريكى، رائد مدرسة نهر هدسون. بيرستادت Bierstadt (١٨٣٠-١٩٠٢): رسام أمريكى من أصول ألمانية. رادر Ryder (١٨٤٧-١٩١٧) : رسام أمريكى.

باللون الأحمر فى ركن منها. لا شك فى أنها منفذة بشكل جيد، لكنها لا تحتوى أى شكل من الدراما الصريحة التى تخيلت أن إفينج يمكن أن ينجذب إليها. ربما لم يخب أملى فى اللوحة بقدر ما خاب أملى فى نفسى لأننى أسأتُ فهم إفينج. كانت عملا روحيا بعمق، مشهدا للجوهر والسكون، وقد أربكتنى بدرجة جعلتنى أظن أنها لم تفصح عن أى شىء لمستخدِمى المجنون.

حاولْتُ أن أخرج إفينج من ذهنى، ثم رجعْتُ إلى الخلف قدما أو اثنين وبدأْتُ أنظر إلى اللوحة لنفسى. قمر كامل مستدير بشكل رائع يستقر وسط اللوحة- بدا لى مركزا رياضيا دقيقًا- وهذا القرص الأبيض الشاحب يضيء كل ما فوقه وما تحته: السماء، بحيرة، شجرة كبيرة بفروع عنكبوتية، والجبال المنخفضة فى الأفق. فى المقدمة قطعتان صغيرتان من الأرض يقسمهما جدول يتدفق بينهما. على الضفة اليسرى خيمة هندية ونار حول المخيم، وعدد من الأشخاص يبدو أنهم يجلسون حول النار، لكن من الصعب كشفهم، ليسوا إلا إيحاءات ضئيلة بأشكال بشرية، ربما خمسة أشخاص أو ستة. يتوردون باللون الأحمر من جمرات النار؛ إلى يمين الشجرة الكبيرة، منفصلا عن الآخرين، شخص وحيد على ظهر حصان يحدق فى المياه- ساكنًا تمامًا، وكأنه مستغرق فى التأمل. الشجرة التى خلفه أطول منه خمس عشرة مرة أو عشرين مرة، وكان التقابل يظهره ضئيلا وتافهًا. لم يكن هو وحصانه سوى تظليل، خطوط سوداء دون عمق أو تفرد. على الضفة الأخرى، الأشياء أكثر ضبابية، غارقة كلها تقريبا فى الظل. هناك بضع أشجار صغيرة بالفروع العنكبوتية نفسها مثل الشجرة الكبيرة، ثم باتجاه أسفل اللوحة، التلميح الواهى جدا للسطوع، وقد بدا لى وكأن به شخص آخر (يستلقى على ظهره، ربما نائم، ربما ميت، وربما يحدق فى الليل) أو أيضا بقايا نار أخرى- لا أعرف، وهكذا استغرقْتُ فى دراسة هذه التفاصيل المبهمة فى الجزء السفلى من الصورة بحيث حين نظرت أخيرا إلى أعلى لأدرس السماء مرة أخرى، ذهلت حين رأيت مدى سطوع كل شىء فى الجزء العلوى. حتى بوضع القمر المكتمل فى الحسبان، بدت السماء مرئية جدا. الرسم تحت الطبقة الملساء المكسرة التى تغطى السطح يسطع بقوة غير عادية، وكلما عدت أكثر باتجاه الأفق، كان هذا التوهج أكثر سطوعًا، كما لو

كان ضوء النهار وقد عاد إلى هناك، الجبال مضاءة بنور الشمس. بمجرد أن لاحظْتُ هذا فى النهاية، بدأْتُ أرى أشياء غريبة أخرى فى اللوحة أيضًا. السماء، على سبيل المثال، كان مجالها يميل للاخضرار عمومًا. بمسحة خفيفة من الحدود الصفراء للسحب، كانت تدوِّم حول الشجرة الكبيرة بتقلب سميك لضربات الفرشاة، متخذة شكلا حلزونيا، دوامة مادة سماوية فى الفضاء العميق. سألْتُ نفسى: كيف يمكن أن تكون السماء خضراء؟ كانت بلون البحيرة تحتها، وكان ذلك غير ممكن. إلا فى سواد أسود الليالى، السماء والأرض مختلفتان دائمًا. كان بليكلوك بوضوح رساما أنيقا جدا بدرجة تجعله لا يعرف ذلك. لكن إذا لم يكن يحاول تصوير منظر طبيعى حقيقى، ماذا كان ينوى؟ فعلْتُ أقصى ما أستطيع لأتخيله، لكن خضرة السماء ظلت توقفنى. سماء بلون الأرض، ليل يبدو مثل النهار، وكل الأشكال البشرية متضائلة بضخامة المشهد، ظلال مستغلقة، مجرد رموز للعالم. لم أرغب فى إصدار أى أحكام رمزية برية، لكن بناء على ما تقدمه اللوحة من أدلة، بدا أنه ليس هناك اختيار آخر. على الرغم من صغر الهنود بالمقارنة بالموقف فإنهم لم يظهروا أى مخاوف أو قلق. كانوا يجلسون مستريحين فى محيطهم، فى سلام مع أنفسهم والعالم، وكلما فكرْتُ أكثر فى ذلك، بدا أكثر أن هذا الصفاء يسيطر على الصورة. تساءلْتُ إن لم يكن بليكلوك قد رسم سماءه خضراء ليؤكد هذا الانسجام، ليظهر الارتباط بين السماء والأرض. يبدو أنه كان يقول إذا كان الرجال يستطيعون الحياة براحة فى محيطهم فمن الممكن أن يتعلموا الشعور بأنهم جزء من الأشياء التى حولهم، ومن ثم ربما تصبح الحياة مشبعة بشعور بالقداسة. كنت أخمن فقط، بالطبع، لكن أذهلنى أن بليكلوك كان يرسم أنشودة رعوية أمريكية، كان عالم الهنود مأهولا قبل أن يأتى الرجال البيض ليدمروه. تذكر بطاقة التعريف أن الصورة رسمت فى ١٨٨٥. إذا كنت أتذكر بشكل صحيح، فقد كانت بالضبط تقريبا منتصف الفترة بين "الحامل الأخير لكاستر" والمذبحة فى ووندد نى[1]، بتعبير آخر، فى النهاية تماما، حين فات أوان الأمل فى أن يبقى أى من هذه الأشياء على قيد الحياة.

١- مذبحة ووندد نى Wounded Knee: مذبحة فى "وندد نى"، وهو ممر جنوب غرب داكوتا الجنوبية، ذبحت فيها القوات الأمريكية حوالى ٢٠٠ من الأمريكيين الأصليين، فى ٢٩ ديسمبر ١٨٩٠.

فكرت فى نفسى، ربما كانت هذه الصورة تسعى إلى تمثيل كل ما فقدناه. لم تكن مشهدا طبيعيا، كانت تذكارا، أغنية موت لعالم تلاشى.

بقيتُ مع اللوحة لأكثر من ساعة. ابتعدْتُ عنها، اقتربْتُ منها، حفظْتُها بالتدريج عن ظهر قلب. لم أكن متأكدا من أننى اكتشفت ما يظن إفينج أننى سأكتشفه، لكن حين غادرْتُ المتحف، شعرْتُ أننى اكتشفْتُ شيئا، حتى لو لم أعرف ما هو. كنت منهكا، مستنفذ القوة تماما. حين عدْتُ إلى قطار آى آر تى وأغلقت عينى مرة أخرى، كان كل ما أستطيع أن أفعله ألا أنام.

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بالضبط حين عدْتُ إلى الشقة. كان إفينج فى غفوة كما قالت مسز هوم. وحيث إن العجوز لم يكن يغفو قط فى هذا الوقت من اليوم، فسَّرْتُ الأمر بأنه لا يريد التحدث إلىَّ. وكان ذلك طيبا أيضا. لم أكن أنا أيضا فى حالة مزاجية تسمح لى بالحديث معه. شربْتُ كوبًا من القهوة مع مسز هوم فى المطبخ، ثم غادرْتُ الشقة مرة أخرى، ارتديت معطفى وركبت الحافلة إلى شمال المدينة إلى مرتفعات "مورننج سايد". كنت ذاهبا لرؤية كيتى فى الساعة الثامنة، وفكرت أن أقوم أثناء ذلك بالبحث فى مكتبة كولومبيا للفن. وتبين أن المعلومات عن بليكلوك شحيحة: مقالات قليلة هنا وهناك، كتالوجان قديمان، لا شىء أكثر من هذا. بتجميع الأجزاء معا، مع ذلك، عرفْتُ أن إفينج لم يكن يكذب علىَّ. وكان هذا هو الشىء الأساسى الذى أتيت من أجله. اختلطت عليه بعض التفاصيل والتواريخ، لكن كل الحقائق المهمة كانت صحيحة. كانت حياة بليكلوك بائسة. عانى، وأصيب بالجنون، وتعرض للإهمال. قبل أن يحتجزوه فى المصحة رسم بالفعل نقودا عليها صورته- ليست عملات من فئة ألف دولار، كما قال إفينج، لكن من فئة مليون دولار، مبلغ يفوق الخيال. سافر إلى الغرب فى شبابه وعاش وسط الهنود، كان ضئيلا بصورة لا تصدق (أقل من خمسة أقدام، وأقل من تسعين رطلا)، وكان والدا لثمانية أبناء، كل هذه الأشياء صحيحة. وكان من المهم خاصة أن أعرف أن بعض أعماله المبكرة فى سبعينيات القرن التاسع عشر تمت فى السنترال بارك. رسم الأكواخ التى كانت هناك والمتنزه لا يزال جديدا، وأنا أتطلع

إلى تكاثر هذه المناطق الريفية فيما كانت ذات يوم نيويورك، لم أستطع التوقف عن التفكير في الوقت البائس الذى قضيته أنا نفسى هناك. عرفْتُ أيضا أن أفضل سنوات بليكلوك كفنان كرسها لرسم مشاهد ضوء القمر. كانت هناك عشرات من الصور مماثلة لتلك التى وجدْتُها فى متحف بروكلين: الغابة نفسها، القمر نفسه، الصمت نفسه. كان القمر مكتملا دائما فى هذه الأعمال، وكان هو نفسه دائما: دائرة صغيرة مدورة ببراعة وسط اللوحة، يسطع بضوء أبيض شاحب. بعد أن تطلعت إلى خمسة أو ستة منها، بدأتْ تنفصل تدريجيا عما يحيط بها، ولم أعد أستطيع رؤيتها باعتبارها أقمارا. صارت ثقوبا فى اللوحة، منافذ من البياض تطل على عالم آخر. ربما عين بليكلوك. دائرة خالية معلقة فى الفضاء، تحدق فى أشياء لم تعد موجودة.

فى صباح اليوم التالى، بدا إفينج مستعداً لبدء العمل. دون أن يأتى على ذكر بليكلوك أو متحف بروكلين، طلب منى الذهاب إلى برودواى وشراء كراسة وقلم جيد. قال: "حانت لحظة الحقيقة. نبدأ الكتابة اليوم".

حين عدْتُ، أخذت مكانى على الأريكة مرة أخرى، وفتحْتُ الكراسة على الصفحة الأولى، وانتظرْتُ أن يبدأ. افترضْتُ أنه مستعد لتقديم بعض الحقائق والأرقام- تاريخ ميلاده، اسمى والديه، والمدارس التى التحق بها- ثم ينتقل بعد ذلك للأمور الأكثر أهمية. لكن لم يحدث شىء من هذا إطلاقًا. بدأ فقط يتحدث، ملقيا بنا وسط القصة.

قال: "قدَّم لى رالف الفكرة. لكن موران هو الذى جعلنى أنفذها. توماس موران العجوز بلحيته البيضاء وقبعة من القش. كان يعيش فى الخارج عند طرف الجزيرة فى تلك الأيام. يرسم لوحات مائية صغيرة للانطباعات الذهنية. الكثبان والعشب، الأمواج والضوء، كل هذا الهراء الريفى. تظهر لوحات كثيرة الآن، لكنه كان الأول، هو الذى بدأ المسألة كلها. لهذا سميْتُ نفسى توماس حين غيرْتُ اسمى. على شرفه. إفينج قضية أخرى، استغرق الأمر بعض الوقت للتفكير. ربما يمكنك اكتشاف الأمر بنفسك. كان تورية.

"كنت شابا صغيرا فى تلك الأيام. فى الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين، ولم أكن متزوجًا. كان لى منزل فى الشارع الثانى عشر فى نيويورك، لكننى كنت أقضى وقتا أطول على الجزيرة. أحببْتُ أن أكون هناك، هناك رسمْتُ وحلمْتُ. أزيل المنزل الآن، لكن ماذا تتوقع؟ كان ذلك منذ زمن بعيد، والأشياء تتغير، كما يقولون. التقدم. انتهت الأكواخ والبلوكات، كل أحمق يقود سيارته. هللو لويا.

"كان اسم البلدة شورهام. ولا يزال حسبما أعرف. هل تدون هذا؟ لن أقول هذه الأشياء إلا مرة واحدة، وإذا لم تدونها فسوف تضيع إلى الأبد. تذكرْ ذلك يا فتى. سأقتلك إذا لم تقم بوظيفتك. سأقتلك. سأخنقك بيدى.

" كان اسم البلدة شورهام. وشاءت الصدفة أنها المكان الذى بنى فيه تيسلا(1) برج واردنكلايفى. أتحدث عن ألف وتسعمائة وواحد، ألف وتسعمائة واثنين، النظام اللاسلكى العالمى. ربما لم تسمع قط عنه. كان ج. ب. مورجان الممول المالى، ورسم ستانفورد وايت الخطط المعمارية. وقد تحدثنا عنه أمس. تعرض لإطلاق النيران على سطح حديقة ميدان ماديسون، وانهار المشروع بعد ذلك. لكن البقايا ظلت مكانها خمسة عشر عاما أخرى أو ستة عشر، بارتفاع مائتى قدم، يمكنك أن تراه حيثما كنت. هائل. مثل حارس آلى يراقب الأرض. اعتدْتُ التفكير فيه باعتباره برج بابل: راديو يذيع بكل اللغات، يثرثر العالم اللعين كله، كل منهم مع الآخر عن بعد، حتى فى البلدة التى عشْتُ فيها. دمروه أخيرا أثناء الحرب العالمية الأولى. قالوا إن الألمان يستخدمونه محطة للتجسس، ومن ثم هدموه. كنت قد رحلت حينذاك على أى حال، لم يكن الأمر مهما بالنسبة لى. ولم أكن لأبكى عليه إذا كنت لا أزال هناك. أقول اتركْ كل شىء يسقط، اترك كل شىء يسقط ويتلاشى، مرة وإلى الأبد.

1- نيقولا تيسلا Tesla(١٨٥٦-١٩٤٣): مهندس وفيزيائى أمريكى من أصول صربية، ابتكر عددا من الأجهزة والعمليات الأساسية لصناعة الراديو.

"رأيتُ تيسلا أول مرة فى ١٨٩٣ كنت صبيا، لكننى أتذكر التاريخ جيدا. كان المعرض الكولومبى فى شيكاغو، وقد اصطحبنى أبى معه بالقطار، كانت أول مرة أبعد فيها عن البيت. كان بمناسبة الاحتفال بمرور أربعمائة سنة على اكتشاف كولومبس لأمريكا. أحضرْ كل الأدوات والابتكارات وتفرج عليها لتعرف مهارة علمائنا. حضر خمسة وعشرون مليونا للفرجة عليه، كان الأمر يشبه الذهاب إلى سيرك. رأوا هناك أول سوستة، وأول عجلة فيريس[١]كل عجائب العصر الجديد.كان تيسلا مسئولا عن معرض ويستنجهاوس، وكانوا يسمون المعرض بيضة كولومبس، وأتذكر الدخول إلى المسرح ورؤية هذا الرجل الطويل فى بدلة رسمية بيضاء، يقف على خشبة المسرح ويتحدث إلى الجمهور بلكنة خاصة- صربية كما تبين- وصوت حزين لن تسمعه بعد ذلك أبداً. قدم حيلا سحرية بالكهرباء، ملفقا بيضات معدنية صغيرة حول طاولة، ومخرجا شررا من أنامله، وحبس الجميع أنفاسهم مما يفعله، وأنا من بينهم، لم نر قط شيئا من هذا القبيل. كانت أيام حروب التيار المتردد والتيار المستمر بين أديسون وويستنجهاوس[٢] وكان لعرض تيسلا قيمة دعائية معينة. اكتشف تيسلا التيار المتردد قبل ذلك بعشر سنوات تقريباً- المجال المغناطيسى الدوار- وكان تقدما كبيرا على التيار المستمر الذى كان يستخدمه أديسون. أكثر قوة بكثير. كان التيار المستمر يحتاج إلى محطة توليد كل ميل أو اثنين؛ مع التيار المتردد تكفى محطة واحدة لمدينة كاملة. حين جاء تيسلا إلى أمريكا، حاول أن يبيع فكرته لأديسون، لكن الحقير فى مينلو بارك[٣] رفض. اعتقد أنه قد يؤدى إلى التخلى عن مصباحه الكهربى. هناك مرة أخرى، المصباح الكهربى اللعين. وهكذا باع تيسلا تياره المتردد إلى ويستنجهاوس، وانطلقوا على الفور، وبدأ بناء محطة

١- عجلة فيريس Ferris wheel: أداة للتسلية تتكون من عجلة كبيرة عمودية دوارة، بها مقاعد معلقة تبقى فى وضع أفقى والعجلة تدور [على اسم فيريس، مهندس أمريكى (١٨٥٩-١٨٩٦)].

٢- ويستنجهاوس Westinghouse (١٨٤٦-١٩١٨): مهندس أمريكى.

٣- مينلو بارك Menlo Park:مدينة غرب كاليفورنيا، جنوب شرق سان فرانسيسكو.

توليد في شلالات نياجرا، أكبر محطة توليد للكهرباء في البلاد. واصل أديسون الهجوم. قال إن التيار المتردد بالغ الخطورة، يقتلك إذا اقتربْتَ منه. ليبرهن عل قضيته، أرسل رجاله حول البلاد ليقدموا إيضاحات في معارض الولايات والبلاد. رأيْتُ أحدهم بنفسي وأنا صغير جدا، وقد جعلني أتبول في بنطلوني. كانوا يحضرون حيوانات إلى خشبة المسرح ويكهربونها، كلابا وخنازير وحتى أبقارًا. كانوا يقتلونها أمام عينيك مباشرة. وهكذا اختُرِع الكرسي الكهربي. أعده إديسون ليوضح خطورة التيار المتردد، ثم باعه لسجن 'سنج سنج'، حيث لا يزالون يستخدمونه حتى اليوم. رائع، أليس كذلك؟ إذا لم يكن العالم هذا المكان الجميل، ربما تحولنا جميعا إلى متشائمين.

"وضع بيضة كولومبس نهاية لكل الاختلاف. رأى أناس كثيرون تيسلا، ولم يعودوا خائفين. كان الرجل مجنونا بالطبع، لكنه على الأقل لم يكن مجنونا بالنقود. بعد بضع سنوات تعرض ويستنجهاوس لمشكلة مالية فمزق تيسلا عقده الملكي معه تعبيرا عن الصداقة. ملايين وملايين الدولارات. مزقها وواصل في شيء آخر. ولسنا في حاجة إلى القول بأنه مات مفلسا في النهاية.

"وبعد أن رأيْتُ تيسلا بدأْتُ أتتبعه في الصحف. كانوا يكتبون عنه باستمرار في ذلك الوقت، معلقين على ابتكاراته الجديدة، مقتبسين الأشياء الغريبة التي اعتاد أن يقولها لكل من يسمع. كان نسخة جيدة. شبح أبدي يعيش وحيدا في فندق الولدورف: يخاف بشكل مرضي من الميكروبات، مشلول بكل أنواع الرُّهَاب، معرض لنوبات من الحساسية المفرطة تدفعه تقريبا للجنون. تبدو له ذبابة تطن في الغرفة المجاورة مثل سرب من الطائرات. إذا سار تحت جسر، يشعر بأنه يضغط على جمجمته، كأنه على وشك أن يطحنه. كان له مختبر في جنوب مانهاتن، برودواي غربا، أعتقد ذلك، برودواي غربا وجراند Grand. يعلم الرب ما لم يبتكره في ذلك المكان. أنابيب الراديو، طوربيدات بالريموت كنترول، خطة لكهرباء دون أسلاك. صحيح، دون أسلاك. يمكنك أن تغرس قضيبا معدنيا في الأرض وتستقبل الطاقة من الهواء مباشرة. زعم ذات يوم أنه بنى جهازا لموجات الصوت يوصل نبضات الأرض إلى نقطة صغيرة مركزة. ضغطه على

جدار بناية فى برودواى، وفى خمس دقائق بدأ البناء كله يرتج، كان سينهار إذا لم يتوقف. أحببت القراءة عن هذه الأشياء وأنا صبى، وامتلأ رأسى بها. اختلق الناس كل شىء عن تيسلا. كان مثل نبى من أنبياء المستقبل، ولم يكن هناك من يستطيع مقاومته. الإخضاع التام للطبيعة! عالم فيه كل الأحلام ممكنة! صدر أغرب هراء عن رجل اسمه جوليان هوثورن، وتصادف أنه ابن ناتنيال هوثورن، الكاتب الأمريكى الكبير، ومن ثم تتبعت أعمال هوثورن الابن باهتمام شخصى. كان كاتبا شهيرا فى تلك الأيام، تافها حقيقيا، يكتب بشكل سيئ بقدر ما كان أبوه يكتب بشكل جيد. كان إنسانًا حقيراً. تخيل النشأة مع ميلفيل وإميرسون حول المنزل وتبين أنه بهذا الشكل. كتب أكثر من خمسين كتابا، ومئات من المقالات فى المجلات، كلها نفاية. وانتهى به الأمر إلى السجن بسبب الغش فى الأوراق المالية، خداع رجال الدخل، نسيت التفاصيل. على أي حال، كان جوليان هوثورن هذا صديقا لتيسلا. فى ١٨٩٩، وربما فى ١٩٠٠، ذهب تيسلا إلى ينابيع كولورادو وأسس مختبرا فى الجبال لدراسة تأثيرات كرة البرق[1] ذات ليلة، كان يعمل لوقت متأخر ونسى أن يغلق الرسيفر. بدأتْ أصوات غريبة تصدر من الجهاز. إشارات راديو إستاتيكية، مَنْ يعرف. حين حكى تيسلا القصة للصحفيين فى اليوم التالى، القصة التى حكاها سكان المريخ الملعونون له، صدقْ أو لا تصدقْ، لم يسخر أحد مما قال. أعلن اللورد كيلفين نفسه، وهو سكران فى مأدبة، إنه أحد التطورات العلمية الكبيرة فى كل الأزمنة. وبعد تلك الحادثة بقليل كتب جوليان هوثورن مقالا عن تيسلا فى إحدى المجلات القومية. قال إن عقل تيسلا متطور جدا، ولا يمكن أن يكون عقلا إنسانيا. ولد فى كوكب آخر- وأظن أن افترض أنه الزهرة- وأُرسِل إلى الأرض برسالة خاصة ليعلمنا أسرار الطبيعة، ليكشف للإنسان طرق الرب. مرة أخرى، تعتقد أن الناس سخروا من هذا، لكن هذا لم يحدث إطلاقًا. تعامل الكثيرون مع الأمر بجدية،

١- كرة البرق ball lightning: نوع نادر من البرق فى شكل كرة حمراء متوهجة، مرتبط بالعواصف الرعدية.

وحتى الآن، بعد ستين سنة أو سبعين، لا يزال آلاف يصدقون ذلك. فى كاليفورنيا اليوم طائفة خارجة تعبد تيسلا باعتباره غير أرضى. ربما لا تصدقنى. عندى بعض آدابهم فى المنزل، ويمكنك أن ترى بنفسك. اعتاد بافيل شوم أن يقرأها لى فى الأيام الممطرة. أشياء خليعة. تضحكك بشدة، حتى تشعر وكأن بطنك يتمزق.

"أذكرُ هذا كله لأعطيك فكرة عما كان يمكن أن يحدث لى. لم يكن تيسلا مجرد شخص، وحين جاء ليبنى برجه فى شورهام، لم أصدق حظى. هنا الشخص العظيم بنفسه، يأتى أسبوعيا إلى بلدتى الصغيرة. اعتدْتُ أن أشاهده وهو ينزل من القطار، معتقدا أننى قد أعرف شيئا بمشاهدته، وأن مجرد الاقتراب منه يمكن أن يلوثنى بنبوغه، كأنه مرض يمكن أن تصاب به. لم تواتنى قط الشجاعة لأتحدث إليه، لكن هذا لا يهم. كان يلهمنى أن أعرف أنه هناك، أن أعرف أننى أستطيع أن ألقى نظرة عليه حينما أريد. ذات مرة التقت عيوننا، أتذكر ذلك جيدا، كان ذلك بالغ الأهمية، التقت عيوننا وشعرْتُ به يتطلع إلىَّ مباشرة، كما لو لم أكن موجودا. كانت لحظة لا تصدق. شعرْتُ بنظرته تخترق عينى وتخرج من مؤخرة رأسى، تسخن مخى فى جمجمتى وتحوله إلى كوم من الرماد. لأول مرة فى حياتى، أدركْتُ أننى لست شيئا، لست شيئا على الإطلاق. لا، لم يزعجنى ذلك كما قد تعتقد. أذهلنى فى البداية، لكن بمجرد أن بدأت الصدمة تتلاشى، شعرْتُ أنه قوانى، وكأننى نجيت من موتى. لا، لم يكن الأمر كذلك، لم يكن كذلك بالضبط. كنت فى السابعة عشرة فقط، مجرد صبى. حين اخترقتنى عينا تيسلا، شعرت لأول مرة بطعم الموت. هذا أقرب لما أعنيه. شعرْتُ بطعم الفناء فى فمى، وفى تلك اللحظة فهمْتُ أننى لن أعيش إلى الأبد. يستغرق الأمر وقتا طويلا لتعرف ذلك، لكن بمجرد أن تعرفه فى النهاية، يتغير كل ما بداخلك، لا يمكن أن تكون كما كنْتَ مرة أخرى. كنت فى السابعة عشرة، وفجأة، دون أدنى شك، فهمْتُ أن حياتى تخصنى، أنها تنتمى لى وليس لأى شخص آخر.

"أتحدث عن الحرية يا فج. إحساس جارف يصبح عظيما جدا، ساحقا جدا، كارثيا جدا، بحيث لا يكون أمامك سوى أن تتحرر منه. ذلك هو الاختيار الوحيد،

أو تزحف إلى ركن وتموت. أعطانى تيسلا موتى، وفى تلك اللحظة عرفْتُ أننى سأصبح رساما. هذا ما أردْتُ، لكن حتى ذلك الوقت لم يكن لدى الشجاعة لأعترف بذلك. كان أبى منشغلا تماما بالأوراق المالية والروابط، كان ثريا، اعتبرنى مخنثا بشكل ما. لكننى انطلقت وفعلتها، صرْتُ فنانا، وبعد بضع سنوات، سقط العجوز ميتا فى مكتبه فى وول ستريت. كنت فى الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين، وانتهى بى الأمر إلى أن أرث كل أمواله، حصلت على كل سنت منها. ها! كنت أغنى رسام. مليونيرا فنانا. تأمل ذلك فقط يا فج. كنت فى مثل عمرك الآن، وكان لدى كل شىء، كل شىء ما أريد.

"رأيْتُ تيسلا مرة أخرى، لكن ذلك كان متأخرا، متأخرا جدا. بعد اختفائى، بعد موتى، بعد أن تركْتُ أمريكا وعدْتُ. سنة ألف وتسعمائة وتسع وثلاثين، ألف تسعمائة وأربعين. خرجْتُ من فرنسا مع بافيل شوم قبل أن يزحف الألمان إليها، حزمنا أمتعتنا وغادرنا. لم تعد مكانا مناسبا لنا، لم تعد مكانا لأمريكى مقعد وشاعر روسى، لم يكن هناك معنى للوجود هناك. فكرت فى الأرجنتين فى البداية، لكننى فكرت وقلت يا له من جحيم، ربما أدفع حياتى لأرى نيويورك مرة أخرى. انقضى عشرون عاما على الرغم من كل شىء. بدأ المعرض العالمى للتو حين وصلْتُ. ترنيمة أخرى للتقدم، لكنها لم تكن مهمة لى هذه المرة، ليس بعد ما رأيْتُ فى أوروبا. كان زيفا تاما. كان التقدم فى طريقه إلى العصف بنا، أى مغفل يمكن أن يخبرك بهذا. ينبغى أن تقابل تشارلى باكون، أخا مسز هوم، مرة. كان طيارا أثناء الحرب. أخرجوه من يوتا باتجاه النهاية، ليتدرب مع تلك المجموعة التى أسقطت القنبلة الذرية على اليابان. فقد عقله حين اكتشف ما يحدث. البائس المسكين، من يلومه؟ هناك تقدم بالنسبة لك. مصيدة فئران أكبر وأفضل كل شهر. بسرعة كبيرة، سيكون بقدرتنا أن نقتل كل الفئران فى الوقت ذاته.

"عدْتُ إلى نيويورك، وبدأت أنا وبافيل نتجول حول المدينة. كما نفعل الآن، يدفع المقعد المتحرك، ونتوقف لنلقى نظرة على الأشياء، أطول بكثير، كان يمكن أن نظل نسير طوال اليوم. كانت الزيارة الأول لبافيل إلى نيويورك، فرجته على المشاهد، متجولين من حى إلى حى، محاولا التعرف عليها من جديد أثناء ذلك. فى أحد أيام

صيف تسعة وثلاثين، زرنا المكتبة العامة فى الثانى والأربعين والخامس والأربعين، ثم توقفنا لالتقاط الأنفاس فى برانت بارك. وحينها رأيت تيسلا مرة أخرى. كان بافيل يجلس على دكة بجوارى، وبالضبط على بعد عشرة أقدام أو اثنى عشر قدما منا كان هناك هذا العجوز يطعم الحمام. يقف والطيور ترفرف من حوله، وتهبط على رأسه وذراعيه، عشرات من الحمام الرائع، تتبرز على ملابسه وتأكل من يديه، والعجوز يواصل الحديث إليها، مناديا الطيور بأعزائى وأحبابى وملائكتى. حين سمعْتُ فيها ذلك الصوت، عرفت أنه صوت تيسلا، ثم أدار وجهه فى اتجاهى، وكان هو. رجل فى الثمانين. أبيض شبحى، نحيل، وكان مظهره بشعا كما أنا الآن. انتابتنى رغبة فى الضحك حين رأيْتُه. من كان ذات يوم العبقرى القادم من الفضاء، بطل شبابى، لم يعد سوى عجوز محطم، متشرد. قلت له: أنت نيقولا تيسلا. بالضبط على هذا النحو، لم أراعِ الرسميات. قلتُ: أنت نيقولا تيسلا، كنت أعرفك. ابتسم لى وانحنى انحناءة خفيفة. قال: أنا مشغول الآن، يمكن أن نتحدث فى وقت آخر. استدرت إلى بافيل شوم وقلت أعطِ مستر تيسلا بعض النقود يا بافيل، ربما يمكنه استخدامها لشراء بعض الحبوب للطيور. وقف بافيل، سار إلى تيسلا، وقدم له ورقة بعشرة دولارات. كانت لحظة هائلة يا فج، لحظة لا نظير لها. ها! لن أنسى أبدًا الارتباك فى عينى ابن العاهرة. مستر الغد، نبى العالم الجديد! قدم له بافيل الدولارات العشرة، ورأيتُه يكافح ليتجاهلها، لينأى بعينيه بعيدا عنها لكنه لم يستطع. وقف فقط، يحدق فيها مثل متسول مجنون. ثم أخذ النقود، انتزعها من يد بافيل ودسها فى جيبه. قال لى: هذا عطف شديد منك، عطف شديد. يحتاج الأعزاء الصغار كل كسرة يمكن أن يحصلوا عليها. ثم أدار ظهره لنا وهمهم بشىء للطيور. ثم دفع بافيل الكرسى المتحرك، وكانت النهاية. لم أره مرة أخرى قط".

توقف إفينج عدة دقائق، مستمتعا بذكرى وحشيته. ثم بنبرة أكثر لطفا، بدأ مرة أخرى. قال: "أواصل يا فتى. لا تقلق. فقط حرك القلم باستمرار، ونكون على ما يرام. فى النهاية، يقال كل شىء، يظهر كل شىء. كنت أتحدث عن جزيرة لونج، أليس كذلك؟ عن توماس موران وكيف بدأ العمل. ترى، لم أنسَ. واصل فقط تدوين الكلمات. لن يكون هناك نعى إن لم تدون الكلمات.

"شجعنى موران على ذلك. ذهب إلى الغرب فى السبعينيات، ورأى المكان كله من القمة إلى القاع. لم يسافر وحده كما فعل رالف، بالطبع، متجولا فى البرية مثل حاج داهمه الليل، لم يكن، كيف يمكن أن أقول، لم يكن يبحث بالطريقة نفسها . فعلها موران بأسلوب راق. كان الفنان الرسمى لمعرض هادن فى واحد وسبعين، ثم عاد مع بويل فى ثلاثة وسبعين. قرأنا كتاب بويل منذ شهرين، وكل اللوحات التوضيحية فيه لموران. هل تتذكر الصورة التى يتعلق فيها بويل على حافة الجرف، معلق من أجل حياة محبوب بذراع واحدة؟ شىء رائع، عليك أن تسلم بذلك، كان العجوز يعرف كيف يرسم. اشتهر موران بما عمله هناك، كان الشخص الذى جعل الأمريكيين يشاهدون كيف يبدو الغرب. كانت اللوحة الأولى عن الوادى العظيم لموران، إنها معلقة على مبنى الكابيتول فى واشنطون؛ اللوحة الأولى عن الحجر الأصفر، اللوحة الأولى عن صحراء الملح الكبرى[1] اللوحات الأولى من ريف الوادى فى جنوب يوتا كلها من رسم موران. توضح القدر! ترسمه، تصوره، تستوعبه فى آلة الربح الأمريكية العظيمة. كانت آخر أجزاء من القارة، الأماكن الخالية التى لم يستكشفها أحد. هى الآن هنا، معروضة كلها فى لوحة جميلة ليراها الجميع. الشوكة الذهبية، تخترق قلوبنا مباشرة!

"لم أكن رساما مثل موران، ينبغى ألا تظن ذلك. كنْتُ جزءا من جيل جديد، ولم أعتنق شيئًا من الهراء الرومانسى. كنت قد ذهبت إلى باريس فى سنة ست وسنة سبع، وأعرف ما يحدث. الفوفيون[2]التكعيبيون، اطلعت على هذه الأشياء وأنا شاب، وبمجرد أن تتذوق طعم المستقبل، لا تكون هناك عودة للخلف. عرفْتُ الجمهور فى معرض

١- الوادى العظيم Grand Canyon: ممر من نهر كولورادو فى جنوب غرب أريزونا. الحجر الأصفر Yellowstone: نهر طوله حوالى ١٠٨٠ كم، شمال غرب وومنج Wyoming وجنوب مونتانا وشرقها. صحراء الملح الكبرى Great Salt Desert: بحيرة جافة فى شمال يوتا بين بحيرة الملح الكبرى وحدود نيفادا.

٢- الفوفيون Fauves: حركة فنية حديثة، ترجع إلى أوائل القرن العشرين، شكلتها مجموعة من الفنانين ولم تعمر طويلا.

ستيجليتز[1] فى الشارع الخامس، واعتدنا أن نخرج ونشرب ونتحدث معا عن الفن. أحبوا أعمالى، وصفونى بأننى واحد من المبدعين الجدد. مارين، دوف، ديموث، مان راى[2] لم يكن هناك من لا أعرفه. كنت شيطانا صغيرا ماكرا، وكان رأسى مملوءًا بأفكار رائعة. يتحدث الجميع الآن عن معرض الأسلحة[3] لكنه كان أخبارا قديمة بالنسبة لى حين حدث. ويبقى أننى كنت مختلفا عن معظم الآخرين. لم يكن الخط يستهوينى. التجريد الآلى، اللوحة باعتبارها العالم، الفن العقلانى- رأيته طريقا مسدوداً. كنت بارعا فى استخدام الألوان، وكان موضوعى الفضاء، الفضاء النقى والضوء: قوة الضوء حين تضرب العين. كنت لا أزال أعمل من الطبيعة، ولهذا استمتعت بالحديث مع شخص مثل موران.كان من الحرس القديم، لكنه كان متأثرا بترنر[4]وكان ذلك مشتركا بيننا، مع حب للمشهد الطبيعى، حب للعالم الحقيقى. ظل موران يحدثنى عن الغرب. قال: إذا لم تذهب إلى هناك، لن تفهم حقيقة الفضاء أبداً. سيتوقف عملك عن النمو إذا لم تقم بالرحلة إلى هناك. عليك أن تشعر بهذه السماء، ستغير حياتك. الكلام نفسه دائما دون انقطاع. بقى على هذا الوضع كلما رأيته، وبعد مرور بعض الوقت قلْتُ لنفسى: لماذا لا، لن يضرنى أن أذهب إلى هناك وأرى.

١- ستيجليتز Stieglitz (١٨٦٤-١٩٤٦): مصور فوتوغرافى أمريكى.

٢- مارين Marin (١٨٧٠-١٩٥٣)، دوف Dove، ديموث Demuth (١٨٨٣-١٩٣٥)، مان راى Ray(١٨٩٠-١٩٧٦): رسامون أمريكيون.

٣- معرض الأسلحة Armory Show: الإشارة إلى معرض دولى للفن، أقامته رابطة الفنانين والمثالين الأمريكيين سنة ١٩١٣.

٤- ترنر Turner، أظن أن الإشارة هنا إلى الفنان الإنجليزى وليم ترنر (١٧٨٩-١٨٦٢)، واشتهر بلوحاته المائية التى تصور المشاهد الطبيعية.

"كانت سنة ١٩١٦ كنت فى الثالثة والثلاثين ومتزوجا منذ أربع سنوات. ومن بين كل ما فعلْتُ كان الزواج أسوأ غلطة. كان اسمها إليزابيث ويلر. من عائلة ثرية، ومن ثم لم تتزوجنى من أجل أموالى، لكن ربما تزوجتنى من أجلها أيضًا، نظرا للطريقة التى سارت بها الأمور بيننا. لم أستغرق وقتا طويلا لأعرف الحقيقة. بكت مثل تلميذة ليلة الزفاف، وبعد ذلك أُغلقتْ الأبواب. أوه، اقتحمْتُ القلعة من حين لآخر، لكن من الغضب أكثر من أى شيء آخر. فقط لأجعلها تعرف أنها لا يمكن أن تفلت طوال الوقت. حتى الآن، أتساءل عما دفعنى للزواج منها. ربما كان وجهها جميلا جدا، ربما كان جسمها مدورا وريانا. لا أعرف. كن جميعا عذارى حين يتزوجن فى تلك الأيام، اعتقدت أن عليها أن تتعلم أن تحب الأمر. لكن لم يتحسن الأمر، كان الأمر كله دموعا وكفاحا، نوبات من الصراخ، اشمئزاز. اعتبرتنى وحشا، عميلا للشيطان. اللعنة على هذه العاهرة الباردة! كان ينبغى أن تعيش فى دير. وضحت لها الظلمة والقذارة اللتين تسيران العالم، ولم تسامحنى على ذلك. الإنسان البدائى[1] لم يكن إلا هلعا بالنسبة لها: لغز جسد الذكر. بمجرد أن رأت فى النهاية ما يحدث، انهارت. لن أواصل الحديث فى هذا. قصة قديمة، أنا متأكد من أنك سمعْتَها من قبل. وجدت متعتى فى مكان آخر. لم تكن الفرص قليلة، أؤكد لك، لم يعانِ عضوى من إهمال. كنت لطيفًا شابا أنيقا، لم تكن النقود مشكلة، كنت رغبتى متأججة باستمرار. ها! أتمنى لو كان هناك وقت للحديث عن ذلك. الفروج النابضة التى سكنتها، مغامرات ساقى الوسطى. ربما كانت الاثنتان الأخريان ميتتين، لكن أخيهما الصغير ظل محتفظًا بالحياة وحده. حتى الآن، يا فج، إذا كان يمكن أن تصدق. لم يستسلم الرجل الصغير قط.

"حسنًا، حسنا، كفى. ليس مهما. أقدم لك الخلفية فقط، محاولا تشكيل المشهد. إذا كنت تريد تفسيرًا لما حدث، فسوف يساعدك زواجى من إليزابيث. لا أقول إنه السبب الوحيد، لكن من المؤكد أنه كان عاملا. حين يتمثل الموقف لى، لا أندم على زواله. رأيت أن فرصتى ميتة، وأخذتها.

١- الإنسان البدائى homo erectus: نوع منقرض من البشر، يعتبر سلف الإنسان العاقل Homo sapiens.

"لم أخطط الأمر بهذه الطريقة. اعتقدت أن المسألة لن تستغرق أكثر من ثلاثة أشهر أو أربعة وأعود. اعتقد أهالى نيويورك أن ذهابى إلى هناك يعنى أننى مجنون، لم يعرفوا الهدف. قالوا لى: اذهبْ إلى أوروبا، ليس هناك ما تتعلمه فى أمريكا. شرحْتُ لهم أسبابى، وجعلنى مجرد الكلام عنها أكثر استثارة. انهمكْتُ فى الاستعدادات، لم أنتظر عطلة. فى البداية قررت أن أصطحب معى أحداً، رفيقا شابا اسمه إدوارد بيرن- تيدى، كما كان يناديه والداه. كان والده صديقا لى، وحثنى على اصطحاب الشاب. لم تكن لدى اعتراضات جادة. اعتقدت أننى قد أرحب بصحبته، وكان بيرن صبيا مفعما بالحيوية، وقد أبحرت معه مرتين، وعرفت أنه يحمل رأساً جيداً على كتفيه. كان شابا مخلصا، سريع التعلم، قويا، رياضيا، فى الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة. كان حلمه أن يصبح طوبوجرافيا، ويريد أن يلتحق بالمسح الجيولوجى فى الولايات المتحدة ويقضى حياته يتجول فى الخلاء الفسيح. كان عصرا من هذا النوع، يا فج. تيدى روزفلت[١] الشارب الطويل، كل ذلك التهديد الرجولى. اشترى والد بيرن له مجموعة أجهزة - سكستانت، بوصلة، تيودوليت[٢] الأدوات كلها- ووفرت لنفسى كل الإمدادات التى تكفينى سنتين. أقلام رصاص، ألوان فحم، ألوان شمع، ألوان مائية، فرش، لفات من قماش للوحات، ورق- عملت حساب القيام بأعمال كثيرة. غاص كلام موران فى العمق، وكنت أتوقع أشياء عظيمة من الرحلة. سأنجز أفضل أعمالى هناك، ولا أريد أن أعانى من نقص فى المواد.

على الرغم من كل تحجر إليزابيث فى السرير، بدأت تشعر بوخز الضمير نتيجة لرحيلى. ووقت رحيلى يقترب، ازداد حزنها نتيجة لذلك: تنفجر فى البكاء، وتتوسل لى لأصرف النظر عن الرحلة. مازلت لا أفهم ذلك. كنْتَ تتوقع أن ينتابها شعور بالسعادة

١- تيدى (تيودور) روزفلت Teddy Roosevelt(١٨٥٨-١٩١٩): الرئيس السادس والعشرين للولايات المتحدة (١٩٠١-١٩٠٩).

٢- سكستانت sextant:آلة لقياس ارتفاع الأجرام. تيودوليت theodolite:آلة لقياس الزوايا.

للتخلص مني. كانت امرأة تتصرف بشكل غير متوقع، كانت تفعل دائما عكس ما تتوقع منها. في الليلة الأخيرة قبل سفري، وصل بها الأمر إلى تقديم التضحية الكبرى. أظن أنها ثملت قليلا أولا- تعرف، لتستجمع شجاعتها- ثم مضت مباشرة بالفعل وعرضت نفسها عليَّ. الذراعان مفتوحتان، العينان مغلقتان، كما لو كانت شهيدة متعطشة للبذل. لن أنسى ذلك قط. ظلت تقول: أوه، جوليان، أوه، زوجي الحبيب. مثل معظم المجانين، ربما كانت تعرف ما يحدث مقدما، ربما كانت تعرف أن تلك الأمور ستتغير إلى الأبد. فعلتُها معها في تلك الليلة- كان واجبا، رغم كل شيء- لكنني لم أتركها تمنعني من المغادرة في اليوم التالي. وكانت آخر مرة أراها فيها. هذا ما كان. أقدم لك الحقائق فقط، اصنعْ بها ما تشاء. كانت هناك نتائج لتلك الليلة، سأكون مهملا إن لم أذكرها، لكن مضى وقت طويل قبل أن أعرفها. ثلاثون عامًا، في الحقيقة، عمر كامل في المستقبل. نتائج. هكذا تجري الأمور يا فتى. هناك نتائج دائما، شئْتَ أم أبيْتَ.

"ذهبْتُ أنا وبيرن بالقطار. شيكاغو، دينفير[1] كل الطريق إلى مدينة سولت ليك. كانت رحلة بلا نهاية في تلك الأيام، وحين وصلنا أخيرا إلى هناك، شعرْتُ وكأنني مسافر منذ سنة. كان أبريل ١٩١٦ في سولت ليك، وجدنا مرشدا، لكن بعد ذلك في عصر اليوم نفسه، إذا كان يمكن أن تصدق، احترقت ساقه في محل حداد، وكان علينا استخدام شخص آخر. كان نذيرًا سيئًا، لكن ما كان لك قط أن تفكر في تلك الأمور في ذلك الوقت، كان عليك فقط أن تواصل وتفعل ما عليك أن تفعله. كان الرجل اسمه جاك سكورسبي. كان جنديا سابقا في سلاح الفرسان، في الثامنة والأربعين، أو الخمسين، من العمر، عتيق في تلك الأنحاء، قال الناس إنه يعرف المنطقة جيدا. كان عليَّ أن أصدقهم. تحدثت إلى غرباء، وكان يمكن أن يقولوا لي ما يشاءون، الأمر سواء بالنسبة لهم. كنت مجرد شخص غر، غر ثري من الشرق، ولماذا ينبغي أن يقدموا لي رجلا طيبا؟ هذا ما حدث يا فج. لم يكن هناك من اختيار سوى أن ننغمس دون وعي ونأمل في الأفضل.

١- دينفير Denver: عاصمة ولاية كولورادو.

كانت لدى شكوك فى سكورسبى من البداية، لكننا كنا نرغب بشدة فى أن نواصل رحلتنا ولا نضيع مزيدا من الوقت. كان رجلا ضئيلا قذرا بضحكة مكبوتة، بشوارب وشحم جاموس، لكنه كان يتحدث بشكل جيد، سأسلم له بذلك. وعد بأن يأخذنا إلى مواضع لم يذهب إليها إلا القليل من الرجال، بتعبيره، سيرينا أشياء لم يضع عينه عليها من قبل سوى الرب والهنود. تعرف أنه قذر تماما، لكن من الصعب على أى حال ألا تستثار. نشرنا خريطة على طاولة فى الفندق وخططنا الطريق الذى نتبعه. بدا أن سكورسبى يعرف ما يتحدث عنه وظل يدلى بتعليقات عرضية وجانبية ليستعرض معرفته: عدد الجياد والحمير المطلوبة، كيفية التصرف مع المورمون، كيفية التعامل مع ندرة المياه فى الجنوب. كان من الواضح أنه يعتقد أننا أحمقان. كان الذهاب للتحديق فى مشهد جميل بلا معنى بالنسبة له، وحين أخبرته بأننى رسام، كان كل ما استطاع أن يفعله ألا يضحك. ويبقى أننا التزمنا بما بدا أنه يشبه صفقة عادلة، وتصافحنا نحن الثلاثة اتفاقا عليها. اكتشفت أن الأمور ستستقر فى مكانها حين يعرف كل منا الآخر.

"ليلة رحيلنا، جلست أنا وبيرن نتحدث. أرانى أدوات المسح، وأتذكر أننى كنت فى حالة مزاجية جيدة حين بدا أن كل الأشياء تنسجم معا فجأة بطريقة جديدة. قال لى بيرن إننى لا يمكن أن أحدد موضعى بالضبط على الأرض دون الإشارة إلى نقطة ما فى السماء. شىء يتفق مع حساب المثلثات، تقنية قياس، وقد نسيت التفاصيل. لكنها مسألة ظلت تفرض نفسها علىَّ، لم تتركنى قط. لا يعرف إنسان موضعه على الأرض إلا بعلاقته بالقمر أو نجم. جاء علم الفلك أولا، وجاءت خرائط الأرض تالية نتيجة لذلك. بالضبط عكس ما تتوقع. إذا فكرت فى الأمر وقتا طويلا، فسوف يقلب ذهنك تمامًا. يوجد هنا فقط بالعلاقة مع هناك، وليس بطريقة أخرى. ويوجد هذا فقط لوجود ذلك؛ إذا لم ننظر إلى أعلى، لن نعرف أبدا ما هو تحت. فكرْ فى الأمر يا فتى. نعرف أنفسنا فقط بالنظر إلى ما ليس نحن. لا يمكن أن تضع قدميك على الأرض إلا إذا لمسْتَ السماء.

"أنجزت بعض الأعمال الجيدة فى البداية. اتجهنا من المدينة إلى الغرب، وعسكرنا قرب البحيرة يوما أو اثنين، ثم سرنا إلى صحراء الملح الكبرى. لم أر لها مثيلا من قبل.

البقعة الأكثر تسطيحا وعزلة على الكوكب، مقبرة النسيان. تسافر فيها يوما بعد يوم، ولا ترى شيئا. لا شجرة، لا شجيرة، لا ورقة عشب. لا شىء سوى البياض، أرض مشققة تمتد بعيدا على كل جانب. أرض بطعم الملح، تمتد على الحافة، الأفق المطوق بالجبال، طوق هائل من الجبال يتذبذب فى الضوء. تجعلك تعتقد أنك قريب من المياه، محاطا بكل ذلك الوميض والوهج، لكنه ليس إلا وهما. إنه عالم ميت، وكل ما تقترب منه ليس إلا العدم نفسه. يعرف الرب عدد الرواد الذين غاصوا واستسلموا للشبح فى تلك الصحراء، يمكنك أن ترى عظامهم البيضاء ناتئة مباشرة من الأرض. هذا ما حدث فى حزب دونر[1] ويعرفهم الجميع. التصقوا بالملح، وحين وصلوا إلى جبال سيرا فى كاليفورنيا، أغلقت ثلوج الشتاء طريقهم، ووصل بهم الأمر إلى يأكل بعضهم بعضًا ليبقوا أحياء. يعرف الجميع ذلك، فلكلور أمريكى، وحقيقة واقعية على الرغم من ذلك، حقيقة واقعية لا يرقى إليها الشك. عجلات قطار البضائع ، الجماجم، الأعيرة النارية الفارغة- رأيْتُ كل تلك الأشياء هناك، حتى فى ١٩١٦ بعد مرور وقت طويل. كانت مقبرة كبيرة، صفحة بيضاء من الموت.

"فى أول أسبوعين، رسمْتُ مثل عفريت. أشياء غريبة، لم أرسم مثلها من قبل. اعتقدت أن المقياس لا يهم، لكنه يهم، لا توجد طريقة أخرى لمصارعة أحجام الأشياء. صارت العلامات على الصفحة أصغر وأصغر، أصغر إلى درجة التلاشى. بدا الأمر وكأن يدى لها حياة مستقلة. ظللت أقول لنفسى، ارسمْ، ارسمْ ولا تقلقْ، يمكن أن تفكر فى ذلك فيما بعد. توقفنا فى وندوفر لبعض الوقت واغتسلنا، ثم عبرنا إلى نيفادا وسرنا جنوبا، مسافرين بطول حافة سلسلة جبال كونفيوشن[2] مرة أخرى، برز كل ذلك لى بطريقة لم أكن مستعدا لها. الجبال، الجليد على قمة الجبال، السحب تحوم حول

١- حزب دونر Donner party: مجموعة من ٨٧ رائدا أمريكيا، استقلوا قطار بضائع متجهين غربا إلى كاليفورنيا، وقد حاصرهم الجليد فى سيرا نيفادا Sierra Nevada.

٢- سلسلة جبال كونفيوشن Confusion Range سلسلة جبال غرب يوتا.

الجليد. بمرور الوقت بدأت تختلط معا ولم أستطع الفصل بينها. بياض ثم مزيد من البياض. كيف يمكن أن ترسم شيئا إذا لم تعرف أنه موجود؟ تعرف ما أتحدث عنه، أليس كذلك؟ لم يعد يبدو إنسانيا. قد تعصف الرياح بقوة تجعلك لا تنتبه إلى أى شىء، وقد تتوقف فجأة، ويصبح الهواء ساكنًا، وتقف متسائلا إن كنت قد أصيبت بالصمم. صمت غريب يا فج. لا تسمع إلا نبضات قلبك فى صدرك، وصوت الدماء وهى تندفع فى دماغك.

لم يجعل سكورسبى الحياة أسهل. قام بوظيفته، على ما أظن، قادنا، المواقد، والصيد للأكل، لكن سخريته منا لم تنته، وكان الشر يتدفق منه ويلوث الجو. يعبس ويبصق، ويهمهم بكلام غير مسموع، ويقلدنا بتجهمه. بمرور الوقت، صار بيرن حذرا جدا منه حتى إنه كان يكف عن الكلام حين يكون سكورسبى قريبا منا. كان سكورسبى يذهب للصيد ونحن نقوم بأعمالنا- تيدى الصغير يتسكع بين الصخور ويأخذ المقاييس، وأقيم فى نتوء أو آخر مع الألوان المائية وألوان الفحم- لكن فى المساء نطهو نحن الثلاثة عشاءنا معا أمام نار المخيم. ذات مرة، آملا فى أن أغير الأمر قليلا، عرضت على سكورسبى أن نلعب كوتشينة. بدا أنه يرحب بالفكرة، لكن مثل معظم الأغبياء، كان لديه تصور متضخم لذكائه. تصور أنه سيهزمنى ويكسب كثيراً من المال. لا يهزمنى فى الكوتشينة فقط، بل يهزمنى فى كل شىء، ويرينى من هو الريس. لعبنا بلاك جاك، وكانت كل الأوراق من نصيبى، خسر ست مرات أو سبع مرات. اهتزت ثقته، وبدأ يلعب بشكل سيئ، بمراهنات غريبة، محاولا أن يخدعنى، ويرتكب كل الأخطاء. كان ينبغى أن أكسب منه فى تلك الليلة خمسين دولارا أو ستين، وهى ثروة بالنسبة لمغفل مثله. حين رأيت انزعاجه، حاولت أن أصلح الضرر وأتخلى عن الدين. قلْتُ له: لا أهتم بالنقود، لا تقلق بشأنها، كنت محظوظا فقط، لننس الأمر، لا نريد مشاعر سيئة، شيئا من هذا القبيل. ربما كانت أسوأ شىء يمكن أن أقوله. اعتقد سكورسبى أننى راعيه، اعتقد أننى أحاول إهانته، وقد جرحت كبرياءه، جرحته مرتين. منذ تلك اللحظة، كانت هناك ضغينة بيننا، وكان علاج الأمر يتجاوز إرادتى. كنت أنا نفسى ابنا عنيدا لعاهرة، ربما لاحظْتَ ذلك. تخليت عن محاولة إرضائه. إذا أراد أن

يتصرف مثل حمار، فلينهق إلى الأبد. كنا فى الخارج فى بلاد هائلة، ولا شىء حولنا، لا شىء إلا الفضاء الخالى لأميال حولنا، ونتيجة ذلك كله يبدو الأمر وكأنك فى سجن- مثل الاشتراك فى زنزانة مع رجل لا يريد التوقف عن النظر إليك، يجلس فقط فى انتظار أن تلتفت ويطعنك بسكين فى ظهرك.

"تلك هى المشكلة. الأرض شاسعة هناك، وبمرور الوقت تلتهمك. وصلت إلى أننى لم أعد أفكر فى كل ذلك الصمت والخواء. تحاول أن تعثر على اتجاهاتك فيها، لكنها شاسعة جدا، الأبعاد هائلة جدا، وفى النهاية، لا أعرف كيف أعبِّر بشكل آخر، وفى النهاية لا تكون هناك. لا يوجد عالم، أو أرض، أو عدم. يصل الأمر إلى ذلك يا فج، فى النهاية كل شىء زائف. لا يكون لك وجود إلا فى رأسك.

"أخذنا طريقنا عبر مركز الولاية، ثم انحرفنا إلى ريف الوادى فى الجنوب الشرقى، ما يسمونه الأركان الأربعة، حيث تلتقى معا يوتا وأريزونا وكولورادو ونيو مكسيكو. أغرب مكان على الإطلاق، عالم الأحلام، أرض حمراء وصخور ملتوية، أبنية هائلة ترتفع من الأرض، وتقف مثل أطلال مدينة قديمة بناها العمالقة. مسلات، ومنارات، وقصور: كل شىء يمكن التعرف عليه وغريب فى الوقت ذاته، لا حيلة لك فى رؤية الأشكال الأليفة حين تتطلع إليها، حتى حين تعرف أنها صدفة تماما، بقايا متحجرة من الأنهار الجليدية والتعرية، مليون سنة من الرياح والطقس. أصابع إبهام، محاجر عيون، أعضاء ذكور، فطر، بشر، قبعات. تشبه صناعة صور من السحب. يعرف الجميع ما تبدو عليه تلك الأماكن الآن، رأيْتُها أنت نفسك مئات المرات. وادى جلن، وادى الذكرى، وادى الآلهة. حيث يصورون كل تلك الأفلام عن رعاة البقر والهنود، رجل من مارلبورو يعدو بحصانه كل ليلة هناك فى التليفزيون. لا تخبرك الصور بشىء عنها يا فج. إنها أكبر من أن تلون أو ترسم؛ حتى الصور الفوتوغرافية لا يمكن أن تجعلك تشعر بها. كل شىء مشوه جدا، مثل محاولة إعادة إنتاج المسافات فى الفضاء الخارجى: كلما رأيت أكثر قل ما يمكن أن يفعله قلمك الرصاص. أن تراه يعنى أن يتلاشى.

"تجولنا فى تلك الأودية عدة أسابيع. قضينا الليل أحيانا فى أطلال هندية قديمة، مساكن منحدر أناسازى[1] القبائل التى اختفت منذ ألف سنة، ولا أحد يعرف ما حدث لهم. تركوا وراءهم مدنهم الحجرية، وكتاباتهم المصورة، وكسر من آنيتهم الفخارية، لكن الناس أنفسهم تلاشوا. كنا فى أواخر يوليو أو أوائل أغسطس، وقد تنامى عداء سكورسبى، كانت مسألة وقت فقط ويحدث شىء مفاجئ، يمكن أن تشعر بذلك فى الهواء. كان الريف قاحلا وجافا، نبات المريمية فى كل مكان، ولا ترى شجرة. كانت الحرارة عالية بوحشية، وعلينا أن نرشد إمداداتنا من الماء، مما يضع الجميع فى حالة مزاجية بشعة. ذات يوم كان علينا أن نهلك الحمار، الذى يمثل عبئا إضافيا على الاثنين الآخرين. بدأ الحصانان يذبلان. كنا على بعد خمسة أيام أو ستة من بلدة 'بلف'، وكنت أعتقد أن علينا الوصول إلى هناك بأسرع ما يمكن لنتجمع مرة أخرى. ذكر سكورسبى النقص الذى يحدث ليوم أو اثنين قبل انتهاء الرحلة، ونحن نبدأ السير فى ذلك الاتجاه، مسافرين على أرض وعرة والشمس فى وجوهنا. كان السير صعبا، أصعب من أى شىء جربناه من قبل، وبمرور الوقت عنَّ لى أن سكورسبى يقودنا إلى فخ. لم أكن أنا وبيرن نجيد امتطاء الجياد مثله، وكنا بالكاد نتغلب على التضاريس. كان سكورسبى أمامنا وبيرن الثانى، وأنا فى المؤخرة. تسلقنا عدة منحدرات حادة، ثم بدأنا نسير بطول سلسلة تلال فى القمة. كانت ضيقة جدا، يتناثر فيها الصخور والحصى، وكان الضوء ينعكس بقوة من الصخور ويكاد يعمى أبصارنا. لم نكن نستطيع العودة عند هذه النقطة، لكننى لم أكن أرى كيف يمكن أن نواصل أكثر. فجأة زلت أقدام حصان بيرن. كان يسبقنى بما لا يزيد عن عشرة أقدام، وأتذكر القعقعة المرعبة للحجارة، وصهيل الحصان وهو يحاول أن يسرع ليعدل وضعه بحوافره. لكن الأرض ظلت تتداعى، وقبل أن أقوم بأى رد فعل، انطلقت صرخة من بيرن، وبعدها سقط على الحافة، الحصان وكل شىء، انهار الاثنان على جانب المنحدر، كان طريقا طويلا بشعا،

١- أناسازى Anasazi: من الشعوب الأمريكية الأصلية، يسكنون فى جنوب كولورادو ويوتا وشمال نيو مكسيكو وأريزونا.

لابد أنه كان مائتى قدم أو ثلاثمائة، ولم يكن هناك سوى الصخور المتعرجة من القمة إلى القاع. قفزت من على الحصان وتناولت صندوق الإسعافات الطبية، اندفعْتُ إلى أسفل الجرف لأرى ما يمكن أن أفعله. ظننت فى البداية أن بيرن مات، لكننى تمكنت بعد ذلك من الإحساس بنبضه. باستثناء ذلك لم يكن هناك إلا القليل مما يشجع. كان وجهه مغطى بالدماء، وساقه اليسرى وذراعه اليسرى مكسورتين، رأيت ذلك بمجرد النظر إليهما. وبعدها أدرته على ظهره ورأيت جرحا كبيرا تحت ضلوعه مباشرة- جرحا نابضا بشعا طوله ست بوصات أو سبع على الأقل. كان رهيبا، كان الفتى ممزقا تماما. وأنا على وشك فتح صندوق الإسعافات الطبية سمعت طلقة تدوى خلفى تمامًا. التفت حولى ورأيت سكورسبى يقف بالقرب من حصان بيرن الملقى على الأرض، ومسدس يدخن فى يده اليمنى. قال بحدة، ساق مكسورة، لا شىء آخر يمكن عمله. أخبرته بأن بيرن فى حالة سيئة وفى حاجة إلى رعايتنا الفورية، لكن حين اقترب سكورسبى ليلقى نظرة، سخر قائلا: ينبغى ألا نضيع وقتنا على هذا الشخص. العلاج الوحيد له جرعة من العلاج الذى أعطيته للحصان للتو. رفع سكورسبى مسدسه ووجهه إلى رأس بيرن، لكننى أبعدت ذراعه جانبا. لا أعرف إن كان يخطط لسحب الزناد، لكننى لم أكن أستطيع المخاطرة. رمقنى سكورسبى بنظرة شيطانية حين ضربت ذراعه وحذرنى بألا أمد يدى. قلت: سأفعل هذا حين تتوقف عن تصويب المسدس إلى أناس عاجزين. ثم التفت سكورسبى ووجه المسدس إلىَّ. قال: سأصوبه إلى من أشاء، وفجأة ابتسم، ابتسامة بلهاء عريضة، متلذذا بالقوة التى مارسها علىَّ. كرر: عاجزين. هذا ما أنت عليه بالضبط يا مستر رسام، حقيبة عاجزة من العظام. ظننت أنه على وشك إطلاق النار علىَّ. وأنا فى انتظار أن يسحب الزناد، تساءلت عن الوقت الذى ينقضى لأموت بعد أن تدخل الرصاصة قلبى. فكرت: إنها آخر فكرة يمكن أن أفكر فيها. بدا أنها ستستمر إلى الأبد، وكل منا يحدق فى عينى الآخر، منتظرا أن يبدأ الآخر. بدأ سكورسبى يضحك. كان سعيدا حقا بنفسه، وكأنه حقق للتو نصرا هائلا. أعاد المسدس إلى جرابه وبصق على الأرض. وكأنه قتلنى بالفعل، وكأننى ميت بالفعل.

"عاد إلى الحصان وبدأ يزيل الصهوة والخرج. كنت لا أزال أرتجف من المسدس، لكننى قبعت بجوار بيرن وبدأت العمل، أفعل ما أستطيع لأنظف الجروح وأربطها. بعد دقيقتين عاد سكورسبى وأعلن أنه جاهز للرحيل. قلت: الرحيل؟ عم تتحدث؟ لا نستطيع أن نأخذ الفتى معنا، حالته لا تسمح بنقله. قال سكورسبى: اتركه إذن. إنه منتهٍ على أى حال، وسأكون ملعونا إذا جلست فى هذه البقعة من الوادى منتظرا مدة لا يعلمها إلا الرب حتى يتوقف عن التنفس. الأمر لا يستحق. قلتُ: افعل ما تشاء، لكننى لن أترك بيرن طالما كان على قيد الحياة. نخر سكورسبى، وقال: تتحدث مثل بطل فى كتاب. يمكنك أن تبقى هنا أسبوعا قبل أن يموت فى النهاية، وما الهدف من هذا؟ قلت: إنه مسئوليتى. هذا كل ما فى الأمر، ولن أتركه.

"قبل أن يغادر سكورسبى، قطعت ورقة من دفترى وكتبت رسالة إلى زوجتى. لا أتذكر ماذا قلت. شيئا ميلودراميا، أنا على يقين تام من هذا. ربما تكون آخر مرة أكتب إليك فيها، أظن أننى كتبت ذلك بالفعل. كانت الفكرة أن يرسل سكورسبى الخطاب بالبريد حين يصل إلى البلدة. كان هذا اتفاقنا، على أى حال، لكننى كنت أعرف أنه لا ينوى الوفاء بوعده. ربما يورطه فى اختفائى، ولماذا ينبغى أن يتعرض لخطر المساءلة على أى حال؟ الأفضل له أن ينطلق بحصانه وينسى الأمر كله. وهذا ما حدث بالضبط. على الأقل أفترض ذلك. بعد ذلك بكثير، حين قرأت المقالات والتعازى، لم يكن هناك أى ذكر لسكورسبى– حتى على الرغم من أننى وضعت اسمه فى الخطاب.

تحدث أيضا عن تشكيل فريق للبحث إذا لم أظهر خلال أسبوع، لكننى كنت أعلم أنه لن يفعل ذلك أيضا. قلت له ذلك فى وجهه، لكنه بدلا من الإنكار، ابتسم لى ابتسامة وقحة. قال: فرصة أخيرة يا مستر رسام، هل تأتى معى أم لا؟ اكتفيت بهز رأسى، كنت فى حالة غضب لا ينفع معها الكلام. أشار سكورسبى بقبعته لى مودعا، وبدأ يتسلق المنحدر ليسترد حصانه ويواصل طريقه. بالضبط على هذا النحو، دون كلمة أخرى. استغرق الأمر بضع دقائق ليصل إلى القمة، وأبقيت عينى عليه طوال الوقت. لم أكن

أريد ترك مجال للاحتمالات. كنت أعرف أنه قد يحاول قتلى قبل أن ينصرف، بدا ذلك حتميا تقريبا. يستبعد الدليل ويتأكد من أننى لن أخبر أحدا بما فعل- تاركًا الشاب ليموت على هذا النحو وسط المجهول. لكن سكورسبى لم يلتفت إطلاقًا. أؤكد لك أن الأمر لا علاقة له بالعطف. كان التفسير الوحيد المحتمل أنه شعر أن الأمر ليس ضروريا. لم يكن عليه أن يقتلنى، لأنه يعتقد أننى لن أستطيع العودة وحدى.

"انطلق سكورسبى بحصانه، بدأت أشعر بعد ساعة بأنه لم يوجد قط. لا يمكن أن أصف لك غرابة هذا الشعور. لا يبدو الأمر وكأننى قررت ألا أفكر فيه، أتذكره بالكاد حين أتذكره. لم أعد أتذكر شكله أو صوته. هذا ما يفعله الصمت بك يا فج، يعوق كل شىء. انمحى سكورسبى من ذهنى، وحين أحاول التفكير فيه بعد ذلك، يبدو وكأننى أحاول تذكر شخص من حلم، النظر إلى شخص لم يوجد قط.

"استغرق الأمر ثلاثة أيام أو أربعة ليموت بيرن. بالنسبة لى، ربما كان أمرا طيبا أنه استغرق هذا الوقت الطويل. جعلنى أظل مشغولا، ونتيجة لذلك، لم يكن هناك وقت لأشعر بالخوف. لم يأت الخوف إلا متأخرا، حتى دفنته وصرت وحيدا. فى اليوم الأول، لابد أننى تسلقت الجبل عشر مرات، لأفك الطعام والآلات من الحمار وأحملها إلى أسفل. حطمت حاملى واستخدمت الخشب لأصنع شرائح لأثبت ذراع بيرن وساقه. شيدت مظلة ببطانية وحامل ثلاثى القوائم لأحمى وجهه من الشمس. كنت أرعى الحصان والحمار. وأغير الأربطة بقطع من القماش. أشعلت نارا وطهوت طعاما، فعلت كل ما ينبغى فعله. جعلنى الشعور بالذنب أواصل، من المستحيل ألا ألوم نفسى عما حدث، لكن حتى الشعور بالإثم كان مريحًا. كان شعورا إنسانيا، علامة على أننى مازلت أرتبط بالعالم نفسه الذى يعيش فيها الرجال الآخرون. بمجرد وفاة بيرن، لم يعد هناك ما أفكر فيه، وكنت خائفا من هذا الخواء، أرعبنى بما يشبه الموت.

كنت أعرف أنه حالة ميئوس منها، عرفت ذلك من اللحظة الأولى، لكننى خدعت نفسى بالتفكير فى أنه قد يتحسن. لم يستعد وعيه قط، لكنه كان يخرف من وقت

لآخر، بالطريقة التى يتحدث بها الناس وهم نيام. كان هذيانا بكلام غير مفهوم، أصوات لا تصبح كلمات قط، لكن كلما حدث ذلك، أظن أنه على وشك أن يستعيد وعيه. بدا أنه منفصل عنى بحجاب رقيق، غشاء غير مرئى يبقيه فى الجانب الآخر من العالم. حاولت تشجيعه بصوتى، تحدثت إليه باستمرار، غنيت له أغانى، صلوات يمكن أن تصل إليه فى النهاية وتوقظه. لم يؤد ذلك إلى أى تحسن. ظلت حالته تسوء. لم أستطع أن أعطيه أى طعام، كان أفضل ما أستطيع أن أفعله أن أبلل شفتيه بقطعة قماش مشبعة بالماء، لكن ذلك لم يكن كافيا، لم يكن يقدم له أى تغذية. تدريجيا، كنت رأيت القوة تفارقه. توقف جرح البطن عن النزيف، لكنه لم يندمل تماما. صار لونه أخضر مصفرا، وكان ينز صديدا، وظل النمل يزحف حول الرباط. لم تكن هناك وسيلة تنقذ أحدا من هذا.

"دفنته عند سفح الجبل. سأعفيك من التفاصيل. حفر القبر، جر جسده إلى الحافة، الشعور بأنه يبتعد عنى وأنا أدفعه فيه. أعتقد أننى كنت بالفعل على وشك الجنون. لم أستطع ملء الحفرة تغطيته، إهالة القذارة على وجهه الميت، كان ذلك يتجاوز قدرتى. فعلت ذلك وعيناى مغلقتان، هكذا حلت المشكلة فى النهاية، جرفت القذارة إلى الحفرة دون أن أنظر. بعد ذلك لم أرسم علامة الصليب ولم أنطق بأي صلوات. لعنت السماء، وقلت لنفسى لن أمنحها الرضا. غرست عصا فى الأرض وعلقت عليها قطعة من الورق. كتبت عليها: إدوارد بيرن ١٨٩٨-, ١٩١٦ دفنه صديقه جوليان بربر. ثم بدأت أصرخ. هذا ما حدث يا فج. أنت أول شخص أقول له ذلك. بدأت أصرخ، وبعد ذلك جننت.

٥

ذلك ما وصلنا إليه ذلك اليوم. توقف إفينج، بمجرد أن نطق آخر جملة، ليلتقط أنفاسه، وقبل أن يواصل قصته، دخلت مسز هوم وأعلنت عن موعد الغداء. بعد الأشياء المرعبة التى حكاها، اعتقدت أن من الصعب عليه أن يستعيد هدوءه، ويبدو من الصعب أن تؤثر فيه المقاطعة. قال، وهو يشبك يديه معا: "حسنا. وقت الغداء. إننى جائع". كانت قدرته على التحول بسرعة من حالة مزاجية إلى أخرى تذهلنى. قبل لحظات فقط، كان صوته يهتز بالانفعال. ظننت أنه على وشك الانهيار، والآن، فجأة، مفعم بالحماس ومزاجه جيد. قال لى وأنا أنقله بالمقعد المتحرك إلى غرفة الطعام: "نواصل يا فتى. كانت هذه البداية فقط، ما قد تسميه التصدير. انتظرْ حتى أسخن. لم تسمع أى شىء بعد".

بمجرد جلوسنا إلى المائدة، لم يأت على ذكر للنعى. جرى الغداء كالمعتاد، بما يرافقه عادة من التهام وغضب، لا أكثر أو أقل من أى يوم آخر. وكأن إفينج نسى أنه قضى الساعات الثلاث السابقة يفرغ أمعاءه علىَّ فى الغرفة الأخرى. جرى بيننا الحديث القصير المعتاد، وقرب انتهاء الوجبة مضينا إلى الأخبار القصيرة عن الطقس اليومى فى الاستعداد لنزهة العصر. وهكذا جرت الأمور فى الأسابيع الثلاثة أو الأربعة التالية. فى الصباح، نواصل العمل فى النعى؛ فى العصر نخرج للتمشية. ملأت أكثر من دستة كراسات بقصص إفينج، عموما حوالى عشرين صفحة جديدة أو ثلاثين يوميًا. كان علىَّ أن أكتب بسرعة هائلة لأجاريه، وأحيانا تكون كتابتى مقروءة بالكاد. فى لحظة سألته إن كان من الممكن أن نسجل على شريط كاسيت، لكن إفينج رفض. قال: لا كهرباء، لا آلات. "أكره صخب هذه الأشياء الجهنمية. طنين وأزيز، تمرضك. الصوت الوحيد الذى أريد سماعه صوت قلمك يتحرك على الورق". شرحت له أننى لست سكرتيرًا محترفًا. قلت: "لا أعرف الاختزال، وليس من السهل دائمًا أن أقرأ ما كتبت". قال: "سأعطيك آلة بافيل. إنها أداة قديمة وجميلة، اشتريتها له حين عدنا إلى أمريكا سنة تسع وثلاثين. أندروود. ما عادوا يصنعونها. لابد أنها تزن ثلاثة أطنان

ونصف". فى تلك الليلة نفسها، أخرجتها من خزانة فى غرفتى ووضعتها على طاولة صغيرة. وبعد ذلك كنت أقضى عدة ساعات كل مساء فى نسخ الصفحات التى كتبتها فى جلسات الصباح. كان عملا مملا، لكن كلمات إفينج كانت لا تزال طازجة فى ذهنى، ولم أفقد الكثير منها.

قال إنه تخلى عن الأمل بعد موت بيرن. قام بمحاولة فاترة للخروج من الوادى، لكنه تاه بسرعة فى متاهة من المعوقات: منحدرات، ممرات ضيقة، هضاب يستحيل تسلقها. انهار حصانه فى اليوم الثانى، لكن دون حطب الوقود كان اللحم المذبوح بلا فائدة تقريبا. كانت الميرمية لا تشتعل. كانت تدخن وتطقطق ولا تنتج نارا. ليتغلب إفينج على جوعه، قطع شرائح رقيقة من اللحم من الجثة وحرقها بالكبريت. كانت كافية لوجبة، لكن بعد انتهاء الكبريت، ترك الحيوان خلفه، غير راغب فى تناول اللحم دون طهيه. اقتنع إفينج أن حياته انتهت. واصل التخبط بين الصخور، على آخر حمار بقى على قيد الحياة، لكن مع كل خطوة يخطوها، تعذبه فكرة أنه يبتعد أكثر وأكثر عن النجاة. كانت إمداداته الفنية لا تزال سليمة، ولديه من الطعام والشراب ما يكفيه يومين آخرين. لا يهم. حتى إذا تمكن من أن يحيا، كان يدرك أن كل شىء تلاشى بالنسبة له. كان موت بيرن السبب، لم تكن هناك وسيلة يمكن أن يعود بها إلى البيت. قد يكون العار أكبر من أن يحتمله: الأسئلة، الاتهامات، ضياع الكرامة. الأفضل أن يعتقدوا أنه مات، أيضاً، ليظل محتفظا بسمعته على الأقل، ولا يعرف أحد كم ضعفه واستهتاره. حينها طُمِس جوليان بربر: هناك فى الصحراء، حاصرته الصخور وتقرحات الضوء، واختفى ببساطة. حينها لم يبد له قرارا فظيعا بهذا الشكل. لاشك فى أنه كان فى طريقه للموت، وحتى لو لم يمت، الأفضل أن يكون ميتا على أى حال. لا ينبغى لأحد أن يعرف شيئًا عما حدث له.

أخبرنى إفينج بأنه جن، لكننى لم أتأكد من المعنى الدقيق الذى يقصده بهذه الكلمة. قال إنه، بعد موت بيرن، أخذ يصرخ ثلاثة أيام باستمرار، ملطخا وجهه بالدماء التى سالت من يديه– وقد جرحتهما الصخور– لكن نظرا للظروف لم أعتبر هذا السلوك

شاذا. صرخت أثناء العاصفة فى السنترال بارك، وموقفى أقل يأسا من موقفه. حين يشعر رجل بأنه اقترب من نهايته، من الطبيعى تماما أن يشعر برغبة فى الصراخ. ينتفخ الهواء فى رئتيه، ولا يستطيع التنفس إلا إذا دفعه إلى خارجه، إلا إذا دفعه بكل قوته. ودون ذلك يبقى نفسه مكتوما، وتخنقه السماء نفسها.

فى صباح اليوم الرابع، وقد نفد منه الطعام وكان كل ما معه أقل من كوب ماء، شهد إفينج ما بدا أنه كهف على قمة منحدر قريب. اعتبره مكانًا جيداً للموت. كان بعيداً عن الشمس ولا يمكن للنسور أن تصل إليه، مختبئا بشكل يجعل من المستحيل أن يعثر عليه أحد. مستجمعًا شجاعته بدأ الرحلة الشاقة إلى أعلى. استغرق الوصول منه إلى هناك ساعتين تقريبا، وحين وصل، نفدت قوته وكان يقف بالكاد. الكهف أكبر بكثير مما بدا من أسفل، واندهش إفينج حين اكتشف أنه ليس عليه أن ينحنى ليدخله. أبعد الفروع والأغصان التى تغلق الفتحة ودخل. عكس كل توقعاته، لم يكن الكهف خاليا. يمتد لأكثر من عشرين قدما داخل المنحدر، ويحتوى على عدة قطع من الأثاث: طاولة، أربعة مقاعد، خزانة، موقد منتفخ متداع. كان منزلا كاملا تقريبا. بدا أن الأشياء معتنى بها جيداً، وكل ما فى الغرفة مرتب بدقة، موضوع بشكل مريح بنوع من النظام المنزلى تقريبا. أشعل إفينج الشمعة التى على الطاولة وأخذها معه إلى خلفية الغرفة، مستكشفا الأركان المظلمة التى لا يخترقها نور الشمس. بجوار الجدار الأيسر وجد سريرا، وكان فى السرير رجل. افترض إفينج أن الرجل نائم، لكن حين نظف حنجرته ليعلن عن وجوده لم يجد استجابة، انحنى ووضع الشمعة أمام وجه الغريب. عرف أنه ميت. لم يكن ميتا بالضبط بل قتيلا. مكان العين اليمنى للرجل، ثقب كبيرة لطلق نارى. وكانت العين اليسرى تحدق بلا معنى إلى الظلام، والوسادة تحت الرأس ملطخة بالدماء.

مبتعداً عن الجثة عاد إفينج إلى الخزانة ووجدها مملوءة بالطعام. بضائع معلبة، لحوم مملحة، دقيق وأدوات طهى، كان هناك مخزون على الأرفف يكفى شخصًا لمدة سنة. أعد بسرعة وجبة لنفسه، وتناول نصف رغيف وعلبتين من الفول. بمجرد أن سد

جوعه، بدأ يتخلص من جسد الرجل الميت. وضع خطة بالفعل؛ كانت المسألة ببساطة أن ينفذها. لابد أن الميت كان ناسكا، وبرر إفينج، يعيش وحده على هذا النحو فى الجبال، وإذا كان الحال كذلك، ليس هناك أناس كثيرون يعلمون بوجوده هنا. من كل ما عرفه (اللحم لم يتحلل، غياب أى رائحة شديدة، الخبز لم يفسد)، لابد أن القتل حديث جدا، ربما منذ بضع ساعات- مما يعنى أن الوحيد الذى يعرف أن الناسك ميت هو القاتل. اعتقد إفينج أنه ليس هناك ما يمنعه من أخذ مكان الناسك. إنهما فى العمر نفسه تقريبا، وبالحجم نفسه تقريبا، وشعر كل منهما بنى فاتح. لم يكن من الصعب جدا أن يربى لحية ويرتدى ثياب الميت. عليه أن يأخذ حياة الناسك ويعيش وكأنه هو، متصرفًا وكأن روح هذا الرجل انتقلت إليه. إذا جاء أحد لزيارته هنا، عليه ببساطة أن يتظاهر بأنه شخص آخر، ويرى إن كان يستطيع أن يفلت بفعلته. كان معه بندقية للحماية الشخصية إذا حدثت مشكلة، لكنه اكتشف أن الاحتمالات فى صالحه فى كل الأحوال، حيث إنه من غير المحتمل أن يكون لناسك زوار كثيرون.

بعد خلع ملابس الغريب، جر الجسد خارج الكهف وأخذه إلى الجانب الخلفى من المنحدر. وهناك اكتشف أغرب شىء على الإطلاق: واحة صغيرة تحت مستوى الكهف بثلاثين قدما أو أربعين، منطقة مورقة بها شجرتان شاهقتان من الحور القطنى[١] وجدول متدفق، وعدد لا يحصى من الشجيرات لم يكن على دراية بأسمائها. كان جيبا صغيرا من الحياة وسط قفر طاغ. وهو يدفن الناسك فى الأرض الطرية بجوار الجدول، أدرك أن كل شىء ممكن فى هذا المكان. لديه طعام وماء؛ لديه منزل؛ وجد هوية جديدة لنفسه، حياة جديدة وغير متوقعة تماما. كان الانقلاب أكثر بكثير من أن يستوعبه. قبل ساعة فقط، كان مستعدا للموت. وصار يهتز طربا، عاجزا عن التوقف عن الضحك وهو يملأ جاروفا من التراب بعد آخر ويهيله على وجه الميت.

---

١ - الحور القطنى cottonwood: نوع من شجر الحور ينمو فى أمريكا الشمالية وينتج بذورا بألياف ناعمة بيضاء تشبه القطن.

مضت شهور. في البداية ذهل إفينج بحظه الطيب بدرجة جعلته لا يلتفت كثيرا إلى الأشياء من حوله. كان يأكل وينام، وحين لا تكون الشمس حامية جدا، يجلس على الصخور خارج الكهف ويشاهد السحالى الزاهية متعددة الألوان التى تتنقل قرب قدميه. كان المشهد من المنحدر هائلا، يطوق أميالا لا تحصى من الأراضى، لكنه لم يكن ينظر إليه كثيرا، واختار أن يحصر تفكيره فى المنطقة المجاورة مباشرة: رحلاته إلى الجدول بدلو المياه، جمع حطب الوقود، داخل الكهف. امتلأ بهذا المشهد الجميل، وصار مقتنعا بتجاهله. ثم، فجأة تماما، هجره هذا الإحساس بالهدوء، ودخل فترة من وحدة لا تحتمل غالبا. ابتلعه هلع الشهور الماضية، وعلى مدى الأسبوع التالى أو الأسبوعين التاليين اقترب بشكل خطير من قتل نفسه. ماج ذهنه بالضلالات والمخاوف، وتخيل أكثر من مرة أنه ميت بالفعل، وأنه مات فى لحظة دخول الكهف وأنه سجين شبح فى العالم الآخر. ذات يوم فى نوبة جنون، أخذ بندقية الناسك وأطلق النار على حماره، معتقدا أنه تحول إلى الناسك نفسه، شبح لعقاب إلهى عاد ليصطاده بنهيقه الماكر. كان الحمار يعرف حقيقته، ولم يكن أمامه إلا أن يستبعد هذا الشاهد على احتياله. بعد ذلك، انشغل جدا بالكشف عن هوية الرجل الميت، ينقب بنظام داخل الكهف بحثًا عن مؤشرات، يبحث عن مذكرات، مجموعة رسائل، ورقة بيضاء فى آخر كتاب أو أوله، أى شىء يكشف عن اسم الناسك. لكن لم يتبين شىء، لم يجد قط أى معلومة.

بعد أسبوعين، بدأ يعود ببطء إلى طبيعته، مستقراً فى النهاية فى حالة تشبه السلام مع النفس. وقال لنفسه إن هذا لا يمكن أن يستمر إلى الأبد، وكانت تلك الفكرة وحدها مريحة، فكرة منحته الشجاعة ليواصل. فى لحظة ما، ينتهى الطعام، ويكون عليه الذهاب إلى مكان آخر. أعطى لنفسه عاما بالتقريب، وأكثر من ذلك بقليل إذا توخى الحرص. حينها يكون الناس قد تخلوا عن الأمل فى أن يعود هو وبيرن. كان يشك فى أن يرسل سكورسبى خطابه بالبريد، لكن حتى إذا أرسله، لن تختلف النتائج. يمكن إرسال فريق للبحث، تموله إليزابيث ووالد بيرن. يتجول فى الصحراء عدة أسابيع، يبحث بجهد عن الرجلين المفقودين- لا بد أن تكون هناك جائزة معروضة أيضًا- لكنه

لن يجد شيئا. أقصى ما يمكن، ربما يكتشفون قبر بيرن، لكن ذلك ليس احتمالا كبيرا. حتى إذا اكتشفه، فإن ذلك لن يقرب الفريق منه. رحل جوليان بربر، ولن يتتبعه أحد قط. إنها مسألة صمود حتى يكفوا عن البحث عنه. قد ينشر النعى فى صحف نيويورك، ويقام حفل تأبين وينتهى الأمر. بمجرد حدوث ذلك، يمكن أن يذهب إلى حيث يشاء؛ يمكن أن يصبح من يشاء.

ويبقى أنه كان يعرف أن الاندفاع ليس فى صالحه. كلما اختبأ فترة أطول يكون الرحيل فى النهاية أكثر أمنًا. بدأ ينظم حياته بأكثر الطرق الممكنة صرامة، ويفعل أقصى ما يستطيع ليطيل الوقت الذى يمكن أن يقضيه هناك: يقتصر على وجبة واحدة يوميًا، يجمع كميات كبيرة من حطب الوقود استعداداً للشتاء، يحافظ على لياقة جسمه. يضع خططا وجداول لنفسه، وكل ليلة قبل أن ينام يدون تعليقات تفصيلية عن الموارد التى استخدمها أثناء اليوم، دافعًا نفسه للحفاظ على أقصى حدود الصرامة. فى البداية، وجد صعوبة فى تحقيق الأهداف التى وضعها، كان يستسلم غالبا لإغواء تناول شريحة أخرى من الخبز أو طبق آخر من الطعام المحفوظ، لكن المجهود فى ذاته بدا جديراً بالبذل، وساعد على إبقائه مستيقظًا. كانت طريقة لاختبار نفسه ضد الضعف، ومع اقتراب الفعلى والنموذجى تدريجيا، لم يستطع التوقف عن اعتبار الأمر انتصاراً شخصيًا. كان يعرف أنها مجرد مباراة، لكن لعبها يتطلب إخلاصا شديدا، وأن هذا التركيز القوى جداً يجعله يتجنب الانزلاق إلى القنوط.

بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من هذه الحياة الجديدة الصارمة، بدأ يشعر برغبة شديدة فى الرسم مرة أخرى. ذات ليلة، وهو يجلس والقلم الرصاص فى يده يكتب التقرير اليومى عن أنشطته، بدأ فجأة يخطط لوحة صغيرة لجبل على الصفحة المقابلة. وحتى قبل أن يدرك ما يفعله، انتهى الرسم التخطيطى. لم يستغرق الأمر أكثر من نصف دقيقة، لكن فى هذه الإيماءة اللاشعورية المفاجئة، وجد قوة لم توجد قط فى أى من أعماله السابقة. فى تلك الليلة نفسها، فك إمداداته الفنية، ومن تلك اللحظة حتى انتهاء ألوانه واصل الرسم، يغادر الكهف كل صباح عند الفجر ويقضى النهار كله

خارجه. استمر شهرين ونصف، وفى ذلك الوقت تمكن من إنهاء أربعين لوحة تقريبًا. أخبرنى بأنها، دون شك، كانت أسعد فترة فى حياته.

كان يعمل تحت متطلبات التقييد المزدوج، وأدى كل منهما إلى مساعدته بطريقة مختلفة. أولا، حقيقة أنه ليس هناك من سيرى هذه اللوحات. كان استنتاجًا سابقًا، لكن بدل أن يعذب إفينج بإحساس بالعبث، بدا أنه يحرره حقاً. إنه يعمل لنفسه، لم يعد مثقلا بتهديد آراء الآخرين، وكان ذلك وحده كافيا لإحداث تغير جوهرى فى مقاربته لفنه. للمرة الأولى فى حياته، كف عن القلق بشأن النتائج، ونتيجة لذلك فقد فجأة مصطلحا "النجاح" و"الفشل" المعنى بالنسبة له. واكتشف أن الهدف الحقيقى للفن ليس إبداع أعمال جميلة. إنه وسيلة للفهم، وسيلة لاختراق العالم والعثور على مكان فيه، وبصرف النظر عن الخصائص الجمالية ربما يكون لكل لوحة تقريبا ناتجًا ثانويًا عرَضيا للجهد الذى ينهمك فيه المرء فى هذا الكفاح، ليقتحم سمك الأشياء. تناسى القواعد التى تعلمها، واثقا فى المشهد الطبيعى باعتباره رفيقا مساويا، متخليا طوعا عن عزمه على انتهاز الفرصة: التلقائية، واندفاع السمات الوحشية. لم يعد يخشى الخلاء من حوله. عملية وضعه فى اللوحات أضفت عليه صفة ذاتية بالنسبة له، وصار قادرا على الشعور باختلافه باعتباره شيئا ينتمى له، بالضبط كما ينتمى هو نفسه إلى القوة الصامتة لهذا الفضاء الهائل. قال إنه رسم لوحات فجة، ممتلئة بألوان عنيفة وتدفق غريب وغير متعمد للطاقة، انطلاق للأشكال والضوء. لم يعرف إن كانت بشعة أو جميلة، لكن ربما كان ذلك أمرًا ثانويا. كانت لوحاته، ولم تكن تشبه أي لوحات أخرى رآها من قبل. قال إنه بعد خمسين سنة لا يزال يستطيع أن يتذكرها كلها.

كان القيد الثانى أكثر رقة، لكنه مع ذلك أثر عليه تأثيرا أقوى: فى النهاية، تنتهى المواد التى معه. لم يعد هناك إلا بعض أنابيب الألوان وبعض القماش، وطالما يواصل العمل تقترب من الانتهاء. فى اللحظة نفسها تكون النهاية على مرمى البصر بالفعل. حتى وهو يرسم صوره، بدا وكأنه يشعر بالمشهد الطبيعى يتلاشى أمام عينيه. وقد أعطى هذا حدة خاصة لكل ما فعله فى تلك الشهور. كلما أكمل لوحة، تتقلص أبعاد المستقبل بالنسبة له، تقربه باستمرار من لحظة لا يكون فيها مستقبل على الإطلاق. بعد

شهر ونصف من العمل المتواصل، وصل فى النهاية إلى اللوحة الأخيرة. وكان لا يزال هناك أكثر من نصف دستة من أنابيب الألوان. كان من النادر أن يبطئ، قلب إفينج الصور وبدأ سلسلة جديدة على ظهور اللوحات. قال إنه كان إرجاء رائعا، وعلى مدى الأسابيع الثلاثة التالية شعر وكأنه ولد من جديد. كان يعمل فى هذه السلسلة الثانية من المشاهد الطبيعية بكثافة أعظم من الأولى، وحين تمت تغطية ظهور كل اللوحات، بدأ يرسم على الأثاث داخل الكهف، يضرب بفرشاته بشكل مجنون على الخزانة، والطاولة، والمقاعد الخشبية، وحين تمت تغطية كل هذه الأسطح أيضًا، عصَرَ آخر أجزاء من الألوان من الأنابيب المنتهية وبدأ يعمل على الجدار الجنوبى، راسما خطوطا عامة للوحة شاملة للكهف. قال إفينج إنها تحفته الفنية، لكن الألوان انتهت قبل أن ينتهى منها.

ثم حل الشتاء. كان لا يزال لديه عدة كراسات وعلبة أقلام رصاص، لكن بدلا من التحول من الرسم بالألوان إلى الرسم بالقلم، قبع فى شهور البرد وقضى الوقت فى الكتابة. فى إحدى الكراسات سجل أفكاره وملاحظاته، محاولا أن يفعل بالكلمات ما فعله من قبل بالصور، وفى كراسة أخرى واصل تسجيل روتينه اليومى، مواصلا قصا دقيقا لنفقاته: تناول كمية أكبر من الطعام، مقدار الطعام المتبقى، عدد الشموع المحترقة، عدد الشموع السليمة. فى يناير، هطلت الثلوج يوميا لمدة أسبوع، واستمتع برؤية البياض يسقط على الصخور الحمراء، ويغير المشهد الطبيعى الذى صار أليفا جداً. فى العصر، تشرق الشمس وتذيب الثلوج فى بقع غير منتظمة، مبدعة تأثيرا جميلا منقطا، وحين تعطف الرياح، تدفع القطع البيضاء المغبرة إلى الهواء، وتجعلها تلتف فى رقصات قصيرة عاصفة. كان إفينج يقف ويشاهد هذه الأشياء لساعات حتى النهاية، ولم يبد أنه يمل منها قط. ركدت حياته حتى صارت أصغر التغيرات مرئية بالنسبة له. بعد نفاد الألوان، دخل مرحلة مؤلمة من الانعزال، لكنه وجد أن الكتابة يمكن أن تكون بديلا ملائمًا لرسم الصور. لكنه، بحلول منتصف فبراير، ملأ كل الكراريس، ولم تتبق أى صفحة لمزيد من الكتابة. على عكس ما توقع، لم يثبط هذا من روحه المعنوية. غاص بعمق شديد فى عزلته حتى إنه لم يعد فى حاجة إلى أى تشتيت. وجد أن تصور الأمر مستحيل، لكن العالم صار تدريجيا كافيا له.

فى أواخر مارس، جاءه أخيرا أول زائر. كما شاء الحظ، كان إفينج يجلس على سطح الكهف حين ظهر الغريب عند سفح المنحدر، مما جعله يتتبع تقدم الرجل أعلى الصخور، يراقب ما يقرب من ساعة والشخص الضئيل يتسلق الطريق باتجاهه. حين وصل الرجل إلى القمة، كان إفينج ينتظره والبندقية فى يديه. لعب هذا المشهد لنفسه مائة مرة قبل ذلك، وذهل حين اكتشف مدى فزعه. لم يستغرق الأمر أكثر من ثلاثين ثانية لينجلى الموقف: إن كان الرجل يعرف الناسك أو لا يعرفه، وإذا كان يعرفه، إن كان القناع يمكن أن يخدعه فيظن أن إفينج هو الشخص الذى يتظاهر بأنه هو. وإذا كان الرجل قاتل الناسك، فإن مسألة القناع تكون بلا أهمية. وأيضا إذا كان عضوا فى فريق بحث، فإن روحًا أخيرة داهمها الليل لا تزال تحلم بالجائزة. استقر كل شىء فى بضع لحظات، لكن حتى استقر، لم يكن أمام إفينج سوى أن يتوقع الأسوأ. أدرك أنه على قمة كل ذنوبه الأخرى، كانت هناك فرصة جيدة لأن يصبح قاتلا.

أول ما لاحظه فى الرجل أنه ضخم، ولاحظ بعد ذلك على الفور مدى غرابة ثيابه. يبدو أن ملابس الرجل جمعت من مجموعة عشوائية من الرقع- مربع من مادة حمراء زاهية هنا، ومستطيل من مربعات زرقاء وبيضاء هناك، قطعة من الصوف فى هنا، وقطعة من القطن هناك- وبدا فى هذه الملابس مثل بهلوان غريب، وكأنه خرج للتو من سيرك جوال. بدلا من القبعة الغربية ذات الحافة العريضة، كان يعتمر قبعة دربى منقطة بريش أبيض يبرز من طوقها. شعره الأسود الناعم يتدلى على كتفيه. وهو يقترب، رأى إيفنج أن الجانب الأيسر من وجهه مشوه، ومغضن بندبة عريضة ملتوية تمتد من وجنته إلى شفته السفلى. تأكد إفينج من أن الرجل هندى، لكن كان من الصعب فى تلك اللحظة أن يعرف من هو. كان شبحًا، مهرجًا فى كابوس تجسد من بين الصخور. نخر الرجل من الإنهاك وهو يصعد إلى قمة النتوء، ثم وقف وابتسم لإفينج. كان على بعد عشرة أقدام أو اثنى عشر قدما. رفع إفينج بندقيته وصوبها إليه، لكن بدا على الرجل الارتباك أكثر مما بدا عليه الخوف.

قال: متحدثا ببطء يتسم بالحماقة: "هاى توم. ألا تتذكرنى؟ أنا صديقك القديم، جورج. لا تلعب هذه الحيل معى".

تردد إفـينج لحظة، ثم أنزل البندقـيـة، وهو لا يزال يضع إصـبـعـه على الزناد احتراسا. "جورج"، همهم، متحدثا بصوت غير مسموع تقريبا حتى لا يفضحه صوته.

قـال الرجل الضـخم: "لم أخـرج طوال الشـتـاء، لذا لـم أسـتطع أن آتى لرؤيتك". واصل السير باتجاه إفينج ولم يتوقف حتى اقترب بدرجة تجعله يصافحه. نقل إفينج البندقية إلى يده اليسرى ومد يده اليمنى ترحيبا. نظر الهند إلى عينيه متفحصا لحظة، لكن الخطر انتهى فجأة. قال: "تبدو فى حالة جيدة. جيدة حقا".

قال إفينج: "شكرا، تبدو فى حالة جيدة أيضًا".

انفجر الرجل الضـخم ضـاحكًا، وسيطر عليه نوع من البـهجة الحمقـاء، ومن تلك اللحظة عرف إفينج أن أمره لن يكتشف. بدا وكأنه سمع أجمل نكات القرن، ولم يكن من الصعب مواصلة الخدعة إذا كان هذا القدر الضئيل يمكن أن ينتج قدراً كبيراً جدا. كان أمـرا مـذهـلا حقًا، كيف مضى كل شىء بهذه السلاسـة. كان الشـبـه بين إفـينج والناسك قريبا فقط، لكن بدا أن قوة الإيحاء قوية بما يكفى لتحويل الدليل الجسدى إلى شىء آخر. جاء الهندى إلى الكهف متوقِّعًا أن يجد الناسك توم، ولأنه من غير المعقول أن يكون الرجل الذى رد حين سمع اسم توم شـخـصًـا آخر غير توم الذى يبـحث عنه، عدَّل الحقائق بسرعة لتتوافق مع توقعاته، مبررا الاختلافات بين الاثنين اللذين يحملان اسم توم باعتبـارها من أخطاء ذاكرته. لم يكن ضـار بالطبع أن يكون الرجل سـاذجًا. ربما كان يعرف طوال الوقت أن إفينج ليس توم الحقيقى. تسلق الصـخـور ليصل إلى الكهف بحثـا عن رفقـة لبضع سـاعـات، وحيث إنه حصل على ما سعى إليه، لم يكن ليتساءل عمن قدمها له. فى النهاية، ربما لم يبالِ تماما إن كان هو توم الحقيقى أم لا.

قضيا العصر معًا، جالسين فى الكهف يدخنان سجائر. أحضر جورج معه علبة تبغ، هديته المعتادة للناسك، ودخن إفينج واحدة بعد الأخرى منتشيا. وجد من الغريب أن يكون مع شـخص بعد شـهـور طويلة من العزلة، وخلال السـاعة الأولى أو نحو ذلك وجد مشكلة فى إخراج كلمة من فمه. فقد عادة الكلام، ولم يعد لسانه يعمل كما كان ذات يوم. بدا له ثعبانًا أخرق، مندفعًا كالسوط، لم يعد يطيع أوامره. كان من الواضح

أن جورج مستمتع إلى أقصى حد، وبعد كل ثلاث جمل أو أربعة، يلقى برأسه إلى الخلف ويضحك. وكلما ضحك يضيع منه سياق الكلام ويبدأ فى موضوع آخر، مما يجعل من الصعب على إفينج أن يتتبع ما يقول. تتحول فجأة قصة عن مقاطعة النافاهو[1] إلى قصة عن سكير يتشاجر فى صالون، وقد تتحول إلى حكاية مثيرة عن سرقة فى قطار. من كل ما يمكن لإفينج أن يعرفه أن صحبته جرت مع شخص اسمه جورج بشع الفم. هذا ما كان يناديه به الناس، على أي حال، لكن بدا أن الرجل الضخم لا يبالى. على العكس، أعطى انطباعا بأنه سعيد لأن العالم منحه اسماً يخصه وحده ولا يخص أحداً آخر، كما لو كان شارة للتمييز. لم يقابل إفينج أحداً يجمع بين مثل هذه الخفة والبلاهة، وبذل أقصى ما يستطيع ليستمع إليه باهتمام، ليومئ برأسه فى كل المواضع المناسبة، مرة أو اثنتين، ود أن يسأل جورج إن كان قد سمع شيئا عن فريق بحث، لكنه تمكن فى كل مرة من مقاومة الاندفاع.

مع اقتراب المساء استطاع إفينج بالتدريج جمع بعض الحقائق عن توم الأصلى. بدأت قصص جورج بشع الفم المشتتة السيئة تلتف حول نفسها بتردد معين، وتتقاطع فى نقط كثيرة لتأخذ شكل بنية قصة أكبر موحدة. تكرار أحداث، إسقاط فقرات حاسمة، أحداث من البداية لا تُقال حتى النهاية، لكن قُدِّم لإفينج ما يكفى ليستنتج أن الناسك تورط فى أنشطة إجرامية من نوع ما مع عصابة من الخارجين على القانون تعرف باسم الإخوة جريشام. ولم يستطع التأكد مما إذا كان الناسك عضوا نشطا أم أنه ترك ببساطة العصابة تستخدم الكهف مخبأ، لكن بطريقة أو أخرى، بدا أنها تفسر عملية القتل التى ارتكبت، ناهيك عن الكميات الكبيرة من الطعام التى وجدت هناك فى اليوم الأول. لم يضغط إفينج على جورج طلبًا للتفاصيل خوفًا من انكشاف جهله، لكن مما قاله الهندى، بدا من المحتمل أن يعود الإخوة جريشام قبل مرور وقت طويل جدا،

---

١ – النافاهو Navaho: من الشعوب الأمريكية الأصلية، يستوطنون مساحة كبيرة فى أريزونا، ونيو مكسيكو، وجنوب شرق يوتا

ربما بانتهاء الربيع. ومع ذلك كان الهندى مشتتا جدا بحيث لم يتذكر مكان العصابة، وظل يندفع من مقعده ليسير حول الغرفة ويتفحص اللوحات، هازا رأسه إعجابا. قال إنه لم يكن يعرف أن توم يستطيع الرسم، مكررا الملاحظة عشرات المرات أثناء العصر. كانت أجمل ما رأى، أجمل ما فى العالم. قال إنه إذا سنحت الفرصة، ربما يعلمه توم الرسم، فنظر إفينج فى عينيه وقال نعم، ربما يعلمه ذات يوم. أسف إفينج لأن أحداً رأى اللوحات، لكنه كان فى الوقت نفسه سعيدا بهذه الاستجابة الحماسية، مدركًا أنها ربما تكون الاستجابة الوحيدة لهذه الأعمال.

بعد زيارة جورج بشع الفم، لم تعد الأمور كما كانت بالنسبة لإفينج. عمل باستمرار آخر سبعة أشهر على أنه وحده، مكافحًا لوضع عزلته فى شىء أساسى، حصن مطلق لترسيخ حدود حياته، لكن بعد زيارة هذا الشخص الذى كان معه فى الكهف، فهم كم كان وضعه زائفا. يعرف الناس أين يعثرون عليه، وقد حدث ذلك، ليس هناك سبب يجعله يعتقد أنه لن يحدث مرة أخرى. ينبغى أن يتوخى الحذر، أن ينتبه دائما للمهاجمين، ومتطلبات هذا الاحتراس تأخذ ضريبتها، تأكله حتى دمرت انسجام عالمه. ولم يكن هناك ما يستطيع القيام به بهذا الشأن. عليه أن يقضى أيامه يراقب وينتظر، عليه أن يستعد لأشياء ستحدث. فى البداية، ظل يتوقع عودة جورج، لكن بمرور الأسابيع وعدم ظهور الرجل الضخم، بدأ يحول انتباهه إلى الإخوة جريشام. كان من المنطقى أن يعتبر الأمر منتهيا عند ذلك، أن يجمع أشياءه ويغادر الكهف إلى الأبد، لكن كان بداخله شىء يقاوم الاستسلام للتهديد بهذه السهولة. كان يعرف أن البقاء جنون، إيماءة بلا معنى بأنه سيقتل بالتأكيد، لكن الكهف كان المكان الوحيد الذى عليه أن يقاتل من أجله، ولا يستطيع أن يهرب منه.

كان المهم ألا يتركهم يقبضون عليه فجأة. لن تكون أمامه فرصة إذا دخلوا عليه وهو نائم، سيقتلونه قبل أن ينهض من السرير. فعلوا ذلك مرة بالفعل، ومن السهل تماما أن يفعلوا ذلك مرة أخرى. ومن ناحية أخرى، إذا أعد نوعًا من التنبيه يمكن أن يحذره حين يقتربون، لن يمنحه ذلك أكثر من بضع لحظات. ربما يكون وقتا كافيا للاستيقاظ وحمل البندقية، لكن إذا جاء الأخوة الثلاثة معا، فسوف تظل الأمور ضده.

يمكن أن يكسب مزيداً من الوقت إذا تحصن داخل الكهف، مغلقًا المدخل بالحجارة والغصون، لكنه يتخلى بذلك عن المزية التي يتمتع بها على مهاجميه: حقيقة أنهم لا يعرفون أنه هناك. بمجرد أن يروا الحواجز، يدركون أن شخصاً ما يعيش في الكهف ويتصرفون طبقا لذلك. قضى إفينج كل ساعات يقظته تقريبا يفكر في هذه المشاكل، متأملا الاستراتيجيات المختلفة المتاحة له، محاولا التوصل إلى خطة لا تكون انتحارا. في النهاية، كف عن النوم في الكهف تماما، واضعا بطاطينه ومخدته على سلسلة التلال في منتصف الطريق من الناحية الأخرى من المنحدر. تحدث جورج بشع الفم عن شغف الإخوة جريشام بالويسكي، وتبين لإفينج أن من الطبيعي تماما بالنسبة لهؤلاء الرجال أن يبدءوا الشرب بمجرد أن يستقروا في الكهف. أصابهم الملل في الصحراء، وإذا وصل بهم الأمر إلى حد السكر، يكون الكحول حليفه الأوفى. بذل أقصى ما في وسعه لإزالة آثاره الواضحة في الكهف؛ خزن لوحاته وكراريسه في الظلام في الخلف وكف عن استخدام الموقد. لم يكن هناك حل للصور المرسومة على الأثاث والجدران، لكن على الأقل إذا لم يكن الموقد دافئا حين يدخلون، ربما يفترض الإخوة جريشام أن الشخص الذي رسم الصور رحل. ليس من المؤكد تمامًا أن يعتقدوا ذلك، لكن إفينج لم ير وسيلة أخرى للخروج من المأزق. كان يحتاج إلى أن يعرفوا أن شخصا آخر كان هنا، لأنه بظهور الكهف وكأنه خال منذ زيارتهم السابقة في الصيف، لن يكون هناك تفسير لحقيقة غياب جسد الناسك. قد يتساءل الأخوة جريشام عن ذلك لكن بمجرد أن يدركوا أن شخصا آخر كان يعيش في الكهف، ربما يتوقفون عن التساؤل. كان ذلك أمل إفينج على الأقل، لم يسمح لنفسه بأن يأمل في الكثير جدا.

قضى شهراً آخر في الجحيم وأخيراً جاءوا. كان منتصف مايو، أكثر من سنة بقليل منذ غادر نيويورك مع بيرن. جاء الإخوة جريشام في الغسق، معلنين عن وجودهم بنوبة صخب تردد صداه بين الصخور: أصوات عالية، ضحك، غناء صاخب. كان أمام إفينج وقت كاف للاستعداد، لكن هذا لم يوقف خروج نبضاته عن السيطرة. على الرغم من التحذيرات التي وجهها لنفسه بالهدوء، أدرك أن عليه وضع نهاية للمسألة في تلك الليلة. لم يكن من الممكن أن يصمد أكثر من ذلك.

قبع على نتوء ضيق خلف الكهف، منتظراً اللحظة المناسبة حين يهبط الظلام من حوله. سمع اقتراب الإخوة جريشام، منصتا لبعض الملاحظات المتناثرة عن أشياء لا يفهمها، ثم سمع أحدهم يقول: "أظن أنه سيكون علينا أن نجدد هواء المكان بعد أن نتخلص من توم العجوز". ضحك الاثنان الآخران، وتوقفت الأصوات بعد ذلك مباشرة. وكان ذلك يعنى أنهم دخلوا الكهف. بعد نصف ساعة، بدأ الدخان ينبعث من الأنبوب الصغير البارز من السقف، ثم بدأ يحدد روائح لحم مطبوخ. خلال الساعتين التاليتين، لم يحدث شىء. استمع إلى الجياد تصهل وتدب بحوافرها على بقعة من الأرض أسفل الكهف، وتدريجيا صار المساء الأزرق القاتم أسود. لم تكن ليلة مقمرة، وكانت السماء متألقة بالنجوم. من حين لآخر يسمع بقية ضحكة مكتومة، لكن كان هذا أقصى شىء. ثم بدأ الأخوة جريشام يخرجون من الكهف بالتتابع ويتبولون واحداً بعد الآخر على الصخور. تمنى إفينج أن يكون معنى ذلك أنهم يلعبون الكوتشينة وقد سكروا، لكن لم يكن التأكد من أى شىء ممكنًا. قرر الانتظار حتى يفرغ آخر واحد مثانته، ثم يمنحهم ساعة أو ساعة ونصفا. حينذاك ربما يكونون نياما، ولن يسمعه أحد يدخل الكهف. وأثناء ذلك، تساءل كيف يستخدم البندقية بيد واحدة. إذا كانت الأضواء مطفأة فى الكهف فسيكون عليه أن يحمل شمعة ليرى أهدافه، ولم يتدرب قط على إطلاق النار بيد واحدة. كانت بندقية من إنتاج وينشستر ينبغى إعدادها من جديد بعد كل طلقة، وكان يفعل ذلك دائما بيده اليسرى. يمكنه أن يمسك الشمعة فى فمه، بالطبع، لكن من الخطر أن يضع النار قرب عينيه، ناهيك عما قد يحدث إذا لمس اللهب لحيته. قرر أن يمسك الشمعة وكأنها سيجار، يثبتها بين السبابة والوسطى فى يده اليسرى، على أمل أن تتمكن الأصابع الأخرى من القبض على الماسورة فى الوقت ذاته. إذا ضغط عقب البندقية على بطنه بدلا من كتفه، ربما يستطيع إعدادها من جديد بسرعة كافية بيده اليمنى بعد سحب الزناد. مرة أخرى، لم يكن متأكدا من أى شىء. كانت هذه الحسابات اليائسة فى الدقيقة الأخيرة، وهو ينتظر فى الظلام، لعن نفسه على الإهمال، متأملا عمق بلاهته.

ومع ذلك لم يكن النور مشكلة. حين زحف من مخبئه إلى أمام الكهف، اكتشف أن الشمعة لا تزال مشتعلة فى الداخل. توقف عند جانب المدخل وحبس أنفاسه، منصتا للأصوات، مستعدا للاندفاع عائدا إلى نتوئه إذا لم يكن الإخوة جريشام نيامًا. بعد بضع لحظات سمع ما يبدو أنه شخير، لكن تلت ذلك مباشرة عدة أصوات يبدو أنها قادمة من قرب المائدة: تنهدٌ، صمتٌ، ثم ضربة خفيفة، وكأن زجاجة توضع على سطح الطاولة. اعتقد أن أحدهم على الأقل لا يزال مستيقظًا، لكن كيف يتأكد من أنه واحد فقط؟ ثم سمع تفنيط الكوتشينة، صوت سبع ضربات قصيرة على الطاولة، ثم توقف قصير. ثم ست ضربات وتوقف آخر. ثم خمس ضربات. ثم أربعة ثم ثلاث ثم اثنتان ثم واحدة. اعتقد إفينج أنها سوليتير، سوليتير دون أدنى شك. كان أحدهم جالسًا والآخران نائمين. ينبغى أن يكون الوضع كذلك، أو أن لاعب الكوتشينة يتحدث إلى أحد الآخرين. لكنه لا يتحدث، وهذا يعنى أنه ليس هناك من يتحدث إليه.

وضع إفينج البندقية فى وضع التصويب وأسرع إلى مدخل الكهف. واكتشف أنه ليس من الصعب أن يمسك الشمعة فى يده اليسرى؛ كان فزعه بلا مبرر. هز الرجل الجالس إلى الطاولة رأسه بشدة حين ظهر إفينج، ثم حدق فى هلع، وهمس الرجل: "يسوع المسيح. يفترض أنك ميت".

رد إفينج: "أخشى أن تكون مخطئًا. أنت الميت لا أنا".

سحب الزناد وبعد لحظة طار الرجل إلى الخلف فى مقعده، صارخًا والرصاصة تصيب صدره، ثم، فجأة، لم يصدر عنه أى صوت. جهز إفينج البندقية وصوبها إلى الأخ الثانى، الذى كان يحاول أن يقفز بسرعة من فراشه على الأرض. قتله إفينج بطلقة أيضًا، وأصابه فى الوجه برصاصة مزقت مؤخرة رأسه، وحملتها عبر الغرفة فى فوضى متدفقة من أجزاء المخ والعظام. لكن الأمور لم تكن بمثل هذه السهولة مع الأخ الثالث. كان نائما على السرير فى نهاية الكهف، وحين انتهى إفينج من الاثنين، شد الثالث بندقيته واستعد لتصويبها. مرت رصاصة بجوار رأس إفينج وارتدت من الموقد الحديدى خلفه. جهز بندقيته وقفز للاحتماء خلف الطاولة إلى يساره، مطفئًا الشمعتين

بالصدفة أثناء ذلك. صار الكهف معتمًا تماما، وبدأ الرجل الذى فى نهايته يبكى بشكل هستيرى، متحدثًا وهو ينتحب بكلام لا معنى له عن الناسك الميت ومطلقا نيران البندقية بوحشية باتجاه إفينج. كان إفينج يحفظ تعرجات الكهف عن ظهر قلب، وحتى فى الظلام يستطيع أن يحدد مكان الرجل بالضبط. عد ست طلقات، مدركا أن الأخ الثالث المهتاج سيجد من المستحيل أن يعمِّر بندقيته دون ضوء، ثم وقف وسار باتجاه السرير. سحب زناد البندقية، وسمع الرجل يصرخ والطلقة تدخل جسده، ثم جهز بندقيته وأطلق النار مرة أخرى. ساد الصمت فى الكهف. تنفس إفينج رائحة البارود التى انتشرت فى الهواء، وفجأة شعر بجسمه يرتجف. اتجه للخارج بأقصى ما يستطيع وسقط على ركبتيه، وارتمى على الأرض فجأة.

نام عند مدخل الكهف مباشرة. حين استيقظ فى صباح اليوم التالى، بدأ على الفور يتخلص من الجثث. اندهش حين اكتشف أنه لم يشعر بأى تأنيب، وأنه يستطيع النظر إلى الرجال الذين قتلهم دون شعور بوخز الضمير. سحبهم من الغرفة واحدا بعد الآخر إلى أسفل الجانب الخلفى من المنحدر، ودفنهم بجوار الناسك تحت شجرة الحور القطنى. انتهى من الجثة الأخيرة فى وقت مبكر من بعد الظهيرة. منهكا من المجهود الذى بذله عاد إلى الكهف ليتناول الغداء، وحينذاك، وهو يجلس إلى الطاولة ويصب فى كأس بعضًا من ويسكى الأخوة جريشام، رأى أخراجًا تحت السرير. وكما قال لى إفينج، فى تلك اللحظة بالضبط تغير كل شىء بالنسبة له مرة أخرى، انحرفت فجأة حياته فى اتجاه جديد. كانت هناك ثلاثة أخراج عموما، وبمجرد أن أفرغ محتويات الأول على الطاولة، عرف أن إقامته فى الكهف وصلت إلى نهايتها، بالضبط على هذا النحو، بالسرعة والقوة اللتين يغلق بهما كتاب. كان فى الخرج نقود وكلما أفرغ خرج تنامى كوم النقود. حين عدها فى النهاية، كان النقد وحده أكثر من عشرين ألف دولار. ووسط النقود، وجد عددا من الساعات والأساور والعقود وفى الأخير وجد ثلاث حزم محكمة الربط من السندات ملك حامليها، قيمتها عشرة آلاف دولار أخرى مستثمرة فى أشياء مثل مناجم الفضة فى كولورادو، شركة ويستنجهاوس للأجهزة المنزلية، وشركة فورد للسيارات. قال إفينج إنه مبلغ لا يصدق فى تلك الأيام، ثروة طائلة. إذا أحسن التصرف فى هذه النقود يمكن أن تكفيه بقية حياته.

قال إنه لم تكن هناك أى بادرة بشأن إعادة النقود المسروقة، أي بادرة بشأن الذهاب إلى السلطات وسرد ما حدث. لم يكن الأمر يعود إلى خوفه من اكتشاف أمره وهو يحكى القصة، كان ببساطة يريد النقود لنفسه. كانت هذه الرغبة قوية جدا حتى أنه لم ينشغل بمراجعة ما يفعله. أخذ النقود لأنها كانت هناك، لأنه بمعنى ما شعر أنها ملكه. لم تدخل مسألة الصواب والخطأ فى ذلك قط. قتل ثلاثة رجال بدم بارد، والآن نأى بنفسه عن مثل هذه الاعتبارات. على أى حال، شك فى وجود من يتحسر على فقدان الأخوة جريشام. لقد اختفوا، ولن يمر وقت طويل قبل أن يعرف العالم حقيقة أنهم انتهوا. سوف يعتاد العالم على ذلك، بالضبط كما اعتاد على العيش دون جوليان بربر.

قضى اليوم التالى كله يستعد لمغادرة المكان. عدل الأثاث، وغسل بقع الدم حيثما وجدها، ووضع كراريسه فى الخزانة. ندم لأن عليه أن يودع لوحاته، لكن لم يكن هناك حل آخر، ومن ثم رصها بدقة بجانب السرير باتجاه الحائط. لم يستغرق الأمر أكثر من ساعتين، لكن بقية الصباح وطوال فترة العصر، وقف فى الخارج فى حر الشمس يجمع الحجارة والأغصان ليسد مدخل الكهف. شك فى فرصة أن يعود، لكنه كان يريد أن يبقى المكان مختبئا. كان ذكراه الخاصة، القبر الذى دفن فيه ماضيه، وكلما فكر فيه فى المستقبل، كان يريد أن يعرف إن كان لا يزال هناك، بالضبط كما كان. بتلك الطريقة يبقى ملاذاً نفسيا بالنسبة له، حتى لو لم يضع قدماً فيه مرة أخرى.

نام فى الخلاء فى تلك الليلة، وفى صباح اليوم التالى استعد للرحلة. ملأ الأخراج، جمع الطعام والمياه، ووضع كل شىء على الأحصنة الثلاثة التى خلفها الأخوة جريشام وراءهم. ثم انطلق متخيلا ما قد يفعله بعد ذلك.

استغرق الأمر منا أكثر من أسبوعين للوصول إلى تلك النقطة. جاء الكريسماس منذ وقت طويل ومضى، وبعد أسبوع انتهى العقد. لكن إفينج لم يهتم بتلك المعالم. كان تفكيره مركزا على فترة سابقة، ينقب فى قصته باهتمام لا ينضب، ولم يترك شيئًا، وكان يرجع ليملأ تفاصيل ثانوية، منشغلا بأصغر الأشياء فى جهد لأسر ماضيه.

بمرور الوقت، توقفت عن التساؤل إن كان يحكى لى الحقيقة أم لا. كانت قصته قد اكتسبت خاصية خيالية، وأحيانا حين كان يبدو أنه لا يتذكر الحقائق الظاهرية لحياته بشكل كبير يبتكر أمثولة ليفسر معانيها الباطنية. كهف الناسك، أخراج النقود، إطلاق النار فى الغرب البرى، كانت كلها متكلفة، لكن ربما كانت فظاعة القصة عنصرها الأكثر إقناعًا. لا يبدو ممكنا أن أى شخص يمكن أن يفعل ذلك، وقد حكاها إفينج بشكل جيد، بذلك الإخلاص الملموس، حتى إننى اتفقت معها، رافضا التساؤل عما إذا كانت هذه الأمور حدثت أم لا. استمعْتُ، سجلْتُ ما قال، لم أقاطعه. على الرغم من النفور الذى يثيره فىَّ، لم يكن لى إلا أن أعتبره روحا قريبة. ربما بدأ ذلك حين وصلنا إلى أحداث الكهف. كانت لى ذكرياتى الخاصة عن الحياة فى كهف، وحين وصف الوحدة التى شعر بها، أذهلنى أنه كان يصف بشكل ما شعرت به. كانت قصتى مستحيلة مثل قصة إفينج بالضبط، لكننى كنت أعرف أننى إذا اخترت أن أحكيها له فسوف يصدق كل كلمة أقولها.

بمرور الأيام، صار الجو فى المنزل خانقا أكثر وأكثر. كان الطقس فى الخارج قاسيا جدا- أمطار جليدية، شوارع تغطيها الثلوج، رياح تعصف بك مباشرة- وفى ذلك الوقت كان علينا أن نعلق تمشية العصر. بدأ إفينج يضاعف جلسات النعى، منسحبا إلى غرفته ليغفو غفوة قصيرة بعد الغداء ثم يخرج مندفعا فى الثانية والنصف أو الثالثة، مستعدا لمواصلة الحديث لعدة ساعات أخرى. لا أعرف من أين كان يجد الطاقة ليستمر بهذه السرعة، لكن باستثناء التوقف بين الجمل أطول قليلا من المعتاد، لم يبد قط أن صوته يخذله. بدأت أعيش داخل ذلك الصوت كما لو كان غرفة، غرفة بلا نوافذ تصغر وتصغر مع كل يوم يمر. كان إفينج يضع الشرائط السوداء على عينيه بشكل يكاد يكون دائمًا، ولم تكن هناك فرصة لأخدع نفسى بالتفكير فى وجود بعض الارتباط بيننا. كان وحده مع القصة فى رأسه، وكنت وحدى مع الكلمات التى تتدفق من فمه. ملأت تلك الكلمات كل بوصة من الهواء الذى حولى، وفى النهاية لم يكن هناك شىء آخر أتنفسه. إن لم تكن كيتى، ربما اختنقْتُ. بعد أن ينتهى عملى مع إفينج، أرى

عادة كيتى لعدة ساعات، وأقضى أقصى ما أستطيع من الليل معها. فى أكثر من مناسبة، لم أعد إلا فى الصباح التالى. كانت مسز هوم تعرف، ولم ينطق إفينج بكلمة تدل على معرفته بذهابى وعودتى. المهم فقط أن أظهر على مائدة الإفطار كل صباح فى الثامنة، ولم أفشل قط فى أن أكون هناك فى الوقت المناسب.

قال إفينج إنه بمجرد أن غادر الكهف، سافر عبر الصحراء لعدة أيام قبل أن يصل إلى بلدة "بلف". ومن بعدها صارت الأمور أيسر. اتجه شمالا، متنقلا ببطء من بلدة إلى أخرى، وعاد إلى مدينة "سولت ليك" بحلول نهاية يونيو، واشترى تذكرة قطار إلى سان فرانسيسكو. وفى كاليفورنيا ابتكر اسمه الجديد، وتحول إلى توماس إفينج حين نزل الفندق فى الليلة الأولى. قال إنه أراد توماس للإشارة إلى موران، ولم أدرك أن توم كان أيضا اسم الناسك إلا بعد أن وضعت القلم، الاسم الذى حمله سرا لأكثر من عام. استغل المصادفة واعتبرها فألا طيبا، وكأنها حولت فرصته إلى أمر حتمى. قال إنه بالنسبة للقبه، لا يحتاج إلى تزويدى بتفسير. كان قد أخبرنى بالفعل أن إفينج تورية، وإذا لم أخطئ قراءته بطريقة حاسمة، ما كنت عرفت من أين أتى. فى كتابة كلمة "توماس"، ربما كان يذكر بتعبير "توماس الشكاك"[1] وقد قادت الصيغة إلى صيغة أخرى: "توماس اللعين" ، وتحولت أكثر بالاتفاق إلى "فينج"[2] هكذا كان توماس إفينج، الرجل الذى لعن حياته. ونظرا إلى مذاقه الخاص بالنكات الوحشية، تخيلْتُ مدى سعادته بنفسه.

منذ البداية تقريبًا وأنا أتوقع أن يحكى لى عن ساقيه. توقعت أن تكون صخور يوتا مكانا محتملا لمثل هذه الحوادث، لكن قصته كانت تتقدم يوميا، ولا يذكر ما أقعده.

١- توماس الشكاك: الشخص الذى يشك عادة، وهو إشارة إلى القديس توماس الذى شك فى بعث المسيح حتى برهن عليه.

٢- توماس اللعين، فى الأصل fucking Thomas، ومن ثم تتحول كلمة فكنج إلى فينج f-ing.

الرحلة مع سكورسبي وبيرن، المواجهة مع جورج بشع الفم، تبادل إطلاق النار مع الإخوة جريشام: مر بهذه الأحداث، واحدا واحدا، دون أن يتعرض للأذى. ثم وصل إلى سان فرانسيسكو، وبدأ ينتابني الشك في أن يذكر الأمر. استغرق أكثر من أسبوع يصف ما فعله بالنقود، معددا الاستثمارات التي ساهم فيها، الصفقات المالية التي عقدها، المخاطر المروعة التي أقدم عليها في سوق الأوراق المالية. في خلال تسعة أشهر صار غنيا مرة أخرى، غنيا كما كان من قبل تقريبا: امتلك منزلا على الهضبة الروسية به مجموعة من الخدم، وكانت هناك امرأة كلما رغب في النساء، تنقل بين ألمع حلقات المجتمع. ربما كان يستقر بشكل دائم في هذا النوع من الحياة (وكانت في الحقيقة الحياة نفسها التي عرفها منذ صباه)، باستثناء حادثة حدثت بعد سنة من وصوله. دُعِي لحفل عشاء مع حوالي عشرين ضيفا آخرين، التقى فجأة شخصًا من ماضيه، كان زميلا لوالده في نيويورك لأكثر من عشر سنوات. كان "ألونزو ريدل" عجوزا حينذاك، لكن حين قُدِّم إلى إفينج وصافحه، لم يشك في أنه تعرف عليه. مأخوذا بالمفاجأة، ذهب ريدل إلى حد أنه قال فجأة إن إفينج صورة طبق الأصل من شخص كان يعرفه ذات يوم. قلل إفينج من شأن التطابق، ساخرًا بمرح من أن كل إنسان يفترض أن يكون له قرين في مكان ما، لكن ريدل كان مذهولا بدرجة جعلته لا يفوت الأمر، وبدأ يحكي قصة اختفاء جوليان بربر لإفينج والضيوف الآخرين. كانت لحظة مرعبة لإفينج، وتلوى بقية المساء في حالة فزع، عاجزا عن التخلص من عيني ريدل المليئتين بالتساؤل والارتياب.

بعد ذلك، فهم خطورة موقفه. آجلا أو عاجلا، عليه أن يهرب من شخص آخر من ماضيه، وليس هناك ما يضمن له أن يكون محظوظا كما كان مع ريدل. ربما يكون الشخص التالي أكثر يقينا، أكثر تشبثا باتهاماته، وقبل أن يعرف إفينج، يعصف كل شيء بوجهه. كتدبير احترازي، توقف فجأة عن إقامة الحفلات وقبول الدعوة، وكان يعرف أن هذه الأمور لن تساعده على المدى البعيد. في النهاية، سيلاحظ الناس أنه اعتزلهم، مما قد يثير فضولهم، مما قد يفسح المجال للأقاويل، مما يمكن أن يؤدي إلى مشكلات. كان ذلك في فبراير ١٩١٨ تم توقيع الهدنة للتو، وعرف إفينج أن أيامه في

أمريكا معدودة. على الرغم من اليقين، وجد نفسه عاجزا عن القيام بأى شيء بشأن الموضوع. تراخى، ولم يستطع أن يخطط أو يفكر فى الاحتمالات التى كانت مفتوحة أمامه. وقد غمره الشعور بالذنب، والأشياء الرهيبة التى فعلها فى حياته، انهمك فى خيالات طائشة عن العودة إلى جزيرة لونج بكذبة كبيرة تفسر ما حدث. كانت أمرا مستبعدا، لكنه تمسك بها كحلم بالخلاص، مستحضرا بعناد مخرجًا زائفًا بعد الآخر، ولم يستطع التنفيذ. لعدة شهور، انعزل عن العالم، ينام فى غرفته المظلمة نهارًا ويخرج إلى الحى الصينى ليلا. الحى الصينى دائمًا. لم يرغب قط فى الذهاب إلى هناك، لكن لم تواته الشجاعة قط لعدم الذهاب إلى هناك. ضد إرادته، بدأ يتردد على المواخير وغرز الأفيون وصالات القمار المختبئة فى متاهات الشوارع الضيقة. قال إنه كان يبحث عن السلوان محاولا أن يغرق فى الانحطاط الذى يساوى الاشمئزاز الذى يشعر به تجاه نفسه. صارت لياليه مستنقعا من قعقعة عجلات الروليت والدخان، من النساء الصينيات ذوات الوجوه المليئة بالبثور والأسنان المفقودة، من الغرف المكتومة والغثيان. كانت خسائره باهظة حتى إنه بحلول أغسطس بدد ما يقرب من ثلث ثروته على هذه الملذات. قال إن الأمر كان يمكن أن يستمر إلى النهاية، حتى ينتحر أو يفلس، إذا لم يمسك به المصير ويشطره نصفين. ما حدث لا يمكن أن يكون أكثر عنفا أو فجائية، لكن بالنسبة للبؤس الذى أطلق له العنان، لا يمكن أن ينقذه شيء أقل من كارثة.

قال إيفنج كانت ليلة ممطرة. قضى للتو عدة ساعات فى الحى الصينى وكان يسير عائدا إلى البيت، مترنحا تماما تحت تأثير المخدرات، يعى مكانه بالكاد. كانت الساعة الثالثة أو الرابعة صباحًا، وقد بدأ يتسلق الهضبة العالية التى تؤدى إلى الحى، متوقفا تقريبا عند كل عمود نور ليستند عليه لحظة ويلتقط أنفاسه. فى مكان ما فى بداية المشى فقد مظلته وكان قد تشبع تماما بالمياه حتى الجلد حين وصل إلى الهضبة الأخيرة. ومع تدفق المطر على الرصيف ودماغه عائم فى خدر الأفيون، لم يسمع الغريب القادم من خلفه. فى لحظة كان يمشى مجهدا بطول الشارع، وفى اللحظة التالية بدا وكأن البناية تسقط عليه. لم يعرف ما هذا- مضرب، طوبة، عقب مسدس، يمكن أن

يكون أى شىء. لم يشعر إلا بقوة الضربة، ضربة هائلة فى مؤخرة الجمجمة، ثم سقط، انهار فورا على الرصيف. لابد أنه فقد الوعى لبضع ثوان، لأن الشىء التالى الذى يتذكره أنه فتح عينيه وشعر برشاش من الماء على وجهه. كان منزلقا على الهضبة، ساقطا فى الشارع المنزلق بسرعة لا يستطيع أن يتحكم فيها: الرأس أولا، وعلى بطنه، وذراعاه وساقاه تضرب بشكل عشوائى وهو يحاول الإمساك بشىء ليوقف هبوطه البشع. بصرف النظر عن جدية المحاولة، لم يستطع التوقف، ولم يستطع النهوض، لم يستطع أن يفعل أى شىء سوى أن يتدحرج مثل حشرة جريحة. عند نقطة معينة، لابد أنه ثنى جسمه بطريقة ما بحيث بدأ مساره يهبط به الرصيف بزاوية صغيرة، وفجأة رأى أنه على وشك الاصطدام بالحاجز وطار إلى الشارع. تهيأ للصدمة، لكن بمجرد أن وصل إلى الحافة، لف بثمانين درجة أخرى أو تسعين وذهب مباشرة إلى عمود نور، وارتطم عموده الفقرى فى الحديد بكل قوة. فى اللحظة ذاتها، سمع شيئا يطقطق، ثم شعر بألم لم يشعر به من قبل، ألم غريب جدا وشديد جدا حتى إنه اعتقد أن جسمه انفجر بكل معنى الكلمة.

لم يقدم لى قط التفاصيل الطبية الدقيقة لجرحه. وكان تطور الحالة هو المهم، ولم يمض وقت طويل حتى وصل الأطباء إلى قرار جماعي. ماتت ساقاه، وبصرف النظر عن العلاج الذى يخضع إليه، لن يمشى مرة أخرى أبداً. قال إن من الغريب تماماً أن هذا الخبر جعله يشعر بارتياح. عوقب، وحيث إن العقاب كان رهيبا، لم يعد مضطرا لعقاب نفسه. دفع ثمن جريمته، وفجأة صار نقيا مرة أخرى: لم يعد هناك شعور بالذنب، ولم تعد هناك مخاوف من القبض عليه، ولم يعد هناك فزع. لو كانت طبيعة الحادث مختلفة، ربما لم يترك الأثر نفسه عليه، ولكن لأنه لم ير المعتدى، لأنه لم يفهم فى المقام الأول سبب الاعتداء عليه، لا يستطيع إلا أن يعتبره شكلا من العقاب الكونى. تم تنفيذ أنقى أنواع العدل؛ ضربة قوية مجهولة المصدر نزلت من السماء، وقد سحق، بشكل عشوائى ودون رحمة. لم يكن هناك وقت للدفاع عن نفسه أو للترافع فى قضيته. بدأت المحاكمة قبل أن يعرف، انتهت المحاكمة، وتم تنفيذ الحكم، واختفى القاضى من المحكمة.

استغرق الأمر تسعة أشهر ليشفى (بقدر ما كان يمكن أن يشفى)، ثم بدأ الاستعداد لمغادرة البلاد. باع منزله، حول أصوله إلى حساب سرى فى بنك سويسرى، واشترى جواز سفر مزيف باسم توماس إفينج من رجل نقابى فوضوى. كانت غارات بالمر تسجل أعلى معدلاتها، وتم إعدام الوبليين[1] دون محاكمات، وتوقيف "ساكو" و"فانزيتى"، واختفى معظم أعضاء الجماعات الراديكالية. كان مزور جواز السفر مهاجراً مجريا يعمل فى بدروم تعمه الفوضى فى البعثة الإرسالية، ويتذكر إفينج أنه دفع الكثير مقابل الوثيقة. قال إن الرجل كان على حافة الانهيار العصبى، ولأنه توقع أن يكون إفينج عميلا سريا يمكن أن يقبض عليه وهو يعمل، أجل المهمة عدة أسابيع، مقدِّمًا أعذاراً ملفقة كلما انقضى موعد نهائى. وظل السعر يرتفع أيضا، لكن لأن النقود كانت أقل اهتمامات إفينج فى ذلك الوقت، أنهى فى النهاية الورطة بإخبار الرجل بأنه سيضاعف أعلى سعر طلبه إذا جهز جواز السفر بسرعة فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى. كان الأمر مغريا جدا للمجرى بحيث لا يخاطر- وصل المبلغ إلى أكثر من ثمانمائة دولار- وحين سلمه إفينج المبلغ فى صباح اليوم التالى ولم يقبض عليه، بكى الفوضوى وبشكل هستيرى قبل يد إفينج ممتنا. كانت هذه آخر مواجهة له مع شخص فى أمريكا لمدة عشرين عامًا، ولم تفارقه ذكرى هذا الرجل المحطم قط. اعتقد أن البلاد ذهبت كلها إلى الجحيم وتمكن من توديعها دون أسف.

فى سبتمبر ١٩٢٠، استقل "س. س. ديكارت" وأبحر إلى فرنسا عن طريق قناة بنما. لم يكن هناك سبب محدد للذهاب إلى فرنسا، ولم يكن هناك أيضا سبب لعدم الذهاب. فكر لبعض الوقت فى الانتقال إلى بعض المستعمرات المنعزلة- ربما إلى أمريكا الوسطى، أو إلى جزيرة فى المحيط الهادى- لكن فكرة أن يقضى بقية عمره فى دغل، حتى كملك صغير بين سكان أصليين أبرياء ومخرفين، لم تشحذ مخيلته. لم يكن

١- غارات بالمر Palmer raids: محاولات وزارة العدل الأمريكية فى ١٩١٩ اعتقال اليساريين، وخاصة الفوضويين وترحيلهم. الوبليون Wobblies: اتحاد دولى لعمال الصناعة فى العالم، بلغ عدد أعضائه فى سنة ١٩٢٣ حوالى مائة ألف.

يبحث عن فردوس، كان يبحث عن بلاد لا يشعر فيها بالملل. كانت إنجلترا مستبعدة تماما (كان يرى أن الإنجليز حقراء)، وبينما لم يكن الفرنسيون أفضل بكثير، كان مغرماً بذكرياته عن السنة التي قضاها في باريس وهو شاب. أغرته إيطاليا أيضاً، لكن حقيقة أن اللغة الفرنسية كانت اللغة الأجنبية التي يجيدها رجحت كفة فرنسا. على الأقل يستطيع أن يأكل بشكل جيد هناك ويحتسى أنواعا جيدة من النبيذ. كان صحيحًا أن باريس هى المدينة التي يحتمل أكثر أن يلتقى فيها فنانين من الأصدقاء السابقين من نيويورك، لكن توقع هذه المواجهات لم يعد يفزعه. غير الحادث هذا كله. مات جوليان بربر. لم يعد فنانا، لم يعد أى شخص. كان توماس إفينج، مغتربا قعيدا فى مقعد متحرك، وإذا تحداه أى شخص بشأن هويته، فسيقول له اذهب إلى الجحيم. كان الأمر بهذه البساطة. لم يعد يهتم بما يفكر فيه أى شخص، وإذا كان ذلك يعنى أن عليه أن يكذب على نفسه من حين لآخر، فليكن، سيكذب. المسألة كلها عار على أى حال، وما يفعله لن يغير من الأمر شيئًا.

واصل حكى القصة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أخرى، لكنه لم يعد يأسرنى بالطريقة نفسها. تمت تغطية الأمور الجوهرية؛ لم تعد هناك أسرار أخرى يمكن أن تُحكَى، ولم تعد هناك حقائق غامضة تنتزع منه. حدثت كل نقاط التحول الرئيسية فى حياة إفينج فى أمريكا، فى السنوات بين رحيله إلى يوتا والحادث الذى وقع فى سان فرانسيسكو، وبمجرد وصوله إلى أوروبا، صارت القصة قصة أخرى بالضبط، تسلسل زمنى للحقائق والأحداث، حكاية زمن يمضى. وكنت أشعر أن إفينج يدرك ذلك، وعلى الرغم من أنه لم يقل ذلك مباشرة، بدأتْ الطريقة التى يحكى بها تتغير، لتفقد دقة الأحداث الأولى وجديتها. بدأ يستطرد بشكل أكثر تحررا، وبدا أكثر أنه يفقد سياق تفكيره، ويقع حتى فى تناقض صريح فى عدد من الأمور. ذات يوم، على سبيل المثال، زعم أنه قضى تلك السنوات فى كسل- يقرأ الكتب، ويلعب الشطرنج، ويجلس فى زوايا الحانات- وفى اليوم التالى عدَّل الكلام وحكى لى عن مغامرات تجارية معقدة، عن صور رسمها ومزقها، عن امتلاك مكتبة لبيع الكتب، عن العمل جاسوسًا، عن جمع أموال للجيش الجمهورى فى إسبانيا. لاشك فى أنه كان يكذب، لكن ما أذهلنى أنه كان

يكذب بحكم العادة أكثر مما يكذب ليخدعنى. قرب النهاية، تحدث بحماس عن صداقته لبافيل شوم، وأخبرنى بتفصيل شديد أنه واصل ممارسة الجنس على الرغم من حالته، وانطلق فى عدة محاضرات طويلة عن نظرياته فى الكون: كهربية الأفكار، ترابط المادة، وتناسخ الأرواح. فى اليوم الأخير، حكى كيف تمكن هو وبافيل من الهروب من باريس قبل أن يزحف إليها الألمان، وانتقل إلى قصة عن لقاء تيسلا مرة أخرى فى "برانت بارك" مرة أخرى، ثم ودون أى تنبيه، توقف تماما فى مساراته.

قال: "يكفى، سنترك كل شىء عند هذا الحد".

قلت، متطلعا إلى الساعة على رف الموقد: "لكن لا يزال أمامنا ساعة على موعد الغداء. هناك وقت كاف للبدء فى الحدث التالى".

"لا تعارضنى يا فتى. حين أقول انتهينا فإن ذلك يعنى أننا انتهينا".

"لكننا وصلنا إلى ١٩٣٩ فقط. لا يزال أمامنا ثلاثون عاما نحكى عنها".

"ليست مهمة. يمكنك أن تتخلص منها فى جملة أو اثنتين. 'بعد مغادرة أوروبا فى بداية الحرب العالمية الثانية، عاد مستر إفينج إلى نيويورك، حيث قضى آخر ثلاثين سنة من حياته.' شىء من هذا القبيل. لا ينبغى أن يكون ذلك صعبا".

"أنت إذن تتحدث عن اليوم فقط. تقصد القصة كلها. تقول إننا وصلنا إلى النهاية، أليس كذلك؟"

"أظن أننى وضحت ذلك".

"لا يهم، أفهم الآن. لا يزال الأمر ملتبسا تماما بالنسبة لى، لكننى أفهم".

"وقتنا ينفد، يا أحمق، هذا هو السبب. لن ينجز النعى المطلوب إذا لم نبدأ كتابته الآن".

على مدى الأيام العشرين التالية، كنت أقضى كل صباح فى غرفتى أكتب نسخاً مختلفة من حياة إفينج على الآلة الكاتبة القديمة ماركة أندروود. كانت هناك نسخة

قصيرة سترسل إلى الصحف، خمسمائة كلمة بالضبط تمس فقط الحقائق الأكثر سطحية؛ ونسخة أكثر اكتمالا بعنوان "الحياة السرية لجوليان برير"، وتبين أنها حكاية مثيرة تقع فى حوالى ثلاثة آلاف كلمة، طلب منى أن أرسلها إلى مجلة للفن بعد موته؛ وأخيرا نسخة محررة من المخطوطة الكاملة، قصة إفينج كما رواها بنفسه، تبلغ أكثر من مائة صفحة، وهى النسخة التى بذلت فيها أقصى جهد، مستبعدا التكرار بعناية والتحولات السوقية للعبارة، منقحا الجمل، مكافحا لكتابة الكلمات المنطوقة دون أن أقلل من حدتها. كنت أعلم أنها عملية صعبة ودقيقة، وفى كثير من الأحيان كان علىّ أن أعيد بناء الفقرات بشكل كامل تقريبا لتظل معبرة بصدق عن معناها الأصلى. لم أكن أعرف ما ينوى إفينج أن يفعله بهذه السيرة الذاتية (لم يكن نعيا بالمعنى الدقيق للكلمة)، لكنه كان حريصا بوضوح على الانتهاء منها مباشرة، وكان يدفعنى بقوة لمراجعتها، موبخًا وصائحًا حين أقرأ له جملة لا يستسيغها. شققْنا طريقنا عبر هذه الجلسات التحريرية عصر كل يوم، متحدثين بصخب بشأن أصغر القضايا الأسلوبية. كانت خبرة منهكة لكلينا (روحان عنيدتان تصطدمان فى معركة قاتلة)، لكننا اتفقنا تدريجيا فى النهاية على الفقرات المختلفة، ومع بداية مارس انتهت المهمة.

فى اليوم التالى، وجدت ثلاثة كتب على سريرى. كلها من تأليف رجل اسمه سليمان برير، وعلى الرغم من أن إفينج لم يذكرها لى حين رأيته على الإفطار، افترضت أنه هو الذى وضعها. كانت الإيماءة المعتادة لإفينج- مراوغة، ملتبسة، ودون دافع على ما يبدو- لكننى كنت قد عرفته بدرجة تجعلنى أفهم أنها طريقته فى أن يطلب منى قراءة الكتب. نظرا لاسم المؤلف، بدا من المؤكد تماما أنه لم يكن طلبا عرضيا. قبل عدة شهور، اعتاد العجوز أن يستخدم كلمة "نتائج"، وتساءلت عما إذا لم يكن مستعدا للحديث عنها.

كانت الكتب عن التاريخ الأمريكى، وكل منها نشرته جامعة مختلفة: "الأسقف بيركيلى والهنود" (١٩٤٧)، و"ضياع مستعمرة رونوك" (١٩٥٥)، و"البرارى الأمريكية" (١٩٦٣). كانت الملاحظات البيوجرافية على الأغلفة المغبرة شحيحة، ولكن بجمع الأجزاء المختلفة من المعلومات معا، عرفت أن سليمان برير حصل على الدكتوراه فى التاريخ سنة ١٩٤٤، وساهم بعدد من المقالات للدوريات الأكاديمية، ودرّس فى عدة

كليات فى "ميدويست". كانت الإشارة إلى سنة ١٩٤٤ حاسمة. إذا كانت زوجة إفينج حملت قبل رحيله فى ١٩١٦، فإن ابنه ولد فى السنة التالية، مما يعنى أنه كان فى السابعة والعشرين سنة ١٩٤٤- وهو عمر منطقى لحصول شخص على درجة الدكتوراه. بدا كل شيء مناسبًا، لكننى كنت أعرف بشكل جيد يجعلنى لا أقفز إلى النتائج. كان علىَّ أن أنتظر ثلاثة أيام أخرى قبل أن يقترب إفينج من الموضوع، وحينذاك فقط علمت أن شكوكى صحيحة.

قال، متحدثا بهدوء شخص طلب قطعة أخرى من السكر للشاى: "لا أظن أنك ألقيْتَ نظرة على الكتب التى تركتها فى غرفتك يوم الثلاثاء".

قلت: "ألقيت نظرة عليها، وقرأتُ بعضها".

"تدهشنى يا فتى. بالنظر إلى سنك، أظن أنه قد يرجى منك بعض الأمل".

"هناك أمل لكل شخص يا سير. هذا ما يجعل العالم يستمر".

"جنبنى الحِكَم يا فج. ما رأيك فى الكتب؟"

"أرى أنها رائعة. مكتوبة بشكل جيد، تتناول الأمور بدقة، مملوءة بمعلومات جديدة تماما بالنسبة لى".

"على سبيل المثال".

"على سبيل المثال، لم أكن أعرف شيئا عن خطة بيركيلي لتعليم الهنود فى برمودا، ولم أكن أعرف شيئا عن السنوات التى قضاها فى جزيرة رود. أدهشنى هذا كله، لكن أجمل ما فى الكتاب الطريقة التى يربط بها بربر خبرات بيركيلى بالأعمال الفلسفية التى تتناول الإدراك. أرى ذلك رشيقا وأصيلا، عميقا جدا".

"وماذا عن الكتب الأخرى؟"

"الأمر نفسه. لم أكن أعرف أيضا الكثير عن رونوك. أظن أن بربر يقدم طرحًا جيدا لحل اللغز، وأميل إلى الاتفاق معه على أن المستعمرين المفقودين تم إنقاذهم

بانضمام القوات إلى الهنود الكرواتان[١] أحببت أيضا الخلفية عن راليه وتوماس هاريوت. هل تعرف أن هاريوت أول من نظر إلى القمر بالتليسكوب؟ اعتقدْتُ دائما أنه جاليلو، لكن هاريوت سبقه بعدة أشهر".

"نعم يا فتى، أعرف ذلك. لا تلق عليَّ محاضرات".

"أجيبُ فقط على سؤالك. سألتنى عما تعلمته، وأخبرك فقط".

"لا ترد. أنا الذى أطرح الأسئلة هنا. هل هذا مفهوم؟"

"مفهوم. يمكنك أن تطرح عليَّ ما تشاء من أسئلة يا مستر إفينج، لكنك لست فى حاجة إلى اللف والدوران".

"ماذا يعنى ذلك؟"

"يعنى أن علينا ألا نضيع أى وقت آخر. لقد وضعْتَ هذه الكتب فى غرفتى لأنك تريد أن تخبرنى بشىء، ولا أعرف لماذا لا تأتى وتخبرنى".

"يا، يا، إننا مهرة اليوم، أليس كذلك؟"

"فهم الأمر ليس صعبا جدا".

"لا، لا أفترض أنه صعب. لقد أخبرْتُك بالفعل إلى حد ما، أليس كذلك؟"

"سليمان بربر ابنك".

توقف إفينج لحظة طويلة، وكأنه لا يزال مترددا بالاعتراف بما تأخذنا إليه المحادثة. حلق فى الفضاء، وخلع نظارته السوداء ومسح العدسات بمنديل- إيماءة عقيمة، وغير محتملة من رجل كفيف- ثم شخر من مكان عميق فى حنجرته، وقال:

١- الهنود الكرواتان Croatan Indians: مجموعة صغيرة من الأمريكيين الأصليين عاشوا فى المناطق الساحلية فيما يعرف الآن باسم كارولينا الشمالية. ربما كانوا فرّعا من شعب الرونوك أو حلفاء له.

"سليمان، اسم بشع حقا. لكن لا حيلة لى فى ذلك، بالطبع. لا يمكنك أن تسمى شخصا إذا كنت لا تعرف أنه موجود، أليس كذلك؟"

"هل قابلته؟"

"لم أقابله قط، ولم يقابلنى قط. بقدر ما يعرف، مات أبوه فى يوتا فى "١٩١٦"

"متى سمعْتَ عنه أول مرة؟"

"فى ١٩٤٧ بافيل شوم مسئول عن ذلك، هو الذى فتح الباب. ذات يوم، عاد بنسخة من ذلك الكتاب عن الأسقف بيركيلى. كان بافيل قارئًا عظيمًا، لابد أننى أخبرتك بذلك، وحين بدأ الحديث عن هذا المؤرخ الشاب الذى اسمه بربر، من الطبيعى أننى أصغيت جيدا. لم يكن بافيل يعرف شيئًا عن حياتى السابقة، وهكذا تظاهرت بأننى مهتم بالكتاب لأعرف المزيد عن كاتبه. لم يكن هناك شىء مؤكد بشأن هذه القضية. بربر ليس اسما غير شائع، على الرغم من كل شىء، ولم يكن هناك سبب يجعلنى أعتقد أن سليمان هذا يرتبط بى بأى شكل. لكن كان حدسى يميل إلى ذلك، وإذا كان هناك شىء يمكن أن أكون قد تعلمته فى مسارى الطويل والغبى بالنسبة لرجل، فهو أهمية أن أتبع حدسى. ابتدعْتُ قصة لبافيل، على الرغم من أن ذلك لم يكن ضروريا. كان يمكن أن يفعل أى شىء من أجلى. إذا طلبت منه أن يذهب إلى القطب الشمالى، لاندفع إليه على الفور. كنت فقط فى حاجة إلى بعض المعلومات، لكننى شعرت بأنه قد يكون هناك خطر فى الحصول عليها مباشرة، وهكذا أخبرته بأننى أفكر فى تأسيس مؤسسة تقدم جائزة سنوية لكاتب شاب يستحقها. قلت ويبدو هذا الزميل بربر واعدا، لماذا لا تبحث عنه وترى إن كان يمكن أن يستفيد من مزيد من المال؟ تحمس بافيل. بقدر اهتمامه، لم يكن هناك شىء فى العالم أعظم من تشجيع الفكر".

"لكن ماذا عن زوجتك؟ ألم تعرف قط ما حدث لها؟ لم يكن من الصعب جدا أن تعرف إن كان لها ابن أم لا. لابد أنه كانت هناك مائة طريقة لتحصل على مثل هذه المعلومات"..

"دون شك. لكننى عاهدْتُ نفسى ألا أبحث عن إليزابيث. كنت فضوليا- كان من غير الممكن ألا أكون فضوليا- لكننى فى الوقت ذاته لم أكن أريد أن أفتح علبة الديدان القديمة مرة أخرى. كان الماضى ماضيا، وكان كله مغلقًا بالنسبة لى. سواء كانت حية أو ميتة، سواء تزوجت مرة أخرى أو لم تتزوج، ما الفائدة من أن أعرف مثل تلك الأشياء؟ أرغمْتُ نفسى على البقاء فى الظلام. كان هناك توتر قوى فى هذه المقاربة، وقد ساعدتْ على تذكيرى بحقيقتى، لتجعلنى أظل مستيقظًا لحقيقة أننى صرْتُ شخصا آخر. لا عودة إلى الوراء، كان ذلك مهما. لا ندم، لا شفقة، لا مشاعر حمقاء. برفض معرفة أى شىء عن إليزابيث بقيْتُ قويا".

"لكنك أردْتُ أن تبحث عن ابنك".

"هذا مختلف. إذا كنْتُ مسئولا عن مجيء شخص آخر إلى العالم، فمن حقى أن أعرف معلومات عنه. كنت فقط أريد معرفة الحقائق مباشرة، لا شىء أكثر من هذا".

"هل استغرق الأمر وقتا طويلا من بافيل ليتوصل إلى معلومات؟"

"لم يستغرق الأمر وقتا طويلا. تتبع سليمان بربر واكتشف أنه يدرِّس فى كلية فى بودنك فى ميدويست- أيوا، نبراسكا، نسيْتُ مكانها. كتب له بافيل رسالة عن كتابه، رسالة إطراء، إذا جاز التعبير. ولم تكن هناك مشكلة بعد ذلك. أرسل بربر ردًا لطيفًا، ثم رد بافيل بأنه سيذهب إلى أيوا أو نبراسكا وتساءل إن كان يمكن أن يلتقيا. بالصدفة بالطبع. ها! وكأن هناك شيئا من قبيل الصدفة. قال بربر إنه يسعده أن يقابله، وهذا ما حدث. استقل بافيل القطار إلى أيوا أو نبراسكا، وقضيا ليلة معا، ثم عاد بافيل بكل ما أحتاج إلى معرفته".

"ماذا كان؟"

" ولد سليمان بربر فى شورهام، جزيرة لونج، فى ١٩١٧ وكان والده رسامًا مات فى يوتا منذ زمن بعيد. وماتت أمه منذ ١٩٣٩".

"السنة التى عدْتَ فيها إلى أمريكا".

"على ما يبدو".

"ثم؟"

"ثم ماذا؟"

"ماذا حدث بعد ذلك؟"

"لا شيء. قلت لبافيل إننى غيرت رأيى بشأن المؤسسة، وكانت النهاية".

"ولم تكن لديك قط رغبة فى رؤيته. من الصعب أن تتخلى عن الأمر بمثل هذه الطريقة".

"كانت لدىَّ أسبابى يا فتى. لا تظن أن الأمر لم يكن صعبًا، لكننى التزمْتُ به. التزمت به تمامًا".

"كان ذلك نبلا منك".

"نعم، كان نبلا شديدا. إننى أمير بمعنى الكلمة".

"والآن؟"

"على الرغم من كل شيء، تمكنت من متابعة مكان وجوده. استمر بافيل يراسله، مما جعلنى مطلعا على أعمال بربر عبر السنوات. وهذا هو السبب فى أننى أحكى لك ذلك الآن. هناك شيء أريد منك أن تفعله من أجلى بعد أن أموت. يمكن أن ينجزه المحامون، لكننى أفضل أن تفعله أنت. ستقوم به أفضل منهم".

"لمَ تخطط؟"

"سأترك له أموالى. سيكون هناك شيء لمسز هوم، لكن الباقى سيذهب إلى ابنى. الساذج المسكين تسبب فى هذا الارتباك فى حياته، وربما سيجعله ذلك أفضل بعض الشيء. إنه بدين، بلا أبناء، غير متزوج، مريض محطم، كارثة متنقلة. بكل أفكاره ومواهبه، كان مساره طويلا خربا. طرد من وظيفته الأولى فى منتصف الأربعينيات

بسبب فضيحة– يمارس اللواط مع الطلاب الذكور طبقا لما أعرفه– ثم وهو يقف على قدميه من جديد، ضرب بذلك العمل الماكارثى وغرق مباشرة إلى القاع مرة أخرى. قضى حياته فى أكثر الأماكن المنعزلة التى يمكن تخيلها كآبة، يدرِّس فى كليات لم يسمع أحد عنها".

"يبدو ذلك أمرا مثيرا للشفقة".

"هو كذلك بالفعل. مثير للشفقة. مثير للشفقة مائة فى المائة".

"لكن ما دورى فى هذا؟ تترك له مالا بإرادتك، وسوف يعطيها له المحامون. يبدو الأمر واضحاً إلى حد ما".

"أريد منك أن ترسل له صورتى. لماذا تعتقد أننا تناولنا الموضوع بكل هذه الجدية؟ لم يكن ذلك لتمرير الوقت يا فتى، هناك هدف وراء ذلك. هناك هدف دائما لما أفعله، تذكرْ ذلك. بمجرد أن أموت، أريد منك أن ترسل الموضوع له مع رسالة توضح له كيف كنت. هل هذا واضح؟"

"ليس واضحا حقا. بعد البقاء مبتعدا عنه منذ ١٩٤٧، لا أفهم لماذا تشتاق فجأة للتماس معه الآن. لا أفهم".

"من حق كل إنسان أن يعرف ما يتعلق بماضيه. لا أستطيع أن أفعل الكثير له، لكننى أستطيع أن أفعل ذلك على الأقل".

"حتى لو لم يعرف؟"

"صحيح، حتى لو لم يعرف".

"لا يبدو الأمر منصفًا".

"من يتحدث عن الإنصاف؟ لا علاقة للأمر بذلك. ابتعدْتُ عنه وأنا حى، لكننى الآن ميت، حان وقت اكتشاف القصة".

"لا تبدو ميتًا بالنسبة لى".

"إنه آت، أعدك. إنه آت قريبا جدا".

"تقول ذلك منذ شهور لكنك بصحة كما كنت دائمًا".

"ما تاريخ اليوم؟"

"الثانى عشر من مارس".

"هذا يعنى أن أمامى شهرين. سأموت فى الثانى عشر من مايو، بعد شهرين بالضبط من اليوم".

"ربما لا يمكنك أن تعرف ذلك. لا أحد يستطيع".

"لكننى أستطيع يا فج. تذكرْ كلماتى. بعد شهرين من اليوم أموت".

بعد تلك المحادثة الغريبة، عدنا إلى روتيننا الأصلى. أقرأ له فى الصباح، وبعد الظهيرة نخرج للتمشية. كان الجدول نفسه، لكنه لم يعد يبدو لى كذلك. قبل ذلك، كان لإفينج برنامجا خاصا بالكتب، لكن صارت اختياراته تذهلنى بعشوائيتها، كانت تفتقر إلى الترابط تماما. ذات يوم يطلب أن أقرأ له قصصًا من "الديكاميرون"[1] أو "ألف ليلة وليلة"، وفى اليوم التالى يطلب "كوميديا الأخطاء"، وبعد ذلك بيوم يتخلى عن الكتب تماما ويجعلنى أقرأ أخبار تدريبات الربيع من معسكرات البيسبول فى فلوريدا. أو ربما قرر اختيار أشياء بشكل عشوائى منذ ذلك الوقت، ليتنقل بسرعة بين العديد من الأعمال ليودعها، كما لو كان ذلك يشبه توديع العالم. لثلاثة أيام أو أربعة متتالية جعلنى أقرأ له روايات إباحية (وكانت مخبوءة فى خزانة تحت المكتبة)، لكن حتى هذه الكتب فشلت فى استثارته بأى درجة ملحوظة. عبر عن إعجابه مرة أو اثنتين، لكنه تمكن أيضا من النوم فى منتصف واحدة من أكثر الفقرات إثارة. واصلْتُ القراءة وهو

١- الديكاميرون The Decameron : قصة من القرن الرابع عشر للكاتب الإيطالى جيوفانى بوكاتشيو Boccaccio، وتضم القصة الإطار مائة حكاية يحكيها عشرة شبان.

فى غفوته، وحين استيقظ بعد نصف ساعة، قال لى إنه كان يتدرب على كيف يموت. همهم: "أود أن أموت والجنس فى دماغى، ليست هناك طريقة للرحيل أفضل من ذلك". لم أقرأ أعمالا إباحية قبل ذلك، وقد وجدت أنها كتب عبثية ومثيرة. ذات يوم، حفظت بعض أفضل الفقرات واقتبستها لكيتى حين رأيتها فى تلك الليلة. بدا أن لها التأثير نفسه عليها. جعلتها تضحك، لكنها فى الوقت ذاته جعلتها تخلع ملابسها وتدخل السرير.

اختلفت التمشية، أيضا، عما كانت عليه. لم يعد إفينج يبدى حماسًا لها، وبدلا من إزعاجى بوصف الأشياء التى نقابلها فى الطريق، كان يجلس صامتًا، مستغرقًا فى التفكير ومنعزلا. بحكم العادة واصلت التعليقات المستمرة، لكنه لم يكن يسمع، ودون الإشارات الفاحشة لإفينج وانتقاداته التى يرد بها، شعرْتُ بحماسى يفتر أيضا. بدا إفينج، للمرة الأولى منذ عرفته، مغيبا، منفصلا عما حوله، ساكنًا تقريبًا. تحدثت مع مسز هوم عن التغيرات التى طرأت عليه، واعترفتْ بأنها تقلقها هى الأخرى. ومع ذلك لم يكن أى منا يستطيع تحديد تغير جسدى كبير. كان يأكل بقدر ما كان يأكل دائمًا؛ كان إخراجه طبيعيا؛ ولم يكن يشكو من أى آلام أو عدم إحساس بالراحة. استمرت هذه الفترة الغريبة من الكسل ثلاثة أسابيع تقريبًا. وثم وأنا على وشك التفكير فى أن إفينج يتدهور بشكل خطير، وصل إلى مائدة الإفطار ذات صباح كما كان من قبل تمامًا، مندفعًا فى حالة جيدة ويبدو سعيداً كما كنت أراه دائمًا.

"تقرَّرَ!" أعلن، ضاربا بقبضته على المائدة. استقرت الضربة بقوة جعلت آنية المائدة تندفع إلى أعلى وتقعقع. "يوما بعد يوم، أنتهى من التفكير فيه، أديره فى ذهنى، محاولا وضع خطة كاملة. بعد الكثير من العمل الذهنى، أنا سعيد بأن أقرر أنه مستقر. مستقر! إنها أفضل فكرة خطرت لى، يا رب. إنها تحفة فنية، تحفة فنية لا نظير لها. هل أنت مستعد لبعض المتعة يا فتى؟"

قلت، معتقداً أن من الأفضل أن أجاريه: "بالطبع. أنا مستعد دائمًا للمتعة".

قال، فاركا يديه معا: "رائع، تلك هى الروح. أعدكم، يا أبنائى، ستكون أغنية بجعة

عظيمة، قوسا أخيراً لا نظير له. ما الظروف فى الخارج اليوم؟"

قالت مسز هوم: "الجو صحو ومنعش. قال الرجل فى الراديو إن درجة الحرارة قد تصل إلى ١٥ بحلول بعد الظهيرة".

قال: "صحو ومنعش، ١٥ لا يمكن أن تكون أفضل من ذلك. والتاريخ يا فج، فى أى يوم نحن؟"

"إنه الأول من أبريل، بداية شهر جديد".

"الأول من أبريل! يوم كذبة أبريل والنكت العملية. فى فرنسا يسمونه يوم السمك. حسنا، نعطيهم بعض السمك ليستنشقوه، أليس كذلك يا فج؟ نعطيهم سلة كاملة".

قلْتُ: "تراهن. نعطيهم الأعمال".

استمر إفينج فى الثرثرة بهذه الطريقة المثيرة طوال الإفطار، يتوقف فترة تكفى بالكاد ليضع ملعقة الشوفان المجروش فى فمه. بدت مسز هوم قلقة، لكننى على الرغم من كل شىء شعرت بتشجيع نتيجة هذا الاندفاع لطاقة الهوس. بصرف النظر عما تؤدى إليه فى النهاية، كانت أفضل من كآبة الأسابيع التى انقضت للتو. لم يكن إفينج جادا فى لعب دور عجوز كئيب، وكنت أفضل أن أرى حماسه يقتله عن أن يعيش فى صمت كئيب.

بعد الإفطار، طلب أن نأتى بأشيائه ونجهزه للخروج. الأشياء المعتادة كانت مكومة حوله- البطانية، الوشاح، المعطف، القبعة، القفاز- ثم طلب منى أن أفتح الخزانة وأخرج حقيبة صغيرة من قماش مربع كانت تحت كوم من الأحذية والبوتات، وقال: "ماذا تظن يا فج؟ هل تعتقد أنها تكفى؟"

"يعتمد الأمر على ما تخطط للقيام به".

"نستخدمها للنقود، لعشرين ألف دولار نقداً".

قبل أن أرد بكلمة، تدخلت مسز هوم، قائلة: "لن تفعل شيئًا من هذا يا مستر

توماس، لن أقبل هذا. يتجول رجل كفيف في الشوارع ومعه عشرون ألف دولار نقداً. أبعدْ هذا الهراء عن رأسك فوراً".

اندفع إفينج: "اسكتي يا عاهرة، اسكتي، وإلا صفعتك. إنها أموالي، وسأفعل بها ما أريد. سآخذ حارسي الموثوق فيه لحمايتي، ولن يحدث شيء. وحتى لو حدث، فهو أمر لا يخصك. هل تفهمين ذلك، أيتها البقرة السمينة؟ صيحة أخرى، وأطردك".

قلْتُ محاولا الدفاع عن مسز هوم من هذا الهجوم المجنون: "إنها تؤدي عملها. لا شيء يستحق كل هذه الإثارة".

صرخ في: "إنه ينطبق عليك أيضا يا طفل. افعل ما يطلب منك، أو ودع الوظيفة. واحد، اثنان، ثلاثة، وتكون نهايتك. حاول فقط إذا كنت لا تصدقني".

قالت مسز هوم: "فليصبك الجدري. لستَ إلا عجوزاً أحمق، يا توماس إفينج. أتمنى أن تفقد كل دولار من هذه النقود. أتمنى أن تطير من الحقيبة ولا تراها مرة أخرى".

قال إفينج: "ها! ها، ها، ها! وماذا تعتقدين أنني أخطط لأفعل بها، يا وجه الحمار؟ أنفقها؟ هل تعتقدين أن توماس إفينج يخضع لمثل هذه التوافه؟ لدي خطط كبيرة لهذه النقود، خطط مدهشة لم يحلم أحدٌ بها من قبل".

قالت مسز هوم: "هراء. يمكنك أن تخرج وتنفق مليون دولار ولا أبالي. لن يعني ذلك شيئًا لي. أنا بريئة منك- منك ومن خدعك".

قال إفينج، وهو ينضح فجأة بنوع لا شعوري من الفتنة: "الآن، الآن، ليس هناك حاجة إلى أن تستائي أيتها الساحرة الصغيرة". مد يده إلى يدها وقبل ذراعها من أعلى وأسفل عدة مرات، كما لو كان يعني ذلك حقا. "سيرعاني فج. إنه فتى قوي، ولن يصيبنا أذى. ثقي فيَّ، دبرت العملية كلها بكل التفاصيل".

قالت ساحبة يدها بانزعاج: "لا يمكن أن تخدعني، إنك على وشك القيام بتصرف غبي، أعرف ذلك. تذكرْ فقط أنني قلْتُ ذلك لك. لا أريد أن تأتي صارخا لي بأعذارك.

فات الأوان. الأحمق يظل أحمق دائما. هذا ما اعتادت أمى أن تقوله لى، وكانت محقة".

قال إفينج: "أشرح لك الآن إن استطعْتُ، لكن ليس هناك وقت. وبالإضافة إلى ذلك، إذا لم يخرجنى فج بالمقعد المتحرك فورا، فسوف أتحمص تحت كل هذه البطاطين".

قالت مسز هوم: "لتذهبْ بهذا كله إذن، ولن أبالى".

ابتسم إفينج ابتسامة عريضة، ثم اعتدل والتفت فى اتجاهى، قائلا، وهو يصيح فىَّ مثل قبطان: "هل أنت مستعد يا فتى؟"

أجبْتُ: "مستعد وقتما تشاء".

"حسنًا، لننصرفْ".

كانت أولى محطاتنا بنك شيس مانهاتن فى برودواى، حيث سحب إفينج عشرين ألف دولار. ولأن المبلغ كان كبيرًا، استغرق استكمال العملية ما يقرب من ساعة. كان على مسئول البنك أن يعطى موافقته، ثم استغرق الأمر وقتًا إضافيا قبل أن يتمكن الصرافون من تجهيز العدد المطلوب من عملات فئة خمسين دولارا، وكانت الفئة الوحيدة التى يمكن أن يقبلها إفينج. كان عميلا قديما فى البنك، "عميلا مهما"، كما ذكَّر المدير أكثر من مرة، وبذل المدير، مستشعرًا احتمال حدوث مشهد سيئ، كل جهد لإرضائه. واصل إفينج اللعبة بحذر. رفض أن يتركنى أساعده، وحين أخرج دفتر الحساب من محفظته، حرص على أن يخبئه عنى، وكأنه يخشى أن أعرف ما يحتفظ به فى حسابه. شعرْتُ لفترة طويلة بالإهانة من تصرفه بهذا الشكل، لكننى فى الحقيقة لم يكن لدىَّ أى اهتمام بمعرفة الرقم. حين جهزت النقود فى النهاية، عدها الصراف مرتين، وجعلنى إفينج أعدها مرة أخرى للتأكيد. لم أر من قبل مثل هذا المبلغ فى مكان واحد، لكن حين انتهيت من عده، انتهى السحر، واختزلت النقود إلى حجمها الحقيقى: أربعمائة ورقة خضراء. ابتسم إفينج ابتسامة رضا حين أخبرته بأنها كاملة، وطلب منى أن أضع الرزم فى الحقيبة، وتبين أنها واسعة بما يكفى لاستيعاب المبلغ كله. أغلقْتُ

الحقيبة، ووضعْتُها بحرص فى حجر إفينج، وأخرجْتُه من البنك. أثار جلبة طوال الطريق إلى الباب، ملوِّحًا بعصاه وناعبا كما لو لم يكن هناك غد.

بمجرد خروجنا، جعلنى أقوده إلى إحدى الجزر وسط برودواى. كانت بقعة صاخبة، والسيارات والشاحنات تقعقع حولنا من كل جانب، لكن بدا إفينج غافلا عن الفوضى. سألنى إن كان هناك أى شخص يجلس على الدكة، وحين أكدت له أنه ليس هناك أحد، طلب منى أن أجلس. كان يلبس نظارته السوداء فى ذلك اليوم، ولف ذراعيه حول الحقيبة وضمها إلى صدره، وبدا أقل إنسانية مما كان يبدو عادة، وكأن طائرا طنانا كبيرا وصل للتو من الفضاء الخارجي.

قال: "أريد أن أتناول خطتى معك قبل أن نبدأ. البنك ليس مكانا مناسبا للحديث، ولا أريد لتلك المرأة الفضولية أن تسترق السمع إلينا فى الشقة. ربما تطرح على نفسك أسئلة كثيرة، وحيث إنك ستكون شريكى فى هذا، فقد حان وقت إفشاء السر".

"تصورت أنك ستفعل ذلك عاجلا أو آجلا".

"تقريبا، أيها الشاب. انتهى عمرى تقريبا، ولذلك قضيت تلك الشهور القليلة الأخيرة منشغلا بتلك المهمة. سجلت رغبتى، كتبْتُ نعيى، أنهيْتُ كل شىء. لا يزال هناك أمر واحد يزعجنى- يمكن أن تسميه دينا هائلا- ظللْتُ أسبوعين أفكر فيه، وعثرْتُ على حل فى النهاية. منذ اثنين وخمسين عامًا، تتذكر، عثرْتُ على حقيبة نقود. أخذت هذه النقود واستخدمتها لتحقيق مزيد من النقود، نقود أبقتنى حيًا منذ ذلك الوقت. الآن وصلْتُ إلى النهاية، لم أعدْ بحاجة إلى حقيبة النقود. وهكذا ماذا يفترض أن أفعل بها؟ الشىء الوحيد الذى له أى معنى هو أن أعيدها".

"تعيدها؟ لكن لمن ستعطيها؟ الإخوة جريشام موتى، ولم تكن حتى ملكهم أصلا. سرقوا النقود من أناس لم تعرفهم قط، من غرباء مجهولين. حتى لو تمكنت من معرفتهم، ربما يكونوا جميعا موتى الآن على أى حال".

"بالضبط. كلهم موتى الآن، ولا يمكن تتبع ورثتهم، أليس كذلك؟"

"هذا ما قلْتُ بالضبط".

"قلْتَ أيضا إن أولئك الناس غرباء مجهولون. توقف وفكرْ فى ذلك لحظة. إذا كان هناك شيء متوفر فى هذه المدينة البائسة، فهو الغرباء المجهولون. الشوارع ممتلئة بهم. أينما التفتَّ، يوجد غريب مجهول. إنهم بالملايين من حولنا".

"لا يمكن أن تكون جاداً".

"إننى جاد بالطبع. جاد دائماً. عليك أن تعرف ذلك".

"هل تعنى أن تقول إننا سنتجول فى الشوارع ونعطى عملات فئة خمسين دولارا للغرباء؟ سوف يتسبب ذلك فى شغب. سيفقد الناس عقولهم، سيمزقوننا".

"لن يحدث ذلك إذا تصرفنا بشكل صحيح. المسألة كلها فى العثور على خطة مناسبة، ولدينا هذه الخطة. ثق في يا فج. سيكون أعظم ما فعلْتُ على الإطلاق، قمة إنجازات حياتى!"

كانت خطته بالغة البساطة. بدل أن نسير فى الشارع فى وضح النهار ونعطى نقوداً لكل من يمر (مما يؤدى إلى تجمع حشد كبير عاصف)، نقوم بسلسلة هجمات فدائية خاطفة فى عدة مناطق تختار بعناية. تمتد العملية كلها لمدة عشرة أيام؛ لن نعطى نقوداً لأكثر من أربعين شخصاً فى كل مرة، وسيقلل ذلك إلى حد بعيد احتمالات الخطر. أحمل النقود فى محفظتى، وإذا حاول أحد أن يسرقنا فأقصى ما يستطيع أن يحصل عليه ألفا دولار. وأثناء ذلك تبقى بقية النقود فى الحقيبة فى البيت، بعيداً عن مخاطر الطريق. قال إفينج إننا سنتحرك على نطاق واسع فى المدينة ولن نذهب إطلاقا إلى حيين متجاورين فى يومين متتالين. شمال المدينة فى يوم وجنوبها فى اليوم التالى؛ الجانب الشرقى يوم الإثنين، والجانب الغربى يوم الثلاثاء. ولن نبقى فى أى مكان وقتا كافيا يجعل الناس يعرفون ما نقوم به. وبالنسبة لحينا، سنتجنبه حتى النهاية. وهذا يجعل المشروع يبدو حدثًا لا يتكرر إلا مرة فى العمر، وينتهى الأمر كله قبل أن يتحرك أحد باتجاهنا.

فهمت فوراً أنه ليس هناك ما يمكن أن أفعله لأوقفه. كان رأيه نهائيا، وبدلا من محاولة الحديث معه لإثنائه، فعلت ما أستطيع لتنفيذ الخطة بأمان بقدر المستطاع. قلت إنها خطة مقبولة، لكنها تعتمد على الوقت الذى نختاره لخروجنا أثناء اليوم. أوقات العصر على سبيل المثال لن تكون جيدة جدا. يكون فى الشوارع أناس كثيرون جدا، والمهم إعطاء النقود لكل متلقٍ دون أن يلاحظ أى شخص آخر ما يحدث. بتلك الطريقة، يكون الاضطراب أقل ما يمكن.

قال إفينج متتبعا كلماتى باهتمام كبير: "همم، أى وقت تقترح إذن يا فتى؟"

"المساء. بعد انتهاء يوم العمل، لكن ليس متأخرا جدا بحيث لا نحاصر فى شوارع مهجورة. مثلا بين السابعة والنصف والعاشرة".

"بتعبير آخر، بعد أن نتناول عشاءنا. ما قد تسميه نزهة ما بعد تناول الطعام".

"بالضبط".

"تخيل أنها تمت، يا فج. سوف نقوم بجولتنا بعد الشفق، اثنان على شاكلة روبن هود يجوسان خلسة، جاهزين نَهِبُ كرمنا للأرواح المحظوظة التى تمر بطريقنا".

"ينبغى أيضا أن تفكر بعض الشىء فى النقل. إنها مدينة كبيرة، وبعض الأماكن التى سنذهب إليها على بعد أميال من هنا. إذا فعلنا كل شىء على أقدامنا فسوف نتأخر بشكل رهيب فى بعض الليالى. وإذا كان علينا أن نفر بسرعة، فقد نقع فى مشاكل".

"إنه حديث شخص جبان يا فج. لن يحدث لنا شىء. إذا تعبت ساقاك، فسنأخذ سيارة أجرة. وإذا شعرْتَ بأنك تستطيع السير سرنا".

"لم أكن أفكر فى نفسى. أريد فقط أن أتأكد من أنك تعرف ما تفعله. هل فكرت فى تأجير سيارة؟ يمكننا أن نعدو على الفور. كل ما علينا أن نركب السيارة وينطلق بنا السائق".

"سائق! إنها فكرة منافية للعقل. يمكن أن تفشل المسألة كلها".

"لا أفهم السبب. القضية أن تتخلى عن النقود، لكن ذلك لا يعنى أن تظل تتسكع حول المدينة فى هواء الربيع البارد لتفعل ذلك. من الغباء أن تمرض لمجرد أنك تحاول أن تكون كريمًا".

"أريد أن أكون قادرًا على التجول، والشعور بالمواقف وهى تحدث. لا يمكن أن تفعل ذلك وأنت جالس فى سيارة. عليك أن تخرج فى الشوارع، تتنفس الهواء الذى يتنفسه أى شخص آخر".

"كان مجرد اقتراح".

"حسنا، احتفظْ باقتراحاتك لنفسك. لا أخشى شيئا يا فج، أنا عجوز جدا بالنسبة لذلك، وكلما قل قلقك علىَّ كان أفضل. إذا كنت معى، رائع. لكن بمجرد أن تكون معى عليك أن تصمت. سنفعل هذا الأمر بطريقتنا، مهما كانت الصعوبات".

فى أول ثمانية أيام سارت الأمور بسلاسة. اتفقنا على ضرورة وجودة تدرج فى الاستحقاق، مما جعلنى حرا فى التصرف بما أراه مناسبًا. لم تكن الفكرة أن أقدم نقودا لأى شخص تصادف مروره بى، لكن أن أبحث بوعى عن أكثر الناس استحقاقا، للتركيز على الأكثر احتياجا. بشكل تلقائى يستحق الفقير الاهتمام أكثر من الغنى، ويفضل المعوقون عن الأصحاء، وتعطى الأولية للمجنون على العاقل. وضعنا هذه القواعد فى البداية، ونظرًا لطبيعة شوارع نيويورك، لم يكن من الصعب تطبيقها.

انهار بعض الناس وصرخوا حين أعطيتهم النقود؛ وانفجر البعض فى الضحك؛ ولم ينطق البعض بأى شىء. كان توقع الاستجابات مستحيلا، وتعلمت بسرعة أن أستوقف الناس المتوقع أن يفعلوا ما أظن أنهم سيفعلونه. كان هناك أشخاص متشككون شعروا بأننا نحاول أن نخدعهم، ذهب رجل إلى حد تقطيع النقود، واتهمنا عددٌ من الآخرين بأننا مزورون؛ وكان هناك طماعون اعتقدوا أن خمسين دولارا لا تكفى؛ وكان هناك أشخاص التصقوا بنا وما كانوا ليتركونا نمضى؛ وكان هناك

أشخاص مرحون أرادوا أن يشتروا لنا مشروبا، وأشخاص تعساء يريدون أن يحكوا لنا قصص حياتهم، وفنانون رقصوا وغنوا ليعبروا عن امتنانهم. ومما أثار دهشتي أنه لم يحاول أحد منهم أن يسرقنا. ربما كان ذلك ببساطة نتيجة الحظ الطيب، على الرغم من أنه لابد أيضا أن يقال إننا كنا نتحرك بسرعة، ولم نتوان فى مكان وقتا طويلا. معظم الوقت، كنت أعطى النقود فى الشوارع، لكننا أعطيتها عدة مرات فى بارات رخيصة وكوفى شوب- بلانرى ستونز، وبيكفوردز، وشوك فُل أوه نتس- حيث وضعت العملة أمام كل من يجلسون إلى المنضدة. "انشروا قليلا من ضوء الشمس!"، قد أصبح متخلصا من النقود بأسرع ما يمكن، وقبل أن يدرك الزبائن السكارى ما يحدث لهم، أكون قد عدْتُ مسرعا إلى الشارع. أعطيت نقودا لمتشردات وعاهرات، لسكارى ومتسكعين، لهيبز وأطفال هاربين، لمتسولين ومقعدين، كل الرعاع الذين ينتشرون فى الشوارع بعد غروب الشمس. أربعون هبة تقدم كل ليلة، ولم يستغرق الأمر منا قط أكثر من ساعة ونصف.

أمطرت السماء فى الليلة التاسعة، وتمكنا أنا ومسز هوم من إقناع إفينج بالبقاء فى البيت. أمطرت فى الليلة التالية أيضًا، لكن لم يعد هناك ما يمكن أن يمنعه من الخروج. قال إنه لا يبالى باحتمال أن يصاب بالتهاب رئوى، وإن هناك عملا يجب القيام به وأقسم باسم الرب أن يفعله. سألْتُ: ماذا إذا ذهبْتُ من دونه؟ يمكننى أن أقدم له تقريرا كاملا حين أعود، وأن ذلك سيكون وكأنه كان هناك بالفعل. لا، مستحيل، كان عليه أن يكون هناك بنفسه. وبالإضافة إلى ذلك، كيف يمكن أن يتأكد من أننى لم أضع النقود فى جيبى؟ يمكن أن أتسكع لبعض الوقت ثم أختلق له قصة حين أعود. ولم يكن هناك من سبيل ليعرف إن كنت أقول الحقيقة.

قلْتُ فجأة بغضب شديد: "إذا كان هذا ما تعتقده، يمكنك أن تأخذ نقودك وتضعها فى مؤخرتك. أنا مستقيل".

للمرة الأولى فى الشهور الستة التى عرفته فيها، انهار إفينج بالفعل واعتذر. كانت لحظة درامية. جلس يصب أسفه وندمه، وبدأت أشعر ببعض التعاطف معه. ارتجف

جسده، وانساب اللعاب من شفتيه، بدا وكأن كيانه كله على وشك التفكك. كان يعرف أننى أعنى ما أقول، وكان التهديد بانصرافى أمرا كبيرا جدا بالنسبة له. توسل أن أسامحه، وقال لى إننى فتى طيب، وأننى أفضل فتى عرفه، وأنه لن يقول لى مرة أخرى كلمة قاسية طول حياته. قال: "سيكون الأمر كما تشاء، أعدك بأن يكون كما تشاء". ثم مد يده إلى الحقيبة بيأس، أخرج قبضة من العملات فئة خمسين دولارا ورفعها فى الهواء، وقال: "هذه من أجلك يا فج. أريد أن يكون لديك المزيد. يعلم المسيح أنك تستحقها".

"لا تَرْشُنى يا مستر إفينج. إنك تدفع لى بالفعل بما يكفى".

"لا، من فضلك، أود أن تأخذها. اعتبرها شيئا إضافيا. مكافأة لخدمة متميزة".

"أعد النقود إلى الحقيبة يا مستر إفينج. كل شىء على ما يرام. سأعطيها لمن يحتاجون إليها بالفعل".

"لكنك ستبقى".

"نعم، سأبقى. أقبل اعتذارك. فقط لا تقم بحيلة من هذا النوع مرة أخرى".

لأسباب واضحة، لم نخرج تلك الليلة. كانت الليلة التالية صافية، وفى الثامنة ذهبنا إلى ميدان التايمز، حيث أنهينا عملنا فى زمن قياسى لم يزد عن خمس وعشرين دقيقة أو ثلاثين. ولأن الوقت لا يزال مبكِّرًا ولأننا أقرب إلى البيت من المعتاد، أصر إفينج أن نعود سيراً على الأقدام. إنها قضية ثانوية فى ذاتها، ولم أكن لأهتم بذكرها إلا لأن شيئًا غريبًا حدث فى الطريق. جنوب دائرة كولومبس مباشرة، رأيت شابا زنجيا فى عمرى تقريبا يسير موازيا لنا على الجانب الآخر من الشارع. بقدر ما يمكن أن أقول لم يكن هناك شىء غير عادى بشأنه. كانت ملابسه أنيقة، لم يفعل ما يوحى بأنه سكران أو مجنون. لكنه كان هناك فى ليلة ربيعية غائمة، يسير بمظلة مفتوحة فوق رأسه. كان متنافرا جدا، وكانت المظلة مكسورة: القماش الواقى منزوع من الذراع والأشعة العارية مفرودة دون فائدة فى الهواء، يبدو وكأنه يحمل زهرة هائلة لا تحتمل

من الصلّب. لم أستطع مقاومة الضحك على المنظر. حين وصفْتُه لإيفنج، أطلق ضحكة أيضًا. كانت ضحكته أعلى من ضحكتي. لفتت انتباه الرجل عبر الشارع. بابتسامة عريضة على وجهه، أشار إلينا بالانضمام إليه تحت المظلة. قال بمرح: "لماذا تقفان تحت المطر؟ تعالا هنا حتى لا تبتلا". كان في العرض شيء غريب وودي يجعل رفضه نوعا من الفجاجة. عبرنا إلى الناحية الأخرى من الشارع، وبجوار البنايات الثلاثين التالية سرنا في برودواي تحت المظلة المكسورة. سعدْتُ برؤية إفينج وقد انتابته روح المزاح. سرنا دون أن يطرح أي أسئلة، وكان يفهم بشكل حدسي أن الهراء من هذا النوع لا يمكن أن يستمر إلا إذا تظاهرنا بأننا نصدقه. كان اسم مضيفنا أورلاندو، وكان كوميديًا موهوبًا، يسير على أطراف أصابعه برشاقة حول برك موحلة متخيلة، لدرء قطرات المطر بإمالة المظلة بزوايا مختلفة، ومثرثرا طوال الطريق بمونولوج سريع من التداعيات والتوريات المضحكة. كان أمرًا خياليا في أنقى صورة: عملية جلب أشياء غير موجودة إلى الحياة، إقناع الآخرين بقبول عالم لا يوجد حقًا. آتيًا في تلك الليلة الخاصة، بدا إلى حد ما متوائما مع الدافع وراء ما كنا نفعله أنا وإفينج للتو في الشارع الثاني والأربعين. روح مجنونة سيطرت على المدينة. عملات فئة خمسين دولارا تتجول في جيوب الغرباء، تمطر ولا تمطر، ويتدفق وابل من المطر خلال مظلتنا المكسورة ولا يصيبنا بنقطة واحدة.

ودعنا أورلاندو في ملتقى برودواي والشارع الرابع والثمانين، تصافحنا نحن الثلاثة بالأيدي وأقسمنا أن نبقى أصدقاء طوال الحياة. كمقطع ختامي لنزهتنا، رفع أورلاندو كفه ليختبر حالة الطقس، وفكر لحظة، ثم أعلن أن المطر توقف. دون مزيد من اللغط، أغلق المظلة وقدمها لي تذكارًا. قال: "خذها يا رجل. أظن أن من الأفضل أن تأخذها. لا تعرف متى يبدأ هطول المطر مرة أخرى، ولا أريد أن تبتلا. تلك مقولة عن الطقس: إنه يتغير طوال الوقت. إذا لم تكن مستعدا لكل شيء، لن تكون مستعدا لأي شيء".

قال إفينج: "إنه مثل الأموال في البنك".

قال أورلاندو: "حصلْتَ عليها يا توم. ضعها فقط تحت فراشك واحتفظ بها ليوم ممطر".

رفع قبضة سوداء قوية لتوديعنا ثم ابتعد متئدا، واختفى فى الزحام حين وصل إلى نهاية البناية.

كان حدثًا صغيراً وغريبًا، لكن مثل هذه الأمور تحدث فى نيويورك بأكثر مما تظن، خاصة إذا كنت تعيها. ما جعل هذه المواجهة غير عادية بالنسبة لى ليس بهجتها، بل الطريقة الغامضة التى بدا أنها أثرت بها على الأحداث التالية. بدا غالبا وكأن لقاءنا مع أورلاندو هاجس بالأشياء المقبلة، تنبؤ بمصير إفينج. فُرِضتْ علينا مجموعة جديدة من الصور، وصرنا من لحظتها تحت سحرها. كنت أفكر بشكل خاص فى العواصف الممطرة والمظلات، وبالإضافة إلى ذلك كنت أفكر أيضا فى التغير، والآن يمكن أن يتغير كل شىء فى أى لحظة، فجأة وإلى الأبد.

كانت الليلة التالية آخر ليلة. قضى إفينج النهار فى توتر أكثر من المعتاد، ورفض أن يأخذ غفوته، ورفض أن أقرأ له، ورفض كل تشتيت حاولْتُ أن أبتكره له. قضينا بعض الوقت فى المنتزه فى وقت مبكر من بعد الظهيرة، لكن الهواء كان ضبابيا ومنذراً، ونجحت فى إقناعه بالعودة إلى البيت بأسرع مما كنا نخطط. بحلول المساء، استقر ضباب كثيف على المدينة. وصار العالم رماديا، وكانت أنوار البنايات تسطع من خلال الرطوبة وكأنها ملفوفة فى ضمادات. كانت الظروف غير مبشرة، لكن لأنه لم يكن هناك مطر يتساقط بالفعل، بدا أنه لا مجال لمحاولة التحدث مع إفينج للتخلى عن حملته الأخيرة. تصورت أننى يمكن أن أتخلص من مهمتنا فى وقت طويل ثم أسرع بالعجوز عائداً إلى المنزل، عاملا بسرعة شديدة لمنع أى أذى خطير قد يلحق بإفينج. لم ترحب مسز هوم بذلك، لكنها استسلمت بعد أن أكدت لها أن إفينج يمكن أن يحمل مظلة. وافق إفينج بسرعة على هذا الشرط، وحين دفعته خارج البيت فى الثامنة، شعرت أن كل شىء تحت السيطرة تماما.

ما لم أعلمه، مع ذلك، أن إفينج استبدل بمظلته المظلة التى أعطاها لنا أورلاندو

فى الليلة السابقة. وحين اكتشفْتُ ذلك، كنا قد ابتعدنا عن المنزل خمس بنايات أو ستا. ضاحكا لنفسه ضحكة مكبوتة مع لذة طفولية مبهمة، أخرج إفينج المظلة المكسورة من تحت البطانية وفتحها. وحيث إن الذراع كانت مماثلة لتلك التى تركها فى البيت، ظننت أنه خطأ، لكن حين أخبرْتُه بما فعل، اندفع إلى الخلف ليذكرنى بعملى.

قال: "لا تكن غبيا، أخذت هذه المظلة متعمِّداً. إنها مظلة سحرية، أى أحمق يمكن أن يدرك هذا. بمجرد أن تفتحها تصبح محصنا".

كنت على وشك أن أرد، لكننى فضلت ألا أرد. كانت لا تمطر فى الحقيقة، ولا أريد أن أتورط فى مناقشة افتراضية مع إفينج. أريد إنجاز المهمة فقط، وما دامت لا تمطر، لم يكن هناك سبب يجعله لا يمسك بهذا الشىء المضحك على رأسه. دفعت المقعد لبضع بنايات أخرى، معطيا العملات فئة خمسين دولارا لكل المرشحين المحتملين، وحين نفد نصف النقود، عبرت إلى الجانب الآخر من الشارع وبدأت أتجه عائداً باتجاه المنزل. وحينذاك بدأتْ تمطر، كما لو كان أمرا حتميا، كما لو كان إفينج يريد أن تمطر. كان المطر ضئيلا تماما فى البداية، ولا يمكن تمييزه تقريبا من الهواء الضبابى من حولنا، لكن حين وصلنا إلى البناية التالية تحول الرذاذ إلى شىء يحسب حسابه. اتجهت بإفينج إلى مدخل معتقدا أن علينا أن نقف هناك حتى يمضى الأسوأ، لكن حين توقفنا، بدأ العجوز يشكو.

قال: "ماذا تفعل؟ ليس وقت التقاط الأنفاس. لا يزال معنا نقود علينا أن نهبها. لنسرع يا فتى. انطلقْ، انطلق، لنمضِ. إنه أمر".

قلت: "إنها تمطر إن لم تكن قد لاحظْتَ. ولا أتحدث فقط عن حمام ربيعى. إنها تمطر بغزارة. قطرات المطر فى حجم الحصى، وقد ارتفعت قدمين بجوار الرصيف".

قال: "مطر؟ أى مطر؟ لا أشعر بأى مطر". ثم بهجوم مفاجئ إلى الأمام على عجل مقعده، تخلص إفينج من قبضتى وانزلق إلى طريق المشاة. أمسك بالمظلة المكسورة مرة أخرى، ورفعها بيديه الاثنتين فوق رأسه، وصرخ فى العاصفة. صاح، والمطر ينهمر عليه من كل اتجاه، يبلل ملابسه ويضربه فى وجهه: "ليس هناك مطر! ربما تمطر عليك يا

فتى، لكنها لا تمطر عليَّ! أنا جاف مثل العظام! معى مظلتى التى أثق فيها، وكل شىء جيد فى العالم. ها، ها! رخى يا سماء فوق رأسى، لا أشعر بشىء!"

فهمت أن إفينج يريد أن يموت. خطط لهذه المهزلة الصغيرة ليمرض، وكان يفعل ذلك باستهتار ومرح مما أذهلنى تماما. لوح بالمظلة إلى الأمام والخلف، بالضحك يحث المطر على الانهمار، وعلى الرغم من الاشمئزاز الذى شعرْتُ به من أجله فى تلك اللحظة، لم أستطع إلا الإعجاب بشجاعته. كان مثل القزم فى "الملك لير" وقد بُعِث فى جسد جلوستر. ستكون ليلته الأخيرة، وكان يريد أن يرحل فى نوبة جنون، وأن يجلب موته بنفسه باعتباره تصرفه النهائى الرائع. كان دافعى الأول أن أبعده عن طريق المشاة وآخذه إلى بقعة آمنه، لكننى نظرت إليه نظرة أخرى وأدركتُ فوات الأوان. كان منقوعا تماماً فى المياه، ومع شخص فى ضعف إفينج، ربما يعنى ذلك حدوث الضرر. ربما يُصاب بنزلة برد، وينتهى به الأمر إلى الإصابة بالتهاب رئوى، ويموت بعد وقت قصير. بدا لى كل شىء مؤكَّدا تماما، توقفت فجأة عن مقاومته. قلْتُ لنفسى إننى أتطلع إلى جثة، ولا يهم إذا قمت بأى فعل أم لا. منذ ذلك الوقت، لم يمر يوم لم أندمْ فيه على القرار الذى اتخذته تلك الليلة، لكن فى ذلك الوقت بدا أن له معنى، كما لو كان خطأ خلقيا أن أقف فى طريق إفينج. إذا كان ميتا بالفعل، ما الصواب فى أن أفسد عليه متعته؟ كان الرجل يدمر نفسه باستهتار، وحيث إنه ورطنى فى نوبة جنونه، لم أرفع إصبعا لأوقفه. وقفْتُ فقط وتركْتُ الأمر يحدث، متواطئا طوعًا فى انتحاره. خرجْتُ من المدخل وأمسكْتُ بمقعد إفينج، محدقًّا والمطر ينهمر فى عينىَّ. قلت: "أظن أنك على صواب. يبدو أن المطر لا يلمسنى أيضا. وأنا أتحدث، ومض برق فى السماء، وتلاه رعد هائل. انهمر المطر علينا بلا رحمة. مهاجما جسدينا المكشوفين بوابل من الرصاص السائل. بعد النوبة التالية من الرياح، طارت نظارة إفينج من على وجهه، لكنه اكتفى بالضحك، معربدا فى عنف العاصفة.

صاح فىَّ عبر الضجيج: "شىء لافت، أليس كذلك؟ يشبه رائحة المطر. يبدو مثل المطر. مذاقه حتى مثل المطر. ومع ذلك نحن جافان تماما. إنها سيطرة العقل على المادة يا فج. فعلناها فى النهاية! كشفنا سر العالم!"

بدا وكأنني عبرت حدودا سرية عميقة في نفسي، زاحفا عبر باب منزلق يؤدى إلى أعمق حجرات قلب إفينج. لم يكن الأمر ببساطة أنني استسلمْتُ لحيلته الغريبة، أنني قدمت الإيماءة النهائية لتأييد حريته، وبهذا المعنى برهنت له على وجودى فى النهاية. كان العجوز فى طريقه للموت، لكن طالما كان على قيد الحياة، سيحبنى.

اتجهنا شمال المدينة سبع بنايات أو ثمانٍ، وكان إفينج يصيح فى نشوة طوال الطريق. جأر: "إنها معجزة. معجزة رائعة! بنسات من السماء، احصلوا عليها قبل أن تنتهى! نقود دون مقابل! نقود للجميع!"

لم يسمعه أحد، بالطبع، لأن الشوارع كانت خالية تمامًا. لم يكن هناك غيرنا من الحمقى الذين لم يسرعوا إلى ملاذ، وحتى أتخلص من العملات المتبقية، قمت بزيارات سريعة إلى البارات والكوفى شوب على طول الطريق. كنت أوقف إفينج قرب الباب وأدخل هذه المنشآت، مستمعًا إلى ضحكته الوحشية وأنا أوزع النقود. كانت تطن فى أذنى: خلفية موسيقية مجنونة لنهاية تمثيليتنا الهزلية. كان الأمر كله خارج السيطرة. تحولنا إلى كارثة طبيعية، طوفان يبتلع الضحايا الأبرياء فى طريقه. أصبح ضاحكا وباكيا فى الوقت نفسه: "نقود! عملات فئة خمسين دولارا للجميع!" كنت منقوعا فى المياه تماما حتى إن حذائى كان بِركًا متدفقة، وكنت أتدفق مثل قطرة فى حجم إنسان، تساقطت منى المياه على الجميع. كان من حسن الحظ أننا وصلنا إلى النهاية. إذا استمرت الأمور وقتا أطول، ربما حوصرنا فى مخاطرة متهورة.

كان آخر مكان زرناه كوفى شوب تشايلد، حفرة حقيرة مليئة بالبخار فى جدار، وكانت مضاءة بأنوار فلوريسنت ساطعة. كان هناك اثنا عشر زبونا أو خمسة عشر منحنين على المنضدة، وكل منهم يبدو أكثر حرمانا وبؤسا من رفيقه. لم يتبق فى جيبى سوى خمس عملات أو ست، وفجأة لم أعرف كيف أتصرف. لم أعد أستطيع التفكير، لم أعد أستطيع اتخاذ قرار. ولما لم يكن هناك ما هو أفضل كومت النقود فى قبضتى وبعثرتها عبر الغرفة، وصحت: "ليأخذها من يريد!" ثم خرجت مسرعا من هناك، عائدا بإفينج إلى العاصفة.

لم يغادر المنزل قط بعد تلك الليلة. بدأ السعال مبكرا فى اليوم التالى، ومع نهاية الأسبوع امتدت قعقعة البلغم من شعبه الهوائية إلى رئتيه. استدعينا طبيبا أكد أنه مصاب بالتهاب رئوى. وكان يريد نقل إفينج إلى المستشفى فورا، لكن العجوز رفض، زاعمًا أن من حقه أن يموت فى سريره، وإذا اقترب منه أى شخص بهدف إخراجه من الشقة فسوف يقتل نفسه. قال: "سأقطع حنجرتى بموس، وسوف تعيش وهذا فى ضميرك". تعامل الطبيب مع إفينج من قبل، وكان ماهرا جدا حتى إنه جاء ومعه قائمة من خدمات التمريض الخاص. كنت أنا ومسز هوم مشغولين حتى النخاع فى إجراءات عملية: محامون، حسابات مصرفية، توكيلات، ... إلخ. كانت هناك مكالمات تليفونية لا نهائية يجب القيام بها، وأوراق لا تحصى يجب توقيعها، لكننى أشك أنها جديرة بالذكر الآن. كان المهم أن السلام حل بينى وبين مسز هوم أخيرا. بعدما عدْتُ إلى الشقة مع إفينج ليلة العاصفة، غضبت بدرجة جعلتها لا تنطق بكلمة معى ليومين كاملين. اعتبرتنى مسئولا عن مرضه، ولأننى كنت أعتنق الرأى نفسه أساسًا، لم أحاول الدفاع عن نفسى. وقد جعلنى خلافها معى فى حالة مزرية. بالضبط حين بدأت التفكير فى أن الصدع سيكون دائما، انعكس الموقف فجأة. لا أعرف كيف حدث هذا، لكننى أتخيل أنها تحدثت مع إفينج فى الموضوع، ولابد أنه أقنعها بألا تحملنى مسئولية ما حدث. حين رأيتها فى المرة التالية، أخذتنى بين ذراعيها واعتذرت، مقاومة دموع الانفعال. أعلنت بهدوء: "حان أجله. إنه الآن جاهز للرحيل فى أى لحظة، وليس هناك ما يمكن أن نفعله لنوقفه".

كانت الممرضات يعملن بالتناوب لمدة ثمانى ساعات، وكن يعطينه الأدوية، ويغيرن إناء الفضلات، ويراقبن توصيلة الوريد المعلقة فى ذراع إفينج. باستثناءات قليلة، وجدْتُ أنهن يتسمن بالفظاظة، واللامبالاة، وربما لا نحتاج إلى أن نقول إن إفينج لم يكن يريد منهن إلا أقل ما يمكن. ظل ذلك صحيحا حتى الأيام الأخيرة، حين ضعف جدا بدرجة تجعله لا يلاحظ شيئا. لم يكن لديهن مهمة معينة يؤدينها، كان يصر على أن يبقين

خارج الغرفة، مما يعنى أن يوجدن عموما على أريكة غرفة المعيشة، يتجهمن فى أنفة صامتة وهن يتصفحن مجلات ويدخن سجائر. تركتنا واحدة أو اثنتان، وتمت إقالة واحدة أو اثنتين أخريين. ومع ذلك، باستثناء هذا التشدد مع الممرضات، تصرف إفينج بدماثة شديدة، ومنذ اللحظة التى أخذ فيها إلى السرير، بدا وكأن شخصيته تغيرت، متخلصة من سمها بالاقتراب من الموت. لا أظن أنه شعر بألم شديد، وعلى الرغم من وجود أيام طيبة وأخرى سيئة (فى لحظة معينة، فى الحقيقة، بدا وكأنه شفى تماما، لكن حالته انتكست بعد اثنتين وسبعين ساعة)، كانت علته تتدهور تدريجيا، وكان يفقد قوته ببطء وبشكل لا مفر منه، واستمر ذلك حتى توقف قلبه فى النهاية عن الخفقان.

قضيْتُ الأيام كلها معه فى الغرفة، جالسا بجوار سريره لأنه يريد أن أبقى هناك. منذ العاصفة الممطرة، تغيرت علاقتنا إلى درجة أنه صار عطوفا جدا على وكأننى من لحمه ودمه. كان يمسك بيدى ويقول لى إننى عون له، مغمغما بمدى سعادته بوجودى فى الغرفة. فى البداية، كنت حذرا من هذا التدفق العاطفى، لكن مع وجود دليل على استمرار تصاعد هذه العاطفة الجديدة، لم يكن أمامى سوى قبولها باعتبارها أصيلة. فى البداية، وهو لا يزال قويا بما يكفى للاشتراك محادثة، طرح علىَّ أسئلة عن حياتى، وحكيْتُ له قصصًا عن أمى وخالى فكتور، عن أيامى فى الكلية، عن فترة الكارثة وانهيارى وكيف أنقذتنى كيتى وو. وقال إفينج إنه قلق على ما يحدث لى بعد موته، لكننى حاولْتُ طمأنته بأننى قادر على رعاية نفسى.

قال: "أنت حالم يا فتى. ذهنك على القمر، ومما يبدو، لن يذهب إلى أى مكان آخر. ليس لديك طموح، لا تضع أى اعتبار للنقود، وأنت فيلسوف بدرجة تجعلك لا تتمتع بأى إحساس بالفن. ماذا أفعل معك؟ أنت فى حاجة إلى شخص يرعاك، يتأكد من أن بطنك به طعام وفى جيبك بعض النقود. بمجرد رحيلى، ستعود من حيث بدأْتَ".

قلت كاذبا على أمل أن أصرفه عن الموضوع: "كنت أخطط للأمر. أرسلْتُ طلبًا إلى مدرسة المكتبات فى كولومبيا فى الصيف الماضى، وقبلونى. ظننْتُ أننى أخبرْتُك بذلك. وتبدأ الدراسة فى الخريف".

"وكيف تسدد المصروفات؟"

"أعطونى منحة كاملة، بالإضافة إلى معاش لتغطية نفقات المعيشة. إنها صفقة جيدة، فرصة هائلة. يستمر البرنامج عامين، وبعد ذلك، يكون أمامى دائما طريقة أكسب بها ما أتعيش منه".

"من الصعب أن أتخيلك أمين مكتبة يا فج".

"أعترف بأنه أمر غريب، لكننى أعتقد أننى قد أكون مناسبا لهذه الوظيفة. المكتبات ليست فى عالم الواقع وعلى الرغم من كل شىء. إنها أماكن منفصلة، ملاجئ للتفكير الصرف. بهذه الطريقة، يمكننى أن أواصل العيش على القمر بقية حياتى".

كنتُ أعرف أن إفينج لا يصدقنى، لكنه تجاوب مع كذبتى من أجل التناغم، غير راغب فى تعكير الهدوء الذى نشأ بيننا. وكان هذا معتاداً له فى الأسابيع الأخيرة. أظن أنه كان مزهوا بنفسه لقدرته على أن يموت بهذه الطريقة، وكأن الرقة التى بدأ يظهرها تجاهى برهنت على أنه لا يزال قادرا على إنجاز ما يريد إنجازه. رغم تداعى قوته، استمر يصدق أنه يسيطر على مصيره، واستمر هذا الوهم حتى النهاية: فكرة أنه العقل المدبر لموته، وأن كل شىء يسير طبقا لخطة. وقد أعلن أن الثانى عشر من مايو سيكون يوم موته، وبدا أنه لا يهمه سوى الالتزام بكلمته. استسلم لموته بذراعين مفتوحتين، ورفضه فى الوقت ذاته، مكافحًا بآخر ما تبقى من طاقته ليقهره، ليتجنب اللحظة الأخيرة حتى تأتيه فى الموعد الذى حدده. حتى إذا لم يعد يتكلم إلا بالكاد، حين يحتاج إلى جهد هائل لتنتج حنجرته صوتا واهيا، كان تاريخ اليوم أول ما يريد أن يعرفه حين أدخل الغرفة كل صباح. لأنه لم يعد يستطيع أن يتتبع الزمن، كان يكرر السؤال كل بضع ساعات على مدار اليوم. فى اليوم الثالث أو الرابع من الشهر تدهور فجأة بشكل درامى، وبدا من غير المحتمل أن يستطيع البقاء حتى الثانى عشر. بدأتُ أغش فى التواريخ لأؤكد له أنه لا يزال يسير طبقا للجدول، قافزا إلى الأمام كلما طرح السؤال، وذات عصر يوم قاس جدا انتهى بى الأمر إلى تغطية ثلاثة أيام فى بضع ساعات. قلت له إنه السابع؛ إنه الثامن؛ إنه التاسع، وكانت حالته ساءت بدرجة تجعله

لا يدرك الاختلاف. حين استقرت حالته مرة أخرى فى أواخر الأسبوع، كنت لا أزال أسبق التقويم، وفى اليومين التاليين لم يكن أمامى سوى أن أقول له إنه التاسع. شعرْتُ بأن ذلك أقل ما يمكن أن أفعله من أجله- أنه أمنحه الرضا بالاعتقاد بأنه كسب هذا الاختبار للإرادة. مهما يحدث، كان علىَّ أن أتأكد من أن حياته ستنتهى فى الثانى عشر.

قال إن نبرة صوتى تخفف عنه، وحتى حين صار ضعيفًا بدرجة تجعله عاجزا عن قول أى شىء، كان يريد أن أواصل الحديث. لم يكن يهتم بما أقول، ما دام يسمع صوتى ويعرف أننى هناك. كنت أواصل الثرثرة بقدر ما أستطيع، متنقلا من موضوع إلى آخر طبقا للحالة المزاجية. لم يكن من السهل دائما أن أستمر فى هذا النوع من المونولوج، وعندما يعوزنى الإلهام، أعتمد على عدة حيل لأستمر مرة أخرى: إعادة صياغة حبكات الروايات والأفلام، وأسمِّع قصائد من الذاكرة- وكان إفينج مغرما جداً بالسير توماس وايت وفولك جريفل- أو ذكر أخبار من الجريدة الصباحية. ومن الغريب جدا أننى مازلت أتذكر بعض تلك الحوادث بشكل جيد، وحينما أفكر فيها الآن (انتشار الحرب إلى كمبوديا، عمليات القتل فى ولاية كِنْت)، أرى نفسى أجلس فى تلك الغرفة مع إفينج، ناظرا إليه وهو يرقد فى السرير. أرى فمه الأدرد المجوف؛ أسمع رئتيه المسدودتين تواقتين للهواء؛ أرى عينيه الكفيفتين النديتين تحدقان فى السقف، واليدين المليئتين بالعروق تتشبثان بالبطانية، الشحوب الطاغى لجلدة المغضن. لا يمكن تجنب الارتباط. ببعض الانعكاس المبهم اللاإرادى، صارت هذه الأحداث بالنسبة لى فى محيط وجه إفينج، ولا أستطيع التفكير فيها دون أن أراه أمامى مرة أخرى.

وأحيانا لم أكن أفعل شيئا سوى وصف الغرفة التى نجلس فيها. مستخدمًا الطرق نفسها التى طورتها أثناء تمشيتنا، ألتقط شيئا وأبدأ فى الحديث عنه. النقوش على ملاءة السرير، الخزانة فى الركن، خريطة فى إطار لشوارع باريس معلقة على الجدار بجوار النافذة. بقدر ما كان إفينج يستطيع تتبع ما أقول بدا أن هذه الابتكارات تمنحه متعة غامرة. ومع كل هذا البعد عنه الآن، كان الوجود الفيزيائى للأشياء يقف على حافة وعيه كنوع من الفردوس، عالم لا يمكن الحصول عليه من المعجزات العادية:

مـجال اللمس والرؤية والإدراك، الذى يحيط بالحيـاة كلها. بالتعبيـر لإفينج عن هذه الأشياء بالكلمات كنت أعطيه فرصـة للإحساس بها مـرة أخرى، وكأن مجرد أخذ مكان شخص فى عالم الأشياء كان طيبا بشكل يتجاوز كل الأشياء الأخرى. بمعنى ما، كنت أعمل له فـى الغرفة بجد أكثر ممـا عملت من قـبل، مركزا على أدق التفـاصيل والمواد - الأصواف والأقطان، الفضيات والبيوترات، وحبيبات الخشب ولفات البلاستر- منقبا فى كل شق، ذاكرا كل لون وشكل، مستكشفا الهندسة الدقيقة لكل ما أراه. كلما صار إفينج أكثر ضعفا، عملْتُ بشكل أكثر حماسا، مضاعفا جهودى لعبور المسافة التى تكبر بيننا باستمرار. فى النهاية، اندفعْتُ إلى أبعاد من الدقة تستغرق ساعات لأشق طريقى حـول الغرفـة. تقدمتُ بأجزاء من البوصـة، رافضـا أن يفلت منى شىء، حـتى ذرات الغبار التى تسبح فى الهواء. اهتممْتُ بحدود ذلك الفضـاء حتى صـار لا ينضب، وفرة من العوالم فى العوالم. عند نقطة معينة أدركْتُ أننى ربما أتحدث فى فراغ، لكننى واصلْتُ الحـديث على أى حـال، منوِّما بفكرة أن صـوتى الشـىء الوحـيد الذى يمكن أن يبقى إفينج حيا. لم يغير من الأمر شيئا بالطبع. كان ينزلق، وطوال اليومين الأخيرين اللذين قضيتهما معه، أشك فى أنه سمع كلمة مما قلْتُ.

لم أكن هنـاك حين مـات. بعد أن جلسْتُ مـعه حتى الثامنة فى اليـوم الحادى عشر، دخلت مـسز هـوم لتريحنى وأصـرت على أن أسـتريح بقيـة الليل. قـالت: "ليس هنـاك ما يمكن أن نفـعله له، أنت مـعه منذ الصبـاح، وحـان أن تشم نـفسك. إذا بقى خـلال الليل تكون قد استعدت حيويتك للغد".

قلْتُ: "أظن أنه لن يكون هناك غد".

"ربمـا لا. لكن هذا ما قلناه أمس، ولا يزال معلقا هنـاك".

خرجْتُ لتناول العشاء مع كيتى فى قصـر القمر، وبعد ذلك شـاهدنا فيلما فى أحـد دور العرض التى تعرض فيلمين فى "الثاليا" (أتذكر أنه "الرمـاد والماس"، لكن قد أكون مخطئا). كان من المعتاد أن أعيد كيتى إلى سكنها فى تلك اللحظة، لكن ساورنى شعور سيىء بشأن إفينج، وهكذا بعد انتهاء الفيلم، سرنا فى شـارع ويست إند لنراجع الأمر

مع مسز هوم في الشقة. اقتربت الساعة من الواحدة صباحًا حين دخلنا. كانت ريتا تبكي وهي تفتح الباب، ولم يكن من الضروري أن تتكلم لأعرف ما حدث. كما تبين، مات إفينج قبل أقل من نصف ساعة من وصولنا. حين سألتُ الممرضة عن الوقت بالضبط، أخبرتني بأنه الثانية عشرة ودقيقتان، دقيقتان بعد منتصف الليل. وهكذا جعله إفينج الثاني عشر على الرغم من كل شيء. بدا الأمر محالا حتى إنني لم أعرف كيف أتفاعل معه. كان في رأسي خدر غريب وشعرتُ فجأة أن الأسلاك في مخي تقاطعت. افترضْتُ أنني على وشك البكاء، فذهبْتُ إلى ركن من أركان الغرفة ووضعت يديَّ على وجهي. وقفْتُ هناك منتظرا سقوط الدموع، لكن لم يأت شيء. مرت بضع لحظات أخرى، ثم جاء تقلص أصوات خاصة من حنجرتي. واستغرق الأمر لحظة أخرى أو لحظتين لأعرف أنني أضحك.

طبقا للتعليمات التي خلَّفها إفينج وراءه، ينبغي حرق جثته. ينبغي ألا تكون هناك مراسم للجنازة أو الدفن، وطلب بشكل خاص ألا يسمح لممثل أي دين بالمشاركة في التخلص من بقايا جثته. كان الاحتفال بسيطا إلى حد بعيد: عليَّ أنا ومسز هوم أن نستقل عبارة جزيرة ستاتن، وبمجرد أن عبرنا نقطة المنتصف خارج منهاتن (وتمثال الحرية مرئيا إلى يميننا)، علينا أن نبعثر رماده على مياه مرفأ نيويورك.

حاولت الوصول إلى سليمان بربر بالتليفون في نورثفيلد، مينسوتا، معتقدا أنه ينبغي إعطاؤه فرصة للحضور، لكن بعد عدة مكالمات في منزله، لم أتلق أي رد، فاتصلتُ بقسم التاريخ في كلية ماجنوس وقيل لي إن البروفيسور بربر في إجازة في الفصل الدراسي في الربيع. وبدت السكرتيرة مترددة في إعطائي أي معلومات أخرى، لكن بعد أن شرحت الهدف من المكالمة، رقت بعض الشيء وقالت إن البروفيسور ذهب في رحلة بحثية إلى إنجلترا. سألْتُ: كيف أصل إليه هناك؟ قالت: إنها مشكلة، حيث إنه لم يعطهم عنوانا. لكن ماذا عن بريده؟ واصلتُ، لابد أنهم يوجهونه إليه في مكان ما. قالت: لا، لا يفعلون ذلك حقا. طلب منهم الاحتفاظ به حتى يعود. ومتى يكون ذلك؟ قالت: ليس قبل أغسطس، معتذرة عن عدم قدرتها على مساعدتي، وفي صوتها شيء يجعلني أصدق أنها تقول الحقيقة. فيما بعد، في ذلك اليوم نفسه، جلسْتُ وكتبْتُ خطابًا

طويلا إلى بربر واصفًا الوضع بأفضل ما أستطيع. كانت كتابته صعبة، واستغرق منى ساعتين أو ثلاثا . بمجرد الانتهاء منه، كتبته على الآلة الكاتبة وأرسلته فى رزمة مع نسخة منقحة من السيرة الذاتية لإفينج. بقدر ما يمكن أن أقول، أنهى ذلك علاقتى بالقضية. فعلْتُ ما طلبه إفينج، ومنذ ذلك الوقت ستكون فى أيدى المحامين، الذين سيتصلون ببربر فى الوقت المناسب.

بعد يومين، جمعت مسز هوم الرماد من قاعة الموتى. جمع فى وعاء معدنى رمادى لا يزيد حجمه عن حجم رغيف، وكان من الصعب أن أتخيل أن إفينج فيه بالفعل. هكذا صعد جزء كبير منه فى الدخان، وبدا غريبا أنه تبقى هناك أى شىء. بدت مسز هوم التى كان لديها دون شك إحساس أكثر وضوحا بالواقع مما كان لدىَّ، فى حالة فزع من الإناء، وأبقته على بعد ذراع منها طوال الطريق إلى البيت، كما لو كان يحتوى مواد سامة مشعة. مطرا أم صحوا، اتفقنا على أن نقوم برحلتنا إلى العبارة فى اليوم التالى. تصادف أنه يوم زيارتها إلى مستشفى أ.ف.، وبدل أن تفتقد رؤية أخيها، قررت مسز هوم أنه ينبغى أن يرافقنا. وهى تتحدث خطر لى ربما ينبغى أن تكون كيتى معنا أيضا. لم يبد الأمر ضروريا، لكن حين أبلغْتُ كيتى، قالت إنها تريد أن تذهب معنا. قالت إنه حدث مهمٌ، وإنها تحب مسز هوم بدرجة تجعلها لا تتغيب عن الوجود معها لتدعمها نفسيا. وهكذا صرنا أربعة بدل أن نكون اثنين. أشك فى أن نيويورك شهدت على الإطلاق مجموعة أكثر تنوعا من الحانوتية.

انصرفت مسز هوم فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى لتحضر أخاها من المستشفى. وهى فى الخارج وصلت كيتى إلى الشقة، مرتدية جيبة قصيرة زرقاء، وبدت ساقاها الناعمتان النحاسيتان رائعتين مع الكعب العالى الذى انتعلته لهذه المناسبة. أوضحت لها أن أخا مسز هوم يفترض أنه ليس سليم العقل، لكننى لم أقابله بنفسى قط، وأنا متأكد مما يعنيه ذلك. تبين أن شارلى باكون رجل ضخم مستدير الوجه فى أوائل الخمسينيات بشعر ناحل يميل إلى الاحمرار وعينين يقظتين سريعتى الحركة. ظهر مع أخته فى حالة ذهول واهتياج (أول مرة يترك فيها المستشفى على مدار سنة)،

وفى الدقائق القليلة الأولى لم يفعل أكثر من الابتسام لنا ومصافحتنا. كان يرتدى سترة مغلقة حتى حلقه، وبنطلونا كاكيا مكويا، وحذاء أسود لامعا وجوربا أبيض. كان يحمل فى جيب الجاكيت راديو ترانزستور صغير بسماعة تخرج منه. أبقى السماعة فى أذنه طوال الوقت، وكل دقيقة أو اثنتين يدخل يده فى جيبه ويعبث بمؤشر الراديو. وكلما فعل ذلك يغلق عينيه ويركز، وكأنه يستمع لرسائل من مجرة أخرى. حين سألْتُه عن المحطة التى يفضلها، قال إنها كلها سواء. قال: "لا أستمع إلى الراديو للمتعة. إنها وظيفتى. إذا أديْتُها بالشكل الصحيح، أستطيع أن أعرف ما يجرى للمتفجرات الكبرى تحت المدينة".

"المتفجرات الكبرى؟"

"القنابل الهيدروجينية. حصلوا على دستة منها مخزونة فى الأنفاق تحت الأرض، ويحركونها باستمرار حتى لا يعرف الروس مكانها. لابد أن هناك مائة موقع مختلف فى قاع المدينة، أعمق من قطار الأنفاق".

"ما علاقة ذلك بالراديو؟"

"يقدمون المعلومات فى شفرة. حين يوجد بث حى فى إحدى المحطات، يعنى ذلك أنهم ينقلون المتفجرات. مباريات البيسبول من أفضل المؤشرات. إذا كسب فريق ميتس خمسة أهداف مقابل اثنين، يعنى ذلك أنهم سيضعون المتفجرات فى الموضع رقم اثنين وخمسين. إذا خسر ستة مقابل واحد، يعنى ذلك الموقع رقم ستة عشر. الأمر بسيط جدا حقا بمجرد أن تعرفه".

"ماذا عن يانكيز؟"

"أى فريق له مباراة فى نيويورك، تلك هى النتيجة التى تشاهدها. لا يكون الفريقان قط فى بلدة فى اليوم نفسه. حين يلعب ميتس فى نيويورك، يكون يانكيز فى الطريق، والعكس بالعكس".

"لكن ماذا يفيد أن نعرف مكان القنابل؟"

"لنحمى أنفسنا. لا أعرفك، لكن فكرة التعرض لتفجير لا تجعلنى سعيدا جدا. على شخص ما أن يتتبع ما يحدث، وإذا لم يفعل شخص آخر هذا، أخمن أن هذا الشخص أنا".

كانت مسز هوم تغير ملابسها وأنا أجرى هذه المحادثة مع أخيها. بمجرد أن استعدت، خرجنا جميعا من الشقة وأخذنا سيارة أجرة إلى محطة العبارة وسط المدينة. كان يوما رائعا، سماوات زرقاء صافية وهبة ريح منعشة فى الهواء. أتذكر الجلوس فى المقعد الخلفى والإناء فى حجرى، مستمعا إلى شارلى يتحدث عن إفينج والسيارة تسير فى الطريق السريع فى ويست سايد. تقابلا عدة مرات على ما يبدو، وبعد استنفاد إحدى الروابط بينهما (يوتا)، بدأ يقدم حكاية مشتتة ومجزأة عن الأيام التى قضاها فى الخارج هو نفسه. قال إنه قضى تدريبه على قاذفات القنابل فى ويندوفر أثناء الحرب، هناك وسط الصحراء، مدمرا مدنا صغيرة من الملح. قام بثلاثين طلعة أو أربعين على ألمانيا، وعند نهاية الحرب أعادوه إلى يوتا ووضعوه فى برنامج القنبلة الذرية. قال: "كان يفترض أننا لا نعرف، لكننى اكتشفت الأمر. إذا وجد جزءا من المعلومات، يتأكد الباقون من أن شارلى باكون يستطيع العثور عليه. فى البداية كانت هناك بج بوى، التى أسقطوها على هيروشيما مع الكولونيل تيبتس. كان من المخطط أن أكون ضمن طاقم الطائرة التالية بعد ثلاثة أيام، الطائرة التى ذهبت إلى ناجازاكى. لم يكن هناك مفر من أن يجعلونى أفعل ذلك. تدمير بهذا الحجم من مهام الرب. ليس من حق الرجال أن يتدخلوا فى ذلك. خدعتهم بالتظاهر بالجنون. خرجت عصر يوم وبدأتُ السير فى الصحراء، فى كل تلك الحرارة. لم أبال بأن يطلقوا النار علىَّ. كان الأمر سيئا جدا فى ألمانيا، لكننى ما كنت لأسمح بأن يحولونى إلى أداة للتدمير. لا، يا سير، أفضل الجنون على أن أحمل ضميرى ذلك. أرى أنهم ما كانوا ليفعلوا ذلك لو كان اليابانيون بيضا. لا تصيبهم لعنة بشأن شعب أصفر. لا تلحق بهم إهانة"، وأضاف فجأة متحولا إلى كيتى "لكنهم يرون أن الشعب الأصفر ليس أفضل من الكلاب. ماذا تظنين أننا نفعل فى جنوب شرق آسيا الآن؟ المجموعة نفسها، نقتل الشعب الأصفر أينما وجدناه. الأمر يشبه ذبح الهنود مرة أخرى. الآن لدينا القنابل الهيدروجينية بدلا من القنابل الذرية. لا يزال الجنرالات يصنعون أسلحة جديدة فى

يوتا، بعيدا عن أى شىء، حيث لا يمكن لأحد أن يراهم. تذكر تلك الأغنام التى ماتت العام الماضى؟ ستة آلاف رأس. أطلقوا غازا ساما جديدا فى الهواء، ومات كل شىء على بعد أميال. لا يا سير، ليست هناك وسيلة ليضعوا تلك الدماء فى يدى. الشعب الأصفر، الشعب الأبيض، ما الفرق؟ كلنا سواء، أليس كذلك؟ لا، يا سير، ليست هناك وسيلة تجعل بها شارلى باكون يقترف عملا قذراً. أفضل أن أكون مجنونا ولا أعبث بتلك المتفجرات".

توقف مونولوجه بوصولنا، وانسحب شارلى بقية اليوم فى أروقة الراديو الترانزيستور. لكنه استمتع بوجوده فى قارب، رغم إرادتى، وجدْتُ أننى فى حالة جيدة أيضا. كان هناك شىء غريب فى مهمتنا محا بشكل ما احتمال الأفكار السوداء، وحتى مسز هوم تمكنت من الاستمرار فى الرحلة دون أن تزرف دمعة. والأكثر أهمية أننى أتذكر كم بدت كيتى جميلة فى ثيابها القصيرة، والرياح تهب على شعرها الأسود الطويل ويدها الصغيرة الفاتنة فى يدى. لم يكن القارب مزدحمًا فى ذلك الوقت من اليوم، وكانت النوارس أكثر من الركاب على ظهر القارب معنا. بمجرد أن رأينا تمثال الحرية فتحْتُ الإناء وقذفت الرماد فى الرياح. كان خليطا من الأبيض والرمادى والأسود، واختفى فى ثوانٍ. كان شارلى يقف إلى يمينى، وكيتى إلى يسارى وذراعها حول مسز هوم. تتبعنا جميعا الطيران القصير المحموم للرماد حتى لم يعد هناك ما نراه، ثم التفت شارلى إلى أخته وقال: "هذا ما أريد أن تفعليه لى يا ريتا. بعد أن أموت، احرقينى واقذفى بى فى الهواء. مشهد رائع، رقص فى كل الاتجاهات فى وقت واحد، إنه أروع مشهد فى العالم".

بمجرد أن رست العبارة إلى حوض السفن فى جزيرة ستاتن، استدرنا وأخذنا القارب التالى إلى المدينة. أعدت مسز هوم عشاء مناسبا لنا، وبعد أقل من ساعة من وصولنا إلى الشقة، جلسنا إلى المائدة وبدأنا نأكل. انتهى كل شىء. كانت حقيبتى جاهزة، وبمجرد الانتهاء من الطعام، يكون علىَّ الخروج من منزل إفينج للمرة الأخيرة. كانت مسز هوم تخطط للبقاء هناك حتى يستقر الوضع. قالت (مشيرة إلى الإرث الذى

يفترض أن تتسلمه طبقا للوصية) إنها إذا سار كل شيء بشكل جيد، ستذهب إلى فلوريدا مع شارلي وتبدأ حياة جديدة. أخبرتني، ربما للمرة الخمسين، بأنها ترحب ببقائي في الشقة كما أحب، وللمرة الخمسين قلت لها إن لدي مكانا أعيش فيه مع إحدى صديقات كيتي. كانت تريد أن تعرف خططي. ماذا سأفعل؟ لا مبرر للكذب عليها في تلك النقطة. قلْتُ: "لستُ متأكدا. عليَّ أن أفكر في الأمر. لكن شيئا ما سيظهر حتما قبل مرور وقت طويل".

كانت هناك أحضان ودموع عاطفية عند الوداع. وعدنا بأن نبقى على اتصال، لكننا بالطبع لم نبق، وكانت آخر مرة أراها فيها.

قالت عند الباب: "أنت رائع أيها السيد الشاب، ولن أنسى أبدا كم كنت طيبا مع مستر توماس. لم يكن يستحق هذا العطف نصف الوقت".

قلْتُ: "الجميع يستحقون العطف بصرف النظر عن حقيقتهم".

كنت أنا وكيتي قد خرجنا من الباب ووصلنا إلى منتصف الردهة حين جاءت مسز هوم تتدحرج خلفنا، قائلة: "كدت أنسى، ثمة شيء يفترض أن أعطيه لك". عدنا إلى الشقة، حيث فتحت مسز هوم خزانة الردهة وأخرجت حقيبة بقالة بنية مجعدة من الرف العلوي، وقالت: "أعطاني مستر توماس هذه الحقيبة في الشهر الماضي. وطلب مني أن أحتفظ بها حتى وقت رحيلك".

كنت على وشك أن أضع الحقيبة تحت ذراعي وأخرج مرة أخرى، لكن كيتي استوقفتني وقالت: "أليس لديك فضول لتعرف ما فيها؟"

قلْتُ: "اعتقدْتُ أن عليَّ أن أنتظر حتى أخرج. إن كانت قنبلة".

ضحكت مسز هوم على ذلك وقالت: "ما كنت لأضعها بجوار الجبان العجوز".

"بالضبط. مزحة أخيرة من الجانب الآخر من القبر".

قالت كيتي: "حسنا، سأفتح الحقيبة إن لم تفتحها. ربما يكون فيها شيء رائع".

قلْتُ لمسز هوم: "ترين كم هى متفائلة. تأمل فى الأفضل دائما".

قال شارلى مندفعا بشغف فى المحادثة: "دعْها تفتحها. أراهنك أن بداخلها هدية قيمة".

قلت معطيا الحقيبة لكيتى: "حسنا. حيث إننى خسرت فى التصويت، فسوف أتركك تحظين بالشرف".

برقة لا نظير لها فتحت كيتى الفتحة المتشابكة وحدقت فى الحقيبة. حين تطلعت إلينا مرة أخرى، توقفت لحظة مرتبكة، ثم ظهرت على وجهها ابتسامة انتصار عريضة. ودون أن تنطق بكلمة، قلبت الحقيبة رأسا على عقب وأفرغت محتوياتها على الأرض. جاءت النقود مرفرفة، كميات كبيرة من العملات القديمة المغضنة. شاهدنا فى صمت العملات فئة عشر دولارات وفئة عشرين وخمسين تتساقط عند أقدامنا. عموما كانت أكثر من سبعة آلاف دولار.

٦

جاءت بعد ذلك فترة استثنائية. عشت الشهور الثمانية أو التسعة التالية بطريقة لم تكن ممكنة من قبل، وحتى النهاية، أعتقد أننى اقتربت من الفردوس الإنسانى أكثر من أى وقت فى السنوات التى قضيْتُـها على الكوكب. لم تكن النقود فقط (على الرغم من أنه لا يمكن التقليل من شأن النقود)، لكن المفاجأة التى انعكس بها كل شىء. خلصنى موت إفينج من الارتباط به، لكن إفينج خلصنى فى الوقت ذاته من الارتباط بالعالم، ولأننى كنت شابا، ولأننى لم أعرف إلا القليل عن العالم، كنت عاجزا عن فهم أن هذه الفترة من السعادة يمكن أن تنتهى. تهت فى الصحراء وفجأة وجدْتُ كنعان، أرض الميعاد. فى ذلك الوقت، كان يمكننى فقط أن أتهلل، وأركع على ركبتى شكرا، وأقبِّل الأرض التى أقف عليها .كان الوقت لا يزال مبكرا جدا بدرجة تجعلنى لا أظن أن أى شىء من هذا يمكن أن يتحطم، مبكرا جدا بدرجة تجعلنى لا أتخيل المخرج الذى يقع أمامى.

انتهت السنة الدراسية بالنسبة لكيتى بعد أن أخذْتُ النقود بأسبوع تقريبا، وبحلول منتصف يونيو وجدنا مكانا نعيش فيه. بأقل من ثلاثمائة دولار شهريا، بدأنا العيش معا فى غرفة علوية واسعة مغبرة فى برودواى شرقا، لا تبعد كثيرا عن ميدان شاتهام وجسر منهاتن. كان قلب الحى الصينى، وكيتى هى التى قامت بترتيب كل شىء، مستخدمة الارتباطات الصينية مساومة المالك لإعطائنا عقد إيجار لمدة خمس سنوات مع خصم جزئى من الإيجار مقابل أى تحسين هيكلى نقوم به. كانت سنة ١٩٧٠، وباستثناء بعض الرسامين والمثالين الذين حولوا الغرف العلوية إلى أستوديوهات، كانت فكرة العيش فى مبانٍ تجارية قديمة قد بدأت تنتشر فى نيويورك. كانت كيتى تريد المساحة للرقص (أكثر من ألفى قدم مربع)، وفتنت أنا نفسى بفكرة السكن فى مستودع سابق بأنابيب مكشوفة وأسقف من الصفيح الصدئ.

اشترينا موقداً مستخدما وثلاجة من لوير إيست سايد، ثم اشترينا دشا بدائيا وسخانا وُضع فى الحمام. بعد تمشيط الشوارع للعثور على أثاث مرمى– طاولة، خزانة

كتب، ثلاثة مقاعد أو أربعة، وخزانة خضراء متمايلة- اشترينا لأنفسنا مرتبة فوم وبعض أدوات المطبخ. لم يشغل الأثاث شيئا من سعة المكان، ولكن حيث إننا ننفر من الفوضى، وجدنا نفسينا قانعين بالحد الأدنى البسيط من الديكور ولم نقم بأى إضافات أخرى. بدلا من إنفاق مبالغ كبيرة على الغرفة- تبين أننى أنفقْتُ ما يقرب من ألف دولار- خرجنا فى مهمة للتسوق لشراء ملابس جديدة. وجدت كل ما أحتاج إليه فى أقل من ساعة، ثم تنقلنا بقية اليوم من محل إلى آخر بحثًا عن ملابس مناسبة لكيتى. ولم نجدها إلا بعد أن رجعنا فى النهاية إلى الحى الصينى: شيباو حرير لازوردى لامع ، به تطريز بالأحمر والأسود. كان نموذجيا لسيدة التنين، بفتحة على جنب وضيقا فائتا عند الوركين والثديين. وبسبب سعره الباهظ، أتذكر أنه كان على أن أثنى ذراع كيتى لتتركنى أشتريه لها، لكنها كانت نقودا تصرف بشكل جيد بقدر اهتمامى، ولم أمل قط من رؤيتها ترتديه. حين يبقى فى الخزانة وقتا طويلا، أبتكر مبررا للذهاب إلى مطعم لمجرد أن أشاهدها به. كانت كيتى حساسة دائما لأفكارى القذرة، وبمجرد أن فهمت عمق شغفى بذلك الفستان، كانت تلبسه أحيانا فى المنزل فى ليال معينة حين نبقى فيه- تضعه بهدوء على جسمها العارى مقدمة للإغواء.

كان الحى الصينى يشبه بلداً غريبًا بالنسبة لى، وكلما خرجت إلى الشوارع يغمرنى إحساس بالحيرة والارتباك. كانت أمريكا، لكننى لم أفهم ما يقوله أى شخص، لم أستطع اختراق معانى الأشياء التى أراها. حتى بعد أن عرفت بعض أصحاب المحلات فى الحى، كان تواصلنا يقتصر على ابتسامات مؤدبة وإيماءات مسعورة، لغة إشارة مجردة من أى محتوى حقيقى. لم أعثر على مدخل يتخطى الأسطح الصماء للأشياء، وأحيانًا كان هذا الإقصاء يجعلنى أشعر وكأننى أعيش فى عالم الأحلام، متنقلا بين حشود من أناس كالأشباح يضعون أقنعة على وجوههم. على عكس ما كنت أظن، لم أبالِ بأن أكون دخيلا. كانت خبرة منشطة بشكل غريب، وعلى المدى الطويل بدا أنها تعزز جدة كل ما كان يحدث لى. لم أشعر بأننى انتقلْتُ إلى جزء آخر من البلدة. إننى قطعت نصف المسافة حول العالم لأكون فى ذلك المكان، وكان يبرر ألا يكون أى شىء مألوفًا لى بعد اليوم، حتى نفسى.

بمجرد استقرارنا فى الغرفة العلوية، وجدت كيتى وظيفة لها بقية الصيف. حاولت أن أثنيها عن ذلك، مفضلا أن أعطيها النقود وأجنبها مشاكل الذهاب إلى العمل، لكن كيتى رفضت. قالت إنها تريد أن تكون الأمور عادية، ولا تحب فكرة أن يتكفل بها طوال الوقت. كانت القضية كلها أن نجعل النقود تبقى، أن ننفقها ببطء بقدر ما نستطيع. وكانت كيتى دون شك أكثر حكمة منى فى هذه الأمور، فاستسلمت لمنطقها الأسمى. وقَّعتْ لوكالة سكرتارية مؤقتة، وبعد ثلاثة أيام بالكاد وجدوا لها وظيفة فى بناية ماكجرو-هل فى الشارع السادس فى إحدى المجلات التجارية. سخرنا من عنوان تلك المجلة كثيرا جدا حتى إننى لا يمكن ألا أتذكره، وحتى الآن لا يمكننى أن أقوله دون أن أبتسم: "البلاستيك الحديث: جريدة تغليف البلاستيك الكلى". كانت كيتى تعمل هناك من التاسعة إلى الخامسة يوميا، مسافرة ذهابا وعودة فى قطار الأنفاق مع ملايين من الركاب الآخرين فى حر الصيف. لم يكن الأمر سهلا بالنسبة لها، لكن كيتى لم تكن من النوع الذى يشكو من هذه الأشياء. كانت تتدرب على الرقص ساعتين أو ثلاثا فى المساء، ثم تستيقظ مرة أخرى متألقة وفى وقت مبكر من اليوم التالى تخرج إلى مهمة أخرى فى المكتب. وهى فى العمل كنت أهتم بالأعمال المنزلية والتسوق، وأتأكد دائما من وجود عشاء لها حين تعود إلى البيت. كان هذا أول تذوق لى للحياة المنزلية، واندمجت فيه بشكل طبيعى دون تفكير. لم يتحدث أى منا عن المستقبل، لكن عند نقطة معينة، ربما بعد شهرين أو ثلاثة من العيش معا، أعتقد أننا بدأنا نتوقع أننا نسير باتجاه الزواج.

أرسلْتُ نعى إفينج إلى التايمز، لكننى لم أحصل على رد منهم ولا حتى مذكرة رفض. ربما فقدت رسالتى أو ربما ظنوا أنها مرسلة من قبل شخص مهووس. الجزء الأطول، الذى أحلته بإحساس بالواجب إلى "عالم الفن الشهرية" كما طلب إفينج، رفض، لكننى لا أظن أن حذرهم كان غير مبرر. كما شرح المحرر لى فى رسالته، لم يسمع أحد من المحررين بجوليان بربر، وإذا لم أستطع أن أزودهم بصور واضحة من أعماله، سيكون نشر المقال مخاطرة شديدة جدا بالنسبة لهم. واصلت الرسالة: "ولا أعرف من أنت أيضا يا مستر فج، لكن يبدو لى وكأنك ابتكرت خدعة مدروسة. وهذا لا

يعنى أن قصتك ليست مؤثرة، لكن أظن أن حظك قد يكون أفضل فى النشر إذا أسقطْتَ اللعبة وأحلْتَها إلى مكان ما باعتبارها عملا قصصيا".

شعرْتُ أننى مدين بها لإفينج لأبذل على الأقل بعض الجهد لصالحه. فى التالى لتسلّم هذه الرسالة من "عالم الفن الشهرية"، ذهبْتُ إلى المكتبة للحصول على نسخة فوتوستاتية من نعى بربر سنة ١٩١٧، وأرسلتها إلى المحرر مع رسالة قصيرة. كتبْتُ: "كان بربر شابا وفنانا مبهما بشكل لا يمكن إنكاره عند اختفائه، لكنه كان موجودا. وأثق فى أن هذا النعى من نيويورك صن سيبرهن على أن النعى الذى أرسلته إليكم صادق". استلمت اعتذارًا بالبريد فى هذا الأسبوع، لكنه لم يكن سوى مقدمة لرفض آخر. كتب المحرر: "أريد أن أسلم بأنه كان هناك فنان أمريكى اسمه جوليان بربر، لكن هذا لا يثبت أن توماس إفينج وجوليان بربر رجل واحد. وحتى لو كانا، دون نسخ من أعمال بربر، من المستحيل أن نعرف أى نوع من الفنانين كان. نظرا لالتباس وضعه، من المنطقى أن نفترض أننا لا نتحدث عن موهبة عظيمة. وإذا كان الوضع كذلك، لن يكون هناك معنى لأن نخصص مساحة له فى مجلتنا. وقلْتُ فى رسالتى الأخيرة إننى أشعر أن لديك مادة لرواية جيدة. أعود إلى ذلك الآن. لديك حالة فى علم نفس الشواذ. قد تكون مشوقة فى ذاتها، لكن لا علاقة لها بالفن".

تخليت عن الموضوع بعد ذلك. إذا كنت أريد، أفترض أنه كان يمكننى أن أصل إلى نسخة من إحدى لوحات بربر فى مكان ما، لكننى فى الحقيقة كنت أفضل ألا أعرف كيف تبدو أعماله. بعد الاستماع إلى إفينج شهورا عديدة، بدأْتُ بالتدريج أتخيل لوحاته بنفسى، وأدركتُ أننى كنت معارضا لأى تشويش للأوهام الجميلة التى ابتكرْتُها. كان نشر المقال يعنى تدمير تلك الصور، ولم يكن نشره يستحق ذلك. بصرف النظر عما قد تكون عليه عظمته كفنان، لا يمكن أن تناظر لوحات جوليان بربر اللوحات التى صورها لى توماس إفينج. حلمت بها من كلماته، وبهذه الطريقة كانت رائعة وغير محدودة وأكثر دقة من الواقع نفسه فى تمثيلها للواقع. طالما لا أفتح عينى، أستطيع أن أتخيلها إلى الأبد.

قضيْتُ أيامى فى تراخٍ رائع. باستثناء المهام البسيطة فى المنزل، لم تكن هناك مسئوليات يمكن الحديث عنها. كانت سبعة آلاف دولار مبلغا كبيرا فى تلك الأيام، ولم أكن تحت ضغط مباشر لأضع أى خطط. عدت إلى التدخين مرة أخرى، كنت أقرأ كتبا، وأتجول فى شوارع جنوب منهاتن، احتفظت بدفتر يوميات. وأسفرت هذه الكتابات السريعة عن عدد من المقالات القصيرة، اندفاعات نثرية صغيرة كنت أقرؤها عموما لكيتى بمجرد الانتهاء منها. حتى منذ أول لقاء بيننا، حين أبهرتها بخطبتى عن سيرانو، اقتنعتْ بأننى سأصبح كاتبا، وكنت أجلس والقلم فى يدى يوميا، بدا وكأن نبوءتها تحققت. من بين كل الكتاب الذين قرأت لهم، كان مونتين الملهم الأكبر. مثله، حاولْتُ استخدام خبراتى الخاصة دعامات لما أكتبه، وحتى حين تدفعنى المادة إلى منطقة واسعة ومجردة، لا أشعر أننى أقول شيئًا محدَّدًا فى تلك المواضيع بقدر ما أكتب نسخة خفية من قصة حياتى. لا أستطيع أن أتذكر كل ما كتبت، لكن على الأقل أتذكر بعضها حين أجتهد بما فيه الكفاية: تأمل فى النقود، على سبيل المثال، وأخرى عن الملابس؛ مقال عن الأيتام، وقطعة طويلة إلى حد ما عن الانتحار، كانت إلى حد كبير مناقشة لجاك ريجو، من الداديين الفرنسيين الثانويين، أعلن فى التاسعة عشرة أنه يعطى لنفسه عشر سنوات أخرى يعيشها، وحين بلغ التاسعة والعشرين، التزم بكلمته وفى اليوم المحدد أطلق النار على نفسه. أتذكر أيضا إجراء بحث عن تيسلا كجزء من مشروع يتناول قضية الآلات مقابل العالم الطبيعى. ذات يوم، وأنا أتفحص محلا للكتب القديمة فى الشارع الرابع، عثرت صدفة على نسخة من السيرة الذاتية لتيسلا، "ابتكاراتى"، وقد نشرها فى الأصل سنة ١٩١٩ فى مجلة اسمها "مهندس الكهرباء". أخذت المجلد الصغير معى إلى البيت وبدأْتُ قراءته. بعد عدة صفحات فى النص، صادفْتُ الجملة نفسها التى وجدتها فى كعكة الحظ فى قصر القمر قبل سنة تقريبا: "الشمس الماضى، والأرض الحاضر، والقمر المستقبل". كانت الورقة لا تزال فى محفظتى، وارتبكْتُ حين علمت أن هذه الكلمات كتبها تيسلا، الرجل نفسه الذى كان مهما جدا بالنسبة لإفينج. بدا تزامن هذه الأحداث مفعمًا بالمعنى، وكان من الصعب أن أقبض على الكيفية بدقة. بدا وكأننى أستطيع أن أسمع مصيرى ينادينى، لكن كلما

حولت الاستماع إليه، تبين أنه يتحدث بلغة لا أفهمها. هل قرأ عامل فى مصنع كعك الحظ الصينى كتاب تيسلا؟ بدا أمرا غير مستساغ، وحتى لو قرأه، لماذا كنت الشخص الذى اختار على مائدتنا الكعكة التى بها هذه الرسالة الخاصة؟ لم تكن لى حيلة فى الشعور الذى اهتز بما حدث. كان عقدة لا يمكن النفاذ منها، وبدا أنه لا يمكن أن يفسره إلا حل غريب: مؤامرات غريبة للمادة، إشارات سابقة على الإدراك، هواجس، مشهد للعالم يشبه عالم شارلى باكون. تخليت عن مقالى عن تيسلا وبدأتُ استكشاف مسألة الصدف، لكننى لم أتقدم فيه كثيرا. كان موضوعا أصعب من أن أتناوله، وفى النهاية وضعْتُه جانبًا، قائلا لنفسى إننى سأعود إليه فيما بعد. وشاء الحظ ألا أنجزه قط.

بدأت كيتى دراستها فى جويليارد فى منتصف سبتمبر، وقرب نهاية الأسبوع الأول، وصلنى أخيرا خطاب من سليمان بربر. انقضت أربعة أشهر تقريبا على موت إفينج، ولم أكن أتوقع أن يكتب. لم يكن ضروريا على أى حال، ونظرا للاستجابات الكثيرة المختلفة التى تبدو محتملة بالنسبة لرجل فى وضعه- صدمة، استياء، سعادة، رهبة - لم أستطع أن آخذ موقفًا ضده لأنه لم يتصل. أن تقضى الأعوام الخمسين الأولى من حياتك وأنت تعتقد أن أباك ميت، ثم تكتشف أنه كان حيا طوال الوقت، لتعرف فقط فى اللحظة نفسها أنه مات الآن حقا، لم أستطع حتى أن أخمن كيف يمكن لشخص أن يتفاعل مع انهيار تلك النسب. لكن جاءت رسالة بربر بالبريد: رسالة لطف واعتذار، مملوءة بشكر مفرط على كل ما فعلته لمساعدة والده فى الشهور الأخيرة من حياته. وقال إنه يرحب بفرصة الكلام معى، وإذا لم يكن يطلب الكثير، فإنه يتساءل إن كان يمكن أن يأتى إلى نيويورك فى نهاية أسبوع فى ذلك الخريف. كانت نبرته مهذبة ولبقة، بحيث لا يمكن أن أرفض. بمجرد انتهائى من قراءة الرسالة، كتبت الرد وقلت إننى سأكون سعيدا بأن ألقاه وقتما يختار الحضور.

طار إلى نيويورك بعد ذلك بوقت قصير، صباح يوم جمعة فى بداية أكتوبر، بالضبط مع بداية تغير الطقس. بمجرد وصوله إلى فندقه، "ورويك" فى وسط المدينة، اتصل ليخبرنى بوصوله، ورتبنا لقاء فى اللوبى بمجرد وصولى. وحين سألْتُه كيف يمكن

أن أتعرف به، ضحك برقة فى التليفون قائلا: "إننى أضخم شخص فى المكان، لا يمكن أن تخطئنى. لكن فقط فى حالة وجود رجل آخر فى حجمى، سأكون الأصلع، الشخص الذى لا يوجد شعر فى رأسه".

كما اكتشفْتُ بسرعة، لم تكن كلمة "ضخم" منصفة بالنسبة له. كان ابن إفينج هائلا، فريداً فى حجمه، كتلة هائلة من لحم مكوم على لحم. لم أقابل أحداً فى حجمه قبل ذلك، وحين رأيْتُه أول مرة يجلس على أريكة فى لوبى الفندق، ترددْتُ فى الاقتراب منه. كان واحدا من الرجال البدينين بشكل بشع، الذين تمر بهم أحيانا فى حشد: مهما كافحْتَ لتشيح بعينيك، لا حيلة لك فى أن تحدق فيه. كان جبارا فى بدانته، شخصاً باستدارة منتفخة وبارزة لا يمكن أن تنظر إليه دون أن تنكمش. وكأن أبعاده الثلاثة أكثر وضوحاً من أبعاد الرجال الآخرين. لم يكن فقط يحتل فضاء أكثر منهم، لكن بدا أنه يغمره، لينز من حواف نفسه ويسكن مناطق لا يوجد فيها. جالسا فى استرخاء، برأس فرس بحر أصلع يبرز من ثنايا عنقه الهائل، يتمتع بخاصية أسطورية، بشىء أذهلنى بوصفه فاحشاً ومأساويا. لا يمكن أن يكون إفينج الهزيل والضئيل أباً لمثل هذا الابن: كان حدثاً وراثيا، بذرة منشقة نمت بشكل وحشى، وأزهرت متجاوزة كل المقاييس. للحظةٍ أو اثنتين، تمكنت من إقناع نفسى بأنه هلوسة، لكن عيوننا التقت، وأشرق وجهه بابتسامة. كان يرتدى بدلة خضراء من التويد وينتعل حذاء "هوش بوبى" أسمر. لم يبد السيجار الذى احترق نصفه أكبر من دبوس.

سألْتُ: "سليمان بربر؟"

قال: "نعم. ولابد أنك مستر فج. يشرفنى أن ألقاك يا سير".

كان صوته ضخما ورنانا يدمدم قليلا من بين دخان السيجار فى رئتيه. صافحت اليد الضخمة التى قدمها لى وجلسْتُ بجواره على الأريكة. لم ينطقْ أى منا للحظات بأى شىء آخر. تلاشت الابتسامة ببطء من وجه بربر، واتخذت ملامحه تعبيرا مضطرباً بعيداً. يتفحصنى بشكل متعمد، ويبدو فى الوقت ذاته مستغرقا فى التفكير، وكأن فكرة مهمة طرأت على ذهنه للتو. ثم، لسبب غير مفهوم، أغلق عينيه وأخذ نفَساً عميقًا.

قال فى النهاية: "عرفْتُ ذات يوم شخصًا اسمه فج. منذ زمن بعيد".

قلت: "ليس الاسم الأكثر شيوعا، لكن هناك بعض من يحملونه بيننا".

"كان فج هذا تلميذا لى فى الأربعينيات. كنت قد بدأت التدريس للتو".

"هل تتذكر اسمه الأول؟"

"أتذكر، لكنه لم يكن رجلا، كانت امرأة شابة. إميلى فج. كانت مبتدئة فى فصل التاريخ الأمريكى الذى أدرِّسه".

"هل تعرف من أين كانت؟"

"شيكاغو. أظن أنها كانت من شيكاغو".

"كان اسم أمى إميلى، ومن شيكاغو. هل يمكن أن تكون هناك اثنتان باسم إميلى فج فى المدينة نفسها فى الكلية نفسها؟"

"يمكن، لكن لا أظن أنه احتمال كبير. الشبه قوى جدا. تذكرتها لحظة دخولك".

قلْتُ: "صدفة بعد الأخرى. يبدو أن العالم ممتلئ بها".

قال بربر: "نعم، يمكن أن تكون مربكة تماما أحيانا"، وبدأ يعود إلى أفكاره، يبذل جهداً واضحًا. استجمع نفسه بعد بضع ثوان وواصل، قائلا: "آمل ألا تستاء من أسئلتى، لكن كيف تصادف أن تحمل اسم أمك قبل الزواج؟"

"مات أبى قبل أن أولد، وعادت أمى تسمى نفسها فج".

"آسف، لا أقصد أن أتطفل".

"حسنًا، لم أعرف أبى قط، وماتت أمى منذ سنوات".

"نعم، سمعْتُ عن موتها بعد وقت قصير من حدوثه. حادث مرور من نوع ما على ما أظن. مأساة مروعة. لابد أنه كان أمرا بشعا بالنسبة لك".

"أصيبت فى حادث حافلة فى بوسطن، وأنا لا أزال طفلا صغيرا فى ذلك الوقت".

كرر بربر، مغلقا عينيه مرة أخرى: "مأساة مروعة. كانت أمك فتاة جميلة وذكية. أتذكرها جيدا".

بعد عشرة أشهر وبربر يرقد محتضرا فى مستشفى فى شيكاغو بكسر فى العمود الفقرى، أخبرنى بأنه توقع الحقيقة مبكرا، منذ المحادثة الأولى فى لوبى الفندق. السبب الوحيد الذى جعله لا يكشف عنها أنه اعتقد أنها ستفزعنى. لم يكن يعرفنى بعد، وكان من المستحيل أن يتنبأ برد فعلى لمثل تلك الأخبار المفاجئة العنيفة. لم يكن عليه إلا أن يتخيل المشهد ليفهم أهمية أن يحفظ لسانه. غريب وزنه ٣٥٠ رطلا يدعونى إلى فندق، يصافحنى، ثم بدلا من أن نتحدث عما أتيتُ لمناقشته، ينظر فى عينى ويخبرنى بأنه أبى المفقود من زمن بعيد. بصرف النظر عن قوة الإغواء، لم يكن لينجرف. يحتمل تماما أن أعتقد أنه رجل مجنون وأرفض الحديث معه مرة أخرى. وحيث إنه كان أمامنا وقت طويل ليعرف كل منا الآخر، لم يرد تدمير فرصه باستدعاء مشهد فى وقت غير مناسب. كما هو حال الكثير من الأشياء فى القصة التى أحاول أن أرويها، تبين أن ذلك خطأ. على عكس ما تخيل بربر، لم يكن هناك وقت على الإطلاق. كان يثق فى المستقبل ليحل المشكلة، لكن ذلك المستقبل لم يأت قط ليمر. لم تكن غلطته، لكنه دفع مقابلها على الرغم من ذلك، كما دفعْتُ مقابلها معه. رغم النتائج، لم أر كيف يمكن أن يتصرف بشكل مختلف. لا أحد يمكن أن يعرف ما سيحدث؛ لا أحد يستطيع أن يخمن الأشياء السوداء المفزعة المخبأة لنا.

حتى الآن، لا أستطيع التفكير فى بربر دون أن تجتاحنى الشفقة. لو لم أعرف أبى قط، فقد كنت أعرف على الأقل أن الأب كان موجوداً ذات يوم. لابد أن يأتى الطفل من مكان ما، على الرغم من كل شىء، والرجل الذى ينجب هذا الطفل يسمى أباً شئنا أم أبينا. ومن الناحية الأخرى لم يكن بربر يعلم شيئا. نام مع أمى مرة واحدة (فى ليلة رطبة بلا نجوم فى ربيع ١٩٤٦)، وفى اليوم التالى رحلتْ، اختفت من حياته إلى الأبد. لم يعرف أنها حملت، ولم يعرف أن له ابنًا ولم يعرف الشىء الأول عما أنجزه. ونظرا

للكارثة التى تلت ذلك، يبدو أنه كان من العدل أن يتلقى شيئا مقابل آلامه، ولو لم يكن سوى معرفة ما فعل. دخلت الخادمة مبكرا فى ذلك الصباح دون أن تطرق الباب، ولأنها لم تستطع كبح الصرخة التى اندفعت من حنجرتها، كان سكان بيت النزلاء داخل الغرفة قبل أن يتمكنا من ارتداء ملابسهما. لو كانت الخادمة وحدها، ربما استطاعا ابتكار قصة، ربما حتى تملصا منها، لكن بهذه الطريقة كان هناك شهود كثيرون ضدهما. طالبة مبتدئة فى التاسعة عشرة من عمرها مع أستاذ التاريخ. كانت هناك قواعد ضد هذه الأمور، والغبى فقط الأخرق جدا هو الذى يقبض عليه، خاصة فى مكان مثل أولدبرن، أوهايو. رُفِتَ، وعادت إميلى إلى شيكاغو، وكانت النهاية. لم يبرأ مساره العملى من كبوته قط، وكان الأسوأ عذاب فقدان إميلى. التصق به بقية حياته، ولم يمض شهر (كما قال لى فى المستشفى) لم يجدد فيه وحشية رفضها، نظرة الهلع المطلق على وجهها حين طلب منها أن تتزوجه. قالت: لقد دمرتنى، وسأبقى ملعونة إذا سمحت لك برؤيتى مرة أخرى". وكما تبين، لم يرها مرة أخرى. وحين تمكن من متابعتها بعد ثلاثة عشر عاماً، كانت ترقد بالفعل فى قبرها.

من كل ما أستطيع تذكره، لم تحكِ أمى قط لأحد عما حدث. مات والداها، ومع تجوال فكتور فى البلاد مع أوركسترا كليفلند، لم يكن هناك ما يجبرها على ذكر الفضيحة. عمليا، كانت مجرد طالبة أخرى انقطعت عن الكلية، وبالنسبة لامرأة شابة فى ١٩٤٦، لم يكن ذلك يعتبر خطيرا جدا. وكان اللغز أنها حتى بعد أن علمت أنها حامل رفضت الإفصاح عن اسم الأب. سألْتُ خالى عنه عدة مرات فى السنوات التى قضيناها معًا، لكن الأمر كان غامضا بالنسبة له بقدر غموضه بالنسبة لى. قال: "إنه سر إميلى. ضغطْتُ عليها أكثر مما أودُّ أن أتذكَّر، لكنها لم تعطنى أى إشارة". كانت ولادة طفل غير شرعى فى تلك الأيام عملا جريئا وعنيدا، لكن أمى على ما يبدو لم تتردد قط. أشكرها على هذا، بالإضافة إلى كل الأشياء الأخرى. امرأة أقل إرادة كانت ستتخلى عنى للتبنى- أو، وهو الأسوأ، كان يمكن أن ترتب لإجهاض. ليست فكرة جيدة، لكن إذا لم تكن أمى كما كانت، ربما لم آت إلى العالم. إذا فعلت الشىء المعقول، ربما مت قبل أن أولد، جنين فى الشهر الثالث ملقى فى قاع سلة مهملات فى زقاق خلفى.

على الرغم من أسى بربر، لم يدهشه رفض أمي، وبمرور السنوات، وجد من الصعب أن يدينها. كان المدهش أنها كانت جذابة بالنسبة له في المقام الأول. كان في التاسعة والعشرين في ربيع ١٩٤٦، والحقيقة أن إميلي المرأة الأولى التي تذهب معه إلى السرير دون أن يدفع لها. وحتى تلك الصفقات كانت قليلة ومتباعدة. كانت المخاطرة ببساطة عظيمة جدا، وبمجرد أن علم أن الإهانة يمكن أن تقتل اللذة، لم يعد يجرؤ على المحاولة. لم يكن لدى بربر أي أوهام بشأنه نفسه. كان يفهم ما يراه الناس حين ينظرون إليه، ويعرف أنهم على حق في شعورهم تجاهه. إميلي فرصته الوحيدة، وقد فقدها. كان من الصعب أن يتقبل الأمر، لكن سيطر عليه شعور بأن هذا ما يستحقه بالضبط.

كان جسده زنزانة، حكم عليه بأن يقضي بقية حياته فيها، في سجن منسي دون سبيل للاستغاثة، أو أمل في خفض العقوبة، أو فرصة لإعدام سريع ورحيم. وصل إلى طوله الكامل حين بلغ الخامسة عشرة، في مكان ما بين ستة أقدام وبوصتين وستة أقدام وثلاث بوصات، ومنذ تلك اللحظة بدأ وزنه يزداد. كافح في سن المراهقة ليبقيه أقل من ٢٥٠ رطلا، لكن انغماسه في الطعام في وقت متأخر من الليل لم يساعده، وبدا أن النظم الغذائية لم يكن لها أي تأثير. ابتعد عن المرايا وقضى معظم الوقت وحده بقدر ما يستطيع. كان العالم عقبات من العيون المحدقة والأصابع المشيرة، وكان عرضا استثنائيا متجولا، الولد المنتفخ يتهادى وسط نوبات الضحك ويوقف الناس متخشبين في مساراتهم. صارت الكتب ملاذه في وقت مبكر، مكانا يختبئ فيه، ليس فقط من الآخرين، لكن من أفكاره أيضًا. وبالنسبة لبربر لم يشك قط فيمن ينبغي أن يلام على شكله. بدخول الكلمات التي تقف أمامه على الصفحة، يستطيع أن ينسى جسده، وساعده هذا، أكثر من أي شيء آخر، على أن يعطل الاتهامات الذاتية المضادة. منحته الكتب فرصة أن يطفو، أن يعلق وجوده في ذهنه، وطالما كانت تستغرق كل اهتمامه، يستطيع أن يوهم نفسه بالتفكير في أنه تحرر، وأن الحبال التي تربطه بمراسيه الغريبة تقطعت.

كان الأول فى الثانوية، محققا تقديرات ودرجات فى الاختبارات تذهل الجميع فى شورهام، تلك البلدة الصغيرة فى جزيرة لونج. فى يونيو من تلك السنة، ألقى خطبة حارة وإن تكن مشتتة دفاعا عن حركة دعاة السلام، والجمهورية الإسبانية، والولاية الثانية لروزفلت. كان ذلك فى ١٩٣٦ وصفق له الجمهور بحرارة وسط حرارة قاعة الألعاب الرياضية، حتى لو لم يكن من أتباع سياستهم. ثم، كما يمكن أن يفعل ابنه دون أن يدرى بعد تسعة وعشرين عاما، انطلق إلى نيويورك وقضى أربع سنوات فى كلية كولومبيا. بنهاية هذه الفترة، ثبت وزنه عند ٢٩٠ رطلا. وتخرج بعد ذلك فى التاريخ، وصاحب ذلك رفض من الجيش حين حاول أن يلتحق به. "غير مسموح للبدينين"، قال الرقيب ببسمة ازدراء. وهكذا انضم بربر إلى صفوف الجبهة الداخلية، وبقى فى الخلف من المشلولين والمعوقين ذهنيا، والصغار جدا والكبار جدا. قضى تلك السنوات فى قسم التاريخ بجامعة كولومبيا محاطا بالنساء، كتلة هائلة من لحم ذكرى تفكر فى رفوف المكتبة. لكن لم ينكر أحد أنه كان جيدا فيما يفعله. فازت أطروحته عن الأسقف بيركيلى والهنود بجائزة الدراسات الأمريكية لسنة ١٩٤٤، وبعد ذلك عرضت عليه وظائف فى عدد من الجامعات الشرقية. لأسباب لم يفصح عنها قط اختار أوهايو.

سارت السنة الأولى بشكل جيد. تبين أنه معلم محبوب، انضم لكورس الكلية "باريتون"، وكتب الفصول الثلاثة الأولى فى كتاب قصص العبودية الهندية. أخيرا انتهت الحرب فى أوروبا فى ربيع تلك السنة، وحين سقطت القنبلتان على اليابان فى أغسطس، حاول أن يعزى نفسه بالتفكير فى أن ذلك لا يمكن أن يحدث مرة أخرى. ضد كل التوقعات، بدأ العام التالى بشكل رائع. بين سبتمبر ويناير نزل بوزنه إلى ثلاثمائة رطل، وللمرة الأولى فى حياته بدأ يتطلع إلى المستقبل ببعض التفاؤل. جاء الفصل الدراسى فى الربيع بأميلى فج إلى دروس التاريخ للمبتدئين، فتاة فاتنة مرحة صارت بشكل غير متوقع متيمة به. كان الأمر أجمل من أن يكون حقيقة، وعلى الرغم من أنه بذل أقصى ما يستطيع ليتقدم بحذر، تبين له تدريجيا أن كل الأمور ممكنة. فجأة، حتى ما لم يجرؤ على تخيله من قبل. ثم جاء منزل النزلاء واندفاع الخادمة إلى الغرفة، الكارثة. شلته سرعتها المطلقة، تركته فى ذهول شديد يمنعه من القيام بأى رد فعل. حين استدعى إلى مكتب الرئيس فى وقت تال من ذلك اليوم، لم تطرأ على ذهنه حتى فكرة الاعتراض على الرفت. عاد إلى غرفته، وحزم حقائبه، وانصرف دون أن يودع أحداً.

استقل قطار الليل إلى كليفيلند، حيث نزل فى حجرة فى جمعية الشبان المسيحية. كانت خطته الأولى أن يلقى بنفسه من النافذة، لكن بعد ثلاثة أيام من انتظار اللحظة المناسبة، أدرك أنه يفتقر إلى القوة. بعد ذلك قرر أن يستسلم، تخلى عن الكفاح إلى الأبد. قال لنفسه إنه إذا لم تكن لديه الشجاعة ليموت، فعليه على الأقل أن يواصل العيش رجلا حرا. كان ذلك مؤكدا إلى حد كبير. لم يعد يخجل من نفسه؛ لم يعد يترك الآخرين يحددون حقيقته. فى الشهور الأربعة التالية، شق طريقه إلى حافة النسيان، يلتهم فطائر بالكريم وكعكا، ويتناول بطاطس بالزبد وخبزا محمصا منقوعا فى الحساء، ويتناول فطائر محلاة، ودجاجا محمرا، وآنية ضخمة من الشودر[1] مع اكتمال ثورته، أضاف إلى وزنه سبعة وثلاثين رطلا جديدا، لكن الأرقام لم تعد مهمة. توقف عن النظر إليها، ومن ثم لم تعد موجودة.

كلما زاد وزنه، دفن نفسه فيه بمزيد من العمق. كان هدف بربر أن يعزل نفسه عن العالم، أن يجعل نفسه غير مرئى فى ضخامة لحمه. قضى تلك الشهور فى كليفيلند يتعلم تجاهل ما يعتقده الغرباء بشأنه، محصنا نفسه ضد ألم أن يُرَى. كل صباح، كان يختبر نفسه بالسير فى شارع أقليدس فى ساعة الذروة، وفى أيام السبت وأيام الأحد سعى إلى قضاء العصر فى منتزه "ويى"، عارضا نفسه لأكبر عدد ممكن من الناس، متظاهرا بأنه لا يسمع ما يقوله المغفلون، راغبا فى ارتداد نظراتهم عنه. كان وحده، انفصل تماما عن الجميع: شخص منتفخ يشبه البيضة يمشى متثاقلا بين خرائب وعيه. لكنه دفع الثمن، ولم يعد يخشى هذه العزلة. بالانهماك فى الفوضى التى تسكنه، صار سليمان بربر فى النهاية، شخصية مرموقة، شخصا ما، عالمًا فى نفسه، مخلوقا ذاتيا.

جاءت اللمسة النهائية بعد عدة سنوات، حين بدأ بربر يفقد شعره. فى البداية بدا مثل تورية سيئة- رجل أصلع اسمه بربر-[2] لكن حيث إن الشعر المستعار وخصلاته كانت خارج تفكيره، لم يكن أمامه من اختيار سوى أن يتعايش معه. ذبلت الحديقة

١- الشودر chowder: حساء سمك وبطاطس وبصل.

٢- بربر Barber: الاسم بمعنى الحلاق أو يحلق.

الجميلة على رأسه تدريجيا. حيث كانت تنمو أدغال من لفائف بنية محمرة، لم يعد هناك سوى فروة رأس أصلع، رقعة جدباء من الجلد العارى. لم يحب هذا التغير فى مظهره، لكن كان الأكثر إزعاجًا أنه كان خارجا عن سيطرته تماما. دفعه إلى علاقة سلبية مع نفسه، وهذا بالضبط ما لم يعد يحتمله. ذات يوم، والعملية اكتمل نصفها تقريبا (شعر على الجانبين، وصلع فى القمة)، التقط موسًا بهدوء وحلق ما تبقى. كانت نتيجة هذه الخبرة أكثر تأثيرا مما اعتقد. وجد بربر أن له رأسا حجريا ضخمًا، رأسا أسطوريا، وهو يقف لينظر إلى نفسه فى المرآة، بدا له على الفور أن الكرة الفسيحة لجسمه، ينبغى أن يكون لها قمر يتناسب معها. منذ ذلك اليوم، عالجه بعناية شديدة، يدلكه كل صباح بالكريمات والزيوت ليحافظ على لمعانه ونعومته، ويدلله بتدليك كهربى، متأكدا من حمايته دائمًا. بدأ يلبس قبعات، كل أنواع القبعات، وتدريجيا صارت شارة شذوذه، العلامة النهائية لحقيقته. لم يعد فقط سليمان بربر البدين، صار "الرجل الذى يلبس القبعات". تطلب الأمر بعض الجرأة ليفعل ما فعل، لكنه تعلم أن يجد متعة فى زيادة غرابته، مكتسبا أدوات متعددة مع الطريقة التى تعزز موهبته فى إرباك الآخرين. كان يلبس قبعات مستديرة سوداء وطرابيش، وكابات بيسبول وفيدورا، وخوذات ناعمة، وقبعات رعاة البقر، ما يأسر ولعه، دون اعتبار للأسلوب أو العرف. بحلول عام ١٩٥٧، ازدادت مجموعته بشكل كبير حتى إنه كان يلبس ثلاثة وعشرين يوما دون أن يرتدى القبعة نفسها مرتين.

بعد محنة أوهايو (كما أشار بعد ذلك إلى ما جرى)، وجد بربر عملا فى عدد من الكليات الصغيرة غير المتميزة فى الغرب الأوسط والغرب. ما اعتبره فى البداية مخرجا مؤقتا استمر أكثر من عشرين عامًا، وحين انتهت كانت خريطة جراحة مُحاطة بنقط فى كل ركن من الوسط: إنديانا وتكساس، نيبراسكا وأوكلاهوما، داكوتا الجنوبية وكانساس، إداهو ومينسوتا. لم يمكث قط فى أى مكان أكثر من عامين أو ثلاثة، وبينما بدت المدارس متماثلة، كانت الحركة المستمرة تحميه من الضجر. كان بربر يتمتع بقدرة كبيرة على العمل وفى الهدوء المغبر لتلك الانسحابات كان من النادر أن يفعل شيئا آخر، ينتج باستمرار مقالات وكتبا، ويحضر مؤتمرات ويلقى محاضرات، ويكرس

ساعات طويلة لطلابه وفصوله الدراسية، ولم يفشل قط فى الظهور كأفضل مدرس فى الحرم الجامعى. لم تكن قدرته بوصفه أكاديمى محل شك، لكن حتى بعد أن بدأت فضيحة أوهايو تشحب، ظلت المدارس الكبيرة ترفضه. تحدث إفينج عن ماكارثى، لكن الغزوة الوحيدة لبربر فى سياسات الجناح اليسارى كمرافقًا مع حركة السلام تعود إلى كولومبيا فى الثلاثينيات. لم يوضع فى القائمة السوداء بأى معنى رسمى، لكن كان من السهل لمنتقديه أن يحيطوا اسمه بتلميحات يسارية، كما لو كان ذلك فى النهاية مبررا أفضل لرفضه. لم يفصح أحد عن ذلك مباشرة، لكن ساد شعور بأن بربر ببساطة غير مناسب. كان ضخما جدا، بشكل ما، صعب المراس جدا، غير تائب تماما. تخيل شخصا ضخما وزنه ٣٥٠ رطلا يتحرك بتثاقل خلال ساحات "ييل" بقبعة رعاة البقر. لم يكن ذلك مناسبا بالضبط. لم يكن الرجل يحمل عارا، ولم يكن يفتقر إلى الإحساس باللياقة. كان مجرد وجوده يمكن أن يعطل نظام الأشياء، ولماذا تتورط فى مشكلة حين يكون هناك مرشحون كثيرون للاختيار من بينهم؟

ربما كان كل ذلك يسير به نحو الأفضل. بالبقاء فى الأطراف، استطاع بربر أن يبقى كما يريد. كانت الكليات الصغيرة تسعد بانضمامه إليها، وليس لأنه فقط أبدن بروفيسور يمكن أن يراه أحد، ولكن لأنه أيضا "الرجل الذى يلبس القبعات، كان معفى بشكل رحيم من المشاجرات والمؤامرات التافهة التى تسمم الحياة فى الأقاليم. كان كل ما يتعلق به ضخما ومفرطا جدا، خارج المعتاد بشكل فظيع، بحيث لا يجرؤ أحد أن يحكم عليه. وصل فى أواخر الصيف، مغبرا تماما من أيامه على الطريق، وسحب عالية خلف سيارته المستهلكة التى يتصاعد منها العادم. وإذا كان هناك طلبة، يستخدمهم فجأة لحمل أشيائه ثم يدعوهم جميعا للغداء. وساعد ذلك دائما على ضبط الأمور. قد يرون مجموعة كتبه المذهلة، القبعات التى لا تعد، وطاولة خاصة للكتابة صنعت له فى "توبيكا"، طاولة القديس توما الأكوينى، كما كان يسميها، وقد أزيل من سطحها نصف دائرة كبيرة لتتناسب مع بطنه. كان من الصعب ألا تفتن وأنت تشاهده يتحرك بطريقته متقطع الأنفاس وصدره يئز، ناقلا كتلته الهائلة ببطء من مكان إلى آخر، ويدخن باستمرار ذلك السيجار الطويل وقد تساقط الرماد على ملابسه كلها. كان الطلاب

ينكتون عليه من خلف ظهره، لكنهم كانوا أيضا مخلصين له، وبالنسبة لأبناء الفلاحين وأصحاب المحلات والوزراء وبناتهم، كان أقرب من عرفوه من التألق الحقيقى. بشكل حتمى، كانت هناك فتيات تخفق قلوبهن له (مما يبرهن على أن العقل يمكن فى الحقيقة أن يكون أقوى من الجسد)، لكن بربر تعلم الدرس، ولم يقع فى الفخ مرة أخرى قط. كان يحب سرا التفاف الفتيات حوله، لكنه يتظاهر بعدم الفهم، ممثلا دوره باعتباره زاهد علم، مخصيا مرحا شق طريقه بعيدا عن الرغبة. كانت مسألة مؤلمة، لكنها منحته وسيلة للحماية، وإذا لم يكن ذلك مفيداً دائمًا، فقد تعلم على الأقل أهمية أن يبقى الستائر مفرودة والأبواب مغلقة. فى كل سنوات تجواله، لم يمسك عليه أحدٌ غلطةً. كان يغمرهم بتفرده، وقبل أن يجد زملاؤه فرصة للضجر منه يكون قد انتقل بالفعل إلى مكان آخر مودعا ومتلاشيا فى الغروب.

طبقا لما قاله لى بربر، التقى بالخال فكتور مرة، لكن بالتفكير فى تفاصيل حياتيهما، أعتقد أنهما ربما التقيا ما يقرب من ثلاث مرات. ربما كانت المواجهة الأولى فى ١٩٣٩، فى المعرض العالمى فى نيويورك. أعرف حقا أن الاثنين حضراه، وعلى الرغم من أن الاحتمالات ضد ذلك بشدة، يحتمل جدا أنهما كانا هناك فى اليوم نفسه. أحب أن أتخيلهما يقفان معا أمام معرض- سيارة المستقبل، على سبيل المثال، أو مطبخ الغد- ثم يصطدمان معا صدفة وينقر كل منهما قبعته ليعتذر للآخر فى الوقت نفسه. شابان فى مستهل الحياة، الأول بدين والآخر نحيل، فريق كوميدى خيالى يؤديان دورا صغيرا من أجلى فى غرفة العرض فى جمجمتى. كان إفينج فى المعرض أيضا، بالطبع، عائدا للتو بعد السنوات التى قضاها فى أوروبا، وأحيانا كنت أضعه فى ذلك المشهد الخيالى، جالسا فى عربة من غصون مجدولة من طراز عفا عليه الزمن وبافيل شوم يدفعه عبر الحدائق. ربما كان بربر والخال فكتور يقفان متجاورين حين مر بهما إفينج، ربما، فى تلك اللحظة نفسها، يصيح إفينج بإهانة سيئة فى رفيقه الروسى، ويُذهَل بربر والخال فكتور من قسوة الرجل على الملأ، ويبتسم كل منهما للآخر ويهزان رأسيهما فى أسى. غير معروف، بالطبع، أن هذا الرجل والد أحدهما والجد فيما بعد لابن أخت الآخر. إن احتمالات مثل تلك المشاهد غير محدودة، لكننى أحاول أن أبقيها

متواضعة قدر المستطاع، تفاعلات قصيرة وصامتة: ابتسامة، نقرة على القبعة، اعتذار مبهم. إنها بهذه الطريقة أكثر إيحاء، وكأنني بعدم الجرأة على الكثير جدا، وبالتركيز على التفاصيل الصغيرة سريعة الزوال، يمكنني أن أخدع نفسي بتصديق أن هذه الأشياء حدثت حقا.

كانت المواجهة الثانية في كليفيلند في ١٩٤٦ ربما يعتمد هذه اللقاء على الحدس أكثر من الأول، لكنني أتذكر بوضوح السير في متنزه لنكولن في شيكاغو مع خالي ذات يوم ورجل بدين هائل يأكل سندوتشا على العشب. وذكَّر هذا الرجلُ فكتور برجل بدين آخر رآه ذات يوم في كليفيلند ("في تلك الأيام وأنا لا أزال أعمل مع الأوركسترا")، وعلى الرغم من أنني لا أملك برهانًا قاطعًا، أود أن أعتقد أن الرجل الذي ترك هذا الانطباع عليه كان بربر. إن لم يكن هناك شيء آخر، تتطابق التواريخ تماما، حيث إن فكتور كان يعزف في كليفيلند من ١٩٤٥ إلى ١٩٤٨، وانتقل بربر إلى جمعية الشبان المسيحيين في ربيع ,١٩٤٦ وكما عبَّر فكتور، كان يأكل فطيرة الجبن ذات ليلة في لنسكي للأطعمة المعلبة، متجر كبير صاخب على بعد ثلاث بنايات غرب قاعة سيفيرنس. انتهى الأوركسترا للتو من عزف برنامج لبيتهوفن بالكامل، وذهب إلى هناك مع ثلاثة أعضاء آخرين من قسم آلات النفخ لتناول وجبة خفيفة في وقت متأخر من الليل. من المقعد الذي احتله في نهاية المطعم، رأى مباشرة رجلا بدينا يجلس وحيدا إلى طاولة بطوال الحاجز الجانبي. راقب خالي، عاجزا عن تحويل عينيه عن هذا الشخص الهائل الفريد، في هلع والرجل يلتهم إناءين من حساء "الماتوزا بول"، وطبقا كبيرا من الكرنب، وطلب آخر من الفطائر الملفوفة، وثلاثة أطباق من سلطة الكرنب، وسلة من الخبز، وست كميات أو سبعا من إناء المخلل. أفزع فكتور هذا العرضُ للنهم الذي لم ينسه بقية حياته، صورة لتعاسة إنسانية صرفة وخالصة. وقال لي: "أي شخص يأكل بهذا الشكل يحاول أن يقتل نفسه، يشبه الأمر تماما مراقبة شخص يجوع حتى الموت".

كانت المرة الأخيرة التي التقيا فيها في ١٩٥٩، في الفترة التي قضيتها أنا وخالي في سانت بول، في ولاية مينسوتا. كان بربر يقوم بمهمة محددة في كلية "ماكاليستر"،

وذات مساء وهو يجلس فى شقته يتفحص إعلانات السيارات المستخدمة فى الصفحة الخلفية لصحيفة "بيونير بريس"، وقعت عيناه بالصدفة على إعلان لدروس الكلارينت يقدمها فكتور فج، "الذى عمل من قبل فى أوركسترا كليفيلند". اندفع الاسم خلال ذاكرته كالرمح، وعادت صورة إميلى إليه، أكثر وضوحًا وتألقًا من أى صورة رآها لها منذ سنوات. كانت فجأة داخله مرة أخرى، بعثت إلى الحياة بظهور اسمها، ولم يستطع بقية ذلك الأسبوع أن يبعدها عن تفكيره، متسائلا عما حدث لها، مخمنا حيوات متنوعة ربما عاشتها، ويراها بوضوح صادم تقريبا. ربما لا علاقة لمدرس الموسيقى بها، لكنه لم ير ضررًا فى أن يعرف. كان الهاجس الأول أن يتصل بفكتور تليفونيا، لكن بعد تأمل الفكرة مرة أخرى، تخلى عنها. كان لا يريد أن يبدو أحمق حين يحكى قصته، متلعثما بكلام غير مترابط لغريب يصيبه الضجر على الطرف الآخر. قرر أن يكتب رسالة بدلا من ذلك، وقد كتب سبع نسخ أو ثمانيا قبل أن يرضى، ثم أرسلها بالبريد فى نوبة ألم، نادمًا عما فعل فى اللحظة التى اختفت فيها الرسالة فى صندوق البريد. جاء الرد بعد عشرة أيام، خربشة غير واضحة فى ورقة صفراء. جاء فى الرسالة: "سير، إميلى فج أختى حقا، لكن من المؤسف أن أبلغك أنها ماتت فى حادث مرور منذ ثمانية شهور. أسف لا نهائى. المخلص فكتور فج".

حين وصلته الرسالة لم تبلغه بشىء لا يعرفه. أفشى فكتور حقيقة واحدة فقط، وهى حقيقة عرفها فكتور بنفسه قبل وقت طويل: لن يرى إميلى مرة أخرى. لم يغير الموت هذا. أكد فقط ما كان أكيداً بالفعل، مكررا الفقد نفسه الذى يتعايش معه لسنوات. لم يجعل هذا قراءة الرسالة أقل إيلاما، لكن بمجرد أن توقف عن البكاء وجد نفسه تواقا لمزيد من المعلومات. ماذا حدث لها؟ أين رحلت وماذا فعلت؟ هل تزوجت؟ هل تركت وراءها أبناء؟ حل أحبها أحد؟ كان بربر يريد حقائق. يريد أن يملأ الفراغات ويشيد حياة لها، شيئا ملموساً يحمله معه: سلسلة من الصور، إذا جاز التعبير، ألبوم صور يستطيع أن يفتحه فى ذهنه ويدرسه بإرادته. رد على فكتور فى اليوم التالى. بعد التعبير عن عزائه الحار وأساه فى الفقرة الأولى، واصل ليقترح، برقة شديدة، أهمية أن يعرف إجابات على بعض الأسئلة. انتظر بصبر رداً، لكن انقضى أسبوعان دون أن

يتلقى كلمة. أخيراً، معتقدا أن رسالة ربما فقدت، اتصل بفكتور تليفونيا. بعد ثلاث رنات أو أربع، تدخل مشغل وأخبره بأن الخط فصل. كان ذلك مربكا، لكن بربر لم يتركه يثبط همته (ربما كان الرجل فقيرا، على الرغم من كل شيء، معدماً بدرجة تجعله لا يدفع فاتورة التليفون)، وهكذا استقل سيارته دودج موديل ٥١ وانطلق إلى شقة فكتور في ١٠٢٥ شارع لينوود. عاجزاً عن العثور على اسم فج ضمن الأجراس في المدخل، رن جرس الحارس بدلا من ذلك. بعد بضع لحظات، مشى رجل ضئيل عليه سويتر أخضر وأصفر متثاقلا إلى الباب وأخبره بأن مستر فج رحل. قال الرجل: "هو والولد الصغير، رحلا فجأة منذ عشرة أيام تقريبا". كان ذلك محبطا بالنسبة لبربر، صفعة لم يتوقعها. لكنه لم يتوقف ثانية ليفكر فيمن يكون هذا الولد الصغير. وحتى لو فعل، لم يكن ذلك ليغير من الأمر شيئاً. اعتبره ابن عازف الكلارينت وترك الأمر عند ذلك.

بعد سنوات، حين حدثني بربر عن الرسالة التي تلقاها من فكتور، فهمْتُ أخيراً لماذا تركنا أنا وخالي سانت بول فجأة، في ١٩٥٩ صار المشهد كله مفهوما لي: حزم الحقائب بسرعة في وقت متأخر من الليل، الرجوع إلى شيكاغو دون توقف، الإقامة لأسبوعين في فندق وعدم العودة إلى المدرسة. لم يكن فكتور يعرف حقيقة بربر، لكن ذلك لم يقلل من خوفه بشأن ما قد تكونه هذه الحقيقة. كان الأب هناك في مكان ما، ولماذا يعطي فرصة لهذا الرجل الحريص على معرفة معلومات عن إميلي. إذا ساء الأمر جدا، من يقول إنه لم يقاتل لرعاية الولد؟ كان أمرا بسيطا جدا أن يتجنب ذكرى ببساطة حين كتب يرد على الرسالة الأولى، لكن الرسالة الثانية جاءت بتلك الأسئلة الجديدة، وأدرك فكتور أنه وقع في الفخ. تجاهل الرسالة يمكن فقط أن يؤجل المشكلة، لأنه لو كان الغريب حريصا كما بدا، فسوف يأتي في النهاية ليرانا. ماذا يمكن أن يحدث؟ لم ير فكتور أمامه سوى أن يهرب، ليأخذني وسط الليل ويتلاشى في سحب من الدخان.

كانت هذه القصة من آخر ما أخبرني به بربر، وقد تمزقتُ لسماعها. فهمْتُ ما فعله فكتور، وأرى ذلك الإخلاص يتكشف لي، انهمكت في اندفاع عاطفي، ألم مع ندم

على خالى، حداد على موته مرة أخرى. لكن فى الوقت نفسه شعرْتُ أيضا بالإحباط، والمرارة على مدار السنوات التى ضاعت. لأنه لو رد فكتور على الرسالة الثانية من بربر بدلا من الهروب، ربما اكتشفت حقيقة أبى فى ١٩٥٩، لا أحد يلام على ما حدث، لكن ذلك لا يقلل من صعوبة قبوله. كانت مسألة ارتباطات مفقودة، توقيت سيىء، تخبط فى الظلام. كنا جميعا فى المكان الصحيح فى الوقت الخطأ، يفتقد كل منا الآخر دائما، دائما على بعد بضع بوصات فقط من اكتشاف الأمر. هذا ما تسفر عنه القصة على ما أظن. سلسلة من الفرص الضائعة. كانت كل الأجزاء هناك من البداية، لكن لم يعرف أحد كيف يجمعها معًا.

لم يتكشف شىء فى اللقاء الأول، بالطبع. بمجرد أن قرر بربر ألا يتحدث عن شكوكه، كان أبوه الموضوع الوحيد المتوفر لنا، وقد غطينا ذلك تماما فى الأيام التى قضاها فى البلدة. فى الليلة الأولى، اصطحبنى للعشاء فى "جولاهر" فى الشارع الثانى والخمسين؛ فى الليلة الثانية، ذهبنا إلى مطعم فى الحى الصينى مع كيتى؛ وفى اليوم الثالث، الأحد، تناولت الفطور معه فى الفندق قبل أن يستقل طائرته عائداً إلى مينسوتا. تجعلك حكمة بربر وفتنته تنسى مظهره غير المناسب، وكلما قضيْتُ معه وقتًا أطول، ازداد شعورى بالراحة. تكلمنا بحرية منذ البداية تقريبًا، وتبادلنا النكات والأفكار ونحن نحكى قصصنا، ولأنه لم يكن شخصا يخشى الحقيقة، استطعت الحديث عن أبيه دون رقابة ذاتية، مقدِّما قصة كاملة للشهور التى قضيتها مع إفينج، بخيرها وشرها.

بالنسبة لبربر، لم يعرف قط الكثير عن أى شىء. قالوا له إن أباه مات فى الغرب قبل ولادته ببضعة شهور، وبدا ذلك مقبولا جدا، حيث كانت جدران المنزل مغطاة باللوحات، وكان الجميع يقولون دائما إن أباه كان رسامًا، متخصصا فى المشاهد الطبيعية، وقام برحلات كثيرة من أجل فنه. وقالوا له إن رحلته الأخيرة كانت إلى صحراء يوتا، وهو مكان معزول جدا، حيث مات. لكن لم تتكشف له قط ظروف هذا الموت. وهو فى السابعة، قالت إحدى الخالات إن أباه سقط من على جرف. وبعد ثلاث سنوات شرح له خال أن الهنود أسروا أباه، ثم، وبعد أقل من ستة أشهر، أعلنت "مولى

شارب" أنه كان من عمل الشيطان. كانت الطاهية التى أطعمته تلك الحلوى الشهية بعد المدرسة- امرأة أيرلندية بوجه أحمر وردى وفجوات كبيرة بين أسنانها- ولم يعرفها قط ليخبرها بأنها تكذب. بصرف النظر عن السبب، كان موت أبيه يُقدَّم دائمًا مبرِّرًا لأخذ أمه إلى غرفتها. هكذا كانت تشير العائلة إلى حالة أمه، على الرغم من حقيقة أنها كانت تغادر غرفتها أحيانا، خاصة فى الليالى الدافئة فى الصيف، حيث تتجول فى أروقة المنزل، أو حتى تسير إلى الشاطئ وتجلس بجوار الماء، منصتة للأمواج الصغيرة التى تشدها.

لم يكن يرى أمه غالبًا، وحتى حين تكون فى حالة طيبة كانت تعانى من مشكلة فى تذكر اسمه. كانت تخاطبه باسم تيدى أو مالكولم، أو روب- وتنظر فى عينه مباشرة، متحدثة باقتناع تام- أو باستخدام ألقاب غريبة لا معنى لها بالنسبة له: بالى بال، بوه باه، ومستر جينكز. لم يحاول أن يصحح لها قط، حيث إن الساعات التى يقضيها بصحبة أمه كانت نادرة جدا بدرجة تجعله لا يضيعها، وكان يعرف من خبرته أن أقل اعتراض يمكن أن يفسد مزاجها. كان الآخرون فى المنزل يسمونه "سُلِى". لم يكن يعترض على هذا اللقب، لأنه بشكل ما يترك اسمه الحقيقى سليمًا، كما لو كان سرا لا يعلمه إلا هو: سليمان الملك حكيم العبرانيين، رجل دقيق جدا فى أحكامه حتى إنه قد يهدد بتقطيع طفل إلى نصفين. فيما بعد، سقطت صيغة التصغير، وصار "سُلْ". وعلَّمه شعراء العصر الإليزابيثى أنها كلمة قديمة "للشمس"، واكتشف بعد فترة قصيرة أنها الكلمة الفرنسية "للأرض". أثار فضوله أنه يمكن أن يكون الشمس والقمر كليهما فى الوقت ذاته، ولسنوات اعتبر أن ذلك يعنى أنه وحده قادر على تطويق كل متناقضات الكون.

عاشت أمه فى الدور الرابع مع عدة مرافقين ومساعدين، وكانت هناك فترات طويلة لا تنزل فيها ولو مرة. كان عالما منفصلا، بمطبخ شيد حديثا فى طرف القاعة وغرفة كبيرة بتسعة جوانب فى الطرف الآخر. قالوا إن أباه اعتاد أن يرسم صوره هناك، وقد شيدت النوافذ بطريقة تجعلك لا ترى حين تنظر منها سوى المياه. ووجد أنك إذا وقفت أمام هذه النوافذ وقتا طويلا، ضاغطا وجهك على الزجاج، يبدو وكأنك تطفو

فى السماء. لم يكن يسمح له بالصعود هناك كثيرا، لكن من غرفته فى الدور الذى تحته كان يستطيع أحيانا سماع أمه تسير مسرعة فى الليل (طقطقة ألواح الأرضية تحت السجاد)، ومن حين إلى آخر يستطيع أن يميز أصواتا: دمدمة محادثات، ضحك، نتف من أغانٍ، نوبات من الأنين والنحيب. كانت زياراته للدور الرابع تحددها الممرضات، وكل منهن تضع مجموعة مختلفة من القواعد. كانت مس فوريست تحدد له ساعة كل خميس؛ وتفحص مس كاكستون أظافره قبل أن تسمح له بالدخول؛ وتؤيد مس فلاور تمشية نشيطة على الشاطئ؛ وتقدم مس بوكسلى شيكولاتة ساخنة؛ وتتحدث مس جندرسون بصوت منخفض جدا فكان لا يسمع ما تقول. ذات مرة، لعب بربر لعبة التلبيس مع أمه طوال فترة بعد الظهر، وفى مرة ثانية لعبا بقارب لعبة فى حوض حتى حل الظلام. تلك هى الزيارات التى تبدو له بشكل أكثر وضوحاً. وبعد سنوات أدرك أنها ربما تكون أسعد الساعات التى قضاها معها. بقدر ما يتذكر، كانت تبدو له عجوزا، بشعرها الرمادى ووجهها غير المزين، وعينيها الزرقاوين الرقيقتين، وفمها المتدلى، والبقع على ظهر يدَيْها. كانت فى حركاتها رعشة بسيطة لكنها مستمرة- وربما جعلها ذلك تبدو أكثر وهناً- وكانت الأعصاب تحلق فى كل الاتجاهات، امرأة على وشك الانهيار دائماً. ويبقى أنه لم يكن يعتبرها مجنونة ("تعيسة"، الكلمة التى ترد إلى ذهنه عادة)، وحين كانت تأتى بأفعال تقلق الجميع، يشعر غالبا بأنها تتظاهر فقط. كانت هناك عدة أزمات على مدار السنين (نوبة صراخ حين طُرِدتْ إحدى الممرضات، محاولة انتحار، عدة شهور رفضت أثناءها ارتداء أى ملابس)، وفى يوم ما أرسلت إلى سويسرا لما وصف براحة طويلة. بعد وقت طويل، اكتشف أن سويسرا كانت كلمة مهذبة لمصحة الأمراض النفسية فى هارتفورد، كونكتيكت(١)

كانت طفولة كئيبة، لكنها لم تخلُ من المتع، وكانت أقل وحدة بكثير مما كان يمكن أن تكون. كان والدا أمه موجودين معظم الوقت، وعلى الرغم من ولع الجدة بالبدع

١- كونكتيكت Connecticut: ولاية فى شمال شرق الولايات المتحدة.

الطائشة- "الفلتشرية"، حفر "سميس"، كتب "تشالرز فورت"- كانت طيبة جدا معه، وكذلك كان جده، الذى حكى له قصصا عن الحرب الأهلية وعلمه البحث عن الأزهار البرية. بعد ذلك، انتقل إلى البيت خاله بينكى والخالة كلارا أيضا، ولسنوات طويلة عاشوا كلهم معا فى نوع من الانسجام المشاكس. لم يحطمهم الانهيار الاقتصادى فى سنة ١٩٢٩، لكن كان يجب اتخاذ بعض التدابير الاقتصادية بعد ذلك. أطاح "السهم الخارق" بالسائق، سمح بانتهاء تأجير شقة نيويورك، ولم يرسل بربر إلى مدرسة داخلية كما خطط الجميع. فى عام ١٩٣١ بيع عدد من الأعمال التى كان يقتنيها والده: لوحات "ديلاكروا"، لوحة "صموئيل فرنش مورس"، ولوحة صغيرة لـ"ترنر" كانت معلقة فى قاعة الدور الأرضى. لكن بقيت لوحات كثيرة. كان بربر مغرما بشكل خاص بلوحتى "بليكلوك" فى غرفة الطعام (لوحة لضوء القمر على الجدار الشرقى ومنظر لمخيم هندى على الجدار الجنوبى)، وكانت هناك أعداد كبيرة من أعمال أبيه فى كل موضع: مشاهد المياه فى جزيرة لونج، صور ساحل "ميين"، ودراسات نهر هدسون، وغرفة كاملة من المناظر الطبيعية ترجع إلى رحلته إلى جبال "كاتسكل": منازل ريفية متداعية، عوالم أخرى، حقول هائلة من الضوء. قضى بربر مئات الساعات يتطلع إلى هذه الأعمال، وفى السنة الثالثة من المدرسة الثانوية نظم معرضًا أقيم فى قاعة البلدة، واكتمل بمقال عن أعمال والده، وزع مجانًا على كل من حضر الافتتاح.

فى السنة التالية، قضى لياليه يؤلف رواية عن اختفاء أبيه. كان بربر فى السابعة عشرة، وقد وقع فى شراك نوبات اضطراب المراهقة، بدأ يتخيل نفسه فنانا، عبقرى المستقبل ينقذ روحه بسكب آلامه على الورق. أرسل لى نسخة من مخطوطة بعد عودته إلى مينسوتا، لا ليوضح، كما نبه معتذرًا فى رسالة مرفقة معها، مواهبه فى الصغر (رفض الكتاب واحدٌ وعشرون ناشرا)، لكن ليعطينى فكرة عن مدى تأثير اختفاء أبيه على خياله. كان عنوان الكتاب "دماء كبلر"؛ كتب بالأسلوب الحسى الذى ميز الروايات الرخيصة فى الثلاثينيات. ترنحت القصة، وكانت خليطا من أدب الغرب وأدب الخيال العلمى، من لا احتمالية إلى أخرى، مندفعة إلى الأمام بزخم منيع من الحلم. كان بعضها مروعا. اندمجت فيها، وحين وصلت إلى النهاية، شعرت بأننى توصلت إلى فكرة أفضل عن حقيقة بربر، وفهمت شيئا عن تكوينه.

تعـود بداية الكتـاب إلى الوراء أربعين سنة تقـريبـا، وكـان الحـدث الأول يقـع فى سبعينيات القرن التاسع عشر، لكن باستثناء ذلك تنطلق القصة مباشرة تقريبا من بضعة أشياء يعرفها بربر عن والده. يودع فنان فى الخامسة والثلاثين، اسمه جون كبلر، زوجته وابنه الصغير ويغادر بيته فى جزيرة لونج للقيام برحلة لمدة ستة أشهر فى يوتا وأريزونا، متوقعا تماما، بتعبير مؤلف فى السبعين من العمر، "أن يكتشف أرض العجائب، عالم الجمال البرى واللون الوحشى، مجال من هذه النسب التذكارية حتى إن أصغر حجر يمكن أن يحمل علامة المطلق". يمضى كل شيء على ما يرام فى الشهور الأولى، ثم يتعرض كبلر لحادث يشبه الحادث الذى يفترض أنه وقع لجوليان بربر: يتدحرج من على جرف، وتتحطم عظامه، ويفقد الوعى. وحين يستعيد وعيه فى اليوم التالى، يكتشف أنه لا يستطيع الحركة، وحيث إن إمداداته ليست فى متناوله، يستسلم للجوع حتى الموت فى البرارى. لكن فى اليوم الثالث، وهو على وشك الاستسلام لشبح الموت، ينقذ كبلر مجموعة من الهنود، وهو ما يعكس أصداء قصة من القصص التى سمعها بربر وهو صبى صغير. يحمل الهنود الرجل المحتضر إلى مقرهم، واد تتناثر فيه الصخور محاط بمنحدرات من كل جانب، وفى هذا المكان الغنى برائحة اليكة والعرعر، يرعونه حتى يسترد صحته. يعيش ثلاثون شخصا أو أربعون فى هذا الوسط، عدد متساوٍ تقريبا من الرجال، والنساء، والأطفال الذين يسيرون وهم عرايا أو لا يرتدون إلا القليل فى الحرارة المتقدة فى منتصف الصيف. من النادر أن يتحدثوا معه أو مع أنفسهم، يراقبونه وهو يسترد قوته تدريجيا، يضعون الماء على شفتيه ويقدمون له أطعمة تبدو غريبة، لم يتذوقها من قبل. ويلاحظ كبلر، حين يبدأ ذهنه يصفو، أن هؤلاء الهنود لا يشبهون الهنود من أى قبيلة من القبائل المحلية- "اليوت" و"النافاهو"، "البَيُوت" و"الشوشون". يبدون له بدائيين أكثر، أكثر عزلة، وأكثر رقة فى سلوكهم. بفحص أدق فى الحقيقة، يستنتج أن الكثير منهم ليس لهم ملامح هندية على الإطلاق. بعضهم بعيون زرق، بعضهم بمسحة احمرار فى شعورهم، وعدد من الرجال بشعور فى صدورهم. بدل أن يقبل الدليل يبدأ كبلر التفكير فى أنه لا يزال على حافة الموت، وأنه يتخيل شفاءه فى هذيان الغيبوبة والألم. لكن ذلك لا يستمر طويلا. تدريجيا،

وصحته تتحسن باستمرار، يرغم على الاعتراف بأنه حي وأن كل ما حوله حقيقي.

يكتب بربر: "كانوا يسمون أنفسهم 'الآدميين'، الناس، القادمين من بعيد. منذ زمن طويل، طبقا للأساطير التي حكوها له، كان أسلافهم يعيشون على القمر. لكن جفافا شديدا قضى على الماء في التربة، ومات كل الآدميين إلا 'بوج' و'أوما'، الأب والأم الأصليان. لتسعة وعشرين يوما وتسع وعشرين ليلة، سار بوج وأوما عبر الصحراء، وحين وصلا إلى جبل المعجزات، صعدا إلى قمته والتحقا بسحابة. حملتهم سحابة الروح في الفضاء سبع سنوات، وفي النهاية هبطا إلى الأرض، حيث اكتشفا 'غابة الأشياء الأولى' وبدآ العالم من جديد. أنجب بوج وأوما أكثر من مائتي طفل، ولسنوات طويلة كان الآدميون سعداء، يشيدون المنازل بين الأشجار، يزرعون الحبوب، ويصطادون الغزلان السحرية، ويجمعون الأسماك من المياه. وعاش 'الآخرون' أيضا في غابة الأشياء الأولى، ولأنهم كانوا يرغبون في المشاركة في أسرارهم، تعلم الآدميون 'المعرفة الهائلة' عن النباتات والحيوانات، مما ساعدهم أن يشعروا على الأرض وكأنهم في وطنهم. رد 'الآدميون' على عطف 'الآخرين' بهداياهم، وعلى مدى أجيال عاش العالمان في انسجام. لكن حينذاك جاء 'الرجال المتوحشون' من الجانب الآخر من العالم، وأبحروا إلى اليابسة ذات صباح في قواربهم الخشبية الضخمة. لبعض الوقت بدا 'الملتحون' ودودين، لكنهم زحفوا إلى غابة الأشياء الأولى وقطع كثيرا من الأشجار. حين طلب منهم 'الآدميون' و'الآخرون' أن يتوقفوا أخرج الرجال المتوحشون عصيهم التي ترعد وتبرق وقتلوهم. عرف 'الآدميون' أنهم لا يستطيعون مجابهة قوة مثل هذه الأسلحة، لكن 'الآخرين' اختاروا أن يصمدوا ويقاتلوا. وكان ذلك وقت 'الوداع الرهيب'. التحق بعض الآدميين بصفوف الآخرين، والتحق قليل من الآخرين بصفوف الآدميين، ثم تفرقت السبل بالعائلتين. ترك الآدميون بيوتهم وانتقلوا إلى "الظلام"، مسافرين عبر غابة الأشياء الأولى حتى شعروا بأنهم ابتعدوا عن أيدي الرجال المتوحشين. حدث ذلك مرات كثيرة على مدار السنوات، بمجرد أن يبنوا مستعمرتهم في منطقة جديدة في الغابة ويشعرون بأنهم في وطنهم يتتبعهم الرجال المتوحشون. كان الملتحون يتظاهرون دائما بالود في البداية، لكنهم كانوا حتما يشرعون في قطع الأشجار وقتل الآدميين،

صائحين بربهم وكتابهم وقوتهم التى لا تقهر ومن ثم استمر الآدميون يواصلون الرحيل، ينتقلون باتجاه الغرب دائما، محاولين دائما استباق الرجال المتوحشين المتقدمين. فى النهاية، وصلوا إلى نهاية غابة الأشياء الأولى واكتشفوا 'العالم المسطح'، بشتائه الطويل، وصيفه القصير الجهنمى. من هناك انتقلوا إلى 'الأرض' فى 'السماء'، وحين مر بهم الزمن هناك، هبطوا إلى 'أرض المياه القليلة'، وهو مكان جاف جدا ومقفر جدا حتى إن الرجال المتوحشين رفضوا العيش فيه. لم يظهر الرجال المتوحشون إلا حين كانوا فى طريقهم لمكان آخر، ومن توقفوا وشيدوا منازلهم هناك كانوا قليلين جدا ومتناثرين حتى إن الآدميين يستطيعون تجنبهم دون مشاكل. وكان هذا حيث عاش الآدميون منذ بداية 'الزمن الجديد'، واستمروا فيه لوقت طويل جدا حتى لم يعد أحد يستطيع أن يتذكر ما حدث قبل ذلك".

لغتهم غير مفهومة لكبلر فى البداية، لكنه عرفها خلال عدة أسابيع بما يكفى لأن يجرى محادثة بسيطة. بدأ يعرف الأسماء، مفردات العالم من حوله، وكان كلامه يشبه كلام طفل. "كرينيبوس" امرأة. "مانتواك" آلهة. وتشير "أوكيبنوك" إلى جذور صالحة للأكل، و"تابيسكو" تعنى حجر. مع قدر كبير جدا لا يستطيع استيعابه مرة واحدة، يعجز عن تحديد أى ترابط بنيوى للغة. يبدو أن الضمائر لا توجد وحدات منفصلةً، على سبيل المثال، لكنها جزء من نظام معقد لنهايات الأفعال تتغير طبقا لعمر المتحدث وجنسه. لكلمات معينة، تستخدم كثيرا، معنيان متضادان تماما- القمة والقاع، الظهر ومنتصف الليل، الطفولة والشيخوخة- وهناك حالات كثيرة تتغير فيها معانى الكلمات بتعبير وجه المتحدث. بعد شهرين أو ثلاثة، يتواءم لسان كبلر أكثر مع إنتاج الأصوات الغريبة لهذه اللغة، وتشوش المقاطع غير المتميزة يبدأ ينفصل إلى وحدات للمعنى أصغر وأكثر تحديدا، تصبح أذنه أكثر حدة، وتتكيف بشكل أكثر براعة مع أدنى فرق ومع النبرة. بشكل واضح جدا، يبدأ يعتقد أنه يسمع آثارا للإنجليزية حين يتحدث الآدميون- ليست الإنجليزية كما يعرفها، بدقة، بل أجزاء مقتطعة منها، بقايا كلمات إنجليزية، ينزلق نوع من إنجليزية متحولة بشكل ما إلى ثنايا هذه اللغة الأخرى. يصبح تعبير مثل "لاند أوف ليتل وتر[أرض المياه القليلة]، على سبيل المثال، "لانو-لى-وا".

ويصبح "وايلد مِن "الرجال المتوحشون"وي–مي"، ويصبح "فلات ورلد "العالم المسطح" شيئا يشبه كلمة "فلو". في البداية يميل كبلر إلى تجاهل هذا التوازى باعتباره صدفة. تتداخل الأصوات من لغة إلى أخرى، رغم كل شيء، وهو عنيد في السماح بهروب مخيلته معه. من الناحية الأخرى، يبدو تقريبا أن كل سابع كلمة أو ثامن كلمة في لغة الآدميين تتبع النمط نفسه، وحين يختبر كبلر في النهاية نظريته ببناء كلمات محاولا اكتشاف ما يعتقده بشأن الآدميين (كلمات لم يتعلمها، لكنه كان يشكلها بالطريقة نفسها، طريقة التزاوج والتحليل التى اعتاد أن يبنى بها الكلمات الأخرى)، يجد أنه ينطق عدة كلمات يتعرف عليها الآدميون باعتبارها كلماتهم. يبدأ كبلر، يشجعه نجاحه، يقدم أفكارا معينة عن أصول هذه القبيلة الغريبة. على الرغم من الأسطورة عن القمر، يشعر بأنهم لابد أن يكونوا نتاجا لتمازج سابق بين الدماء الإنجليزية والهندية. يكتب بربر، متتبعا خط برهان كبلر: "وقد تقطعت بهم السبل في الغابات الكثيفة في 'العالم الجديد' بمجموعة من المستعمرين الأوائل، ربما واجههم خطر الانقراض وربما طلبوا الانخراط في قبيلة هندية ليضمنوا بقاءهم في مواجهة القوى العدوانية في الطبيعة. واعتقد كبلر أن أولئك الهنود ربما كانوا 'الآخرين' الذين ظهروا في الأسطورة التى حُكيتْ له. إذا كان الوضع كذلك، ربما انفصلت مجموعة منهم عن الكيان الرئيسى واتجهت للغرب، لتستقر في النهاية في يوتا. بأخذ هذه الفرضية خطوة أبعد، برر أن قصة أصولهم ربما أُلِّفتْ بعد وصولهم إلى يوتا، كوسيلة لانتزاع شعور بارتياح روحى من قرارهم بالعيش في مثل هذا المكان القفر. واعتقد كبلر أنه لا توجد منطقة أخرى في العالم تشبه القمر أكثر من هذه المنطقة".

لم يفهم كبلر لماذا أنقذوه إلا بعد أن أجاد لغتهم. شرحوا له: الآدميون يتناقصون، وإذا لم يستطيعوا البدء في زيادة أعدادهم، ستختفى الأمة كلها في العدم. ترك حكيمهم وزعيمهم، واسمه "فكرة صامتة"، القبيلة في الشتاء السابق ليعيش وحده في الصحراء ويصلى لنجاتهم، وقد قيل له في حلم إن رجلا ميتا سينقذهم. قال إنهم سيجدون هذا الرجل في مكان ما في المنحدرات التى تحيط بالمستعمرة، وإذا عالجوه بعلاج مناسب، يعود الجسم إلى الحياة. حدثت هذه الأشياء بالضبط و"فكرة صامتة"

يقول إنها ستحدث. وُجِد كبلر، وأُنقِذ، وصارت مسألة أن يصبح أبًا لجيل جديد أمرا يعود إليه. إنه "أب وحشى" سقط من القمر، "منجب أرواح الآدميين"، "الرجل الروح" الذى سينقذ الشعب من الاضمحلال.

هنا تبدأ كتابة بربر تتعثر جداً. دون أدنى تأنيب للضمير، يتحول كبلر إلى أحد السكان الأصليين ويقرر البقاء مع الآدميين، متخليا للأبد عن التفكير فى العودة إلى زوجته وابنه. متحولا من النبرة العقلانية الدقيقة فى الصفحات الثلاثين الأولى، ينخرط بربر فى عدة فقرات طويلة متأنقة بلاغيا عن التخيلات الجنسية الداعرة، وتتفجر شهوة الاستمناء عند مراهق. لا تشبه النساء هنديات أمريكا الشمالية إلا بقدر ما تشبه الدمى الجنسية البولينيزية، الآنسات الجميلات عاريات الصدور اللائى يقدمن أنفسهن لكبلر بتهتك مبهج وممتع. إنه ادعاء خالص: مجتمع يتسم ببراءة ما قبل هبوط آدم، يسكنه همج نبلاء يعيشون فى انسجام تام مع الآخر والعالم. لا يستغرق الأمر من كبلر وقتا طويلا ليقرر أن طريقتهم فى الحياة تتفوق إلى حد بعيد على طريقته. يتخلص من زخارف حضارة القرن التاسع عشر ويدخل العصر الحجرى، مندمجا تماما مع "الآدميين".

ينتهى الفصل الأول بولادة أول طفل "آدمى" لكبلر، وحين يبدأ الفصل الثانى، يبدأ بعد انقضاء خمسة عشر عاما. نعود إلى جزيرة لونج، نشاهد جنازة الزوجة الأمريكية لكبلر بعينى جون كبلر الابن، وقد بلغ الثامنة عشرة. عازما على كشف سر اختفاء أبيه، يبدأ الشاب فى صباح اليوم التالى بأسلوب ملحمى حقيقى، مصمما على تكريس بقية حياته للبحث. يسافر إلى يوتا، وعلى مدى السنة ونصف السنة التالية يتجول فى البرارى بحثا عن دليل. بحظ جيد يشبه المعجزة (ليس مستساغا جدا كما يقدمه بربر)، يعثر صدفة على مستعمرة "الآدميين" فى الصخور. لم يخطر بباله قط أن والده لا يزال على قيد الحياة، لكن انظرْ، حين يُقدَّم للرئيس الملتحى مخلص هذه القبيلة الصغيرة، وقد وصل عدد أفرادها إلى مائة تقريبا، يعرف أن هذا الرجل جون كبلر. وقد أذهلته الدهشة، يعلن دون تفكير أنه الابن الأمريكى لكبلر المفقود منذ زمن طويل، لكن كبلر،

بهدوء وتبلد، يتظاهر بأنه لا يفهمه. يقول: "إننى رجل روحى أتى إلى هنا من القمر، وهؤلاء الناس أسرتى الوحيدة. يسعدنا أن نقدم لك الطعام والمأوى الليلة، لكن عليك أن تتركنا صباح الغد وتواصل رحلتك". محطما بهذا الرفض، تتجه أفكار الابن إلى الانتقام، وفى منتصف الليل يتسلل من سريره، ويزحف إلى كبلر النائم، ويغرس سكينا فى قلبه. وقبل أن يسمع أى إنذار، يهرب فى الظلام ويختفى.

هناك شاهد وحيد فقط على الجريمة، صبى فى الثانية عشرة اسمه جوكومين (العيون الوحشية)، الابن المفضل لكبلر بين "الآدميين". يطارد جوكومين القاتل ثلاثة أيام وثلاث ليالى، ولا يجده. فى صباح اليوم الرابع، يتسلق قمة ميسا[1] ليشاهد الريف المحيط وهناك، بعد دقائق فقط من التخلى عن الأمل، يواجه شخصا لم يكن سوى "الفكرة الصامتة"، رجل الطب العجوز الذى ترك القبيلة منذ سنوات ليعيش ناسكًا فى الصحراء. يتبنى "الفكرة الصامتة" جوكومين ويطلعه بالتدريج على أسرار فنه، مدربا الولد لسنوات طويلة وصعبة ليكتسب القوى السحرية "للتحولات الاثنى عشر". جوكومين طالب لديه الرغبة والقدرة. لا يتعلم فقط كيف يعالج المريض ويتصل بالآلهة، لكنه بعد سبع سنوات من العمل المستمر، يخترق أخيرا سر "التحول الأول"، مسيطراً على قوى جسمه وعقله لدرجة أنه يستطيع أن يتحول إلى سحلية. وتتتابع التحولات الأخرى بسرعة: يصبح سنونواً، صقراً، نسراً؛ يصبح حجراً وصباراً؛ يصبح خَلَداً، أرنبًا، جندبًا؛ يصبح فراشة وثعبانا؛ ثم، آخر شىء، يتغلب على أصعب التحولات، يتحول إلى قيوط[2] انقضت تسع سنوات منذ جاء كوكومين ليعيش مع "الفكرة الصامتة". وقد علم العجوزُ جوكومين، ابنه بالتبنى، كل ما يعرف، يبلغه بأن لحظة موته حانت. ودون أن يتفوه بكلمة أخرى، يلتف فى كفنه ويصوم ثلاثة أيام، وفى تلك اللحظة تطير روحه من جسمه وتسافر إلى القمر، المكان الذى تسكنه أرواح "الآدميين" بعد الموت.

١- ميسا **mesa**: مرتفع بقبة منبسطة بجانب، أو أكثر، يشبه المنحدر، منتشر فى جنوب غرب الولايات المتحدة.

٢- قيوط **coyote**: نوع من الذئاب الصغيرة فى شمال أمريكا.

يعود جوكومين إلى المستعمرة ليعيش رئيسًا لعدة سنوات. لكن "الآدميين" يواجهون أوقاتاً عصيبة. يؤدى الجفاف إلى الوباء، ويؤدى الوباء إلى النزاع، ويرى جوكومين حلما يقال له فيه إن السعادة لن تعود إلى القبيلة حتى ينتقم لموت أبيه. بعد التشاور مع مجلس من الشيوخ فى اليوم التالى، يغادر جوكومين "الآدميين" ويسافر إلى الشرق، ذاهبًا إلى عالم "الرجال المتوحشين" بحثا عن جون كبلر الابن. يسمى نفسه "جاك مون" ويشق طريقه عبر البلاد، ويصل أخيراً إلى نيويورك، ويعثر على وظيفة مع شركة بناء متخصصة فى بناء ناطحات السحاب. يصبح فردا فى أعلى طاقم فى "وول ورث بيلدنج"، أعجوبة معمارية تعتبر أعلى بناء فى العالم لما يقرب من عشرين سنة. جاك مون عامل رائع لا يهاب حتى المرتفعات الهائلة، يكتسب بسرعة احترام زملائه. وخارج العمل يبقى مع نفسه ولا يصادق أحداً. يكرس كل وقت فراغه لمتابعة أخيه غير الشقيق، وتستغرق منه هذه المهمة سنتين. صار جون كبلر الابن رجل أعمال مرموقا. يعيش فى قصر فى شارع "بييربونت" فى مرتفعات بروكلين مع زوجته وابن فى السادسة من عمره ويذهب إلى العمل كل صباح فى سيارة سوداء طويلة. يراقب جاك مون المنزل عدة أسابيع، فى البداية بنية قتل كبلر ببساطة، لكنه بعد ذلك يقرر أنه يمكن أن يقوم بانتقام مناسب أكثر بخطف ابن كبلر والعودة به إلى أرض "الآدميين". يفعل ذلك دون أن يكتشف، يخطف الولد من مربيته عصر أحد الأيام فى عز النهار، وهنا ينتهى الفصل الرابع من رواية بربر.

يكتشف جوكومين، عائدا إلى يوتا مع الصبى (الذى يصبح أثناء ذلك مخلصا له بعمق)، أن كل شىء تغير. تلاشى "الآدميون" وخلت منازلهم من أى علامة للحياة. فى الشهور الستة التالية يفتش عنهم هنا وهناك، دون أن يحقق أى نجاح. أخيرا، مدركا أن حلمه خدعه، يتقبل حقيقة أن شعبه مات كله. والأسى فى قلبه، يقرر البقاء هناك ورعاية الصبى باعتباره ابنه، آملا طوال الوقت فى معجزة للتجدد. يعيد تسمية الصبى ليسميه "نوما" (الرجل الجديد) ويحاول ألا يفقد شجاعته. تمر سبع سنوات. ينقل

الأسرار التى تعلمها من "الفكرة الصامتة" إلى ابنه بالتبنى، وبعد ثلاث سنوات أخرى من العمل المتواصل، يتوصل إلى التحول الثالث عشر. يحول جوكومين نفسه إلى امرأة، امرأة شابة قادرة على الإنجاب تغوى المراهق ابن السادسة عشرة. يُولَد توأم بعد تسعة أشهر، ولد وبنت، ومن هذين الطفلين، يعمر "الآدميون" الأرض مرة أخرى.

يتحول المشهد بعد ذلك إلى نيويورك، حيث نجد كبلر الابن يستميت فى البحث عن ابنه المفقود. لم يقد مفتاح بعد الآخر إلى شىء، لكن، بصدفة صرفة- كل شىء فى كتاب بربر يحدث بالصدفة- يقتفى أثراً، وبالتدريج يبدأ كبلر حل اللغز، مدركا أن ابنه أخذ منه نتيجة ما فعله بأبيه. ليس أمامه سوى أن يذهب إلى يوتا. كبلر فى الأربعين الآن، ومشقة السفر فى الصحراء تجهده، لكنه يواصل رحلته بعناد، مروعا من فكرة العودة إلى المكان الذى قتل فيه والده قبل عشرين سنة، لكنه وهو يعرف أنه ليس أمامه اختيار، وأن هذا هو المكان الذى سيجد فيه ابنه. يظهر بدر تام فى السماء فى المشهد الأخير. وقد اقترب كبلر من مستعمرة "الآدميين" وعسكر الليل فى المنحدرات، ممسكا ببندقية فى يديه وهو يراقب أى علامة على وجود نشاط. على نتوء قريب من الصخور، لا يبعد عنه خمسين قدما، يرى فجأة قيوطا يقف وظله على القمر. خائفا من كل شىء فى هذا الإقليم القفر البعيد، وباندفاع يصوب كبلر بندقيته إلى الحيوان ويسحب الزناد. يُقتَل القيوط برصاصة واحدة، ويهنئ كبلر نفسه على دقة إصابة الهدف. ما لا يدركه، بالطبع، أنه قتل ابنه. قبل أن يقف ويسير إلى الحيوان القتيل، تمزقه ثلاثة قيوطات أخرى إليه من الظلام. عاجزا عن حماية نفسه من هجومها، تمزق إربا فى دقائق.

هكذا تنتهى "دماء كبلر"، المحاولة الوحيدة لبربر لكتابة عمل قصصى. نظرا لعمره عند كتابتها، من غير المنصف أن نحكم على مجهوده بقسوة. على الرغم من كل عيوبه وتجاوزاته، الكتاب مفيد لى بوصفه وثيقة سيكولوجية، وأكثر من أى دليل آخر، يوضح كيف كشف الدراما الداخلية لحياته المبكرة. لا يريد أن يقبل حقيقة أن والده ميت (ومن هنا ينقذ "الآدميون" كبلر)؛ لكن إذا لم يكن والده ميتا، ليس هناك إذن عذر لعدم عودته إلى أسرته (ومن هنا السكين التى غرسها كبلر الابن فى قلب أبيه). لكن فكرة القتل

مفزعة جدا بدرجة تجلب النفور. من يفكر فى مثل هذه الفكرة ينبغى أن يعاقب، وهذا بالضبط ما يحدث لكبلر الابن، الذى يأتى مصيره أسوأ من أى شخصية أخرى فى الكتاب. القصة كلها رقصة معقدة من الإثم والرغبة. تتحول الرغبة إلى إثم، وحيث إن هذا الإثم لا يحتمل، تصبح هناك رغبة للتكفير عنه، للخضوع لشكل قاس وعنيد من أشكال العدل. أظن أنه لم يكن من قبيل الصدفة أن المنح الدراسية التالية لبربر كرست لاستكشاف الكثير من القضايا التى ظهرت فى "دماء كبلر". المستعمرون المفقودون فى "روانوك"، حكايات الرجال البيض الذين يعيشون بين الهنود، ميثولوجيا الغرب الأمريكى- تلك هى المواضيع التى يتناولها بربر مؤرخًا، وبصرف النظر عن مدى تدقيقه واحترافه فى معالجتها، كان هناك دائما دافع شخصى وراء أعماله، اقتناع سرى بأنه ينقب عن أسرار حياته الخاصة.

فى ربيع ١٩٣٩، كانت أمام بربر فرصة أخيرة ليعرف شيئا عن أبيه، لكنها لم تؤدِ إلى نتيجة. كان فى السنة الأخيرة فى كولومبيا، وفى منتصف مايو، بالضبط بعد أسبوع من احتكاكه المفترض مع الخال فكتور فى المعرض العالمى، اتصلت الخالة كلارا لتخبره بأن أمه ماتت وهى نائمة. استقل القطار مبكرا فى الصباح إلى جزيرة لونج، ثم اجتاز محن الأحد لدفنها: ترتيبات الجنازة، قراءة الوصية، المحادثات المعذبة مع المحامين والمحاسبين. دفع فواتير البيت الذى عاشت فيه فى الشهور الستة الأخيرة، ووقع على أوراق ونماذج، وانتحب من وقت لآخر على الرغم من إرادته. بعد الجنازة عاد إلى المنزل الكبير ليقضى الليلة، مدركا أنها قد تكون آخر ليلة يقضيها هناك. كانت الخالة كلارا الوحيدة التى بقيت هناك وكانت فى حالة لا تسمح لها بالجلوس والتحدث إليه. لمرة أخرى فى ذلك اليوم مارس طقس إخبارها أنه يرحب بأن تواصل العيش فى المنزل كما تشاء. مرة أخرى، شكرته على عطفه، ووقفت على أطراف أصابعها لتقبل وجنته، ومرة أخرى عادت إلى زجاجة الشيرى التى خبأتها فى غرفتها. العاملون، وكانوا سبعة أشخاص عند ميلاد بربر، لم يبق منهم إلا واحدة- امرأة سوداء عرجاء اسمها "هاتى نيوكومب"، كانت تطبخ للخالة كلارا وتساهم أحيانا فى تنظيف المنزل-

ولبضع سنوات كان المكان ينهار حولهما. تُركت الحديقة مهملة منذ موت جده في ١٩٣٤، وما كان ذات يوم سيلا منمقًا من الأزهار والعشب صار وخزا من عشب ضار يصل إلى الصدر. في الداخل، تتدلى خيوط العنكبوت من كل مكان في السقف تقريبا؛ ولم يكن من الممكن لمس الكراسي دون إثارة عاصفة من الغبار؛ وكانت الفئران تسرع بجنون في الغرف، وكلارا، المترنحة، كلارا المتجهمة دومًا، لا تلاحظ شيئا. كانت على هذا النحو منذ فترة طويلة حتى إن بربر لم يعد يهتم. كان يعرف أنه لن تواتيه الشجاعة أبدًا للعيش في هذا المنزل، وبمجرد أن تموت كلارا ميتة الكحول نفسها مثل زوجها بينكي، سيعود كله له سواء انهار السقف أم لا.

في صباحِ اليومِ التالي، وجد الخالة كلارا تجلس في ردهة الدور الأرضي. لم يكن قد حان بعد موعد الكأس الأولى من الشيري (كقاعدة عامة لم تكن الزجاجة تفتح إلا بعد الغداء)، وأدرك بربر أنه إذا كان له أن يتحدث إليها، فيجب أن يكون الآن. كانت تجلس إلى طاولة اللعب في الركن حين دخل المكان، وكان رأسها الصغير كرأس العصفور محنيا على لعبة سوليتير، مهمهمة بأغنية نشاز بصوت منخفض. فكر في نفسه وهو يقترب: "الرجل على الأرجوحة الطائرة[1]، ثم وصل خلفها ووضع يده على كتفها. كان الجسم كله عظاما تحت الشال الصوفي.

قال مشيرا إلى ورقة كوتشينة على الطاولة: "الثلاثة الحمراء على الأربعة البيضاء".

طقطقت بلسانها في إشارة إلى غبائها، مدمجة المجموعتين، والتفتت إلى الورقة المسحوبة، الشايب الأحمر. قالت: "أشكرك يا سُلْ. لستُ مركِّزة اليوم. أخطئ الرميات التي يفترض أن أقوم بها ثم ينتهي بي الأمر إلى الغش حين ينبغي ألا أفعل ذلك". أطلقت ضحكة قصيرة مكتومة وعادت إلى همهمتها.

١- الرجل على الأرجوحة الطائرة The Man on the Flying Trapeze: أغنية شهيرة ترجع إلى القرن التاسع عشر.

اتجه بربر إلى الكرسي المقابل للخالة كلارا، وهو يفكر كيف يبدأ. شك في أن يكون لديها الكثير لتخبره به، لكن لم يكن هناك شخص آخر يمكن التحدث إليه. لعدة لحظات جلس فقط وتفحص وجهها، فحص شبكة الغضون المعقدة، المسحوق الأبيض الملطخ على وجنتيها، أحمر الشفاه المضحك. وجد أنها مثيرة للشفقة. فكر، لابد أن الزواج من هذه العائلة لم يكن سهلا، العيش مع خاله كل تلك السنوات، عدم إنجاب أى أطفال. كان بينكى غبيا ومغازلا جيدا وقد تزوج من كلارا فى ثمانينيات القرن التاسع عشر، بعد أسبوع من رؤيتها تؤدى دورها على خشبة مسرح جاليلو فى بروفيدنس[١] مساعدة فى الدور السحرى فى "ميسترو رودولفو". كان بربر يحب دائما الاستماع إلى القصص المشتتة التى تحكيها عن أيامها فى الملهاة، وأذهلته غرابة أنه لم يتبق من الأسرة إلا هما. بربر الأخير و"ويلر" الأخيرة. فتاة من الطبقات الدنيا، كما كانت جدته تصفها دائمًا، بغى غبية فقدت جمالها منذ أكثر من ثلاثين سنة، و"سير روتنديتى" نفسه، الولد الأعجوبة سريع النمو، وُلِد لامرأة مجنونة وشبح. لم يشعر قط بعطف على الخالة كلارا بقدر ما شعر فى تلك اللحظة.

قال: "أنا عائد إلى نيويورك الليلة".

ردتْ، ولم ترفع نظرها عن الكوتشينة: "لا تقلق على، سأكون على ما يرام هنا وحدى، اعتدْتُ على ذلك كما تعرف".

وضعت الخالة كلارا ستة حمراء على سبعة سوداء، وفحصت الطاولة بحثًا عن بقعة تلقى عليها بنتا سوداء، وتنهدت بخيبة أمل، ثم تطلعت إلى بربر. قالت: "آه، سُلْ. لا تكن دراميا على هذا النحو".

"لستُ دراميا. ربما فقط تكون هذه آخر مرة نتقابل فيها".

١- بروفيدنس Providence: عاصمة ولاية جزيرة رود، وتقع فى الجزء الشمالى الشرقى من الولاية.

لم تفهم الخالة كلارا. قالت: "أعرف أنه لأمر محزن أن تفقد أمك. لكن هوِّنْ على نفسك. إن رحيل إليزابيث نعمة حقا. كانت حياتها عذابا، والآن هى فى النهاية فى سلام". توقفت الخالة كلارا لحظة، تبحث عن كلمة مناسبة. "لا تضع أفكاراً سخيفة فى رأسك".

"ليس رأسى يا خالة كلارا، إنه المنزل. أظن أننى لن آتى إلى هنا مرة أخرى".

"لكنه منزلك الآن. تمتلكه. كل ما فيه ملكك".

"لا يعنى هذا أن علىَّ أن أحتفظ به. يمكن أن أتخلص منه حين أشاء".

"لكن يا سلِى... قلْتَ أمس إنك لن تبيع المنزل. وعدْتَ".

"لن أبيعه. لكن ليس هناك ما يمنعنى من التخلى عنه، أليس كذلك؟"

"نأتى إلى النقطة نفسها. يمتلكه شخص آخر، وأوضع فى مكان ما لأموت فى غرفة مملوءة بالمسنات".

"لا، إذا أعطيتك المنزل، يمكنك أن تبقى هنا".

"كف عن هذا الهراء. كلامك هذا يصيبنى بأزمة قلبية".

"إن نقل الملكية ليس مشكلة. يمكننى الاتصال بمحام اليوم وبدء الإجراءات".

"لكن يا سلِى..".

"ربما آخذ بعض اللوحات معى، لكن كل ما عدا ذلك يمكن أن يبقى معك".

"خطأ. لكننى لا أعرف السبب، لكن من الخطأ أن تتكلم بهذه الطريقة".

قال، متجاهلا ملاحظتها: "هناك شىء واحد فقط عليك أن تفعليه من أجلى، أريدك أن تظهرى إرادة حقيقية، وبالإرادة أريدك أن تغادرى المنزل إلى هاتى نيوكومب".

"هاتى نيوكومب".

"نعم، هاتى نيوكومب".

"لكن يا سُلْ، هل تعتقد أن ذلك مناسب؟ أقصد هاتى... هاتى، تعرف، هاتى هو..".

"هو ماذا يا خالة كلارا؟"

"امرأة ملونة. هاتى امرأة ملونة".

"إذا كانت هاتى غير مهمة، لا أعرف لماذا تزعجك".

"لكن ماذا يقول الناس؟ امرأة ملونة تعيش فى منزل كليف. تعرف أن الملونين فى هذه البلدة خدم فقط".

"هذا لا يغير حقيقة أن هاتى أفضل صديقاتك. إنها صديقتك الوحيدة بقدر ما أعرف. ولماذا نبالى بما يقول الناس؟ ليس هناك ما هو أهم فى هذا العالم من أن نكون طيبين مع أصدقائنا".

حين أدركت الخالة كلارا أن ابن أختها جاد، بدأتْ تقهقه. تهدَّمَ فجأة نظام كامل من التفكير بكلماته، وقد هزها أن تصدق أن مثل هذا الشيء ممكن. قالت: "الجزء السيئ الوحيد أن أموت قبل أن تضطلع هاتى بالمسئولية. أتمنى أن أعيش لأرى ذلك بعينى".

"إذا كانت السماء هى التى تقرر ذلك، فأنا على يقين من أنك سترين ذلك".

"طوال حياتى، لم أفهم أبداً لماذا تفعل هذا".

"ليس عليك أن تفهمى، لدىَّ أسبابى، ولا حاجة بك لأن تهتمى بها. أريد فقط أن أتحدث معك أولا عن بضعة أمور، ثم نعتبر الأمر منتهيا".

"أى أمور؟"

"أمور قديمة. أمور عن الماضى".

"مسرح جاليلو؟"

"لا، ليس اليوم. أفكر فى أمور أخرى".

"أوه". توقفت الخالة كلارا، وارتبكت لحظة. "المسألة فقط أنك كنت تحب دائما أن أتحدث عن رودولفو. الطريقة التى وضعنى بها فى الكفن وقسمنى نصفين. كان عملا جيدا، أفضل عمل فى المسرحية. هل تتذكر؟"

"بالطبع أتذكر. لكن ليس هذا ما أريد التحدث عنه الآن".

"كما تريد. هناك الكثير من الأيام السابقة، على الرغم من كل شىء، وخصوصا حين تكون فى عمرى".

"كنتُ أفكر فى أبى".

"آه، أبوك. نعم، كان ذلك منذ زمن بعيد، جدا. بعيد حقا. ليس بعيدا مثل بعض الأشياء، لكنه بعيد جدا".

"أعرف أنك لم تنتقلى أنت وبينكى إلى المنزل إلا بعد اختفائه، لكننى أتساءل إن كنت تتذكرين أى شىء عن فريق البحث الذى ذهب يبحث عنه".

"قام جدك بكل الإجراءات، مع مستر اسمه إيه".

"مستر بيرن".

"صحيح، مستر بيرن، والد الفتى. بحثا ستة أشهر، ولم يجدا شيئا. ذهب بينكى أيضا لبعض الوقت، كما تعرف. وعاد بقصص مسلية. وهو الذى اعتقد أنهما قتلا على أيدى الهنود".

"إنه مع ذلك كان يخمن فقط، أليس كذلك؟"

"كان بينكى بارعا فى رواية الحكايات الطويلة. لم يكن هناك ذرة من الحقيقة فى أى شىء قاله".

"وهل ذهبت أمى إلى الغرب أيضاً؟"

"أمك؟ أوه، لا، كانت إليزابيث هنا طوال الوقت. كان من الصعب عليها... كيف أعبِّر.. من الصعب عليها أن تسافر على أى حال".

"لأنها كانت حاملا؟"

"حسنا، لابد أن ذلك كان جزءا من المشكلة".

"ما الجزء الآخر؟"

"حالتها الذهنية. لم تكن سليمة".

"هل كانت مجنونة بالفعل؟"

"كانت إليزابيث دائما ما يمكن أن تسميه متقلبة المزاج. فى لحظة عابسة تماما، وفى اللحظة التالية تضحك وتغنى. حتى قبل ذلك بسنوات، حين قابلتها أول مرة. كنا نستخدم كلمة متوترة فى تلك الأيام".

"متى ساءت حالتها؟"

"بعد عدم عودة أبيك".

"هل حدث الأمر بالتدريج، أم ساءت حالتها فجأة؟"

"فجأة يا سُلْ. كان شيئا مروعا".

"هل رأيتِ ذلك؟"

"بعينى. الأمر كله. لن أنساه أبداً".

"متى حدث ذلك؟"

"الليلة التى... أعنى، ذات ليلة... لا أتذكر. ذات ليلة فى الشتاء".

"أى ليلة يا خالة كلارا؟"

"ليلة جليدية. كان الجو باردا فى الخارج، وكانت هناك عاصفة شديدة. أتذكر ذلك لأن الطبيب عانى ليصل إلى هنا".

"كانت ليلة فى يناير، أليس كذلك؟"

"ربما. يتساقط الجليد فى يناير غالبًا. لكننى لا أتذكر فى أى شهر حدث ذلك".

"كانت ليلة الحادى عشر من يناير، أليس كذلك؟ الليلة التى ولدْتُ فيها".

"أوه، يا سُلْ، لا ينبغى أن تظل تسألنى عن ذلك. كان ذلك منذ زمن بعيد جداً، لم يعد الأمر مهماً".

"يهمنى يا خالة كلارا. وأنت الوحيدة التى يمكن أن تخبرنى به. هل تفهمين؟ أنت الوحيدة المتبقية يا خالة كلارا".

"ينبغى ألا تصيح. أسمعك جيدا يا سليمان. لا حاجة بك للكلمات الاستفزازية والقاسية".

"لا أستفزك. أحاول فقط أن أسأل".

"تعرف الإجابة بالفعل. انزلقت من فمى منذ لحظة، وأنا آسفة لذلك الآن".

"لا ينبغى ألا تأسفى. المهم أن تقولى الحقيقة. ليس هناك أهم من ذلك".

"كان ذلك بالضبط... لا أريد أن تعتقد أننى أؤلف. كنت فى غرفتها تلك الليلة، كما ترى. كنت أنا ومولى شارب، ننتظر حضور الطبيب، وإليزابيث تصرخ وتلطم كثيرا، اعتقدت أن المنزل سينهار".

"بم كانت تصرخ؟"

"بأشياء بشعة. أشياء تجعلنى أعتل حين أفكر فيها".

"أخبرينى يا خالة كلارا".

"ظلت تصرخ 'يحاول أن يقتلنى، يحاول أن يقتلنى. لا يمكن أن نتركه يخرج'".

"تقصدنى؟"

"نعم، الطفل. لا تسألنى كيف عرفتْ أنه ولد، لكن هذا ما كان. كان الوقت يقترب، ولم يحضر الطبيب. حاولْتُ أنا ومولى أن نجعلها ترقد على السرير، أن نضعها فى الوضع المناسب، لكنها لم تكن متعاونة. قلنا لها: 'افتحى ساقيك، سيخفف ذلك الألم.' لكن إليزابيث لم تفعل. يعرف الرب أين وجدتْ القوة. ظلت تفلت منا وتذهب إلى الباب، صارخة بتلك الكلمات المفزعة مراراً وتكراراً. 'يحاول أن يقتلنى. لا يمكن أن نتركه يخرج.' تمكنا فى النهاية من وضعها على السرير- أو ينبغى أن أقول إن مولى فعلت ذلك، بمساعدة ضئيلة منى- كانت مولى شارب ثورا- لكن بمجرد أن وضعناها هناك، لم تفتح ساقيها. صرختْ: 'لن أتركه يخرج. سأخنقه هناك أولا. ولد وحش، ولد وحش. لن أتركه يخرج قبل أن أقتله.' حاولنا أن نفتح ساقيها بصعوبة، لكن إليزابيث ظلت تتملص، تضرب وتضرب حتى بدأتْ مولى تصفعها على وجهها- تضرب وتضرب بقدر ما تستطيع- مما أغضب إليزابيث حتى إنها لم تفعل شيئا بعد ذلك سوى الصراخ، بالضبط كانت هى نفسها مثل طفلة، وجهها أحمر تماما، تصيح وتصرخ كما لو كانت توقظ الموتى".

"يا إلهى".

"كان أسوأ ما رأيْتُ فى حياتى. لهذا لم أكن أريد أن أخبرك".

"ومع ذلك تمكنت من الخروج، أليس كذلك؟"

"كنت الولد الأضخم والأقوى الذى رآه أى إنسان. قال الطبيب إنك أكثر من أحد عشر رطلا. عملاق. أؤمن بأنك لو لم تكن بهذه الضخامة يا سُلْ، ربما لم تفعلها قط. عليك أن تتذكر ذلك دائما. حجمك هو الذى أتى بك إلى العالم".

"وأمى؟"

"جاء الطبيب أخيرا- الدكتور بولز، الذى مات منذ ست سنوات أو سبع فى تلك السيارة التى تحطمت- وأعطى إليزابيث حقنة جعلتها تنام. لم تستيقظ إلا فى اليوم

التالى، ونسيتْ كل شىء. لا أقصد الليلة السابقة فقط، لكن كل شىء- حياتها كلها، كل ما حدث لها فى السنوات العشرين السابقة. حين حملناك أنا ومولى لنريها ابنها الوليد، اعتقدتْ أنه أخوها الرضيع. كان الأمر غريبًا تمامًا يا سُلْ. صارت فتاة صغيرة مرة أخرى، ولم تعرف من هى".

كان بربر على وشك أن يطرح عليها سؤالا آخر، لكن ساعة الجد بدأت ترن فى القاعة. مالت الخالة كلارا برأسها متنبهة إلى جانب وأنصتت إلى الرنات، وهى تعد الساعات على أصابعها. حين توقفت الأجراس عن الرنين، وصلت إلى الثانية عشرة، وجلب ذلك نظرة تلهف، نظرة توسل تقريبا إلى وجهها. أعلنت: "يبدو أنها الظهيرة. ليس من الأدب أن أترك هاتى تنتظر".

"وقت الغداء بالفعل؟"

قالت وهى تقف من مقعدها: "إننى خائفة جدا. حان الوقت لنحصن أنفسنا بقليل من الطعام".

"تمضين يا خالة كلارا. سأنطلق خلال دقيقة".

وهو يشاهد الخالة كلارا تخرج من الغرفة، أدرك بربر أن المحادثة انتهت فجأة. والأسوأ من ذلك أنه فهم أنها لن تبدأ مرة أخرى أبداً. وضع يده على موقف، ولم تكن هناك منازل أخرى يمكن أن يزفها إليها، لم تكن هناك حيلة لإغرائها بالكلام.

أخذ الكوتشينة من على الطاولة، ثم لعب دور سوليتير. "دموع سُلِى"، قال لنفسه، فى تورية لاسمه. قرر أن يلعب حتى يكسب، وانتهى به الأمر إلى الجلوس هناك لأكثر من ساعة. انتهى الغداء، لكن لم يبد ذلك بالغ الأهمية. مرة فى حياته لم يكن جائعا.

كنا نجلس فى كوفى شوب الفندق نتناول الإفطار حين حكى بربر هذا المشهد لى. كان صباح الأحد وقد فاتنا الوقت تقريبا. شربنا آخر كوب من القهوة معًا، ثم ونحن على المصعد لنأتى بأمتعة بربر، حكى لى نهاية القصة. قال إن خالته كلارا ماتت فى

١٩٤٣، أعطيت هاتى نيوكومب حسب الأصول سند ملكية منزل كليف، ولبقية العقد عاشت هناك فى أبهة متداعية، مسيطرة على مجموعة من الأطفال والأحفاد الذين يسكنون غرف القصر. بعد موتها فى ١٩٥١، باع زوج ابنتها فريد روبنسون الملكية لشركة "كافالكنت" للإنشاء، وهدم المنزل القديم فجأة. فى ثمانية عشر شهرا قسمت الملكية إلى عشرين جزءا كل منها نصف فدان، وعلى كل جزء منزل عليه اسم جديد، وكانت كل المنازل متماثلة.

سألْتُ: "هل كنت ستتخلى عنه لو كنت تعرف أن هذا سيحدث؟"

قال، واضعا الكبريت على سيجاره المطفأ ونافثا الدخان فى الهواء: "إطلاقا، لم أكن لأعيد التفكير فى ذلك. لا تسنح لنا الفرصة غالبا للقيام بمثل هذه الأمور المتطرفة، وأنا سعيد لأننى لم أضيع الفرصة. حين يتعلق الأمر بذلك مباشرة، ربما كان إعطاء المنزل لهاتى نيوكومب أفضل ما فعلْتُ على الإطلاق".

كنا نقف فى الخارج أمام الفندق، ننتظر البواب ليأتى بتاكسى. حين حانت لحظة الوداع، كان بربر لسبب غير معروف على وشك البكاء. افترضت أنها استجابة متأخرة للموقف، إن نهاية الأسبوع حملت له الكثير جدا فى النهاية، لكن بالطبع لم أعرف ما يدور بداخله، لم أستطع حتى تخيل أى شىء عنه. كان يودع ابنه، وكنت أودع صديقا، رجلا قابلته قبل يومين فقط. وقف التاكسى أمامه، وعداده يتكتك بإيقاع خافت محموم والبواب يضع حقيبة بربر فى صندوق السيارة. قام بربر بإيماءة كما لو كان سيعانقنى فى الوداع، لكنه تراجع فى اللحظة الأخيرة، شد كتفىَّ بشكل أخرق وضغط عليهما بشدة.

قال: "أنت أول شخص أخبره بهذه القصص. شكرا لأنك كنت ذلك المستمع الجيد. أشعر... كيف أعبِّر... أشعر أن بيننا رابطة الآن".

قلت: "كانت نهاية أسبوع لا تنسى".

"نعم إنها كذلك. نهاية أسبوع لا تنسى. نهاية أسبوع تنهى نهايات كل الأسابيع".

ناور بربر ليدخل التاكسى بجسمه الضخم، وألقى إلىَّ بعلامة النصر من المقعد الخلفى، واختفى وسط حركة المرور. فى تلك اللحظة، لم أعتقد أننى يمكن أن أراه مرة أخرى أبداً. اهتممنا بمهمتنا، واستكشفنا ما كان علينا أن نستكشفه، وبدا أنها النهاية. حتى حين وصلت مخطوطة "دماء كبلر" بالبريد فى الأسبوع التالى، لم أشعر أن ذلك استمرار لما بدأناه بقدر ما كان نتيجة، ثمرة أخيرة صغيرة لمقابلتنا. وعد بربر بإرسالها، وافترضْتُ أنه مهذب. فى اليوم التالى، رددت برسالة شكر، مكررا تعبيرى عن سعادتى بمقابلتنا، ثم فقدت الاتصال به، للأبد على ما يبدو.

استمر فردوسى فى الحى الصينى. كانت كيتى ترقص وتدْرس، وواصلْتُ الكتابة والتمشية. جاء عيد كولومبس، وجاء عيد الشكر، وجاء الكريسماس، ومسابقة ملكة جمال العام الجديد. ثم ذات صباح فى منتصف يناير رن التليفون وكان بربر على الطرف الآخر من الخط. سألْتُه من أين يتصل، وحين قال نيويورك، سمعت الإثارة والسعادة فى صوته.

قلْتُ: "إذا كان لديك بعض الوقت، جميل أن نكون معا مرة أخرى".

"أتمنى جدا أن نلتقى، لكن لا تفسد جدولك من أجلى. أخطط للبقاء هنا لبعض الوقت".

"لابد أن كليتك تمنح إجازة طويلة بين الفصول الدراسية".

"بالفعل، أنا فى إجازة مرة أخرى. أنا فى إجازة حتى سبتمبر القادم، وأثناء ذلك أظن أننى سأعيش فى نيويورك. أجرْتُ شقة فى الشارع العاشر، فى بناية بين الشارع الخامس والشارع السادس".

"إنه حى رائع. تمشيْتُ فيه كثيرا".

"حميمى وفاتن، كما تقول إعلانات السماسرة. ذهبت إليه الليلة الماضية، وأنا سعيد جدا به. سيكون عليك أن تأتى أنت وكيتى لزيارتى".

"جميل، حدد يوما فقط وسوف نأتى".

"العاصمة. سأتصل بك فى وقت لاحق من هذا الأسبوع، بمجرد أن أستقر. هناك مشروع أود أن أناقشه معك، ومن ثم استعد بأفكارك".

"لست متأكدا من أنك ستجد الكثير فيها، لكنك مرحب بكل ما فيها".

بعد ثلاثة أيام أو أربعة، ذهبت أنا وكيتى إلى شقة بربر لتناول العشاء، وبعد ذلك بدأنا نراه كثيرا. بربر هو الذى بدأ الصداقة، وإذا كان لديه حافز خفى لمخاطبة ودنا، فلم يكن أحد منا يدركه. دعانا إلى مطاعم، وإلى أفلام وحفلات موسيقية، ولمصاحبته فى السيارة إلى الريف، ولأن الرجل كان يتميز بروح ومشاعر طيبة، لم نستطع مقاومته. لابسا تلك القبعات الغريبة حيثما ذهب، ناثرا النكات يمينا ويسارا، لا يخشى الفوضى التى يثيرها فى الأماكن العامة. أخذنا بربر تحت جناحه كأنه يسعى إلى أن يتبنانا. وحيث كنت أنا وكيتى يتيمين بدا أننا نستفيد من هذا الإجراء.

فى الليلة الأولى التى رأينا فيها بربر، أخبرنا بتسوية ممتلكات إفينج. قال إنه حصل على قدر كبير من الأموال، ولأول مرة فى حياته لم يعد يعتمد على وظيفته. لن يعود إلى التدريس لعامين أو ثلاثة إذا سارت الأمور كما يتمنى. قال: "إنها فرصتى للاستمتاع بها، والحصول على أكبر قدر المتعة".

قلت: "بكل النقود التى تركها إفينج، ظننت أنك يمكن أن تستقيل إلى الأبد".

"ليس بمثل هذا الحظ. كانت هناك ضرائب التركات، وضرائب على الممتلكات، وأتعاب المحامين، نفقات لم أسمع بها من قبل. استنفدت مبلغا كبيراً. ثم كان هناك مبلغ للبدء به أقل مما توقعنا".

"هل تقصد أنها لم تكن بالملايين؟"

"لا. كانت بالآلاف. بعد كل شىء، حصل كل منا أنا ومسز هوم على ستة وأربعين ألف دولار تقريبا".

قلْتُ: "كان ينبغى أن أعرف أفضل. كان يتحدث كأنه أغنى رجل فى نيويورك".

"نعم، أظن أنه كان ميالا للمبالغة. لكن هذا لا يجعلنى آخذ موقفا ضده. ورثْتُ ستة وأربعين ألف دولار من شخص لم أقابله قط. إنه أكبر مبلغ امتلكته فى حياتى، كسب مفاجئ هائل، هبة تفوق الخيال".

أخبرنا بربر أنه كان يعمل فى كتاب عن توماس هريوت على مدى السنوات الثلاث السابقة. ومن الطبيعى أن يتوقع أن يستغرق عامين آخرين للانتهاء منه، لكنه لم تعد لديه التزامات أخرى، ويعتقد أنه يمكن أن ينهيه فى منتصف الصيف، بعد ستة أشهر أو سبعة فقط. وهذا ما جعله يتوصل إلى المشروع الذى عرضه علىَّ فى التليفون. قال إن الفكرة راودته منذ أسبوعين فقط وأنه يريد رأيى قبل يكرس لها أى تفكير جاد. إنها شىء لما بعد، شىء يمكن معالجته بعد الانتهاء من كتاب هريوت، لكن إذا انتهى به الأمر إلى القيام به فإنه يحتاج إلى قدر كبير من التخطيط. قال: "أفترض أنه يتلخص فى سؤال واحد، ولا أتوقع أن تكون قادرا على أن تقدم لى إجابة قاطعة. لكن فى ظل ظروف لا أثق فيها إلا فى رأيك".

انتهينا من تناول العشاء عند هذه النقطة، وأتذكر أننا بقينا نحن الثلاثة حول المائدة، نشرب كونياك وندخن سيجارا كوبيا عاد به بربر من رحلة حديثة إلى كندا. كنا جميعا سكارى بعض الشىء، وفى روح اللحظة، حتى كيتى قبلتْ واحدا من "التشرشل" الضخم الذى عرضه بربر. اندهشت حين رأيتها تنفثه بهدوء وهى تجلس هناك فى "الشيباو"، لكنها كانت ممتعة مثل منظر بربر نفسه، الذى كان يرتدى لهذه المناسبة جاكيت سموكنج برجندى وطربوشاً.

قلْتُ: "أنا الشخص الوحيد، إذن لابد أنه أمر يتعلق بأبيك".

"نعم، كذلك بالضبط". ليؤكد بربر رده، مال برأسه إلى الخلف ونفث حلقة كاملة من الدخان فى الهواء. نظرْتُ أنا وكيتى إلى الحلقة بإعجاب، وتتبعناها وهى تهتز بجوارنا وتفقد شكلها ببطء. بعد توقف قصير، خفض بربر صوته تماما وقال: "كنْتُ

أفكر فى الكهف".

كررت: "آه، الكهف. الكهف المبهم فى الصحراء".

"لا أستطيع التوقف عن التفكير فيه. يشبه إحدى تلك الأغنيات القديمة التى تظل تتردد فى رأسك".

"أغنية قديمة. قصة قديمة. لا يمكن التخلص منها. لكن كيف نعرف أنه كان هناك كهف؟"

"هذا ما كنت على وشك أن أسألك عنه. أنت الذى سمعْتَ القصة. ماذا تقول يا م. س.؟ هل كان يقول الحقيقة أم لا؟"

قبل أن أستجمع أفكارى لأرد، مالت كيتى إلى الأمام على كوعها، ونظرت إلىَّ على يسارها، ونظرت إلى بربر على يمينها، ثم لخصت المشكلة المعقدة كلها فى جملتين. قالت: "كان يقول الحقيقة بالطبع. حقائقه ربما لم تكن صحيحة دائما، لكنه كان يقول الحقيقة".

قال بربر: "إجابة شاملة. لا شك أنها الإجابة الوحيدة التى لها مغزى".

قلْتُ: "أخشى أن يكون الأمر كذلك. حتى لو لم يكن هناك كهف فعلى، كانت هناك خبرة الكهف. يعتمد الأمر على مدى الحرْفية التى تريد أن تفهمه بها".

واصل بربر: "فى هذه الحالة، لنطرح السؤال بصيغة أخرى. نظرا لأننا لا يمكن أن نتأكد، إلى أى حد تعتقد أن الأمر يستحق المخاطرة؟"

سألْتُ: "أى نوع من المخاطرة؟"

قالت كيتى: "مخاطرة تضييع الوقت".

"مازلتُ لا أفهم".

قالتْ لى: "يريد أن يبحث عن كهف، أليس هذا صحيح يا سُلْ؟ مطلوب منك أن

تذهب إلى هناك وترى إن كان هناك كهف".

قال بربر: "تدركين بشكل جيد يا عزيزتى. هذا بالضبط ما أفكر فيه، والإغراء قوى. إذا كان هناك احتمال لوجود الكهف، فأنا عازم على القيام بكل ما أستطيع للعثور عليه".

قلْتُ: "هناك احتمال. قد لا يكون احتمالا كبيرا، لكننى أرى أنه ينبغى ألا يوقفك".

قالت كيتى: "لا يمكنه أن يفعل ذلك وحده. سيكون ذلك بالغ الخطورة".

قلْتُ: "صحيح تماما. ينبغى عدم تسلق أحد الجبال وحده".

قال بربر: "وخاصة إذا كان بدينا. لكن هذه تفاصيل نتناولها فيما بعد. المهم أن تعتقد أننى ينبغى أن أفعل ذلك. هل هذا صحيح؟"

قالت كيتى: "يمكننا أن نفعل ذلك معا. يمكن أن أكون أنا و م. س. مستكشفين لديك".

قلت: "بالطبع"، وفجأة تخيلت نفسى فى زى جلدى، أتفحص الأفق من على صهوة حصان "بالومينو". "سوف نجد هذا الكهف ولو كان آخر شىء نفعله".

لأكون مخلصا تماما، لم آخذ أى شىء من هذا بجدية. اعتقدْتُ أنه من أفكار السكارى التى يهذى بها الناس فى وقت متأخر من الليل وينسونها فى الصباح، حتى رغم أننا واصلنا الحديث عن "الحملة " كلما التقينا، اعتبرت أن ذلك ليس إلا نكتة. كان من الممتع أن أدرس خرائط وصورا فوتوغرافية، وأن أناقش خطوط الرحلة وحالات الطقس، لكن التسلية بالمشروع شىء مختلف تماما عن الإيمان به. كانت يوتا بعيدة جدا، وفرص تنظيم مثل هذه الرحلة ضئيلة جدا، حتى إذا كان بربر جادا، فقد فشلْتُ فى رؤية كيفية إتمامها. تعزز هذا النزوع للشك عصر يوم أحد فى فبراير حين شاهدْتُ بربر يمشى متثاقلا خلال غابات ريف "بركشاير". كان الرجل بدينا جدا، تفتقر خطواته للرشاقة تماما، متقطع الأنفاس بشكل كئيب، لا يستطيع السير أكثر من عشر دقائق

دون أن يتوقف ويلتقط أنفاسه. أحمر الوجه من الإجهاد، وكان يلقى بنفسه إلى أقرب جذع شجرة ويجلس بقدر ما سار، وصدره الهائل يرتجف بيأس، والعرق يتساقط من قبعته وكأن رأسه كتلة من الثلج الذائب. فكرْتُ، إذا كانت الهضاب السلسة فى "ماساشوستس" تفعل به ذلك، كيف يتغلب على وديان يوتا؟ لا، الحملة نكتة، تدريب صغير غريب فى التمنى. ليس هناك مبرر للقلق طالما بقيت فى عالم المحادثة. لكن إذا قام بربر بحركة حقيقية، فهمت أنا وكيتى أن من مسئوليتنا أن نثنيه عنها.

نظراً لمقاومتى فى البداية، كان من المفارقة أن أكون الشخص الذى ذهب فى النهاية ليبحث عن الكهف. بعد ثمانية شهور من أول مناقشة للحملة، لكن حدثت أمور كثيرة، وانهارت وتحطمت أشياء كثيرة، حتى لم تعد مشاعرى الأولى مهمة. ذهبْتُ لأنه لم يكن أمامى اختيار. لم يكن الأمر يتعلق بأننى لا أريد أن أذهب؛ كان يتعلق ببساطة بأن الظروف لم تعد تسمح لى بعدم الذهاب.

اكتشفتْ كيتى أنها حامل فى أواخر مارس، وفى بداية يونيو فقدتها. تحطمت حياتنا كلها فى أسابيع، وحين فهمت فى النهاية أن الضرر لا يمكن إصلاحه، شعرْتُ وكأن قلبى انفصل عنى. حتى ذلك الوقت، كنت أعيش أنا وكيتى فى انسجام هائل، وكلما استمر ذلك قل احتمال أن يبدو أن أى شىء يمكن أن يحدث بيننا. ربما لو كنا أكثر ولعا بالقتال فى علاقاتنا، إذا كنا نقضى وقتنا نتجادل ويلقى كل منا الأطباق على الآخر، ربما كنا أكثر استعدادا لمواجهة الأزمة. وفى هذا الوضع، سقط الحمل مثل قذيفة فى حوض صغير، وقبل أن نستجمع قوانا لمواجهة الصدمة، غرق قاربنا ونحن نسبح للحياة العزيزة.

لم تكن قط مسألة حب. حتى حين كانت معاركنا على أشدها، لم نتخل عنه قط، لم ننكر الحقائق قط، لم نتظاهر قط بأن مشاعرنا تغيرت. كان الأمر ببساطة أننا لم نعد نتحدث اللغة نفسها. بقدر ما كانت ترى كيتى، كان الحب يعنينا نحن الاثنين، وهذا كل شىء. لا علاقة للطفل به، ومن ثم ينبغى لأى قرار نتخذه أن يعتمد بشكل قاطع على ما

نريده لأنفسنا. وعلى الرغم من أن كيتى هى الحامل فإن الجنين لم يكن إلا تجريدا بالنسبة لها، لحظة افتراضية فى حياة المستقبل وليس حياة تتكون. إنه غير موجود حتى يولد. لكن من وجهة نظرى وجد الطفل من اللحظة التى أخبرتنى فيها كيتى بأنها تحمله داخلها. حتى لو لم يكن أطول من إبهام فهو شخص، حقيقة لا يمكن تجاهلها. لو اتجهنا ورتبنا للإجهاض، لشعرْتُ بأن الأمر لا يختلف عن اقتراف جريمة قتل.

كانت كل الأسباب فى جانب كيتى. كنت أعرف ذلك، ومع ذلك لم يبد أن ذلك يغير من الأمر شيئا. أغلقْتُ على نفسى فى لاعقلانية عنيدة، مصدوما أكثر وأكثر بعنفى، لكننى كنت عاجزا عن عمل أى شىء. قالت كيتى إنها أصغر من أن تكون أمًّا، وبينما كنت أدرك ذلك كبيان شرعى، لم أرغب قط فى التسليم بالأمر. أرد: لم تكن أمهاتنا أصغر منك الآن، متمسكين بعناد بموقفين متنافرين، وفجأة نكون فى قلب المشكلة. تقول كيتى كان ذلك جيدا بالنسبة لأمهاتنا لكن كيف تواصل الرقص إذا كان لديها طفل ترعاه؟ وكنت أرد، متظاهرا بأناقة بأننى أعرف ما أتحدَّث عنه، أننى سأرعى الطفل. فتقول، مستحيل، لا يمكن أن تحرم طفلا من أمه. مسئولية هائلة أن يكون لديك طفل، ويجب التعامل مع الأمر بجدية. قالت إنها ذات يوم أرادت بشدة أن يكون عندنا أطفال، لكنها ليست اللحظة المناسبة، إنها ببساطة ليست مستعدة الآن. وكنت أقول، لكن اللحظة أتت. شئنا أم أبينا، لدينا طفل بالفعل، والآن علينا أن نتعامل مع الأمور كما هى. وعند هذه النقطة كانت كيتى تبدأ حتما فى البكاء غاضبة من مجادلاتى الغبية.

كرهْتُ رؤية هذه الدموع تنهمر من عينيها، لكن حتى الدموع لم تجعلنى أستسلم. كنت أنظر إلى كيتى وأحاول أن أتخلى عن رأيى، أن أضع ذراعىَّ حولها وأقْبل ما تريد، لكن كلما حاولت أن أكون رقيق المشاعر صرت أكثر تصلبا. كنت أريد أن أكون أبًا، وذلك المشهد أمامى، ولم أستطع تحمل فكرة فقده. كان الطفل فرصتى للتخلص من وحدة طفولتى، أن أكون جزءا من أسرة، أن أنتمى إلى ما يتجاوز نفسى، ولأننى لم أكن على وعى بهذه الرغبة حتى ذلك الوقت، اندفعت من داخلى فى نوبات هائلة من

اليأس يصعب التعبير عنها. كنت أصيح فى كيتى: لو كانت أمى تفهم ما كنْتُ وُلِدْتُ قط. ثم ودون أن أتوقف لترد: إذا قتلْتِ الجنين فسوف تقتلينني معه.

كان الوقت ضدنا. كان أمامنا بضعة أسابيع نقرر فيها، والضغط يزداد سوءا مع كل يوم يمر. لم يكن لنا موضوع آخر، وكنا نتحدث عنه باستمرار، نتجادل ذهابا وإيابا فى منتصف الليل، ونجد سعادتنا تذوب فى محيط من الكلمات، فى اتهامات مستهلكة من الخداع. طوال ذلك الوقت الذى قضيناه فى هذا الأمر لم يتزحزح أى منا عن موقفه الأصلى. كانت كيتى هى الحبلى، ومن ثم لم يكن أمامى إلا أن أقنعها، ولم تكن هناك وسيلة أخرى. حين رأيت فى النهاية أنه لا أمل، قلت لها: افعلى ما تريدين. لم تكن لدى رغبة لعقابها أكثر. فى اللحظة نفسها أضفْتُ أننى سأدفع أيضا تكاليف العملية.

كانت القوانين مختلفة فى ذلك الوقت، وكانت الوسيلة الوحيدة للإجهاض بشكل قانونى أن تحصل المرأة على شهادة من طبيب تفيد بأن الجنين خطر على حياتها. فى ولاية نيويورك، كان تفسير القانون واسعا بما يكفى لأن يشمل "الخطر النفسى" (يعنى أن الأم قد تحاول قتل نفسها إذا وُلِد الطفل)، ومن ثم يعتبر تقرير الطبيب النفسى صالحًا بالضبط مثل أى تقرير طبى. وحيث إن كيتى كانت سليمة جسديا، ولأننى لا أريد أن تتعرض لإجهاض غير قانونى- وكانت مخاوفى بشأن ذلك هائلة- لم يكن أمامها إلا أن تذهب إلى طبيب نفسى على أمل أن يؤدى الخدمة لها. وجدت واحدا فى النهاية، لكن خدمته لم تكن رخيصة. بالإضافة إلى فواتير من مستشفى القديس لوقا لعملية الإجهاض، انتهى بى الأمر إلى إنفاق عدة آلاف من الدولارات لأحطم طفلى. أفلسْتُ مرة أخرى تقريبا، وحين جلسْتُ بجوار سرير كيتى فى المستشفى ورأيْتُ نظرة الأسى والألم على وجهها، شعرْتُ بأن كل شىء ينتهى، وأن حياتى انتزعت منى.

عدنا معًا إلى الحى الصينى فى صباح اليوم التالى، لكن لم تعد الأمور إلى حالها مرة أخرى قط. تمكنا من إقناع أنفسنا بأننا نستطيع أن ننسى ما حدث، لكن بمجرد محاولة العودة إلى حياتنا القديمة، اكتشفنا أنها لم تعد هناك. بعد أسابيع بائسة من الحديث والشجار، غرقنا فى الصمت، كما لو كان كل منا يخشى النظر إلى الآخر. كان

الإجهاض أصعب مما تخيلت كيتى، وعلى الرغم من قناعتها بأن ما فعلته صواب، لم تستطع أن تكف عن التفكير فى أنه خطأ. مكتئبة، مستغرقة فى أفكارها، ظلت فى الغرفة متجهمة كأنها فى حداد. كنت أفهم أن عليَّ أن أواسيها، لكننى لم أستطع استجماع قوتى لأتغلب على الأذى الذى لحق بى. اكتفيت بالجلوس ومشاهدة معاناتها، وفى لحظة معينة أدركْتُ أننى أستمتع بها، أننى أريد أن تدفع مقابل ما فعلته. وكانت أسوأ اللحظات على الإطلاق، على ما أظن، وحين رأيت فى النهاية ما فى أعماقى من بشاعة ووحشية، انقلبت على نفسى فى هلع. لم أستطع أن أواصل. لم أعد أستطيع أن أحتمل أن أكون كما كنت. كلما نظرْتُ إلى كيتى، لا أشاهد إلا ضعفى الوضيع، الانعكاس الوحشى لما أصبحت عليه.

أخبرْتُها برغبتى فى الابتعاد لبعض الوقت لترتيب الأمور، وذلك لأننى لا أمتلك الشجاعة التى تجعلنى أقول الحقيقة. ومع ذلك فهمت كيتى. لم يكن عليها أن تسمع الكلمات لتعرف ما يدور، وحين رأتنى أحزم أشيائى فى صباح اليوم التالى وأستعد للرحيل، توسلت لأبقى معها، ركعت بالفعل على ركبتيها وتوسلت إلىَّ حتى لا أذهب. كان وجهها يتلوى ألما ومبللا بالدموع، لكننى صرت كتلة من الخشب، ولم يكن هناك ما يوقفنى. وضعت آخر ألف دولار معى على المنضدة وطلبت من كيتى أن تستخدمها أثناء غيابى. ثم خرجت من الباب. وكنت أنتحب بالفعل حين وصلْتُ إلى الشارع.

٧

استضافنى بربر فى شقته بقية الربيع. رفض أن أساعده فى الإيجار، لكن مع إفلاسى مرة أخرى، وجدت لنفسى وظيفة على الفور تقريبا. كنت أنام على الأريكة فى غرفة المعيشة، وأستيقظ كل صباح فى السادسة والنصف، وأقضى النهار أحمل الأثاث صعودا وهبوطًا على السلالم عند صديق يدير مشروعًا صغيرا للنقل. كنت أكره العمل، لكنه كان منهكًا بما يكفى ليحد من تفكيرى، على الأقل فى البداية. فيما بعد، حين اعتاد جسمى على هذا الروتين، اكتشفْتُ أننى لا أستطيع النوم قبل أن أسكر بشدة. أجلس أنا وبربر نتحدث حتى منتصف الليل، ثم يتركنى وحدى فى غرفة المعيشة، مواجَهًا بالاختيار بين التحديق فى السقف حتى الفجر أو السكْر، يتطلب الأمر عادة زجاجة من النبيذ قبل أن أستطيع إغماض عينى.

لم يكن من الممكن أن يتعامل بربر معى بشكل أفضل، لم يكن من الممكن أن يكون أكثر اهتماما بى أو تعاطفًا، لكننى كنت فى حالة مؤسفة بدرجة تجعلنى لا ألاحظ وجوده. كانت كيتى الشخص الحقيقى الوحيد بالنسبة لى، وكان غيابها ملموسا جدا، ملحًا بصورة طاغية، حتى إننى لم أكن أستطيع التفكير فى سواها. تبدأ كل ليلة بالألم نفسه فى جسمى، تقطع الأنفاس نفسها، الحاجة الشديدة إلى أن تلمسنى مرة أخرى، وقبل أن أدرك ما يحدث، أشعر بالهجوم داخل جلدى، وكأن الأنسجة التى تجعلنى متماسكا على وشك الانفجار. كان ذلك هو الحرمان فى أكثر أشكاله المفاجئة والمطلقة. كان جسم كيتى جزءا من جسمى، ودون أن يكون بجوارى، أشعر بأننى لم أعد أنا. أشعر بأننى مجدوع.

بعد الألم، تبدأ الصور مسيرتها فى رأسى. أرى يدى كيتى تمتدان لتلمسانى، وأرى ظهرها العارى وكتفيها، انحناء ردفيها، بطنها الأملس تجتمع معا وهى تجلس على حافة السرير وتخلع بنطلونها. كان من المستحيل أن أبعد هذه الصور عن ذهنى، وبمجرد أن تظهر صورة تنتج صورة أخرى، باعثة أدق تفاصيل حياتنا معًا وأكثرها حميمية. لا أتذكر سعادتنا دون ألم، ومع ذلك واصلْتُ البحث عن هذا الألم، متناسيا ما

أحدثه لى من ضرر. كل ليلة تراودنى فكرة أن أمسك التليفون وأتصل بها، وكل ليلة أقاوم الإغراء، مستجمعا كل كراهية الذات كيلا أفعل ذلك. بعد أسبوعين من تعذيبى لنفسى بهذه الطريقة، بدأت أشعر بأننى أحترق.

توتر بربر. كان يعرف أن شيئا بشعًا حدث، لكن لم أخبره به ولم تخبره به كيتى. فى البداية، قام بدور الوسيط، يتحدث إلى أحدنا ثم يذهب إلى الآخر ليقدم تقريرا عن المحادثة، لكن حركته ذهابًا وإيابًا لم تسفر عن أى تقدم. كلما حاول أن يستخرج السر منا، يعطيه كل منا الإجابة نفسها: لا يمكن أن أخبرك؛ اسأل الآخر. لم يشك بربر قط فى أن مشاعر الحب لا تزال كامنة فى قلبينا، وكان رفضنا للقيام بأى خطوة يربكه ويحبطه. كان يقول لى: تود كيتى لو تعود إليها، لكنها لا تعتقد أنك ستفعل ذلك. وكنت أرد: لا أستطيع أن أعود إليها. ليس هناك ما أريده أكثر من ذلك، لكن لا يمكن أن أفعله. كإستراتيجية أخيرة، وصل الأمر ببربر إلى أن دعانا كلينا على العشاء فى الوقت نفسه (دون أن يذكر أن الآخر سيكون هناك)، لكن خطته فسدت حين رأتنى كيتى أدخل المطعم. لو التفتت إلى الركن بعد ثانيتين فقط ربما تمت الخطة، لكنها بهذه الصورة استطاعت تجنب الوقوع فى الفخ، وبدلا من أن تنضم إلينا، استدارت ببساطة وعادت إلى البيت. حين سألها بربر عن ذلك فى صباح اليوم التالى، قالت له إنها لا تؤمن بالخداع. قالت: "على م. س. أن يقوم بالخطوة الأولى. فعلْتُ شيئا حطم قلبه، ولا ألومه إذا لم يرغب فى رؤيتى مرة ثانية قط. يعرف أننى لم أفعل ذلك متعمدة، لكن ذلك لا يعنى أن عليه أن يسامحنى".

بعد ذلك، تراجع بربر. توقف عن حمل الرسائل بيننا وترك الأمور تسير فى مسارها الموحش. كان آخر تصريح من كيتى له يتميز بالشجاعة والكرم اللذين عهدتهما فيها دائما، ولشهور وحتى لسنوات بعد ذلك لم أستطع التفكير فى تلك الكلمات دون الشعور بالعار من نفسى. إذا كان أحد قد عانى فهى كيتى، ومع ذلك هى التى تحملت المسئولية عما حدث. إذا كنت أتمتع بأى قدر من الطيبة، كان علىَّ أن أعدو إليها فورا، وأسجد أمامها، وأتوسل إليها أن تسامحنى. لكننى لم أفعل شيئا. مرت الأيام، ولم أجد فى نفسى القدرة على التصرف. مثل حيوان جريح، تقوقعْتُ داخل ألمى ورفضْتُ أن أتزحزح. كنت لا أزال هناك، ربما، لكننى لم أعد فى عداد الموجودين.

فشل بربر فى دور كيوبيد، لكنه ظل يفعل كل ما يستطيع للحفاظ علىّ. حاول أن يجعلنى أهتم بكتابتى مرة أخرى، تحدث إلىّ عن الكتب، أقنعنى بالذهاب إلى السينما، وإلى المطاعم والبارات، وإلى المحاضرات والحفلات الموسيقية. لم ينفع شىء من هذا، لكننى لم أتماد لدرجة ألا أقدر الجهد. بذل مجهودا كبيرا، وبشكل حتمى بدأْتُ أتساءل لماذا يكرس نفسه لى بهذه الطريقة. كان يتقدم بشكل رائع فى كتابه عن توماس هريوت، منحنيا على آلته الكاتبة لست ساعات أو سبع ساعات متواصلة، لكن حين أدخل البيت يبدو مستعداً دائمًا للتخلى عن كل شىء، كما لو كانت صحبتى ممتعة له أكثر من عمله. حيرنى هذا، لأننى لم أكن إلا صحبة مروعة، وفشلت فى رؤية ما يجعل أى شخص يستمتع بها. لعدم وجود أفكار أخرى، بدأْتُ أتصور أنه شاذ، معتقدا أن وجودى ربما يثيره جدا بشكل يجعله لا يركز فى شىء آخر. كان تخمينا منطقيا، مجرد طعنة أخرى فى الظلام. لم يقم بأى حركة تجاهى، ويمكن أن أقول من نظراته للنساء فى الشارع أن رغباته كلها مقصورة على الجنس الآخر. ما الإجابة إذَن؟ ظننت أنها ربما تكون الوحدة، الوحدة ببساطة وبشكل صرف. لم يكن له أصدقاء آخرون فى نيويورك، وحتى يأتى شخص آخر، كان عازما على أن يتعامل معى كما أنا.

ذات ليلة فى أواخر يونيو، خرجنا معا لتناول البيرة فى حانة "الحصان الأبيض". كانت ليلة دافئة شديدة الرطوبة، ونحن نجلس إلى الطاولة فى الغرفة الخلفية (الغرفة التى كنا نجلس فيها أنا وزيمر فى خريف ١٩٦٩)، بدأ وجه بربر ينز جداول من العرق. مجففا نفسه بمنديل كبير ملون، شرب الزجاجة الثانية من البيرة فى جرعة أو اثنتين وفجأة ضرب بقبضته على الطاولة، وأعلن: "الجو حار جدا فى هذه المدينة، ابتعدْتَ عنها خمسة وعشرين عاما، ونسيت صيفها".

قلْتُ: "انتظرْ حتى يحل يوليو وأغسطس، لم تر شيئا بعد".

"رأيْتُ ما يكفى. إذا بقيت هنا وقتًا أطول فسيكون علىّ أن أبدأ التجول بفوط. المكان كله مثل حمّام تركى".

"يمكنك دائما أن تأخذ إجازة. يرحل كثير من الناس فى الطقس الحار. هناك الجبال والشاطئ، يمكنك الذهاب إلى حيث تريد".

"هناك مكان واحد فقط أهتم به. أظن أنك تعرف أين هو".

"لكن ماذا عن كتابك؟ ظننت أنك تريد أن تنتهى منه أولا".

"كنت أريد. لكننى غيرت رأيى الآن".

"لا يمكن أن يكون الطقس فقط".

"لا، أريد استراحة قصيرة. لهذه المسألة، وأنت أيضًا".

"أنا على ما يرام، يا سُلْ، أنا على ما يرام حقا".

"تغيير المشهد يجعلك فى حالة جيدة. لم يعد هناك ما يبقيك هنا، وكلما أقمْتَ هنا أكثر، ساءت حالتك. لست أعمى، كما تعرف".

"سأتغلب على الأمر. تبدأ الأمور فى التحسن بسرعة".

"لن أراهن على ذلك. أنت فى حالة ذهول يا م. س. إنك تأكل نفسك حيًّا. الشفاء الوحيد أن تبتعد عن هنا".

"لا أستطيع أن أترك وظيفتى".

"لماذا؟"

"أحتاج إلى نقود من ناحية. ومن ناحية أخرى يعتمد 'ستان' علىَّ. ليس من الأنصاف أن أتركه على هذا النحو".

"أعطه مهلة أسبوعين. سيجد شخصا آخر".

"بهذه البساطة؟"

"نعم، بهذه البساطة. أعرف أنك رفيق شاب قوى تماما، لكن بشكل ما لا أرى أن تعمل ناقلا للأثاث بقية حياتك".

"لم أخطط لأن أتخذ منها مهنة. إنها ما تسميه وضعا مؤقتا".

"حسنا، أعرض عليك وضعًا آخر مؤقتًا. يمكنك أن تكون مساعدى، مسعفى، يدى اليمنى. تأتى الصفقة بغرفة وطعام، وإمدادات مجانية، وأى قدر من المال تشعر أنك فى حاجة إليه. إذا كانت هذه الشروط لا ترضيك، فأنا مستعد للتفاوض. ما رأيك؟"

"إنه الصيف. إذا كنت تعتقد أن نيويورك سيئة فالصحراء أسوأ. تحترق أجسامنا إذا ذهبنا إلى هناك الآن".

"ليست الصحراء. نشترى سيارة مكيفة ونذهب بشكل مريح".

"نذهب إلى أين؟ ليست لدينا أى فكرة عن المكان الذى علينا أن نبدأ منه".

"بالطبع. لا أقول إننا سوف نجد ما نبحث عنه، لكننا نعرف المنطقة عموما. جنوب شرق يوتا، نبدأ من بلدة 'بلف'. لن نخسر شيئا إذا حاولنا".

واصلنا المناقشة لعدة ساعات، وتغلب بربر تدريجيا على مقاومتى. مقابل كل حجة أقدمها له، يرد بحجة مضادة؛ مقابل كل أمر سلبى أقترحه، يقترح أمرين إيجابيين أو ثلاثة. لا أعرف كيف فعل ذلك، لكنه جعلنى فى النهاية أشعر بالسعادة تقريبا لأننى استسلمتُ. ربما كان اليأس التام للمغامرة هو ما جعلنى أتمسك بها. إذا ظننت أن هناك أى احتمال للعثور على الكهف، أشك فى أننى كنت سأذهب، لكن فتنتنى فى تلك اللحظة فكرة البحث العقيم، فكرة الخروج فى يناير المحكوم عليه بالفشل. سنبحث ولن نعثر على شىء. المهم هو الذهاب نفسه، وفى النهاية لن نحصل على شىء سوى عبث طموحنا. كانت الاستعارة التى يمكن أن أتعايش معها، القفز فى الخلاء الذى حلمت به دائما. تصافحت مع بربر بالأيدى متفقين على ذلك وأخبرته بأن يضعنى فى الحسبان.

أتممنا خطتنا فى الأسبوعين التاليين. بدلا من السفر مباشرة، قررنا أن نبدأ بانعطافة عاطفية، نقف فى البداية فى شيكاغو ثم نتجه شمالا إلى مينسوتا قبل أن نأخذ الطريق إلى يوتا. سيأخذنا ذلك ألف ميل خارج طريقنا، لكن لم ير أى منا مشكلة فى الأمر. لم نكن نتعجل الذهاب إلى هناك، وحين أبلغت بربر بأننى أريد زيارة المقبرة

التى دفنت فيها أمى وخالى، لم يعترض. وقال، مادمنا ذاهبين إلى شيكاغو، لماذا لا ننحرف قليلا عن مسارنا ونذهب إلى نورثفيلد ليومين؟ لديه أعمال متفرقة عليه الاهتمام بها، وفى الوقت نفسه يمكن أن أشاهد لوحات أبيه ورسومه فى علية منزله. لم أهتم بأن أخبره بأننى تجنبت تلك اللوحات فى الماضى. بروح الحملة التى كنا على وشك الشروع فيها وافقْتُ على كل شىء.

بعد ثلاثة أيام، اشترى بربر سيارة مكيفة من رجل فى "كوينز"، ماركة "بونتياك بونفيل" موديل ١٩٦٥ لم تقطع سوى ٤٧ ألف ميل طبقا للعداد. وقع فى حب تصميمها وسرعتها ولم يساوم كثيرا فى السعر. ظل يقول لى ونحن ننظر إليها: "ما رأيك؟ هل هذه عربة أم ماذا؟" وكان علينا أن نغير كاتم الصوت والإطارات، وكان الكربرتير يحتاج إلى ضبط، وكانت نهايتها الخلفية منبعجة. استقر رأى بربر عليها، ولم أر سببا لأحاول أن أثنيه عن عزمه. على الرغم من كل عيوبها، كانت السيارة آلة صغيرة سريعة، بتعبيره، وافترضْتُ أنها ستقوم بمهمتها مثل أى سيارة أخرى. أخذناها لتجريبها، ونحن نعبر شوارع فلشنج[1] ألقى بربر بحماس محاضرة عن تمرد بونتياك ضد اللورد أمريست[2] وقال: ينبغى إلا ننسى أن هذه السيارة تحمل اسم قائد هندى عظيم. وسوف تضيف بعدا آخر لرحلتنا. بقيادة هذه السيارة إلى الغرب نبجل الموتى، محيين ذكرى المحاربين الشجعان، الذين ثاروا دفاعًا عن الأرض التى سرقناها منهم.

اشترينا كتب رحلات، ونظارات شمس، وحقائب ظهر، وصناديق لأدوات المائدة، وتليسكوبا، وأكياسا للنوم وخيمة. بعد قضاء أسبوع ونصف فى أعمال النقل مع صديقى "ستان"، استقلْتُ بضمير مستريح حين ظهر فى البلدة ابن عم له ليقضى

١- فلشنج **Flushing**: قسم من مدينة نيويورك فى شمال كوينز غرب جزيرة لونج.

٢- بونتياك **Pontiac** (١٧٢٠-١٧٦٩): قائد من أوتاوا قاد ثورة كبيرة ضد الإنجليز فى منطقة البحيرات العظمى (١٧٦٣-١٧٦٦). أمريست **Amherst** (١٧١٧-١٧٩٧): جنرال بريطانى كان نشطا فى أمريكا الشمالية أثناء الحرب الفرنسية الهندية.

الصيف ووافق على العمل مكانى. خرجت أنا وبربر لتناول العشاء الأخير فى نيويورك (سندوتشات لحوم محفوظة فى "ستيج ديلى") ورجعنا إلى الشقة فى التاسعة، مخططين للعودة فى ساعة معقولة لنبدأ فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى. كان ذلك فى أوائل يوليو ١٩٧١ كنْتُ فى الرابعة والعشرين، ينتابنى شعور بأن حياتى وصلت إلى طريق مسدود. وأنا راقد على الأريكة فى الظلام، سمعت وقع أقدام بربر فى المطبخ يطلب كيتى فى التليفون. لم أتبين كل ما قال، لكنه كان يحكى لها عن الرحلة على ما يبدو. همس: "لا شيء مؤكد، لكن ذلك ربما يجعله أفضل. ربما يصبح مستعدا لرؤيتك مرة أخرى حين يعود". لم يكن من الصعب أن أعرف إلى من يشير. بعد عودة بربر إلى غرفته، أضأت النور وتجرعت زجاجة أخرى من النبيذ، لكن بدا أن الكحول فقد تأثيره علىَّ. حين دخل بربر ليوقظنى فى السادسة من صباح اليوم التالى، لا أظن أننى نمت أكثر من عشرين دقيقة أو ثلاثين.

كنا على الطريق فى السابعة إلا الربع. قاد بربر، وجلست فى المقعد الأمامى، أشرب من ترمس به قهوة سوداء. فى أول ساعتين، كنت شبه واع فقط، لكن بمجرد وصولنا إلى الريف المفتوح فى بنسلفانيا، خرجت ببطء من سباتى. ومن تلك اللحظة حتى وصولنا إلى شيكاغو، تحدثنا دون توقف، وتبادلنا القيادة ونحن نمر فى غرب بنسلفانيا وأوهايو وإنديانا. وإذا كان معظم ما قلناه لا يحضرنى الآن، فإن ذلك ربما يعود إلى أننا أخذنا نتنقل من موضوع إلى آخر، بالطريقة نفسها التى تختفى بها المشاهد الطبيعية خلفنا. أتذكر أننا تحدثنا بعض الوقت عن السيارات، وكيف غيرت أمريكا؛ تحدثنا عن إفينج؛ تحدثنا عن برج تيسلا فى جزيرة لونج. مازلت أسمع بربر يسلك حنجرته، ونحن نغادر أوهايو ونعبر إلى إنديانا، استعدادا لحديث طويل عن روح تيكومسيه[1] لكن بصرف النظر عن جدية المحاولة لا أستطيع أن أستحضر جملة طويلة منه. فيما بعد، حين بدأت الشمس تغرب، قضينا أكثر من ساعة نعدِّد ما نفضله

١- تيكومسيه Tecumseh(١٧٦٨-١٨١٣): قائد "شونى" حاول تأسيس اتحاد للأمريكيين الأصليين ضد انتهاكات البيض.

فى كل مناحى الحياة: رواياتنا المفضلة، أطعمتنا المفضلة، لاعبينا المفضلين. وصلنا إلى أكثر من مائة فصيلة، فهرس كامل للذوق الشخصى. قلْتُ "روبرتو كليمينت"، وقال بربر "أل كالين". قلْتُ "دون كيخوته"، وقال بربر "توم جونز". فضلنا نحن الاثنان شوبرت على شومان، لكن بربر كان لديه ضعف تجاه برامز[1] ولم يكن لدىَّ. على الجانب الآخر، كان يرى أن كوبرين[2] غبى، بينما كنت لا أشبع من "المتاريس الغامضة". قال تولستوى، وقلت دوستوفيسكى. قال "منزل بليك"، وقلت "صديقنا المشترك". من بين كل الثمار التى عرفها الإنسان اتفقنا على أن الليمون أفضلها.

نمنا فى نزل فى ضواحى شيكاغو. بعد تناول الإفطار فى صباح اليوم التالى، انطلقنا بشكل عشوائى حتى وجدنا محل أزهار، حيث اشتريت باقتين متماثلتين لأمى وخالى فكتور. قبع بربر بغرابة فى السيارة، لكننى أرجعْتُ ذلك إلى الإنهاك من القيادة فى اليوم السابق ولم أفكر فى الأمر. وجدنا بعض المشاكل فى العثور على مقبرة "ويستلون" (لفتان خطأ، منعطف طويل قادنا إلى الاتجاه المعاكس)، وحين وصلنا إلى البوابة، كانت الساعة قد اقتربت من الحادية عشرة. واستغرق الأمر عشرين دقيقة أخرى للعثور على القبرين، وحين نزلنا من السيارة إلى حر الصيف الشديد، أتذكر أن أحداً منا لم ينطق بكلمة. كانت مجموعة من أربعة رجال قد انتهوا للتو من حفر قبر لشخص ما على بعد عدة قطع من الأرض من أمى وخالى، ووقفنا بجوار السيارة فى صمت دقيقة أو اثنتين، نشاهد حفارى القبور وهم يحملون معاولهم فى ظهر شاحنتهم الصغيرة الخضراء وينطلقون بها. كان وجودهم تطفلا، وفهمت أنا وبربر ضمنيا أن علينا الانتظار حتى يختفوا. إننا لا نستطيع القيام بما أتينا من أجله حتى نكون وحدنا.

١- برامز Brahms (١٨٣٣-١٨٩٧): موسيقار ألمانى.

٢- كوبرين Couperin(١٦٦٨-١٧٣٣): موسيقار فرنسى.

بعد ذلك، جرت الأمور بسرعة كبيرة. سرنا عبر الطريق، وحين رأيت اسمى أمى وخالى على شاهدين حجريين صغيرين، وجدت نفسى فجأة أقاوم الدموع. لم أتوقع هذه الاستجابة العنيفة، لكن بمجرد أن خطر ببالى أن الاثنين يرقدان بالفعل تحت قدمى، لم أتحكم فى الرجفة التى أصابتنى. انقضت عدة دقائق، على ما أظن، لكنه مجرد تخمين. لم أر أكثر من بقعة، بضع إيماءات منعزلة فى ضباب التذكر. أتذكر وضع حجر على كل شاهد، ومن وقت إلى آخر ألمح نفسى على أربع، التقط الأعشاب الضارة بنشاط من العشب المتشابك الذى يغطى القبرين. لكننى كلما نظرت إلى بربر، أعجز عن وضعه فى الصورة. وهذا يوحى لى بأننى كنت فى حالة هلع شديد حال بينى وبين ملاحظته، وأننى فى تلك الدقائق القليلة نسيت وجوده. بدأت القصة دونى، إذا جاز التعبير، وحين دخلْتُها بنفسى، كان الفعل قد تقدم جدا بالفعل، وخرج كل شىء عن نطاق السيطرة.

بشكل أو آخر، كنت أقف بجوار بربر مرة أخرى. كنا نحن الاثنان جنبا إلى جنب أمام قبر أمى، وحين أدرْتُ رأسى فى اتجاهه، رأيْتُ الدموع تنهمر على وجنتيه. كان بربر ينتحب، وحين سمعْتُ الأصوات المختنقة البائسة التى تخرج من فمه، أدركت أنها تحدث منذ بعض الوقت. أعتقد أننى قلت شيئا ما فى تلك اللحظة. ما المشكلة، أو لماذا تبكى، لا أتذكر الكلمات بالضبط. لكن بربر لم يسمعنى على أى حال. ظل يحدق فى قبر أمى، باكيا تحت السماء الزرقاء الهائلة كما لو كان الرجل الوحيد الذى تُرِك فى العالم.

قال أخيرا: "إميلى... إميلى، حبيبتى الصغيرة... أنظر إليك الآن... لو لم تهربى فقط... إذا تركتنى أحبك فقط. إميلى الجميلة الحبيبة الصغيرة... ضاع ذلك كله، ضاع ضياعا رهيبا..".

خرجت الكلمات منه فى انقباض تقطع الأنفاس، تناثر تدفق الأسى إلى شظايا بمجرد ملامسة الهواء. استمعْتُ إليه وكأن الأرض بدأت تتحدث إلىَّ، وكأنى أستمع إلى الموتى داخل قبورهم. أحبَّ بربر أمى. من هذه الحقيقة الوحيدة التى لا تقبل الجدل، بدأ كل شىء آخر يتحرك، يتداعى، يتحطم، بدأ العالم كله يعيد ترتيب نفسه أمام عينىَّ. لم يقل بربر ذلك، لكننى عرفتُ فجأة. عرفتُ من هو، وفجأة عرفتُ كل شىء.

فى اللحظات القليلة الأولى، لم أشعر إلا بالغضب، موجة شيطانية من الغثيان والاشمئزاز. قلْتُ له: "عم تتحدث؟" وحين لم يلتفت بربر إلىَّ، هززته بيدى، ضربت ذراعه اليمنى الضخمة ضربة شديدة وعنيفة. وكررْتُ: "عم تتحدث؟ قل شيئًا، يا حقيبة ضخمة من الأمعاء، قل شيئا وإلا حطمْتُ فمك".

التفت إلىَّ بربر، لكنه لم يستطع سوى أن يهز رأسه إلى الخلف والأمام، كأنه يحاول أن يقول لى إنه لا معنى لأى شىء يمكن أن يقوله. قال أخيرا: "يسوع الرب، ماركو، لماذا أتيْتَ بى إلى هنا؟ ألم تكن تعرف أن هذا سيحدث؟"

صحت فيه: "أعرف! كيف تفترض بحق الجحيم أن أعرف؟ لم تقل شيئا قط، كذاب. خدعتنى، والآن تريد أن أشعر بالأسف من أجلك. لكن ماذا عنى؟ ماذا عنى، يا فرس النهر اللعين!"

نفست عن غضبى مثل مجنون، صارخًا فى هواء الصيف الحار. بعد بضع لحظات، تراجع بربر، مترنحا من هجومى وكأنه لم يعد يحتمله. كان لا يزال يبكى، ووجهه مدفون فى يديه وهو يمشى. غير مدرك لكل ما حوله، ترنح بين صف من القبور مثل حيوان جريح، مولولا ومنتحبًا وأنا أواصل الصراخ فيه. كانت الشمس فى قلب السماء، والمقبرة كلها تومض ببريق متذبذب غريب، وكأن الضوء نما بقوة شديدة بدرجة تجعله يبدو غير حقيقى. رأيْتُ بربر يخطو بضع خطوات أخرى، ثم، وهو يقترب من حافة القبر الذى حفر ذلك الصباح، بدأ يفقد توازنه. لابد أنه تعثر فى حجر أو منخفض فى الأرض، وفجأة انهارت قدماه تحته. حدث كل شىء بسرعة كبيرة. اندفعت ذراعاه من جانبيه، مرفرفتين بيأس مثل جناحين، لكن لم تسنح له الفرصة ليعدل وضعه. كان هناك فى لحظة، وفى اللحظة التالية سقط إلى الخلف فى القبر. وقبل أن أبدأ الجرى إليه، سمعت جسمه يرتطم فى القاع بدَوِىٍّ حاد.

فى النهاية، تتطلب الأمر ونشًا لرفعه. حين تطلعت فى البداية إلى الحفرة، لم أعرف إن كان ميتًا أم حيًا، ومع عدم وجود أى شىء للإمساك به فى الجوانب، شعرت بأنه أمر شديد الخطورة أن أخاطر بالنزول. كان يرقد على ظهره وعيناه مغلقتان، وكان

ساكنا تماما. اعتقدْتُ أنني قد أسقط فوقه إذا حاولْتُ النزول إليه، ومن ثم اندفعْتُ متراجعا إلى مبنى الحراسة بالسيارة وطلبت من الحارس تليفونا للنجدة. وصلت فرقة النجدة فى عشر دقائق، لكنهم وجدوا أنفسهم بسرعة يواجهون المأزق نفسه الذى أحبطنى. بعد بعض التردد، تشابكت أيدينا لإنزال أحد المسعفين إلى القاع. أعلن أن بربر حى، لكن الأخبار، باستثناء ذلك، ليست جيدة. أخبرنا أنه مصاب بارتجاج فى المخ وربما كسر فى الجمجمة. ثم أضاف بعد توقف قصير: "ربما كسر ظهر الرجل أيضا. يحتاج إلى رعاية فائقة لنخرجه من هنا".

كانت الساعة السادسة حين نقل بربر فى النهاية إلى غرفة الطوارئ فى مستشفى "كوك كانترى". كان لا يزال فى غيبوبة، وفى الأيام الأربعة التالية لم تظهر عليه أى علامة من علامات العودة إلى الحياة. أجرى له الأطباء عملية فى ظهره، ووضعوه فى مشد، وطلبوا منى أن أرسم علامة الصليب. لم أغادر المستشفى فى الساعات الثماني والأربعين التالية، لكن حين صار من الواضح أن الأمر سيطول بنا، استخدمت بطاقة أميركان إكسبريس الخاصة ببربر للحجز فى نزل قريب، نزل "إيدن روك". كان مكانا شنيعا جدا، بجدران خضراء ملطخة وسرير وعر، لكننى لم أفعل هناك أكثر من النوم. بمجرد أن استيقظ بربر من غيبوبته، كنت أقضى ثمانى عشرة ساعة أو تسع عشرة ساعة يوميا فى المستشفى، وفى الشهرين التاليين كانت تلك هى حياتى كلها. لم أفعل سوى الجلوس معه حتى لحظة وفاته.

فى الشهر الأول، لم يكن واضحا قط أن الأمور يمكن أن تنتهى بهذا الشكل السيئ. مطوق بجبيرة كبيرة من الجبس معلقة من بكرات. كان بربر يرفرف وسط الهواء كأنه يتحدى قوانين الفيزياء. كان مثبتا بدرجة تجعله لا يستطيع أن يدير رأسه، ولا يستطيع أن يأكل دون أنابيب توضع فى حلقه؛ لكن على الرغم من كل ذلك، كان يتحسن، بدا أنه فى طريقه للشفاء. وأخبرنى أن الأهم من أى شىء آخر أنه سعيد بكشف الحقيقة فى النهاية. إذا كان الرقاد فى جبيرة لبضعة أشهر هو الثمن الذى عليه أن يدفعه، فإنه يشعر بأن المشكلة تستحق. قال لى عصر أحد الأيام: "ربما تكسرت عظامى، لكن قلبى التأم فى النهاية".

كانت تلك هى الأيام التى حكى فيها القصة، وحيث إنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئا آخر سوى أن يتكلم، انتهى به الأمر إلى أن قدم لى حكاية شاملة ودقيقة عن حياته كلها. سمعْتُ كل تفاصيل قصة حبه لأمي، سمعت قصته الكئيبة عن إقامته المؤقتة فى جمعية الشبان المسيحيين فى كليفيلند، سمعت قصة رحلاته التالية فى قلب أمريكا. ربما يحدث ذلك دون أن أقول إن نوبة غضبى منه فى المقبرة تبخرت منذ وقت طويل، ورغم أن الدليل لم يترك مجالا للشك، ثمة شيء فى أعماقى جعلنى أتردد فى قبوله أبًا. نعم، كان من المؤكد أن بربر نام مع أمي ذات ليلة فى ١٩٤٦؛ ونعم، كان من المؤكد أيضا أنني ولدْتُ بعد ذلك بتسعة أشهر؛ لكن كيف أتأكد من أن بربر الرجل الوحيد الذى نامت معه؟ كانت الاحتمالات ضد ذلك، لكن مع ذلك يحتمل أن أمي كانت على علاقة برجلين فى الوقت ذاته. وإذا كان الوضع كذلك، يحتمل أنها حملت من الرجل الآخر. كان ذلك دفاعى الوحيد ضد التصديق التام، وكنت أرفض التخلى عنه. طالما بقى قدر من الشك، لم أسلم بشيء. كانت استجابة غير متوقعة، لكن حين أنظر إليها الآن، أشعر بأن لها مغزى معينا. لأربعة وعشرين عامًا عشت بسؤال ليست له إجابة، وتدريجيا وصلت إلى اعتناق ذلك اللغز باعتباره الحقيقة المركزية عن نفسى. كانت أصولى غامضة، ولم أكن لأعرف قط من أين أتيْتُ. كان ذلك ما يحددنى، وكنت قد اعتدت على ظلمتى، متشبثا بها باعتبارها مصدرا للمعرفة واحترام الذات، واثقا فيها باعتبارها ضرورة وجودية. بصرف النظر عن أحلامى بالعثور على أبى، لم أعتقد قط أنها يمكن أن تتحقق. الآن وقد وجدْته، كان الاضطراب الداخلى عظيما حتى كان هاجسى الأول أن أنكر الأمر. لم يكن بربر سبب الإنكار، إنه الموقف نفسه. كان أفضل صديق عرفته، وقد أحببْتُه. إذا كان هناك رجل فى العالم يمكن أن أختاره أبا فهو. لكن يبقى مع ذلك أننى لم أستطع أن أفعل ذلك. سيطرت الصدمة علىَّ تماما، ولم أستطع امتصاص الضربة.

مضت أسابيع، وفى النهاية صار مستحيلا أن أغلق عينىَّ على الحقائق. وجسمه مشدود فى جبيرة الجبس الأبيض، لم يكن بربر يستطيع تناول أى طعام صلب، ولم يمض وقت طويل حتى بدأ وزنه يتناقص. كان هو الرجل الذى اعتاد أن يلتهم آلاف

السعرات الحرارية يوميا، وأحدث التغير الفجائى فى نظامه الغذائى تأثيرا كبيرا على الفور. يتطلب الأمر عملا شاقا للحفاظ على هذا القدر الهائل من الدهون، وبمجرد أن تقلل استهلاكك، يتناقص الوزن بسرعة كبيرة. اشتكى بربر من ذلك فى البداية، وبكى عدة مرات من الجوع، لكن بمرور الوقت رأى فى جوعه الإجبارى نعمة مقنَّعة. قال: "إنها فرصة لتحقيق ما لم أستطع تحقيقه من قبل قط. فكر فقط فى الأمر يا م. س. إذا استطعْتُ الحفاظ على الاستمرار فى هذا المعدل، فسوف ينقص وزنى مائة رطل حين أخرج من هنا. ربما حتى مائة وعشرين رطلا. سأكون رجلا جديدا. لن أبدو كما كنت مرة أخرى أبدًا".

نما الشعر على جانبى فروة رأسه (مزيج من الرمادى والبنى الضارب إلى الاحمرار)، والتناقض بين هذين اللونين ولون عينيه (أزرق داكن) بدا أنه يزود رأسه بجلاء وتعريف جديدين، كما لو كان ينبثق تدريجيا من الهواء غير المميز الذى يحيط به. بعد عشرة أيام أو اثنى عشر يوما فى المستشفى، صارت بشرته بيضاء شاحبة جدا، لكن مع هذا الشحوب جاء تحول جديد لوجنتيه، ومع استمرار خمود خلايا الدهون واللحم المنتفخ، طفا بربر آخر على السطح، طفت ذاتٌ سرية أُغلِق عليها بداخله لسنوات. كان تحولا مذهلا، وبمجرد أن حدوثه، كشف عن عدد من الآثار الجانبية البارزة. لم ألاحظ فى البداية، لكن ذات صباح بعد انقضاء ثلاثة أسابيع تقريبا فى المستشفى، تطلعت إليه ورأيت شيئا مألوفا. كانت مجرد ومضة مؤقتة، وقبل أن أحدد ما رأيت تلاشى. وبعد يومين، حدث شيء مماثل، لكنه بقى هذه المرة وقتا طويلا يكفى لأن أشعر بأن منطقة التعرف تقع فى موضع ما حول عينى بربر، ربما حتى فى العينين نفسيهما. تساءلْتُ إن لم أكن لاحظْتُ هذه التشابه العائلى مع إفينج، إن كان فى الطريقة التى نظر بها بربر إلىَّ شيء يذكِّرنى بأبيه. بصرف النظر عن ذلك، كانت تلك اللحظة القصيرة مزعجة، ولم أستطع أن أتحرر منها بقية اليوم. لازمتنى مثل جزء من حلم منسى، ومضة جلاء انبثقت من أعماق لا شعورى. ثم فى صباح اليوم التالى، فهمْتُ أخيرا ما كنت أراه. دخلْتُ غرفة بربر فى زيارتى اليومية، وهو يفتح عينيه ويبتسم لى، ووجهه فاتر بفعل المسكنات التى فى دمه، وجدت أننى أتفحص محيط

جفنيه، مركزا على المساحة بين الحاجبين والرموش، وأدركْتُ فجأة أننى أنظر إلى نفسى. كانت عينا بربر تشبهان عينى تماما. أرى وجهه بعد أن انكمش. بدا أننا متشابهان بلا شك. بمجرد أن أدركت ذلك، بمجرد أن ألقيت الحقيقة أمامى فى النهاية، لم يكن أمامى إلا أن أقبلها. أنا ابن بربر، وأعرف ذلك بشكل لا شك فيه.

فى الأسبوعين التاليين بدا أن كل شىء يسير بشكل جيد. كان الأطباء متفائلين، وبدأنا نتطلع إلى اليوم الذى تزال فيه الجبيرة. فى وقت ما فى أوائل أغسطس، ساءت حالة بربر فجأة. أصيب بالتهاب من نوع ما، ونتجت حساسية عن الدواء الذى تعاطاه، مما رفع ضغط دمه إلى مستويات خطيرة. أثبتت اختبارات إضافية أنه مصاب بالسكرى وهو ما لم يكن معروفا من قبل، والأطباء يفحصونه أكثر، بدأت تضاف أمراض ومشاكل جديدة إلى القائمة: نوبة قلبية، بدايات نقرس، اضطراب فى الدورة الدموية، وما لا يعلمه إلا الرب. بدا ببساطة وكأن جسمه لم يعد يستطيع التحمل. بدا أنه عانى الكثير جدا، وكانت الآلة تنهار. ضعفت دفاعاته نتيجة الفقد الشديد للوزن، ولم يترك له ما يقاوم به، رفضت كراته الدموية القيام بهجمات مضادة. بحلول العشرين من أغسطس، أخبرنى بأنه يعرف أنه فى طريقه إلى الموت، لكننى لم أستمع له. قلت: "اثبت فقط. سنخرج من هنا قبل الرمية الأولى فى بطولة العالم للبيسبول".

لم أعد أعرف ما أشعر به. تركنى توتُّرُ مشاهدته ينهارُ مخدَّرًا، وبحلول الأسبوع الثالث من أغسطس كنت أتجول فى غيبوبة. كان الشىء الوحيد الذى يهمنى فى ذلك الوقت أن أحافظ على واجهة هادئة. لا دموع، لا نوبات من اليأس، لا انهيار للإرادة. نضحْتُ أملا وثقة، لكننى كنت أعرف فى أعماقى كم كان الموقف مستحيلا حقا. ومع ذلك، لم يحدث لى ذلك إلا فى النهاية الفعلية، وعرفْتُه فقط بأكثر الطرق التواء. ذهبت لتناول العشاء فى وقت متأخر من الليل. وتصادف أن أحد المختصين كان يتناول فطيرة بالدجاج، وهو طبق لم أكن قد تناولته منذ كنت صبيا صغيرا، ربما منذ كنت أعيش مع أمى. فى اللحظة التى قرأت فيها تلك الكلمات فى قائمة الطعام، عرفت أننى لن أتناول أى طعام آخر فى تلك الليلة. طلبت من النادلة ما أريد، وفى الدقائق الثلاث أو الأربع

التالية جلسْتُ هناك أتذكر شقة بوسطن حيث كنت أعيش أنا وأمى، ورأيت للمرة الأولى منذ سنوات المائدة الصغيرة فى المطبخ حيث كنا نتناول وجباتنا معا. ثم عادت النادلة لتخبرنى بأنه لم يعد هناك فطائر بالدجاج. لم يكن هذا شيئا على الإطلاق، بالطبع. فى الإطار العام للأمور، ليس إلا ذرة من غبار، كسرة ضئيلة من المادة المضادة، شعرْتُ فجأة وكأن السقف انهار فوقى. لم يعد هناك فطائر بالدجاج. لو أن شخصا أبلغنى بأن زلزالا قتل عشرين ألف شخص فى كاليفورنيا، لم أكن لأنزعج بقدر ما انزعجْتُ فى تلك اللحظة. شعرت فعليا بدموع تتكون فى عينىَّ، وحينذاك فقط، جالسا فى ذلك العشاء مقاوما خيبة أملى، فهمت مدى الهشاشة التى صار عليها عالمى. انزلقت البيضة من بين أصابعى، ولابد أن ترتطم بالأرض عاجلا أو آجلا.

مات بربر فى الرابع من سبتمبر، بعد حادثة المطعم بثلاثة أيام فقط. كان وزنه ٢١٠ أرطال فقط، وبدا وكأن نصفه اختفى بالفعل، وكأنه بمجرد بدء العملية، كان من الحتمى أن يختفى نصفه الثانى أيضاً. أردْتُ التحدث إلى شخص ما، لكننى لم أستطع التفكير إلا فى كيتى. كانت الساعة الخامسة صباحا حين اتصلْتُ بها، وحتى قبل أن ترد على التليفون، كنت أعرف أننى لا أتصل بها لمجرد أن أنقل إليها الخبر. كان علىَّ أن أكتشف إن كانت ترغب فى استعادتى.

قلْتُ: "أعرف أنك نائمة، لكن لا تغلقى الخط قبل أن تسمعى ما علىَّ أن أقوله".

"م. س". كان صوتها مكتوماً، مشحونا بالارتباك. "هل أنت م. س ؟"

"أنا فى شيكاغو. مات سلْ منذ ساعة تقريبا، وليس هناك شخص آخر يمكن أن أتحدث إليه".

استغرق الأمر بعض الوقت لأحكى لها القصة. لم تصدقنى فى البداية، وأنا مستمر فى تقديم التفاصيل لها، فهمت كم كان الأمر كله يبدو بعيد الاحتمال. قلْتُ نعم، سقط فى قبر مفتوح وكسر ظهره. نعم، كان أبى حقا. نعم، مات الليلة حقا. نعم، أتحدث إليك من تليفون عمومى فى المستشفى. كان هناك توقف قصير والمشغل يطلب

منى وضع مزيد من العملات، وحين فتح الخط مرة أخرى، سمعْتُ كيتى تنتحب فى الطرف الآخر.

قالت: "مسكين سُلْ. مسكين سُلْ ومسكين م. س. الكل مساكين".

"آسف لأنى أخبرتك. لكننى لم أكن لأشعر بأننى تصرفت التصرف الصحيح إذا لم أتصل بك".

"لا، أنا سعيدة لأنك فعلت. من الصعب فقط أن أستوعب. أوه يا رب، م. س.، لو كنت تعرف فقط كم انتظرْتُ أن أسمع صوتك".

"لقد أفسدْتُ كل شىء، أليس كذلك؟"

"ليست غلطتك، لا حيلة لك فيما تشعر به، لا حيلة لأحد".

"لم تتوقعى أن تسمعى صوتى مرة أخرى، أليس كذلك؟"

"لم أعد أتوقع. فى أول شهرين، لم أفكر فى أى شىء آخر. لكن لا يمكن أن تعيش بهذه الصورة، غير ممكن. تدريجيا، لم أعد آمل فى النهاية".

"أحببتك فى كل دقيقة، تعرفين ذلك، أليس كذلك؟"

مرة أخرى، كان هناك صمت على الطرف الآخر، ثم سمعْتها تنتحب مرة أخرى- عويل بائس محطم بدا أنه يقطع أنفاسها: "يسوع المسيح، م. س.، ماذا تحاول أن تفعل بى؟ لم أسمع صوتك منذ يونيو، ثم تتصل بى من شيكاغو فى الساعة الخامسة صباحا، لتمزق أحشائى بما أصاب سُلْ- ثم تبدأ الحديث عن الحب؟ ليس عدلا. ليس لك الحق فى أن تفعل ذلك. ليس الآن".

"لم أعد أستطيع البقاء دونك".

"حسنا، حاولْتُ أن أفعل ذلك، أيضا، واستطعت".

"لا أصدقك".

"صعب جدا بالنسبة لى يا م. س. الطريقة الوحيدة التى تنقذنى أن أتعامل مع نفسى بهذه الصرامة".

"ماذا تحاولين أن تقولى لى؟"

"فات الأوان. لم أعد أستطيع أن أتقبل ذلك. قتلْتَنى تقريبا، تعرف، ولا أستطيع أن أخاطر بأى شىء مثل هذا مرة أخرى".

"وجدْتِ شخصا آخر، أليس كذلك؟"

"كان ذلك منذ شهور. ماذا تريد أن أفعل وأنت فى منتصف المسافة تحاول أن تقرر؟"

"أنت فى السرير معه الآن، أليس كذلك؟"

"هذا أمر لا يخصك".

"أنت معه، أليس كذلك؟ أخبرينى فقط".

"لستُ، حقا. لكن هذا لا يعنى أن لك أى حق فى السؤال".

"لا يعنينى من يكون. لكن ذلك لا يغير من الأمر شيئا".

"لم يعد يعنيك، يا م. س. لا أحتمل هذا، لن أقبل كلمة أخرى".

"أتوسل إليك كيتى. اسمحى لى أن أعود".

"سلام، ماركو. اهتم بنفسك. اهتم بنفسك من فضلك".

ثم أغلقت الخط.

دفنْتُ بربر بجوار أمى. بذلت بعض الجهد ليكون فى مقبرة "ويستلون"، مسيحيا وحيداً فى بحر من اليهود الروس والألمان، لكن نظرا لأن قطعة الأرض المخصصة لعائلة فج كان بها مكان لشخص آخر، ونظرا لأننى من الناحية الفنية كنت كبير العائلة

ومن ثم مالك تلك القطعة من الأرض، شققت طريقى فى النهاية. فى الواقع، دفنت أبى فى القبر المقرر لدفنى. نظرا لكل ما حدث فى الشهور القليلة الماضية، شعرْتُ أن هذا أقل ما يمكن أن أفعله من أجله.

بعد المحادثة مع كيتى، كنت أحتاج إلى كل ما يبعدنى عن أفكارى، وبدلا من أى شىء آخر، ساعدتنى مهمة إجراءات جنازة بربر أكثر من أى شىء آخر على أن أقضى الأيام الأربعة التالية. قبل موت بربر بأسبوعين، استجمع آخر ما تبقى من قوته لينقل إلىَّ ممتلكاته، ومن ثم كان معى ما يكفى من النقود لأتصرف. قال إن الوصايا معقدة جدا، وحيث إنه يريد إن أحصل على كل شىء فى كل الأحوال، لماذا لا يقدمها لى الآن؟ حاولْتُ أن أثنيه عن ذلك، لأننى أعرف أن هذه الصفقة قبول نهائى للهزيمة، لكننى لم أرغب فى الضغط بشدة. كان بربر يحيا بالكاد، ولم يكن من الإنصاف أن أقف فى طريقه.

دفعْتُ فواتير المستشفى، دفعت للحانوتى، دفعت لشاهد القبر مقدما، استدعيت الحاخام الذى ترأس عيد بلوغى الثالثة عشرة قبل ذلك بأحد عشر عاما. صار عجوزا، تخطى السبعين، على ما أظن، ولم يتذكر اسمى. قال، استقلْتُ، لماذا لا تطلب من شخص آخر؟ قلت، لا، ينبغى أن تكون أنت. الحاخام جرين، لا أريد أحدا آخر. احتاج الأمر إلى بعض الإقناع، لكننى تمكنت من إقناعه فى النهاية مقابل ضعف أتعابه العادية. قال إن ذلك غير معتاد تماما. رددْتُ: ليست هناك حالات معتادة. كل موت فريد.

كنت أنا والحاخام جرين فقط فى الجنازة. راودتنى فكرة إخطار كلية "مجنوس" بموت بربر، معتقدا أن بعض زملائه ربما يرغبون فى الحضور، لكننى قررت عكس ذلك. لم أكن مستعدا لقضاء اليوم مع غرباء، لم أرغب فى التحدث إلى أحد. وافق الحاخام على طلبى بإلقاء التأبين بالإنجليزية، مقتصرا على تلاوة الصلوات العبرية التقليدية. كان كل ما أعرفه من العبرية قد تلاشى، وكنت سعيدا لأننى لا أفهم ما يقول. تركنى ذلك وحيدا مع أفكارى، وهو كل ما كنت أريده فى النهاية. اعتبرنى الحاخام جرين

مجنونا، وأثناء الساعات التى قضيناها معًا، ابتعد عنى بقدر المستطاع. شعرْتُ بالأسف من أجله، لكن ليس بالقدر الذى يجعلنى أفعل أى شىء بهذا الشأن. عموما، أظن أننى لم أوجه له أكثر من خمس كلمات أو ست. حين أوصلته الليموزين أمام منزله بعد المحنة، مد يده وصافح يدى، مربِّتًا على ظهر يدى برقة بكفه اليسرى. كانت إيماءة عزاء لابد أنها معتادة بالنسبة له مثل توقيع اسمه، وبدا أنه لم يلاحظ أنه فعل ذلك. قال: "أنت مضطرب جدا أيها الشاب. إذا أردْتَ نصيحتى، أظن أن عليك أن تذهب إلى طبيب".

جعلت السائق ينزلنى عند نزل إيدن روك. لم أكن أريد قضاء ليلة أخرى فى ذلك المكان، ومن ثم بدأت على الفور حزم أشيائى. لم يستغرق إنهاء المهمة أكثر من عشر دقائق. أغلقْتُ حقيبتى، وجلسْتُ على السرير لحظة، وألقيت نظرة أخيرة على الغرفة. قلْتُ لنفسى، كانت هذه الأماكن ستبدو بهذا الشكل لو كانت مخصصة للإقامة فى الجحيم. دون سبب واضح- أى دون سبب أدركه فى ذلك الوقت- ضممت قبضة يدى، ووقفتُ، وخبطت الحائط بأقصى ما أستطيع. وقع اللوح الخشبى دون مقاومة، وتهشم بصخب طقطقة مكتومة وذراعى يصطدم به. تساءلت إن كان الأثاث مهلهل بهذا الشكل وتناولت مقعدا لأكتشف الأمر. خبطته فى الخزانة وشاهدته فى سعادة وهو يتناثر. لأكمل الاختبار، أمسكت بإحدى أرجل المقعد المكسور فى يدى اليمنى وتجولت فى الغرفة أهاجم كل ما فيها شيئا بعد الآخر بمضربى المؤقت: المصابيح، المرايا، التليفزيون، كل ما تصادف وجوده هناك. لم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق لأحطم المكان من القمة إلى القاع، لكن ذلك جعلنى أشعر بأننى أفضل بشكل هائل، وكأننى فعلْتُ أخيرا شيئا منطقيا، شيئا جديرا حقا بأن يحدث. لم أبق معجبا بعمل وقتا طويلا. وأنا لا أزال أتنفس بصعوبة من الإجهاد، التقطت حقائبى، وخرجت جريا، وانطلقت بالبونتياك الحمراء.

ظللت أسير على مدى اثنتى عشرة ساعة. هبط الليل وأنا أعبر إلى "أيوا"، وتدريجيا اختُزِل العالمُ إلى نجوم ضخمة. صرْتُ منوَّمًا بوحدتى، غير راغب فى التوقف

حتى لا أستطيع أن أفتح عينىَّ، مراقبا الخط الأبيض للطريق السريع وكأنه آخر ما يربطنى بالأرض. كنت فى مكان ما وسط "نبراسكا" حين حجزت أخيرا فى نزل ونمت. أتذكر جلبة صرار الليل فى الظلام، صوت عثة ترتطم بالنافذة، كلب ينبح بصوت واه فى ركن بعيد فى الليل.

فى الصباح، فهمْتُ أن الصدفة أخذتنى إلى الاتجاه الصحيح. دون أن أتوقف للتفكير، سرْتُ فى الطريق إلى الغرب. كنت فى طريقى، وشعرْتُ فجأة بأننى أكثر هدوءًا، وأكثر سيطرة على نفسى. قررْتُ أن أفعل ما شرعْتُ أنا وبربر فى القيام به فى المقام الأول. عرفت أن لى هدفا، وأننى لا أهرب من شىء طالما أسير باتجاه الهدف، وواتتنى الشجاعة للاعتراف بأننى فى الحقيقة لم أكن أرغب فى أن أكون ميتا.

لم أعتقد قط أننى سأجد الكهف (حتى النهاية، وكان ذلك استنتاجًا مسبقًا)، لكننى شعرْتُ أن عملية البحث عنه ستكون كافية فى ذاتها، عملية لمحق الاحتمالات الأخرى. كان فى حقيبتى أكثر من ثلاثة عشر ألف دولار، وذلك يعنى أنه ليس هناك ما يجعلنى أتراجع: يمكن أن أواصل حتى استنفد كل الاحتمالات. انطلقت بالسيارة إلى نهاية الوديان المنبسطة. قضيت ليلة فى "دينفر"، ثم اندفعْتُ إلى "ميسا فيرد"، حيث مكثْتُ ثلاثة أيام أو أربعة، متسلقا الحطام الهائل لحضارة ميتة، رافضًا أن أبتعد عنها. لم أتخيل أن شيئا فى أمريكا يمكن أن يكون قديما إلى هذا الحد، وأنا أعبر إلى يوتا، شعرْتُ أننى بدأْتُ أفهم بعض الأمور التى تحدث عنها إفينج. لم يستغرق الأمر كثيرا لأعجب بالجغرافيا (يعجب الجميع بها)، لكن هذه الأرض الشاسعة الخالية بدأتْ تؤثر على إحساسى بالزمن. بدا أن الحاضر لم يعد يحمل أى نتائج متماثلة. كانت الدقائق والساعات أقل من أن تقاس فى هذا المكان. بمجرد أن تفتح عينيك على ما حولك، ترغم على التفكير بالقرون، لتفهم آلاف السنين فيما لا يزيد عن ثانية. للمرة الأولى فى حياتى، أشعر بالأرض كوكبا يدور فى السماوات. اكتشفْتُ أنها ليست كبيرة، إنها صغيرة- مجهرية تقريبا. من بين كل ما فى الكون، ليس هناك أصغر من الأرض.

وجدْتُ نفسى فى غرفة فى نزل "كوم ريدج" فى بلدة "بلف"، وعلى مدى الشهر

التالى كنت أقضى أيامى فى استكشاف الريف المحيط. تسلقْتُ صخورا، جست فى الفواصل الصخرية بين الوديان، وقطعت مئات الأميال فى السيارة. اكتشفت أثناء ذلك الكثير من الكهوف، لكن ليس منها ما يحمل علامات على أنه كان مأهولا. ومع ذلك كنت سعيدا فى تلك الأسابيع، مرحًا غالبا فى وحدتى. لأتجنب المواجهات الكريهة مع أهل بلف، أبقيت على شعرى قصيرا، وبدا أنهم ربما قبلوا القصة التى قدمتها لهم عن أنى طالب دراسات عليا فى الجيولوجيا لأدفع أى شكوك. دون خطط سوى مواصلة البحث، كان يمكن أن أقضى شهورا أكثر بهذه الطريقة، أتناول الإفطار كل صباح فى "مطبخ سالى"، ثم أتسكع فى البرارى حتى يحل الظلام. ومع ذلك، سرت بالسيارة ذات يوم أبعد من المعتاد، مجتازا وادى "مونومنت" إلى مركز تجارى "نافاهو" فى "أوليتو". والكلمة معناها "قمر فى المياه"، وكانت كافية فى ذاتها لتجذبنى، لكن شخصا ما فى بلف أخبرنى بأن من يديران المركز التجارى، مستر ومسز سميث، يعرفان عن تاريخ البلاد بقدر ما يعرف أى شخص آخر على مدى أميال من حولى. كانت مسز سميث حفيدة "كيت كارسون" أو ابنة حفيدته، وكان المنزل الذى تعيش فيه هى وزوجها مملوءًا ببطاطين نافاهو وآنية فخارية، مجموعة تشبه المتحف من المصنوعات الهندية. قضيْتُ معهما ساعتين، أشرب شايا فى برودة غرفة معيشتهما المظلمة، وحين وجدت فى النهاية لحظة مناسبة لأسألهما إن كانا قد سمعا عن رجل اسمه "جورج بشع الفم"، هز الاثنان رأسيهما وقالا لا. سألْتُ: وماذا عن الإخوة جريشام؟ هل سمعتما عنهم؟ قال مستر سميث: أوه، بالتأكيد، كانت عصابة من الخارجين على القانون، اختفت منذ حوالى خمسين سنة. "بيرت" و"فرانك" و"هارلان"، آخر لصوص قطار "وايلد ويست". سألْتُ: ألم يكن لهم مخبأ فى مكان ما؟ محاولا أن أغطى لهفتى. أخبرنى شخص ما ذات يوم عن كهف كانوا يعيشون فيه، أظن أنه فى الجبال. قال مستر سميث: أعتقد أنك على حق، سمعْتُ أنا نفسى شخصا يتحدث عنه. يفترض أنه فى حى "جسر قوس قزح". سألْتُ: هل تعتقد أن من المحتمل أن أعثر عليه؟ ربما كان، همهم مستر سميث، ربما كان، لكنك لا تعرف أين تبحث عنه الآن. سألْتُ: لماذا؟ أجاب: بحيرة "بويل". المنطقة كلها تحت المياه. غمرتها المياه منذ عامين. إلى أن تحصل على معدات غوص فى البحار العميقة، ليس من المحتمل أن تعثر على أى شىء.

استسلمْتُ بعد ذلك. فى اللحظة التى نطق فيها مستر سميث بهذه الكلمات، عرفت أن الاستمرار لا فائدة منه. كنت أعرف دائما أن علىَّ أن أتوقف عاجلا أو آجلا، لكننى لم أتخيل قط أن أتوقف فجأة بهذا الشكل، بهذه النهاية المدمرة. كنت قد بدأْتُ للتو، أستعد لغايتى، ولم يتبق لى ما أفعله. عدْتُ بالسيارة إلى "بلف"، قضيْتُ ليلة أخيرة فى النزل، وغادرْتُ فى صباح اليوم التالى. من هناك ذهبْتُ إلى بحيرة بويل، رغبة فى إلقاء نظرة مباشرة على المياه التى حطمت خططى الجميلة، لكننى لم أشعر بغضب تجاه البحيرة. استأجرت زورقا آليا وقضيْتُ اليوم كله أطوف فوق المياه، وأنا أحاول التفكير فيما أفعله بعد ذلك. كانت مشكلة قديمة بالنسبة لى، لكن إحساسى بالهزيمة كان هائلا بدرجة حالت دون التفكير فى أى شىء. ولم أتوصل إلى قرار إلا بعد أن أعدت القارب إلى كوخ التأجير وبدأْتُ البحث عن سيارتى، اتخذته فجأة دون تفكير.

لم تكن البونتياك موجودة فى أى مكان. بحثْتُ عنها فى كل مكان، لكن بمجرد أن أدركْتُ أنها ليست حيث تركتها، عرفْتُ أنها سُرِقتْ. كانت حقيبة الظهر معى وألف وخمسمائة دولار فى شيكات سياحية، لكن بقية النقود فى الشاحنة– أكثر من عشرة آلاف دولار نقدا، ميراثى كله، كل ما أملك فى الدنيا.

سرت إلى بداية الطريق على أمل أن أجد من أركب معه، لكن لم تتوقف أى سيارة. لعنتهم جميعا وهم يمرون، صائحا بكلام بذيء فى كل من يمضى بى مسرعا. حل المساء، وحين استمر حظى السيئ على الطريق السريع الرئيسى، لم يكن أمامى سوى أن أمشى إلى ميرمية وأعثر على مكان أقضى الليل فيه. كنت مذهولا جدا لاختفاء السيارة، لم أفكر قط فى إبلاغ البوليس. وحين استيقظت فى صباح اليوم التالى، مرتجفا من البرد، خطر ببالى أن السرقة لم يقترفها رجال. إنها مزحة من الآلهة، عمل لمكر سماوى هدفه الوحيد أن يحطمنى.

بدأْتُ السير. شعرت بغضب شديد وإهانة شديدة نتيجة ما حدث لى، حتى إننى لم أرفع إبهامى لأطلب توصيلة. سرْتُ طوال ذلك اليوم، من شروق الشمس إلى غروبها، أسير كأننى أسعى إلى عقاب الأرض تحت قدمى. فى اليوم التالى فعلْتُ الشىء نفسه

مرة أخرى. واليوم الذى بعده. ثم اليوم الذى بعده. على مدى الشهور الثلاثة التالية، واصلْتُ السير، متجها ببطء إلى الغرب، متوقفا فى البلدات الصغير ليوم أو اثنين ثم أواصل السير، وأنام فى الحقول المفتوحة، وفى الكهوف، وفى القنوات على جانب الطريق. فى أول أسبوعين، كنت مثل شخص أصابه برق، رعدْتُ فى أعماقى، بكيْتُ، عويت مثل مجنون، لكن تدريجيا، بدا أن الغضب احترق، واستقر بى الحالى فى إيقاع خطواتى. كنت أنتعل حذاء بعد الآخر. فى نهاية الشهر الأول، بدأْتُ تدريجيا أتحدث إلى الناس مرة أخرى. وبعد بضعة أيام، اشتريت علبة سيجار، وكل ليلة بعد ذلك كنت أدخن سيجارا على شرف أبى. فى "فالنتاين"، فى أريزونا، أغوتنى نادلة بدينة اسمها "بِجْ" فى مطعم خال على حافة البلدة، وانتهى بى الأمر إلى الإقامة معها عشرة أيام أو اثنى عشر يوما. فى "نيلدلز"، فى كاليفورنيا، التوى كاحلى الأيسر ولم أستطع السير عليه لمدة أسبوع، لكن باستثناء ذلك كنت أسير دون توقف، متجها إلى المحيط الهادئ، مدفوعا إليه بإحساس متنامٍ بالسعادة. بمجرد وصولى إلى نهاية القارة، شعرْتُ وكأن مسألة مهمة قد حلت من أجلى. لم تكن لدى فكرة عن المسألة، لكن الإجابة تشكلت بالفعل فى خطواتى، وعلىَّ فقط أن أواصل السير لأعرف ما تركْتُه خلفى، وأننى لم أعد الشخص الذى كان ذات يوم.

اشتريت خامس حذاء فى مكان اسمه بحيرة "إلسينور" فى ٣ يناير ١٩٧٢, بعد ثلاثة أيام، منهكا تماما، تسلقت الهضاب فى بلدة "لاجونا بيتش" وفى جيبى أربعمائة وثلاثة عشر دولارا. كنت أستطيع بالفعل رؤية المحيط من النتوء، لكننى واصلت السير حتى وصلت إلى المياه. كانت الساعة الرابعة عصرا حين خلعت الحذاء وشعرت بالرمال تلامس أخمص قدمى. وصلْتُ إلى نهاية العالم، ولا يوجد بعده سوى الهواء والأمواج، خلاء يمضى بجلاء إلى شواطئ الصين. قلْتُ لنفسى: من هنا أبدأ، من هنا تبدأ حياتى.

وقفْتُ على الشاطئ وقتا طويلا، منتظرا أن يتلاشى آخر شعاع من الشمس. خلفى، كانت البلدة منهمكة فى شئونها، صانعة الصخب الأمريكى المألوف فى نهاية القرن. وأنا أتطلع إلى منحنى الشاطئ، رأيت أضواء المنازل تضاء، واحدا بعد الآخر.

ثم سطع القمر خلف التلال. كان بدرا، مستديرا وأصفر مثل حجر محترق. أبقيت عينى عليه وهو يرتفع فى سماء الليل، ولم أستدر حتى وجد مكانه فى الظلام.

المؤلف فى سطور:

بول أوستر

روائى وشاعر أمريكى، من أصول بولندية. ولد فى ٣ فبراير ١٩٤٧، بعد تخرجه فى جامعة كولومبيا انتقل إلى باريس فى ١٩٧٠؛ حيث ؛عمل مترجما للأدب الفرنسى حتى عودته إلى أمريكا فى ١٩٧٤. وفى تلك الفترة نشر شعرا ومقالات وقصصا وترجمات لكتاب فرنسيين. حصل أوستر على عدد كبير من الجوائز.

ومن أشهر أعماله "ثلاثية نيويورك" (١٩٨٧)، "قصر القمر" (١٩٨٩)، "موسيقى الصدفة" (١٩٩٠)، "مستر فيرتيجو" (١٩٩٤)، " تيمبوكتو" (١٩٩٩)، " كتاب الأوهام" (٢٠٠٢)، حمقى بروكلين" (٢٠٠٥).

المُترجِم في سطور:

الشاعر عبد المقصود عبد الكريم

من مواليد قرية "طنامل" بمحافظة الدقهلية، أول يونيو ١٩٥٦ .

استشارى الطب النفسى والأعصاب.

من أهم أعماله:

*** الشعر:**

– أزدحم بالممالك: أصوات، ١٩٨٠

– أزدحم بالممالك (١٩٨٨): الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢

– يهبط الحلم بصاحبه: هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٣، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٧

– للعبد ديار وراحلة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠١

– نسخة زائفة: تحت الطبع

– يوميات العبد على حافة بئر الأميرة: تحت الطبع.

*** الترجمة:**

– فنتازيا الغريزة د.هـ لورانس: دار الهلال، ١٩٩٣.

– الحكمة والجنون والحماقة، ديفيد روبرت لانج: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦.

– نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، بشبندر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦. طبعة ثانية، مكتبة الأسرة ٢٠٠٥.

– قصر الضحك، زيجنيف: هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٧.

– جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى، مجموعة من المؤلفين، إعداد وترجمة : المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩.

- الرجل البطيء، كوتسي: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الجوائز، ٢٠٠٧.

- أسطنبول: المدينة والذكريات، أورهان باموق: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الجوائز، ٢٠٠٨.

- إليزابيث كستلو، كوتسي: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الجوائز، ٢٠٠٨.

- العار، كوتسي: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الجوائز، ٢٠٠٩.

- أنا أورهان والي، مختارات من شعر أورهان والي: سلسلة آفاق عالمية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩.

- القصر الزجاجي، أميتاف جوش: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩.

- فرويد وبروست ولاكان، مالكولم بوى: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩.

- أفكار شكسبير، أشياء أخرى في السماء والأرض، دفيفد بفينجتون: دار آفاق بالتعاون مع المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠.

- الجاذبية المميتة، سوزان ليونارد: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠.

- داى، أ.ل. كيندى، سلسلة الجوائز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

- الإعداد والانتحال، جولى ساندرز، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠.

- على ونينو، رواية، قربان سعيد، سلسلة آفاق عالمية، ٢٠١٠.

- فضائح الترجمة. لورانس فينتى، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠.

- الشخصية واضطرابات الشخصية والعنف، تحرير: مارى ماكموران وريتشارد هوارد، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢.

- البحث عن الوعي، كريستوف كوتش، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢.

- داى، سلسلة الجوائز ٢٠١٠.

- القصص الفائزة بجائزة أوه هنرى عام ٢٠٠٧، ٢٠١١، سلسلة الجوائز، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- تغير المناخ:

- اسمى مينا: تحت الطبع

- ملايين: تحت الطبع.

- محيط أوليف: تحت الطبع.

- ستيف جوبز: تحت الطبع.

- جسد المرأة، كمال المرأة، فدوى مالطى دوجلاس، تحت الطبع.

- التفرد والنرجسية، ماريو جاكوبى: تحت الطبع.

- فيرونيكا قررت أن تموت، رواية، بابلو كويلو، تحت الطبع.

- مختارات شعرية ، مايا أنجلو ، تحت الطبع .

- مختارات من الشعر الأمريكى، ألسن جنسبرج وآخرون، تحت الطبع.

* الدراسة :

جماليات الحلم والنسيان: دراسة فى الحلم والشعر، تحت الطبع.

التصحيح اللغوى: سماح حامد
الإشراف الفنى: حسن كامل

بطل الرواية، ماركو ستانلى فُجّ، شاب فى ستينيات القرن العشرين، يسعى بدأب للبحث عن مفاتيح ماضيه، عن إجابات للغز مصيره. يواجه ماركو فى رحلته، من أودية مانهاتن فى نيويورك إلى صحارى ولاية يوتا فى الغرب الأمريكى، مجموعة من الشخصيات والأحداث الثرية والمدهشة.

تبدأ "قصر القمر" فى الصيف الذى هبط فيه الإنسان على سطح القمر، متنقلة بين الماضى والمستقبل، تحركها الصدفة والذاكرة. تسطع الرواية بومضات مذهلة من الشعرية والحكمة. إنها رواية ممتعة ومؤثرة، من نبع مؤلف معروف بمخيلته المدهشة. وكما يقول دون ديليو: "إنه كاتب تسطع أعماله بالذكاء والأصالة... يدمج الظواهر المعاصرة ببواطن القرن التاسع عشر... ويوظف تقنيات الحكى فى خدمة رواية حديثة جدا."

تصميم الغلاف: عصام عبد الرحمن